ماذا تبقى من غيڤارا؟

د. مسعد عربيد

الكتاب: ماذا تبقى من غيڤارا؟
الكاتب: د. مسعد عربيد
الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575
فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

عربيد ، د. مسعد
ماذا تبقى من غيڤارا؟ ، راهنية فكره وإرثه في القرن الحادي والعشرين / د. مسعد عربيد
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
.. ص، .. سم.
الترقيم الدولى: 8 – 461 – 446– 977– 978
أ – العنوان رقم الإيداع : 13443 / 2017

ماذا تبقى من غيڤارا؟



الإهداء

عبر حياتي وخلال سنوات عملي في هذا الكتاب، ثلاثة ظلوا حاضرين:

جويس .. شريكة عمري التي أضاءت بروحها وحبها درب الأمل .

عادل سمارة.. الذي ظل ضميراً نابضاً وشعلة مضيئة في عتمة المرحلة، والذي يظل حاضراً حتى في بعاده.

الراحل رودف تلكي.. رفيقاً وصديقاً وسنداً، ما فتأت ذكراه تنير أيامي.

إليهم أهدي هذا الكتاب.

تقديم

كتبت على مدى السنوات الأخيرة وفي أوقات متباعدة العديد من الدراسات التي تناولت فكر تشي غيفارا وإرثه الثوري. غير أن فكرة هذا الكتاب لم تراودني آنذاك ولم يكن الأمر عندي يتجاوز دراسات قصدتُ منها تنوير الوعي العربي بفكر هذا الثائر وإرثه.

ثم جاءت انتفاضات الشعوب العربية والأحداث الساخنة في بلادنا التي تلت انتفاضة شعب تونس في ديسمبر 2010، لتشير إلى مقدار التخريب والتشوية اللذين حلاّ بالوعي العربي وحالة الضياع وغياب/ تغييب المنطلقات الفكرية والثورية الأساسية للثورة والتغيير التي جسّدها تشي غيفارا وغيره من المفكرين الثوريين. كان هذا من أهم ما دفعني إلى هذه الكتابة، بالإضافة إلى ما يمثله غيفارا من نهج ثوري في التغيير، تغيير الواقع المتردي والمرفوض، وهو ما نحن بأمس الحاجة إليه.

أخذت فكرة هذا الكتاب تراودني إذ لمستُ افتقار المكتبة العربية المزمن للكتب والأعمال التي تتناول هذا الثائر بعد مرور عقود على استشهاده، مقابل زخم اللغات الأخرى بالأدبيات والكتب والكتابات والمواقع الإلكترونية التي تكاد تتخصص بتشي غيفارا. ويمكننا القول، على وجه التعميم، إن المكتبة العربية تفتقر إلى

الكتب والدراسات التي تعالج فكر غيفارا في الثورة والسياسة والاقتصاد والمجتمع، وإن ما يتوفر لدينا يسرد في كثير من الأحيان مسيرته النضالية وومضات خاطفة من فكره الثوري أو ترجمة بعض أعماله وكتاباته، فيما بقي فكره الثوري ورؤيته في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والاشتراكية، مقتصرة على قلة من الدراسات والبحوث.

من هنا جاءت فكرة متابعة البحث واستكمال مشروع الكتاب، وعشتُ، منذ ذلك الحين، مع فكرة هذا المشروع إذ أيقنتُ أن فهم فكر غيفارا وقدوته الثورية، كونه يجسد مصالح وتطلعات الفقراء في العالم، سيساهم في تنمية الوعي الشعبي العربي ويسد فراغاً خصوصاً لدى الجيل الناشئ.

***

توخيت في هذا العمل تقديم قراءة متجددة لفكر تشي غيفارا وإرثه ضمن سياقه التاريخي، قراءة تسترشد بالواقع المستجد للشعوب وطبقاتها الشعبية ومصالحها ونضالاتها، وتنطلق أساساً من عملية الثورة من أجل حل التناقضات المحتدمة والتي تتمثل في استفحال الفقر والظلم والاستغلال في أغلبية مجتمعات العالم. فالبحث عن غيفارا وفيه هو في الجوهر بحث عن تغيير الواقع المؤلم والمرفوض. بعبارة أخرى، أردتُ أن أقدم للجيل الناشئ قراءةً كفيلة بان تُخرج غيفارا وفكره وإرثه من فخ "الموضا" والأيقنة، ليدخل حيز الوعي الشعبي بغية إرشاده وتثويره، وهي في رأيي مهمة أولية وتأسيسية في خلق وبناء العامل الذاتي في مجتمعاتنا، وضمانة

لاستنارة الفعل الجماهيري بالفكر الثوري وتسلحه بالنظرية الثورية وإفادته من تجارب الشعوب الأخرى. وبكلام أوضح ما توخيته هو تقديم قراءة قادرة على التأسيس لوعي نقدي يقوم على ركيزتين:

الأولى: إن التناقض الرئيس الذي يحكم العالم اليوم ما زال هو ذاته لم يتغير في الجوهر: تناقض بين الرأسمالية واستغلالها ووحشية إمبرياليتها ونهبها لثروات الشعوب من جهة، ومصالح الشعوب ومستقبل الإنسانية من جهة أخرى.

والثانية: الوعي بحتمية التغيير عن طريق الثورة والمقاومة بكافة أشكالها كشرط لإنجاز المشروع الثوري بانسجام بين الأفكار الحيّة من جهة، والأفعال المتدفقة بالطاقة والزخم، من جهة أخرى. هذا الوعي بضرورة التغيير، هو الذي يزيد من قدرة الإنسان وطاقته ويَحثه على متابعة النضال ومضاعفة الجهود بما لا يقاس. وفي هذا كله كان تشي غيفارا أنصع نموذج وخير مثال.

***

حاولت في شتّى فصول الكتاب ومحطاته، أن أقدم غيفارا وفكره بالقدر المستطاع والمطلوب من الموضوعية، وبالقدر نفسه حاذرتُ إطلاق الأحكام (من بعيد) بالنجاح أو الفشل في التعاطي مع أفكاره ومواقفه ومشاريعه تاركاً للتاريخ وسياق الواقع أن يقولا الكلمة الفصل.

غير أن الكتابة عن غيفارا وغيره من روّاد الثورة والتغيير في التاريخ البشري لا يمكن أن تكون حيادية، أو أن تكون سرداً تاريخياً

أو بحثاً أكاديمياً بارداً وخالياً من موقف الكاتب ذاته وتفاعله، بل على العكس من ذلك، ليس بوسع الكاتب أن يتفادى التقييم السياسي والأيديولوجي والأخلاقي طالما أن موضوع الكتابة هو نضال الثائر لتغيير الإنسان والمجتمع بل وواقع البشرية ومستقبلها. بالطبع لا أقصد القول بأن تشي غيڤارا ومجمل الحركات الشيوعية هي الوحيدة التي تولت مهام التغيير الثوري في التاريخ، ولكنها كانت بالمطلق أهم هذه المحاولات وأعمقها تأثيراً.

من هذا المنطلق تكون الكتابة في جوهرها انحيازاً للحقيقة وللجانب الصحيح في التاريخ، ووقوفاً مع الجماهير ومصالحها، ولا يعود بالإمكان ادعاء الموضوعية والتخفي وراء الحيادية، بل يصبح من المطلوب الوقوف الحاسم والواضح مع الفكر الثوري.

***

يتضمن الكتاب سبعة وأربعين فصلاً وزعتها على سبعة أقسام تلقي إضاءات على فكر تشي غيڤارا السياسي . الاقتصادي ونضاله الثوري في سياق تجربته في الثورة الكوبية وبناء الاشتراكية، ومعترك تقييمه ونقده لنمط الإنتاج السوفييتي وسياسات الاتحاد السوفييتي، مروراً بسعية وراء الثورة الأممية في الكونغو أولاً ثم في أدغال بوليفيا حيث استشهد.

قدّمت في القسم الأول تصوري لمدخل منهجي في قراءة غيڤارا وعرضت في أربعة فصول راهنية فكره وإرثه في سياق الأوضاع الراهنة في عالمنا اليوم وتناقضاته.

أما في القسم الثاني والمعنون "النشأة والتكوين الثوري" فقد رصدت العوامل الذاتية والموضوعية والمؤثرات الفكرية والسياسية التي ساهمت في تكوين غيفارا المفكر والثائر. ومن خلال رحلات غيفارا وأسفاره في بلدان أميركا اللاتينية، وذلك قبل التحاقه بالثوار الكوبيين بقيادة فيدل كاسترو، سلطّتُ الضوء على الدور المهم وربما الحاسم الذي لعبته هذه الأسفار في صقل شخصيته وتكوينه، والأهم في تحديد مسيرة حياته والعثور على القضية التي كان ينشدها: الثورة ضد الظلم والاستغلال والذود عن الفقراء والمضطَهَدين.

في القسم الثالث من الكتاب، وتحت عنوان "فكر ومواقف" توقفتُ عند الركائز الأساسية لفكر تشي غيفارا مستهلاً بفصلٍ يقدم نظرة عامة على أطروحاته ومواقفه قبل أن ألج في الفصول اللاحقة إلى مناقشة بشيء من التفصيل الأركان الرئيسة لفكره وأهمها: التغيير: ثورة أم إصلاح؟ الرأسمالية والإمبريالية العدو الرئيس للشعوب، مركزية المقاومة في فكره، أطروحة الكفاح المسلح وحرب الغوّار، مفهوم الوعي الجديد عند غيفارا، جدل الحوافز المادية والمعنوية، "الإنسان الجديد"، البحث عن البديل الاشتراكي، الشيوعية والأخلاقية وخصوصية أميركا اللاتينية في فكره ونضاله.

يركز القسم الرابع على نقد تشي غيفارا للاتحاد السوفييتي (آنذاك) وسياساته الداخلية والخارجية. وقد احتلت فصول هذا القسم حيزاً مهماً من الكتاب لأهميتها في تطور غيفارا الفكري والثوري حيث انطلق من نقد السياسات السوفيتية إلى رفضه

لمحاكاة التجربة الاشتراكية السوفييتية، ما يعني رفضه لنمط الإنتاج السوفييتي والسياسات الاقتصادية والاجتماعية التي اتبعها السوفييت في بناء الاشتراكية، وفرضها على المشروع الاشتراكي في كوبا أو بلدان أخرى خصوصاً بلدان العالم الثالث.

من هذه المنطلقات انتقل غيڤارا إلى ربط نقده للسياسات الداخلية (الإنتاجية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية) بالسياسة الخارجية والدولية للاتحاد السوفييتي وخاصة علاقاته مع البلدان الاشتراكية الأخرى وحركات التحرر في العالم الثالث من جهة، والإمبريالية الأميركية وسياسة التعايش السلمي بين المعسكرين - الاشتراكي والرأسمالي، من جهة أخرى.

هنا يصل القارئ إلى الدلالات العميقة والبعيدة الأثر التي تضمنها نقد غيڤارا للسياسات السوفييتية وراهنيتها (الدلالات) في الأوضاع الدولية والنضال الأممي ضد الرأسمالية والإمبريالية في عصر غيڤارا كما في يومنا هذا، وفي البحث عن بديل اشتراكي للبشرية ومستقبلها.

يتضمن هذا القسم أربعة عشر فصلاً تناولتُ فيها أبعاد النقد الغيفاري للسوڤييت وتراوحتْ عناوينها بين مدخل لفهم نقد غيڤارا للاقتصاد السوڤييتي إلى الخلاف حول "السياسة الاقتصادية الجديدة" (نيب)، وشرح الاختلافات بين الحالتين الروسية والكوبية، وغيرها العديد من القضايا الاقتصادية (قانون القيمة، ملكية الأرض وملكية وسائل الإنتاج، نقد المزارع التعاونية السوفيتية (الكولخوزات)، العلاقات الطبقية والصراع الطبقي،

قضايا البناء الاشتراكي، وصولاً إلى مواقف السوفييت من الرأسمالية والإمبريالية وأكذوبة التعايش السلمي، والعلاقات مع الدول الاشتراكية والنزاع الصيني - السوفييتي.

عالجتُ في القسم الخامس ما تعرض له تشي غيفارا من نقد: سواء كان نقداً ثورياً وإيجابياً، أو محاولات خبيثة ورخيصة للتشهير والتشويه والبروباغندا الرأسمالية والإمبريالية. وقد أفردتُ في هذا القسم فصلاً تحت عنوان: "تشي غيفارا: أيقونة أم ثائر أممي"، ضمنته تقييماً لمحاولات "أيقنة" غيفارا سعياً وراء تفريغ المضمون الثوري لفكره ونضاله. كما أفردتُ فصلاً آخر لمناقشة العلاقة بين تشي غيفارا وفيدل كاسترو والإشاعات حول الخلاف بينهما والادعاء "بتخلي" كاسترو عن غيفارا.

في هذا الصدد سيلحظ القارئ، وهو ما يتطلب القراءة بعين حذرة، أن مفكري وثوّار التجارب الشيوعية في القرن العشرين، سواء في الثورة البلشفية أو الصينية أو الكوبية على سبيل المثال، هم الذين يتعرضون لأشد أشكال النقد والتجريح والتشويه، فلا غرابة إذن أن يكون غيفارا من أهم ضحايا هذا النهج.

أما في القسم السادس، فقد تطرقتُ إلى دراسة غيفارا، فكراً وإرثاً، من منظور راهنيته في أوضاع شعوبنا العربية مع التركيز على مسألة الوعي الشعبي والجمعي العربي وما حلّ به من تخريب وتشويه، ودوره في التمهيد لبناء مشروع الثورة والتغيير في الواقع العربي، وهي المسألة (مسالة الوعي) التي أولاها غيفارا اهتماماً قلّ نظيره.

اختتمت الكتاب بقسم "ماذا تبقى من تشي غيڤارا؟" والذي تضمن قضايا قد يراها كثيرون خلافية من حيث أنها تعالج التحديات التي يواجهها فكر غيڤارا في الوطن العربي والعالم بشكل عام، ولعلها ذات التحديات التي يواجهه أي فكر ثوري.

***

في محطّات عدة من هذا الكتاب، سيقف القارئ أمام السؤال الذي حيّر الكثيرين: ما الذي دفع إرنستو غيڤارا، الطبيب الأرجنتيني من أصول الطبقة الوسطى، إلى درب الثورة والشهادة؟ ما الذي حدى به إلى التنازل عن فرص الحياة الرغيدة والتضحية بكل شيء؟

آمل أن أكون قد وُفقت بتقديم بعض الإجابة في ثنايا هذا الكتاب، وهي أن غيڤارا وأمثاله من الثوريين يعيشون ويموتون من أجل مبادئهم وأفكارهم وقضيتهم التي يؤمنون بها. وهذه القضية والنضال في سبيلها هي التي غيّرت مجرى التاريخ وأحدثت التغييرات الجذرية في المجتمعات البشرية منذ وعى الإنسان ذاته ومعاناته وبيئته ومنذ أن لمس الظلم والاضطهاد وثار عليهما.

أود في الختام أن أشير إلى أن هدف الكتاب لم يكن سرد سيرة غيڤارا، مع أنه يجمع بين دفتيه عناصر كثيرة من هذه السيرة ويتوقف عندها كلما دعت الحاجة لشرح فكره أطروحاته.

قد يتضمن الكتاب بحوثاً ليست بجديدة على القارئ العربي، وأخرى تفتقر إليها المكتبة العربية، وفي هذا كله يحدوني

الأمل ألاّ يخلو الكتاب من إضافة هامة ومساهمة متواضعة للإضاءة على تشي غيڤارا وفكره.

مسعد عربيد

كانون الثاني (يناير) 2017

كاليفورنيا، الولايات المتحدة

ثبت ببعض المصطلحات والأعلام

الهجوم على قاعدة المونكادا La Moncada

(26 يوليو 1953)

تقع هذه الثكنة العسكرية في جنوب كوبا، وفي محاولة للإطاحة بنظام الدكتاتور الكوبي باتيستا، قامت يوم 26 يوليو 1953 مجموعة من الثوار الكوبيين بقيادة الزعيم الكوبي فيدل كاسترو وأخيه راؤول بالهجوم على هذه الثكنة.

باءت هذه المحاولة بالفشل مما أدى إلى اعتقال الثوّار. وقد أطلق على هذه الحركة اسم "حركة 26 يوليو" وهي ذات الحركة التي أعدّت للثورة الكوبية عام 1956 بعد إطلاق سراح المعتقلين وتجمعهم في المكسيك حيث قاموا بالتدريب على الكفاح المسلح وتنظيم الثورة في أدغال كوبا. وقد أعادت حركة 26 يوليو الكرة عام 1956 بقيادة كاسترو لتنتصر على الديكتاتور الكوبي باتيستا وتقيم حكم الثورة في الأول من يناير 1959.

"الجدل الكبير" في كوبا El Gran Debate

(1964-1963)

تميزت فترة "الجدل الكبير" في كوبا والتي امتدت على مدى عامي 1963 و 1964، بمعارك فكرية حادة احتدم فيها النقاش حول قضايا البناء الاشتراكي عامة وفي كوبا خاصة، ومن أهم هذه القضايا: استخدام الحوافز من أجل رفع الكفاءة والنجاعة والإنتاجية، تطوير الوعي الاشتراكي، قانون القيمة ودوره في مرحلة البناء الاشتراكي، واستخدام الآليات الرأسمالية في مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية فالشيوعية.

قدّم غيڤارا، في إطار هذا الجدل العديد من الأفكار في سياق البحث عن درب جديد في البناء الاشتراكي شكّلت جزءًا متكاملاً من ذلك الجدل وتلك المرحلة، كما خاض العديد من هذه المعارك من أجل الحفاظ على خصوصيات كوبا ومناهضة محاكاة النمط السوفييتي في الإنتاج والاقتصاد. وقد تركت مساهمات غيڤارا هذه آثاراً عميقة على بناء الاشتراكية في كوبا وإغناء النظرية الثورية. ومن الناحية الثانية، لعبت هذه التجربة والأفكار التي طرحها خلال "الجدل الكبير"، دوراً كبيراً في تكوين غيڤارا الفكري وصقل نظريته.

لقيت أفكار غيڤارا خلال هذا الجدل الكثير من الاهتمام وكانت مثاراً للنقاش والتقييم سلباً وإيجاباً، وكانت عرضة للنقد كما كانت في الآن ذاته مدعاة للتأييد.

نظام "التمويل عن طريق الميزانية"

في ظل هذا النظام تقوم عملية الإنتاج في وحدات إنتاجية (أو مؤسسات أو شركات) منتظمة في مؤسسات حسب التخصص الصناعي، ويكون تمويل هذه الوحدات مركزياً وكذلك ضبط وظيفتها وأدائها، وهو ما يؤكد خيار دور الدولة لا خيار مدير الشركة أو الوحدة الإنتاجية.

نظام "التمويل الذاتي"

تُعتبر كل وحدة إنتاجية، وفق هذا النظام الذي اعتمده السوڤييت، كياناً ذا هوية قانونية مستقلة وتكون هذه الوحدة المسؤولة عن تمويل ذاتها.

دعا غيڤارا إلى استخدام نظام"التمويل عن طريق الميزانية" في كوبا، وعارض "نظام التمويل الذاتي" الذي استخدمه السوڤييت في نظامهم الاقتصادي، واعتبر "التمويل عن طريق الميزانية" ركيزة أساسية لفكره الاقتصادي.

نشأة الحزب الشيوعي الكوبي

التأم، في يوليو 1961، شمل حركة 26 يوليو (الكاسترويون) والحزب الاشتراكي الشعبي (الكوبي) بالإضافة إلى قوى حزبية أخرى وأعلنوا

توحيد أطرهم التنظيمية فيما أسموه المنظمات الثورية المتحدة (المندمجة) Organizaciones Revolucionares Integrados، ثم تغير اسم الحزب لاحقاً ليصبح الحزب الموحد للثورة الاشتراكية Unido de Revolucion Socialita Partido. في عام 1965 اتخذ الحزب رسمياً اسم الحزب الشيوعي الكوبي PCC.

المُوَلَدون (أو المُهَجَنون) Mestizo و Mulato

استخدم مصطلح والمُوَلَدين (أو المهجنين) (وهو ما يسمى في أميركا اللاتينية ب *Mestizo*) للتدليل على شخص مولود لوالدين أحدهم من أصل أوروبي والآخر من الهنود الحمر - سكان أميركا الأصلانيون. أما مصطلح *Mulato* فيشير إلى الشخص المولود لوالدين أحدهم أبيض (من أصول أوروبية) والآخر أسود (من أصول أفريقية).

التنمية بالحماية الشعبية

مفهوم تنموي ونمط في التنمية الاقتصادية والاجتماعية طوّره المفكر العربي عادل سمارة، وهو مُستوحَى من النشاط الاقتصادي المجتمعي الفلسطيني في فترة الانتفاضة الأولى 1987 بما هو مقاومة لاقتصاد الاستعمار الاستيطاني الصهيوني. هو موديل بدأ بمقاطعة اقتصاد الاحتلال على مستويَيْ العمل والاستهلاك، وهذا بدأه العمال الفلسطينيون الذين كانوا يعملون في اقتصاد العدو، وهي مقاطعة اتسعت لتشمل معظم المجتمع باستثناء البرجوازية

الطفيلية والكمبرادورية والتي تعيش على وكالة استيراد السلع الأجنبية وتؤمن بالاستهلاك المظهري. وقد اتضح أن هذا البرادايم الشعبي عملي وفعال وصل في فترة معينة إلى ضرورة تبني قيادة منظمة التحرير الفلسطينية له، لكن هذه القيادة كانت منشغلة في تسخير الانتفاضة لاستجلاب "استقلال سياسي" وهو ما تجلى لاحقاً باتفاق أوسلو عام 1993.

خوسي مارتي

يُعتبر *Jose Marti* البطل الوطني لكوبا. وُلد في هافانا يوم 28 يناير 1853، واستشهد في 19 مايو 1895 في معركة ضد الاستعمار الإسباني. كان ثائراً وكاتباً وفيلسوفاً وشاعراً، ذا نتاج ثوري وفلسفي وأدبي كبير.

أرماندو هارت

وُلد أرما ندو هارت في هافانا عام 1930، وهو أحد قادة الثورة الكوبية. قبل الثورة، درس الحقوق في جامعة هافانا وانضم إلى حركة 26 يوليو بقيادة كاسترو، وأصبح واحداً من كبار قادة الثورة في المدن فيما خاض فيدل وأخوه راؤول كاسترو وتشي غيفارا الكفاح المسلح في أدغال كوبا. بعد انتصار الثورة الكوبية، أصبح هارت أول وزير للتربية والتعليم في الحكومة الثورية الكوبية، ثم عمل وزيراً الثقافة (1976-1997) وعضوا في المكتب السياسي

للحزب الشيوعي الكوبي. دافع في كتاباته عن أفكار ماركس ولينين وكاسترو وتروتسكي، وندد بالأفكار والممارسة الستالينية في مقال عن ستالين نشره عام 2005.

باولو فرير Freire Paulo (1921- 1997)

فيلسوف ومربي برازيلي، يعتبر من كبار روّاد التربية النقدية ومؤسسي البيداغوجيا النقدية وقد تركت أعماله آثاراً عميقة على العملية التربوية للجماهير الفقيرة والمقهورة في العالم الثالث.

القسم الأول

مدخل

الفصل الأول

لماذا هذا الكتاب؟ ولماذا الآن؟

> إن كان هناك في أية بقعة من هذه المعمورة، مَن لم يدرك بعد أن الإمبريالية الأميركية هي عدو الإنسانية الأول، ومَنْ لم ير بأم عينيه أنها (وشقيقاتها الأوروبية) هي ذلك العدو، فإن هذا الكتاب بالنسبة لهؤلاء لن يعدو كونه مضيعة للوقت.

لقد مرّ على استشهاد إرنستو تشي غيڤارا (9 أكتوبر 1967) ما يقارب خمسة عقود. وربما يَخال للمرء، لكثرة ما كتب عنه وقيل فيه، أنه لم يعد هناك ما يسطره القلم في تشي غيڤارا أو ما يمكن إضافته. إلا أن حقيقة الأمر، أنه في حين كثر الحديث حول سيرته الثورية، فإن فكر غيڤارا وإرثه ما زالت تتنازعهما تيارات عديدة: فالبعض يرى فيه الثائر والرومانسي الذي استشهد ليصبح مثالاً للتضحية والإيثار، في حين وجد بعض آخر أن القيمة الكبرى لإرثه تكمن في كونها منهلاً للثورية الأممية وحرب العصابات وثورات العالم الثالث والشعوب المضطَهدة. إلا أن هذه التصورات، على أهميتها، لم تفِ غيڤارا قدره كمفكر ثوري جذري ماركسي.

قدّم مركز دراسات تشي غيڤارا في هافانا والعديد من مراكز الأبحاث ودور النشر والمواقع الإلكترونية، الكثير من المساهمات القيّمة والثرية باللغات الأجنبية وخاصة الإسبانية والإنكليزية، وما

زال أرشيف غيڤارا في العاصمة الكوبية يحتوي على العديد من المخطوطات التي لم ترَ النور بعد. وقد تميز العديد من هذه الدراسات بالرصانة العلمية والبحثية، غير أنه يمكننا القول دون مجافاة الحقيقة إن نزعة الرومانسية والنوستالجيا قد غَلَبت على بعض هذه الكتابات التي، وإن كانت ثورية وتحريضية في جوهرها وطبيعتها، فإنها كثيراً ما تحوّل الثائر والمفكر إلى أيقونة تحجب فكرة السياسي والاقتصادي وقلما تمهد لوعي نقدي بل هي كثيراً ما تكون حجر عثرة في تجديد وتنمية الفكر النقدي. ومن هنا جاءت ضرورة دراسة مساهمات غيڤارا الفكرية والسياسية والاقتصادية، والتي بدونها تتعذر مقاربة فكره ونضاله مع واقع الشعوب وراهنيته في هذه الحقبة من نضالها، وبدونها أيضاً يظل غيڤارا أسيراً للرومانسية والأيقونية، وهما ألد أعداء الفكر الثوري الخلاّق، وهو بالضبط ما يسعى إليه الخطاب الإعلامي الرأسمالي الغربي.

غيڤارا والجيل الناشئ

بقدر معرفتي فإن قلة من الكتابات باللغة العربية أخذت على عاتقها القيام بمهمة دراسة فكر تشي غيڤارا، لذا حاولت في هذا الكتاب أن أقدم إسهاماً متواضعاً آملاً أن يفي ببعض الملامح البارزة لفكره، وبما لا يقل أهمية، للتحديات التي يواجهها هذا الفكر في عالم اليوم. والكتاب عمل مهدى إلى الجيل الناشئ الذي يتوخى قراءة لتشي غيڤارا تتجاوز صورته المعلقة على صدور الشباب وتغوص في فكره وإرثه.

لا شك أن هناك الكثيرين من أبناء الجيل الناشئ في ربوع الوطن العربي والغرب وأميركا اللاتينية والعالم بشكل عام، ممَنْ يرون في غيفارا ثورياً أممياً ورمزاً للكفاح المسلح والثورة الأممية ومثالاً للتضحية بالذات من أجل الشعب والثورة. ومن هنا، نرى أهمية أن يطالع هؤلاء التجارب الثورية وأن يزدادوا معرفة وإلماماً بالسياقات التاريخية والسياسية والاجتماعية لهذه التجارب، وأن يتلمسوا الفروق بين دروب الكفاح المختلفة واستراتيجياتها. وهذه مسألة في غاية الأهمية في الواقع العربي الراهن، بل هي في الجوهر مسألة مفصلية يتوقف عليها نجاح المقاومة والثورة والمشروع التغييري برمته.

تلف غيفارا نزعة رومانسية قد تصبح في بعض الأحيان معيقة للنضال الثوري ومحاربة الرأسمالية والعلاقات الاجتماعية السائدة في ظلها. لذلك كان لا بد، في مرحلة العولمة الرأسمالية، من ترسيخ فكر غيفارا وإرثه في وعي شعوب العالم الثالث والشعوب العربية بوجه خاص. ويأخذنا هذا إلى مهمة تجليس هذا الفكر كمدرسة سياسية ماركسية ثورية تحتل موقعها الطبيعي في نضال الشعوب لتحطيم أغلال الراسمالية وبناء المستقبل الاشتراكي. وفي هذا السياق، أود أن أشير إلى أن فكر غيفارا واحدٌ من منابع الفكر الثوري في القرن العشرين والذي يمثل في جذوره استمراراً للفكر الماركسي وأدبياته المركزية. وإلاّ، فكيف لنا أن نفهم ما آل إليه النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دون "البيان الشيوعي" وحضوره الدائم في تناسخ الأفكار، بل من أين لنا أن نفهم القرن

العشرين بكل ما حفل به من تطورات وتجارب، دون التحليل والدروس التي قدمها لنا ماركس وإنجلز؟

تتوخى قراءة غيفارا، إذن في هذا الكتاب، مراجعة المفاهيم والركائز التي قام عليه فكره وما طرأ عليها من مستجدات. إذ بدون هذه المراجعة النقدية تتعذر المقاربة بين تلك الأفكار وواقع الشعوب الراهن، ويستعصي تعزيز وتجديد ما أتت به ومن أجله. والأمل أن يشكّل إحياء هذا الإرث حافزاً للعودة إلى دراسة الفكر الماركسي كنهج في التحليل وكدليل عمل على ضوء الظروف والخصوصيات المحلية للشعوب والمجتمعات لا كنص جامد يدّعي امتلاك الحقيقة الأزلية.

خلاصة القول، إن مهمة دراسة غيفارا تكمن في قراءة متجددة لفكره ونضاله ضمن سياقه التاريخي حيث تتفاعل جدلية الذاتي والموضوعي، قراءة تسترشد الواقع المستجد للشعوب وواقع طبقاتها الشعبية ومصالحها ونضالاتها.

الفصل الثاني

لماذا الكتابة في غيڤارا وكيف نقرؤه؟

مدخل منهجي

ربما يقول قائلٌ: لماذا الكتابة في غيڤارا؟ ولماذا الآن؟ وآخر يصرُ على أن مثل هذه الكتابة تأتي من باب الحنين الرومانسي إلى ماضٍ لن يعود.

لا شكّ أن الكتابة عن تشي غيڤارا تتسم ببعض التحديات والإشكاليات التي تنبع من كونه شخصية تاريخية وسياسية وثورية خلافية. إلاّ أن الأمر في الحقيقة يصبح واضحاً ومفهوماً إذا ما حسم الكاتب أمره: مِن أي منطلق يكتب، وأي نهج يلتزم، والأهم أية غاية ينشد. فالكتابة في غيڤارا لا تعود إشكالية إذا ما حدد الكاتب موقفه السياسي واصطفافه الطبقي والاجتماعي والإنساني. فإذا وقف الكاتب في الجانب المعادي للإنسان والتاريخ، أو إن لم يدرك حقيقة الإعلام الرأسمالي وأجندته المعادية للشعوب وللحقيقة، فإنه لا شكّ سيقع في فخ الأكاذيب والإشاعات المغرضة حتى بعد مرور عقود على استشهاد غيڤارا.

وهذا الاستنتاج يسري على مروجي أطروحات وبروباغندا الرأسمالية والإمبريالية، كما ينطبق على قطاعات كبيرة من اليسار (العربي والعالمي) أو أولئك الذين يدّعون تمثيل اليسار، وهم كُثُر.

فهذه الأطروحات لا تتناول غيڤارا وراهنيته من منظور الصراع المحتدم في هذا العالم: صراع الشعوب وخاصة في العالم الثالث مع رأس المال وإمبرياليته وعولمته. لذا يشن الغرب الرأسمالي، ومروجو ثقافته وأيديولوجيته، حملة لتشويه غيڤارا - الثائر وممارساته الثورية وإلصاق شتى التهم به: المغامر، السفّاح، الشيوعي، الثائر الذي ولّى عهده.

أما اليسار وخاصة الغربي فقد جارى بعضه في كثيرٍ من الأحيان، من حيث يدري أو لا يدري، الآلة الإعلامية الرهيبة في حملة التشويه هذه، وكأن نضال وإرث غيڤارا ينحصر في حرب العصابات والكفاح المسلح الذي، حسب الكثيرين، قد ولى زمنه. هذا، في حين أنّ ما يخلّد تشي غيڤارا اليوم ويعيد صورته وإلهامه للجماهير والفقراء هو نضاله في مكافحة الإمبريالية والرأسمالية وكافة أشكال الاستغلال الرأسمالي. وهكذا يكرر بعض هذا اليسار ما فعله بالماركسية حين رفعوها أصناماً للعبادة يتعطل عندها العقل والنقد وحتى مجرد الاجتهاد، كأن ماركس قد سنّ قوانين تُطبق في كل واقع وزمان وفي ظل كافة الظروف والبيئات.

***

"تشي.. رمز العالم لإمكانيات رجل واحد"

فرانز فانون

رغم وفرة ما كُتب عن تشي غيفارا وإرثه، فإن الفصل الأخير لم يُكتب بعد. فهناك من أعماله ما لم ينشر بعد، وهناك ممَنْ شاركوه المسيرة، منذ التحاقه بالثوار الكوبيين عام 1955 لم يقولوا كلمتهم الأخيرة بعد. ولعل ما يؤكد راهنيته هو واقع الشعوب التي ما زالت تعيش أوضاعاً تزداد سوءاً في ظل هيمنة العولمة وسياساتها النيوليبرالية الظالمة وفي ظل الاحتلال العسكري الإمبريالي "والحرب على الإرهاب"، ولذا لن تتوقف هذه الشعوب عن المقاومة واستلهام ما قدمه غيفارا، فكراً وممارسةً، في نضالها ضد الاستغلال والظلم.

لعل المدخل السليم لقراءة تشي غيفارا واستشراف راهنية فكره هو تناوله كواحدٍ من روّاد التحوّلات التاريخية والاجتماعية الكبيرة ومفكري السرديات الكبرى والفكر الاجتماعي مثل الحركات القومية والشيوعية والاشتراكية وحركات التحرر الوطني وغيرها. فإذا طرقنا هذا النهج، فإننا سنلحظ أن الكثيرين من هؤلاء المفكرين والمناضلين يظلّون - حتى بعد رحيلهم وبعد أن يكونوا قد أنجزوا مهام التغيير المنشود الذي ناضلوا من أجله أو قطعوا في ذلك شوطاً طويلاً - يظلّون قادرين على إلهام الأجيال الجديدة في رفض الواقع القائم والثورة عليه بغية تغييره وخلق الواقع الجديد، وهي عملية تتطلب بدورها طرح أسئلة البديل وصياغة مشاريع جديدة.

لذا رأينا أن نناقش راهنية غيفارا، كواحدة من سرديات التغيير الاجتماعي، وذلك من خلال منظورين/ سؤالين:

أ) هل تغيّر العالم في الجوهر إلى الحد الذي يجعل هذه السرديات غير صالحة وغير ضرورية، أي هل انتفت ضرورتها التاريخية في مواجهة إشكاليات المرحلة وحلولها وبدائلها؟

ب) والسؤال الثاني والذي ينبثق من الأول: هل ذهبت هذه السرديات إلى غير رجعة كما يدّعي منظرو الليبرالية والرأسمالية والإمبريالية؟ أم أننا نقف اليوم أمام بوادر وإرهاصات مرحلة جديدة تحمل في طيّها تحوّلات عميقة.

وللإجابة على هذين السؤالين، فإننا نحتاج إلى وقفة تشخيصية للواقع الراهن.

منظوران في قراءة تشي غيفارا

يتوقف الموقف من تشي غيفارا وفكره، إلى حدٍ كبير، على المنطلق والمنظور الذي يستخدم في قراءته. ولربما نجد في هذا الصدد تماثلاً مع قراءة الماركسية في حقبة العولمة.

فهناك المنظور البرجوازي الذي يرى في فكر غيفارا نهجاً سياسياً قد مات وولى زمانه ولم يتبق إلاّ أن نعلن مراسيم دفنه. وهو منظور يرى أن التاريخ قد انتهى وأن اللحظة لا تتسع إلاّ

لمفاهيم وسياسات العولمة والنيوليبرالية. وهذا النهج، عدا كونه أداةً لرأس المال، لا يقدم سوى فهم آلي جامد بلا نبض ولا إبداع.

أما المنظور الآخر فيقوم على قراءة الغيفارية قراءة حيّة نابضة بالحيوية ويرى فيها رؤيةً وممارسةً ثوريتين ترفضان الجمود العقائدي والتخشب الأيديولوجي والركون إلى علاقات الاستغلال والهيمنة الإمبريالية القائمة، فضلاً عن أنها البديل لعالم أفضل ومستقبل أسعد.

بناءًا عليه، لعله من المفيد في هذا الإطار إبداء الملاحظات التالية:

1) فكر غيڤارا كمساهمة ماركسية: في قولٍ لماكس فيبر، يؤكد أن العالم الذي نعيش فيه ثقافياً هو عالم شكله، إلى حدٍ كبير، ماركس ونيتشه. وبهذا المعنى، يأتي فكر ماركس ومساهماته، والتي سار على خطاها غيڤارا وأسس لفكره الثوري، في سياق بحث الإنسان عن سبل تحرره من الاستغلال وتسليع عمله وجهده، وانعتاقه من الاغتراب، وبحثه عن وسائل مقاومة الرأسمالية وتوحشها وهيمنتها الإمبريالية على مصير الإنسانية، وفي سياق التطورات التي تلت سقوط الحقبة السوفييتية وغياب القطب الاشتراكي، بل وغياب أي قطب آخر، مناهض أو بديل.

لقد حاول غيڤارا، عبر مسيرته النضالية، شدّ البشرية إلى تحديد أسباب بؤس الإنسان واغترابه ومعاناته وتلمس سبل الحل، وهي أفكار استطاعت، ولا تزال، أن تهزّ العالم من أجل إنجاز التغيير

الجذري. وقد جاءت أطروحات غيفارا ثمرة قراءته للماركسية دون تخشب في القوالب السوفييتية وعلى أرضية فهمه للاشتراكية في آفاقها الإنسانية الرحبة، كما جاءت حصيلة لتجربته العملية في البناء الاشتراكي في كوبا كوزير للصناعة وقائد في الحزب والدولة، إضافة إلى إفادته من مشاهداته النافذة لدى زياراته واحتكاكه بالتجارب الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية والصين الشعبية ويوغسلافيا، على تباينها.

2) ينبغي لقراءة تجربة غيفارا أن تؤخذ بالاعتبار الأوضاع التي كانت سائدة آنذاك في كوبا وجوارها الكاريبي واللاتيني وفي إطار الظروف الإقليمية والدولية وطبيعة النظام العالمي.

3) يجب النظر إلى تجربة غيفارا كتجربة مميزة في القرن العشرين جمعت بين الرؤية والمشروع، وبين الأهداف والوسائل. وعلى الرغم من ضرورة مراجعة الوسائل والأساليب التي اعتمدت في حقبة زمنية مختلفة وفي ظل ظروفٍ محلية ودولية لم يعد بعضها قائماً، فإن الواقع الراهن يؤكد ضرورة الثبات على المبادئ والأهداف وعدم التراجع عنها. فالأهداف التي ناضل من أجلها غيفارا (محلياً وأممياً) ما زالت صالحة للحاضر وللمستقبل. وعليه، تبقى العبرة الأساسية لتجربة غيفارا، والتي ظلت حاضرة بثبات وإصرار عبر حياته القصيرة، أن الضرورة الموضوعية والتاريخية ما زالت قائمة وملحة في محاربة الرأسمالية وإمبريالية وفي النضال من أجل العدالة الاجتماعية وبناء الاشتراكية والتنمية الاقتصادية

والاجتماعية والإنسانية ورفع الظلم والفقر عن أغلبية الشعوب وطبقاتها الشعبية.

وجدير بالذكر أن الحقبة التي نعيشها اليوم والتي تشهد تغيراً في موازين القوى السياسية في العلاقات الدولية، دون إغفال الميزان الاقتصادي الذي أخذ يميل باتجاه معاكس للاقتصاد الإمبريالي الأميركي، يوفر البيئة اللازمة لتجذير وسائل وأساليب النضال الثوري بما فيها الكفاح المسلح حيثما تتوفر له المقومات الأساسية. فالإمبريالية والرأسمالية لا تسقط من تلقاء نفسها، بل يجب بالضرورة إسقاطها بالقوة. وهناك العديد من التطورات السياسية والميدانية في الساحات الدولية والإقليمية، وأسخنها ساحة الوطن العربي (العراق وسوريا وليبيا واليمن وفلسطين...)، ما يوفر الأرضية اللازمة لخلق أكثر من فيتنام واحدة على درب محاربة الإمبريالية والهيمنة الأميركية على أكثرية العالم.

4) ضرورة اعتماد الرؤية الشمولية في دراسة فكر غيفارا ومشروعه وتجنب الحكم عليها من خلال جزئيات مفككة ومنعزلة عن بعضها البعض على غرار ما يفعله كثيرون حين يحصرون فكر غيفارا وإرثه في مقولة الكفاح المسلح وحرب العصابات والتعامي عن إنجازاته الفكرية والاقتصادية والاجتماعية.

5) الوعي النقدي: من أهم ما يميّز أعمال غيفارا هو إيقاظها للوعي النقدي وقدرتها على إنارة الفعل الإنساني وإرشاده وتفجير ما فيه من طاقات كامنة. وهذا هو شأن الأفكار والأعمال الإنسانية العظيمة. إلاّ أن تاريخ الشعوب يعلمنا أيضاً أن إطلاق الأفكار من

مخزونها الجماهيري وتجنيدها في مشروع الإنسانية، أي تحويلها إلى قوة مادية قادرة على إنجاز التغيير، حسب مقولة ماركس، إنما يتطلب إحداث التغيير الجذري في المجتمع ذاته.

6) بالرغم من أن تجربة تشي غيفارا الفكرية والثورية تتميز بشموليتها وخصوبتها وتعدد جوانبها، فإنه من الواضح أن تشي غيفارا لم يكمل تجربته ولم يتمكن من أن يُنضج نظريته وأطروحاته، بسبب استشهاده المبكر (عن عمر تسعة وثلاثين عاماً) وقبل أن يصل ذروة عطائه وإنتاجه ونضوجه. إلا أن عدم إكمال غيفارا لرحلته الفكرية والسياسية يجب ألاّ يغيّب على هذا المناضل أهميته كمفكر ماركسي وراهنية أطروحاته، وهو في هذا يشبه الكثيرين من المفكرين العظام الذين زرعوا بذور فكرهم وأناروا لنا الدرب لتشخيص المشاكل وتقصي الحلول والبدائل ثم رحلوا عنا تاركين لنا مهمة التغيير ومتابعة المسيرة ودمج الفكر بالممارسة، مثل ماركس وإنجلز (كواضعين للنظرية) أو لينين (أول من طبق النظرية وأطلق شرارة أول ثورة اشتراكية في التاريخ).

الفصل الثالث

"نهاية" السرديات الكبرى

نقاش في سمات المرحلة

قد يؤدي تقادم الزمن والمتغيرات في أوضاع البشرية إلى تهميش بعض السرديات والأفكار أو بعض أبعادها، وقد يضحى بعضها مكرراً، وقد تعدو في عيون البعض أفكاراً صنمية من بقايا الماضي التي "عفا عليها الزمن". إلاّ أن التاريخ لا يتوقف عند نهاية مرحلة أو بداية أخرى،

وكذلك هو الأمر مع حراك الشعوب وتطور المجتمعات والفكر الاجتماعي، بل تتوالى حقبات جديدة تحمل احتياجات اجتماعية وإنسانية جديدة، فتظهر الحاجة لمراجعة تلك الأفكار والمفاهيم وإعادة النظر فيما إذا كان من الممكن الإفادة منها في ساحات النضال الراهنة وفي ظل الظروف المستجدة.

بيد أن هذه المراجعة أو القراءة المتجددة لا تنهض إلاّ على أيدي مفكرين ومناضلين جدد قادرين على توظيفها كأرضية فكرية وثورية وثقافية تتبلور في رحمها أفكارٌ جديدة تنتج مشاريع جديدة وتؤسس لقوى تضطلع بمهام المرحلة الجديدة. فلو استقرأنا التطورات الاجتماعية والسياسية في أجزاء كثيرة من العالم عبر

العقدين الأخيرين (أي بعد الانهيار السوفييتي وانفلات عملية بطش الإمبريالية واستفرادها بالعالم ووحدانية القطبية الأميركية)، لظهرت لنا بوضوح صحة ما نقوله من عودة السرديات الكبرى في تأمل مستقبل الإنسانية: فقد شهدنا بوادر محاربة وحدانية القطبية الأميركية وهيمنتها، ومعاداة الرأسمالية والإمبريالية، والبحث عن البديل الاشتراكي وحتميته في رسم غدٍ أفضل وعالم أجمل.

ما أقصده هنا هو أن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والإنسانية بشكل عام في مجتمعات ومناطق عديدة في العالم، وفي وطننا العربي بشكل خاص، أخذت تشهد إرهاصات وبوادر عودة الأفكار والمفاهيم الناقدة والثورية، وهي مرحلة قد تطول أو تقصر بناءًا على عدة عوامل ليس هنا مجال الخوض فيها، غير أنه من المؤكد، رغم سوداوية المشهد الراهن ودمويته، أن هذه الإرهاصات سوف تجد تعبيراتها السياسية والاجتماعية في برامج ومشاريع جديدة تحتضنها وتناضل في سبيلها حركات وأحزاب ومنظمات وجماهير شعبية عريضة.

حين تمرّ المجتمعات بتطورات عاصفة كالتي مرّ بها العالم في العقود الأخيرة وخصوصاً ما نشهده اليوم في البلدان العربية، تشتدّ الخشية في أن تأخذ هذه التطورات اتجاهاً مغايراً أو مخالفاً للمسار المتوخى أو تعرجات والتواءات معقدة.

ولكن بالرغم من التغيرات التي اعترت الواقع العربي منذ ديسمبر 2010 أو ما يُسمى بـ"الربيع العربي" بما فيها من إيجابيات

وسلبيات، أو إنجازات وردّات إلى الوراء، أو باعتبارها إرهاصات ضرورية لما هو قادم. بالرغم من كل هذا فإن هذا الحراك بما فيه من تعرجات لا يعني أن مسار هذه المرحلة خاطئ أو غير صالح، أو أنه فقد راهنيته. فهذا هو عين الفهم المبتور لحركة التاريخ لأنه يخفي - عمداً أو مصادفةً - حقيقة أنه طالما ظلت التناقضات محتدمة (الطبقية والاجتماعية والاقتصادية)، فإن هذه الأخيرة ستظل القوة الدافعة للتغيير والتاريخ والمحرك الرئيسي له. فالتاريخ لا يسير إلاّ إلى الأمام حتى وإن انحرف مسار عملية التغيير أو أجهضت إلى حين. فطالما ظلت التناقضات قائمة، فإن الصراع بين القوى التي تمثلها وتعبر عن مصالحها سوف يستمر حتى يتم حسمه.

أليس هذا ما نراه في الواقع الماثل أمامنا اليوم على المستويات المحلية والإقليمية والدولية؟

هل حقاً تغيّر العالم؟

حجج الرأسماليين والليبراليين والمرتدّين في محاربة الأفكار الثورية لا تتوقف ولا تنضب، ولكنها أيضاً، وعلى نحو ممل، كثيراً ما لا تخرج عن ركيزة أساسية محورها: إن العالم قد تغيّر، وأن أوضاع البشرية وظروفها الاجتماعية والاقتصادية قد تبدلت. ولهذا، فإن الأفكار الثورية والتغييرية، مثل أفكار غيڤارا وغيره، لم تعد قادرة على معالجة تحديات العصر والإجابة على أسئلته. فما كان صالحاً

وصحيحاً في زمن غيفارا وسياق عصره (خمسينيات وستينيات القرن الماضي)، لم يعد صالحاً في الحاضر الراهن.

هكذا يدّعون.

وهذه، بالمناسبة، ذات الحجة التي تكررت في العقود الماضية ضد الاشتراكية والقومية والسرديات النقدية والثورية والتغييرية الكبرى، وهو ما يقودنا إلى عدد من الأسئلة:

أين تقف البشرية اليوم؟

وما هي الظروف التي تعيش في كنفها شعوبنا وشعوب العالم الثالث على وجه الخصوص؟ وكم هي مختلفة عن حقبة غيفارا إن كانت حقاً كذلك من حيث الجوهر؟

وهل هي أفضل من ظروف تلك الحقبة بحيث تنتفي الحاجة إلى الثورة والتغيير؟

المُلفت أن مَن يدّعون أن العالم قد تغيّر، وأن زمن الثورات قد ولّى، وأن أفكار غيفارا وأسلوبه في النضال لم تعد صالحةً لزمننا الراهن، هم أنفسهم الذين لا يرون، بل يرفضون أن يروا، أن هذا العالم قد تغيّر ولكن في منحى مختلف ومعاكس لما يروّجون له. وهم يفعلون ذلك لسبب بسيط وواضح: كي يتسنى لهم الادعاء بأن

سرديات التغيير قد انتهت إلى الهزيمة. فقد روّجوا بالأمس القريب لهزيمة الاشتراكية وزوالها إلى غير رجعة، وأن التاريخ قد قارب نهايته لتربع الرأسمالية على عرش الإنسانية، وما شابه ذلك من تلفيقات وهلوسات تتنافى مع منطق التاريخ وحركته وقوانينه.

ما أقصده هو:

■ أولاً، إن العالم قد تغيّر في اتجاه معاكس لتمنياتهم ورغائبهم، وهو تغيّرٌ لا يريدون أن يعاينوه. فنحن نقف على عتبة مشهد للبشرية جديد، حيث ترقد وحدانية التسلط الأميركي على فراش الموت، فيما تتبرعم قوى وتحالفات وقطبيات ومعطيات (إقليمية ودولية) آخذة في الصعود والتأثير في مجريات العالم، لا السياسية فحسب، بل والأهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

■ ثانياً، إن العالم، من حيث الجوهر، لم يتغير منذ زمن تشي غيفارا بما يعين على إقناعنا بإفلاس أفكاره ومشروعه وهزيمة الثورة العالمية ضد الرأسمالية والإمبريالية، بل على العكس نرى أن أوضاع البشرية لم تتحسن إلا في بعض ظاهرها دون تغيير حقيقي ملموس في الظروف التي تعيش في كنفها الأغلبية السكانية في العالم.

وبالعودة إلى حجة "لقد تغيّر العالم ولم يعد على ما كان عليه" والظروف لم تعد مواتية، فانه بالرغم من تغيّر الأوضاع المحلية والإقليمية والدولية، فان موقف الإمبريالية الغربية لم يتغير

بل ظلّ واضحاً ولا ينطوي على أي غموض. فهي قد تغيّر في وسائلها وأدواتها، ولكنها لم تغيّر أهدافها ومصالحها.

لنا أن نسأل بعد هذا: ألم يصل التناقض بين شعوبنا من جهة، والإمبريالية الغربية والأميركية، من جهة أخرى، وشعوب العالم من جهة أخرى، درجة التناقض بين الإنسان وحياته وبقائه؟

ليس هناك ما هو أكثر بلاغة ودقة من هذا الفهم في تشخيص الحالة العربية، لأنه الفهم الذي يؤسس لركائز ومفاهيم أساسية لطبيعة الصراع المحتدم في بلادنا في هذه المرحلة، وتحديد أطرافه من أعداء وأصدقاء وحلفاء، ورسم المهام الملحة والآنية والأخرى بعيدة المدى. كما أنه يقدم فهماً لطبيعة القوى المتصارعة على طرفي المعادلة: قوى المقاومة والثورة وأصدقائها وحلفائها من جهة، وفي المعسكر المعادي جبهة الثورة المضادة ومكوناتها وأدواتها المحلية والإقليمية والدولية.[1]

يفضي بنا هذا التشخيص إلى أن محاربة الإمبريالية الأميركية وتحديدها كالعدو الرئيسي للإنسانية والقطيعة التامة معها، تشكّل ركيزة أساسية في صراعنا، وهي كما رأينا حجر الأساس في فكر غيفارا لأن هذا التحديد وهذه القطيعة يعنيان الوضوح في خيار المقاومة.

---

[1] يجدر بنا هنا أن نشير إلى أن العديد من القوى الثورية الفلسطينية والعربية قد قدمت رؤية شاملة لهذه المعادلة في أواخر ستينيات وخلال سبعينيات القرن الماضي (أنظر، على سبيل المثال، الإستراتيجية السياسية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لعام 1969).

وهنا لابد أن نلحظ المفارقة المؤلمة: فعلى الرغم من سياسات الإمبريالية الغربية والأميركية - التي لم تتوقف خلال العقود الأخيرة التي تلت استشهاد غيڤارا عن نهب ثروات الشعوب ولقمة عيشهم واحتلال بلادهم وتدميرها وتشريد أهلها - ما زال بيننا مَنْ يجادل في تحديد هذه الإمبريالية كالعدو الرئيسي للإنسانية، بل كثيرون ما زالوا يهلوسون بأنها نبراس الديمقراطية والحرية والتقدم، ويعظون بأن الولايات المتحدة ليست متآمرة على شعوبنا، ويسدون لنا النصح بأن نثق بنواياها الحسنة، ونجد حتى بين عرب فلسطين الواقعين تحت نير الاحتلال الصهيوني، مَن يجادل في دقة وضرورة وجدوى هذا التحديد. ألا يدل هذا على ثغرة هائلة في الوعي؟ خذ على سبيل المثال مسألة رفض التطبيع مع الكيان الصهيوني المحتل ومع أسياده وداعميه من الإمبريالية والرأسمالية الغربية والأميركية ومقاطعة أهلنا في فلسطين المحتلة لمنتجات العدو الصهيوني والغرب الرأسمالي. أليست مناهضة التطبيع مع هذا العدو ومقاطعة منتجاته سوى شكل بسيط من أشكال المقاومة الشعبية المتاحة ضد الاحتلال؟ ومع ذلك، فهي ما زالت موضوع جدل ساخن بين مؤيدين ومعارضين ومتواطئين، ناهيك عن محاولات الاختراق التي تسعى إلى التطبيع مع العدو على كافة المستويات وتحت شتى المُسميات (التجارية، الاقتصادية، السياسية، الثقافية، الرياضية، الفنية...).

لا يحتاج المرء إلى بوصلة ليرى، بالرغم من العديد من الانتصارات والإنجازات التي حققتها الشعوب منذ استشهاد تشي غيڤارا عام 1967، أن أوضاع العالم اليوم تزداد تأزماً وأن شعوب

العالم الثالث تعيش تحت ظروف تتسم بالمزيد من التعقيدات والتحديات المستجدة. وهناك العديد من المؤشرات إلى أن هذه الأوضاع تتجه نحو الأسوأ وتقترب من الانفجار: فما زال الاستقطاب قائماً ويزداد عمقاً بين الفقير والغني، والمستغِل والمستغَل، وما فتأت الفجوة تتسع بين مَن ينتج ولا يملك ما ينتجه، والآخر الذي لا ينتج ولكنه "يملك الدنيا"، بين جائعٍ ومُتخم، بين عاملٍ يكاد لا يجد ما يسد رمقه، ومستهلكٍ لم يُبق لا على الأخضر ولا اليابس. وما زال العديد من البلدان والمجتمعات أسيرة التبادل غير المتكافئ وفريسة لهيمنة رأس المال، وما فتأت الفجوة تتسع بسبب إثراء القلة وإفقار الأغلبية الساحقة التي تعاني ما لا يقاس من آلام الفقر والجوع والمرض والتخلف.

وبدون التقليل من أهمية ودور التطورات العديدة والعميقة التي حصلت في عالمنا منذ رحيل غيڤارا على كافة الأصعدة - (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، طبيعة النظام العالمي، هيمنة القطبية الإمبريالية والرأسمالية الأميركية، اندحار قوى المعسكر الاشتراكي، وكذلك على الأصعدة الثقافية والتكنولوجية) - فان الاستقطاب قائم والتناقضات ما زالت محتدمة اليوم كما كانت في خمسينيات وستينيات القرن الماضي في زمن غيڤارا وذروة نضاله، وعلى نحوٍ أكثر عمقًا وفجاعة وكارثية. وما فتأت الفجوة تتسع بين أفراد وفئات وطبقات المجتمع الواحد وبين الشعوب والأمم. بعبارة أخرى، ومع الإدراك التام للتطورات التي ألمت بالعالم منذ ذلك الحين، فإن السؤال يظل قائماً: هل تعيش شعوبنا اليوم ظروفاً أفضل؟ أم أنها ما زالت عاجزة عن الإيفاء

بالحد الأدنى من احتياجاتها الأساسية: الاقتصادية والاجتماعية والروحية والإنسانية.

هذا هو بيت القَصيد.

لو أخذنا، على سبيل المثال، البيئة المباشرة التي ناضل فيها غيفارا أي أميركا اللاتينية والكاريبي، لوجدنا أن معدل نمو الإنتاجية في تلك القارة والذي كان في زمن غيفارا مماثلاً لغيره من بلدان العالم، قد هبط منذ ذلك الزمن إلى مستويات أدنى من المناطق الأخرى في العالم، باستثناء البرازيل وتشيلى اللتين نجتا من الهبوط الاقتصادي. ولوجدنا، على وجه التعميم، أن شعوب أميركا اللاتينية ما زالت، بعد عقود من رحيل غيفارا، تكافح من أجل سيادتها وحريتها وتنميتها. وفي حين يلوم الكثيرون غيفارا وفشل سياساته التنموية وأفكاره الاقتصادية لتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في القارة اللاتينية، فإنه من المعروف أن السبب الرئيسي لهذا التدهور ليس سوى النهب الإمبريالي لثروات هذه الشعوب والسياسات النيوليبرالية التي طبختها واشنطن بواسطة أدواتها من المؤسسات المالية الدولية التي تحتكم بأمرها (صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية وغيرها)، وهي ذات السياسات التي اتبعتها الإمبريالية الأميركية في أجزاء أخرى من العالم. وهي حقيقة أدركها غيفارا من خلال رحلاته في القارة اللاتينية ومعاينته للفقر والاستغلال ودور الإمبريالية الأمريكية في خلق وحماية الأنظمة القمعية الحاكمة في تلك البلدان. ولهذا نذر نضاله منذ تلك اللحظة لمقارعة الإمبريالية. وعليه، كانت مساهمة

غيفارا الأكثر أهمية أنه وضع الإمبريالية تحت المجهر وفي قلب الصراع وأدرك دورها في التخطيط والتنظيم وترتيب الأوضاع واصطفاف القوى من أجل تعميق وإدامة الاستغلال في كل بقعة في الأرض.[2]

فهل تغيرت أوضاع الشعوب بعد عقودٍ من رحيل تشي غيفارا؟[3]

أين نحن بعد نصف قرن؟

تنفس العالم الصعداء بعد الحرب العالمية الثانية وويلاتها. ولم تمضِ سنوات قليلة حتى أخذ التوتر يطفو على السطح من جديد بين القوى العظمى المتمثلة هذه المرة المعسكرين الكبيرين حتى بدت العقود الأخيرة من تاريخ البشرية وكأنها سفينة تتلاطمها الأمواج العاصفة. فقد شهدنا منذ تلك الحرب تاريخاً من التطورات العميقة في تأثيراتها والتي أكدت أن العلاقة مع الإمبريالية

---

[2] ينقل فاربر عن خورخى كاستينيدا، أن غيفارا اعترف في مارس 1962 بان خطته الاقتصادية كانت عبثية ولامعقولة ومنسلخة عن الواقع وذات موارد مُتخَيلة.

[3] For further reading, see:
- James Petras, Latin America: Thirty Years After Che. Monthly Review, October 1997.
- James Petras, Latin America: The Resurgence of the Left. New Left Review, No. 223, 1997, pp.17-47.

لا يمكن أن تكون سوى علاقة تناحرية بصرف النظر عن مفاهيم ومفردات تلك الحقبة مثل "الحرب الباردة" و"التعايش السلمي" وغيرها.

ودون الدخول في التفاصيل، نستطيع أن نقول بإيجاز وعلى وجه التعميم، إن البشرية مرّت بحقبتين رئيسيتين وإنها على عتبة حقبة ثالثة:

- حقبة "الحرب الباردة" بين المعسكرين؛

- تلاها انفلات المعسكر الرأسمالي بعد الانهيار السوفييتي وما تركه هذا الانفلات من تبعات ثقيلة على النظام العالمي.

- الحقبة التي نعيشها اليوم والتي تتسم بتراجع الرأسمالية والإمبريالية الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأميركية وتراخي قبضتها على العديد من الجبهات الساخنة في العالم وعلى أصعدة مختلفة، ولكنها تشهد أيضاً نهوضاً في وعي الشعوب للإمبريالية كعدو رئيس مسؤول عن معاناتها ومصائبها، وصعوداً لقوى وتحالفات وقطبيات مناهضة لوحدانية الهيمنة الأميركية.

لا يعني هذا بالطبع التقليل من قدرة الإمبريالية على المناورة (على الرغم من تقلص هذه القدرة)، كما لا يعني بكل تأكيد نهاية سياساتها العدوانية وسعيها المستمر للهيمنة على شعوب العالم ومقدراتها. بل إن المقصود هو أن تراجعها قد أصبح حقيقة بيّنة وملموسة بل سمة من سمات المرحلة. وبالدلالة العملية فإن هذا يعني عدم قدرة الإمبريالية على الإمساك بقياد العالم لوحدها كقوة

قطبية وحيدة ومهيمنة وعدم قدرتها لوحدها على تحديد أو تغيير اتجاه الأحداث في العالم.

ولعل ماو تسي تونغ تمكن من التعبير عن هذا المشهد وتكثيفه فيما قاله عام 1949: "لقد هيأت الإمبريالية لنفسها ظروف الانهيار. وهذه الظروف هي وعي الجماهير الشعبية الواسعة في المستعمرات وأشباه المستعمرات وفي البلدان الإمبريالية ذاتها. إن الإمبريالية دفعت الجماهير الشعبية الواسعة في العالم بأسره إلى ولوج العصر التاريخي من النضال العظيم لإزالة الإمبريالية. وقد هيأت الإمبريالية لهذه الجماهير الشعبية الواسعة ظروف النضال المادية والمعنوية على حدٍ سواء."[4]

يفيدنا تأمل هذا المشهد في سياق الحديث عن راهنية تشي غيڤارا، لأنه يؤكد استشرافه المبكر لحتمية الكفاح ضد الرأسمالية والإمبريالية ودعوته التي لا تكلّ عن فتح جبهات ضدها في كل مكان وأينما تواجدت وإيمانه العميق بانتصار الشعوب. وهنا لا تهمنا قدرة غيڤارا على التنبؤ بمستقبل الأحداث وحركتها، بقدر ما أن موقفه يرتكز على رؤية ثاقبة وفهم نافذ لطبيعة العدو الإمبريالي من جهة، وإرادة شعبية ثورية عنيدة لا تتزعزع، من جهة أخرى.

---

[4] مقالة "انبذوا الأوهام واستعدوا للنضال" (14 آب/أغسطس 1949)، مؤلفات ماو تسي تونغ المختارة، المجلد الرابع، دار النشر باللغات الأجنبية، بكين 1973، ص 539 – 540.

■ اتساع الفجوات الاقتصادية والاجتماعية وتردي أوضاع الشعوب، كما ورد أعلاه، التي تزداد سوءًا وتأزماً حيث يستفحل الاستقطاب الذي يمزقها وحيث يزداد تتسع الهوة بين الفقير والغني، بل بين كافة فئات وطبقات المجتمع. وعلى النقيض من الأوهام الكاذبة التي تدّعي بأن العولمة تعزز النمو الاقتصادي وتعمم المنفعة على كافة فئات المجتمع، فإنها (أي العولمة) لم تخلف لشعوب الأرض، سوى المزيد من البطالة والإفقار والتهميش لأوسع الطبقات والفئات الاجتماعية وعلى كافة المستويات:

(أ) على المستوى العالمي: بين المجتمعات المختلفة؛

(ب) وعلى مستوى مجتمعات العالم الثالث والدول النامية: بين طبقات وفئات وأفراد المجتمع ذاته حيث تنعدم العدالة الاجتماعية والمساواة بينهم وتتسع الفجوة بين الأغنياء والفقراء ويغيب التضامن بين الناس. (انظر تدني معدلات النمو الاقتصادي في الدول النامية بين فترة (1960،1980) وفترة صعود العولمة (1980 ـ 2000) وكذلك تدني دخل الفرد واتساع الفوارق في مداخيل الأفراد في الفترة ذاتها).[5]

---

[5] Vincent Navarro, The Worldwide Class Struggle, *Monthly Review*, Volume 58, Number 4, September 2006. http://www.monthlyreview.org/0906navarro.htm

كذلك انظر مقالة مسعد عربيد :"قراءة في كتاب :الإمبريالية في القرن الحادي والعشرين: تحديث لنظرية لينين بعد قرن"، صحيفة" الأخبار" بتاريخ ١٦ أيلول ٢٠١٥، على الرابط التالي http://www.al-akhbar.com/node/242163

■ ما زالت الرأسمالية والإمبريالية، كما شخصها تشي غيڤارا بوضوح بلّوري، العدو الأول والأساسي للشعوب وللإنسانية جمعاء. ولن يكون في مقدور المسميات مثل العولمة والنيوليبرالية وغيرها، بكل ما أوتيت به من خداع وتلاعب بالمعجم السياسي والثقافي للشعوب، من تغيير هذه الحقيقة. هكذا تحدث غيڤارا ومن قبله بقرن من الزمن ماركس وإنجلز. وعلى الدرب ذاته سار كل من لينين وماو تسي تونغ وغيرهما.

■ هيمنة العولمة: تبقى الهيمنة المطلقة على العلاقات الاقتصادية والأسواق ومقدرات الشعوب، السمة الرئيسية للعولمة الرأسمالية. وتجد هذه تعبيراتها الأيديولوجية في السياسات النيوليبرالية التي تعمل في ظل نظام يتسم بدرجة قصوى من الوحشية والشمولية من خلال آليات اقتصادية دولية (المؤسسات المالية مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية وغيرها) فضحها تشي غيڤارا باستمرار لأنها "تعمل في الظاهر لخدمة مصالح الشعوب" بينما هي في الحقيقة "أدوات خبيثة لإدامة الاستغلال والتخلف".[6]

■ وهن الحركات والأحزاب التغييرية: ليس اتساع الفجوة الاجتماعية والاقتصادية (الطبقية) بين الأفراد والطبقات، هو المظهر الوحيد في تدهور الأوضاع الذي أشرنا إليه، بل لا بدّ أن نضيف سبباً جذرياً لا يقل أهمية وهو غياب الحركات والأحزاب

---

[6] Che Guevara Reader: Writings on Politics & Revolution, p. 312.

الثورية وغياب القادة وروّاد الفكر والمثقفين العضويين الذين يحملون لواء المقاومة والكفاح ضد الرأسمالية والإمبريالية. كيف لا والعولمة الرأسمالية تنضح بإفرازاتها السيئة فتنتج مثقفين على صورة أسيادهم يروجون لسياساتهم المعادية لمصالح الشعوب، وتدمّر وعي الأجيال الناشئة وتنشر الإحباط في نفوسهم وتقتل فيهم روح الصمود والمقاومة، وتبشر بالفردانية والاستهلاكية والتطبيع مع أطروحات وسياسات وقيّم العولمة الرأسمالية الغربية حتى جاز لنا القول بانها حوّلت الثقافة والمثقفين إلى "مقبرة ثقافية" كما سمّاها الصديق المفكر أحمد حسين. فكيف، إذَن، لا ترغمنا هذه الأوضاع على العودة إلى قراءة متجددة لفكر الثورة والتغيير والنضال من أجل عالم أفضل؟ أليس في كل هذا ما يؤكد ويعزز من راهنية غيفارا في عالم اليوم؟

■ تغييب البعد الطبقي: تعزز العولمة ومنطقها الميول التي تنظر إلى مراكز القوى الاقتصادية والسياسية في العالم (الحكومات والشركات متعددة الجنسية) مجردة من موقعها ومصالحها الطبقية كطبقات رأسمالية حاكمة ومهيمنة وكأنها قوى تسكن كوكباً آخر. أما الهدف من ذلك فهو بالطبع:

(أ) تغييب البعد الطبقي لهذه القوى؛

(ب) تمييع الفهم للتمايزات الطبقية داخل المجتمع الواحد وبين البلدان والمجتمعات المختلفة؛

(ج) إفقار الوعي بوجود هذه الطبقات وتبديد الوضوح في اصطفافها الطبقي خلف الحكومات والشركات الكبرى والمؤسسات المالية الدولية (البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وغيرهما).

■ نهاية التاريخ والمقاومة: عملت الآلية الأيديولوجية الرأسمالية . الإمبريالية، وعلى مدى عقود عدّة منذ مصرع غيفارا، على محو مقولة حرب الشعب والمقاومة من وعي الشعوب المضطَهدة كي يتسنى لها تدمير إرادتها في الصمود والمقاومة. أما غياب القطب الاشتراكي، فقد كان الحلقة الثانية في مسلسل هذه الهجمة والتي زادت أوضاع وظروف المقاومة تعقيداً في غياب دعم دولة كبرى وقوةٍ عظمى، وفي ظل هيمنة القطب الواحد.

■ تجزئة المحيط وتفكيكه: عملت العولمة، من حيث هي حقبة متقدمة في تطور النظام الرأسمالي، على تجزئة مجتمعات المحيط وعلى المزيد من تذرير وتفتيت نسيجه القومي والاجتماعي والإثني والثقافي مستخدمة كل ذخيرتها من أسلحة النزعات الشوفينية والعنصرية والدينية والطائفية والإثنية وغيرها. وقد استهدفت هذه السياسات الوطن العربي ووحدته وهويته بوضوح وبشكل لم يشهد له التاريخ الحديث مثيلا. (انظر العراق وفلسطين وسورية ولبنان والسودان والصومال...). وعليه، تصبح المهمة الأساسية للقوى المعادية للرأسمالية هي مناهضة مخططات التجزئة والحيلولة دون التذرير.

■ تدمير الثقافات: ما برحت العولمة الرأسمالية في زيّها الثقافي تهدد الثقافات الأصلانية والقومية لشعوب العالم بالتدمير والفناء.[7]

---

[7] Ibid., pp. 242-274

أنظر الخطاب المطول لتشي غيڤارا، رئيس الوفد الكوبي آنذاك، في الاجتماع الوزاري للمجلس الاقتصادي والاجتماعي للأميركيتين (بمشاركة الولايات المتحدة الأميركية) الذي استضافته منظمة الدول الأميركية المنعقد في أوروغواي يوم 8 آب (أغسطس) 1961.

الفصل الرابع

تأملات في راهنية تشي غيڤارا ومعاني غيابه

لعل القول الفصل في راهنية تشي غيڤارا، أو أي فكرٍ ثوريٍ على وجه التعميم، هو مدى تقاطع هذا الفكر مع المرحلة التي نعيش وبالتحديد مع مصالح الشعوب وطبقاتها الشعبية. وبالمدى الذي يعبر فيه هذا المفكر أو الثائر عن مصالح هذه الطبقات،

فإنه يكون معياراً لراهنيته ومواقفه. وعليه، فأن يكون غيڤارا أو غيره، ثائراً في عصره لا يعفيه من مبضع التحليل والتقييم إذا ما أردنا أن نعالج راهنيته في مرحلتنا الراهنة وسماتها ومتطلباتها.

في هذه اللحظة من تاريخ البشرية، تحضر صورة غيڤارا ملوحة بالأمل والترابط بين الناس الساعين إلى الحرية والعدالة والعيش الكريم والأمل المشترك في تحرير الإنسانية من الاستغلال ورأس المال، وتحكي لنا قصة الإنسان في بناء ذاته وتهذيبها وإثرائها بالقيم العليا وتشبثها بإرادة الإنسان وقدرته، رغم الظروف غير المؤاتية أو المعاكسة، على أن يخلق ذاته، وأن ينحت طريقه في خدمة المجتمع والإنسانية.

لقد شهد القرن العشرون العديد من الثوّار والقادة الذين غيروا وجه التاريخ، تاريخ بلادهم وتاريخ العالم أيضاً، ألاّ أن هناك

القلة مثل غيڤارا استطاعت أن تلازم بين عمق الوعي والممارسة الثورية والسياسية والمضي في درب النضال حتى النهاية مهما كان الثمن.

لقد استشهد غيڤارا في التاسعة والثلاثين من عمره وهو لا يزال يدرس ويتطور ويستنبط العبر ويستخرج الدروس من تجاربه، إلا أن ما يسم مسيرته هو أنه كان، في كل أفعاله، مخلصاً ووفياً لفكره ومبادئه التي ضحى بحياته في سبيلها. ولعل أهم ما تميز به غيڤارا هو قدرته على التقاط السمة الرئيسية لعصره، وهي أبرز ميزات القادة والثوّار. وما زالت هذه السمة قائمة لم تتغير منذ استشهاده، وإن تبدلت في بعض ملامحها، وتتجسد في هذا التناقض التناحري والمستمر بين الإنسانية من جهة، والرأسمالية - بكل ما تمثله من نظام ونمط إنتاج وقيم وما تخلفه على شعوب الأرض وطبقاتها الشعبية من استغلال وظلم وفقر- أي أنها تتجسد في الأوضاع البائسة للملايين من فقراء العالم، وفي اكتمال الظروف الموضوعية لمناهضة الرأسمالية والنضال من أجل دحرها ما فتأت تنضج وتكتمل منذ سنوات طويلة.[8]

[8] تطول قائمة المعطيات التي تؤكد هذه النظرة، نذكر منها على سبيل المثال المعطيات التالية: معاناة الطبقات الشعبية بكافة أشكالها من الإفقار المستديم للفقراء مقابل إثراء الأثرياء، تجويع وتهميش المعدمين وارتفاع نسبة البطالة بينهم، هيمنة العولمة الرأسمالية وتفتيت كيانات الشعوب ونهب مواردها ومصائرها واحتجاز اقتصاداتها وتنميتها، "اندماج" الاقتصاد العالمي، تدمير النظام الرأسمالي للإنسان والمجتمع والبيئة، انعدام الاستقرار والزعزعة المزمنة في المجتمعات الإنسانية وعجز الرأسمالية عن المضي قدماً بهذه المجتمعات، العجز والمأزق الذي يعاني منهما النظام الرأسمالي، استقواء الإمبريالية البربرية وتفشي عناصر العنصرية والفاشية...الخ).

لقد كان تشي غيفارا نتاجَ عصره وتناقضاته الاجتماعية والطبقية التي ما زالت مستعرة والتي تتطلب مشروعاً مناهضاً: مشروعاً في المقاومة والثورة، يعادي الرأسمالية والإمبريالية ويصطف مع الإنسان وخيارة الاشتراكي. وإذا كانت عظمة الرجال تقاس بالقضية التي يهبونها حياتهم ونضالاتهم، فإن القضية التي كرس غيفارا حياته من أجلها ما زالت حية نابضة في عروق الملايين من شعوب الأرض وفي أزقة الفقراء والمعدمين، وما فتأت أزماتها متمثلة بكافة أشكال الاستغلال والفقر والظلم. فطالما ظلت الشعوب مظلومة، فسيظل غيفارا حاضراً في ديمومة ثورتها ومقاومتها، وطالما بقي هناك "معذبون في الأرض" فستظل قدوة تشي جذوة تشحذ همة الجماهير وكفاحها، وكلما أمعن رأس المال في جشعه وحروبه (بشتى أنواعها العسكرية والاقتصادية والثقافية) على الفقراء والشعوب، كلما علت صرخة غيفارا في إشعال الثورة والمقاومة في "فيتنام واحدة وثانية وثالثة."

كان غيفارا مناضلاً غير اعتيادي، جمع صفات نادرة ومعقدة، إلاّ أنه أيضاً مثّل حقبة معقدة، فجاء فكره ونضاله وممارساته غير اعتيادية توحد فيها الخاص والعام، وامتزج فيها الوطني بالقومي والطبقي بالأممي. إلاّ أن غيفارا لم يصبح ثائراً عظيماً لأن صفاته الشخصية كانت غير اعتيادية أو لأنه أضفى ملامحه الشخصية على الأحداث التاريخية الكبيرة فحسب، بل لأنه كان، وبصفاته تلك، المناضل الملتزم بمصالح الجماهير والطبقات الشعبية التي تمثل أغلبية المجتمع، ولأنه اتسم بالقدرة على تلمس وإنجاز احتياجات الجماهير والمجتمع في زمنه وأدرك أن تلك

الاحتياجات ناتجة عن تطور العلاقات والتناقضات الاجتماعية والإنتاجية وتحددها الأسباب العامة والخاصة في المجتمع. بكلام آخر، لقد رأى غيفارا أبعد مما رأى الآخرون، وناضل من أجل التغيير وصمم على إحرازه، كما أنه، وربما هذا هو الأهم، التزم بمصالح الجماهير والإيفاء باحتياجاتها. هكذا يصبح الأفراد أبطالاً، وهنا تكمن أهمية العظماء ومصدر قوتهم: فهم قادرون على تغيير المسار"الطبيعي" للأمور ولأنهم بأفعالهم وأنشطتهم قادرون على التعبير الواعي والحر عن المسار المحتوم.

غيفارا: حضور دائم... واستهداف إمبريالي مستمر

لا تفوّت الإمبريالية الأميركية الغارقة في عنجهيتها ورعونتها، فرصة دون أن تؤكد أنها تقف "فوق البشرية" لتكون سيدة عليها، وأن الولايات المتحدة قد وُلدت في سياق استثنائي منفردٍ ومختلفٍ عن كافة شعوب الأرض. وهو ما نشاهده في تعاملها مع الآخر: شعوب العالم الأخرى وقيّمها وثقافاتها وتاريخها ونضالها وثوّارها وعظمائها. ولكن أكثر حروب الإمبريالية ضراوة هي حربها على الوعي الشعبي والمساهمات الفكرية الثورية والتقدمية وخاصة الاشتراكية والشيوعية والتي تنضح بها تجارب الشعوب. هكذا كان الأمر، على سبيل المثال، في تعاملها مع انهيار الاتحاد السوفييتي وإعلانها "موت الاشتراكية" و"نهاية التاريخ"، كما كان الأمر قبل ذلك بعقود حين تلوثت أيدي الإمبريالية الأميركية بمقتل غيفارا ولاحقاً محاولة اغتيال فكره وإرثه الثوريين.

لقد أعلن الغرب الرأسمالي استشهاد غيڤارا، جسداً وفكراً وممارسةً، فيما يشبه الاستنساخ الأيديولوجي للمعزوفة نفسها حين أعلنوا الحرب على الشيوعية و"موت الاشتراكية"، وما فتئ يجترها وكأن استشهاد ثائر أو زاول القطب الاشتراكي يعني نهاية للتاريخ وأن شعوب العالم لن تجد بعد اليوم بديلاً سوى الانصياع التام لإملاءات الرأسمالي . الإمبريالي وجشعه.

دلالات الحضور الدائم

ليس سراً أن ملاحقة الإمبريالية الأميركية لتشي غيڤارا والحملة عليه، بمكوناتها الإعلامية والعسكرية والاستخباراتية، كانت تقوم على مخططٍ واستهدافٍ بعيدَيْ المدى وعلى قناعة بأن غيڤارا كان "مؤدلجاً" للشيوعية في الثورة الكوبية وما بعدها، والداعي بدون هوادة للثورة المسلحة ضد الإمبريالية في أميركا اللاتينية، والتي تعتبرها الولايات المتحدة "حظيرتها الخلفية"، وفي العالم الثالث بشكل عام. غير أن هذه الحملة لم تتوقف باستشهاد غيڤارا، بل ما زالت تلاحق فكره وقدوته وإرثه.

وللتأكيد على ما نقول نسوق، على سبيل المثال، ما فعلته الإدارة الأميركية في تمّوز (يوليو) 2013، حين قرر برنامج "ذاكرة العالم" الذي يخلّد إرث الإنسانية والتابع لمنظمة اليونسكو في الأمم المتحدة، إغناء أرشيفه بإضافة أعمال وكتابات غيڤارا. وعلى الفور، تصدت الولايات المتحدة لهذا القرار، فأصدر سفيرها ديفيد كيليون

بياناً تعترض فيه حكومته على هذا القرار.[9] يقول البيان الأميركي إن تشي غيفارا شخصية خلافية مُثيرة للجدل، فقد دافع عن العنف ولم يعتذر عن أحكام الإعدام التي قامت بها الحكومة الثورية في كوبا بعد انتصار الثورة بغية تطهير البلاد من أعدائها وعملاء الإمبريالية، مضيفاً بكل صلافة، أن مضمون كتاباته لا يتوافق مع قيّم اليونسكو والأمم المتحدة. ثم تابع البيان الأميركي قائلاً إنه لا ينبغي لبرنامج اليونسكو العالمي، الذي يلعب دوراً حاسماً في صيانة التراث العالمي، أن يُستخدم كأداة لإضفاء الشرعية على العنف. فقد سلّط هذا البرنامج، وفق ما جاء في البيان، الضوء على الأهمية العالمية لكتابات إليانور روزفلت، فضلاً عن وثائق تتعلق بالهولولكست، وأرشيف وارسو للغيتو [اليهودي] ويوميات آن فرانك، وفي عام 2013 أضاف أرشيف "الخدمات الدولية للبحث عن المفقودين" ومحفوظات "مجموعة ياد فاشيم لجمع الشهادات".[10] وأخيراً طالب السفير الأميركي بعدم تسييس برنامج "ذاكرة العالم" إذا أردنا الحفاظ على أهميته ونزاهته، خاتماً بيانه بدعوة اليونسكو إلى إعادة النظر في إضافة إرث تشي غيفارا كي تقرر إذا ما كان يتوافق مع قواعد هذا البرنامج وقيّم منظمة الأمم المتحدة.

---

[9] http://unesco.usmission.gov/amb-statement-guevara-mow.htmlhttp://www.unesco.org/new/en/communication-and-information/flagship-project-activities/memory-of-the-world/register/

[10] لا تُخفى على القارئ دوافع اختيار هذه الأمثلة والأسماء في البيان الأميركي، فتأثير اللوبي الصهيوني واضح وضوح الشمس.

لا نورد هذا البيان بهدف مناقشة ما جاء فيه من أكاذيب وتفاهات، بل لنشير إلى أنه الأمر الوحيد المتوقع من زعيمة الإمبريالية حيال تشي غيفارا وغيره من الثوّار، وهو ذات الموقف الذي لم يتبدل منذ عام 1954 حين لمحت أجهزة الاستخبارات الأميركية بوادر نشاط غيفارا السياسي أثناء إقامته في غواتيمالا أبّان الغزو الأميركي الذي أطاح بالرئيس التقدمي خاكوبو آربنز عثمان *Árbenz Guzmán Jacobo*. فكانت بداية استهداف غيفارا وملاحقته.

على النقيض من موقف الإمبريالية، فإن غيفارا ما زال، بعد عقودٍ من استشهاده في الأدغال البوليفية، حاضراً بفكره ورسالته وقدوته في قلوب الفقراء والمضطَهدين والمظلومين في كافة أرجاء العالم، ولا يزال يحظى بمنزلة رفيعة بين الشعوب والأمم كثائر أممي ضحى بكل ما يملك من أجل الفقراء. ولا يحتاج المرء إلى أكثر من جولة سريعة في كوبا والمكسيك والأرجنتين وبوليفيا وغيرها من بلدان أميركا اللاتينية والعالم للتدليل على ترسخ ذكرى غيفارا وإرثه في ضمير ووعي الفقراء كرمز لأملهم في غدٍ أفضل، وما زالت أفكاره حيّة تقض مضاجع أعدائه لسنوات قادمة، فمن يموت في سبيل المستقبل، يبقى حياً كما قال فيدل كاسترو: "إن رفاقنا الشهداء ليسوا بمنسيّين ولا بميّتين، بل هم يحيون الآن أكثر من أي زمن مضى"!

في العديد من الندوات والمؤتمرات والفعاليات التي تُنظم باستمرار من أجل تخليد غيفارا وإرثه، تُقدم الدراسات والأبحاث في

فكره وضرورة مشروعه النضالي في محاربة الإمبريالية وفي رؤيته للبديل الاشتراكي والإنسان الجديد.

تفضي بنا هذه الأمثلة في رؤية غيڤارا ونهجه إلى السؤال التالي: كيف ينظر العالم والبشرية عامة إلى غيڤارا وإرثه؟

■ في أميركا اللاتينية، حيث تضرب الكاثوليكية جذورها العميقة في المجتمع والثقافة والتدين الشعبي، أصبح تشي غيڤارا "قديساً" يصلّي له فلاحو بوليفيا حتى يومنا هذا.

■ أما في كوبا، فما زال غيڤارا ساكناً عقول الكوبيين وقلوبهم وما زالت أقواله وأفعاله وصوره تملأ حياتهم، بل أصبح جزءًا من طقوس السنتريا *Santería* التي ما زالت مألوفة في كوبا.[11] وفي كوبا أيضاً، شهدنا في السنوات الأخيرة عودة المجتمع الكوبي لمناقشة أفكار غيڤارا الثورية والتنموية والتي ترافقت مع نشر بعض أعماله الفكرية التي لم ترَ النور من قبل، وخصوصاً في مواضيع الاقتصاد والتنمية والسياسة والفلسفة.

يشير صاموئيل فاربر إلى أن غيڤارا لا يتمتع بشعبية كبيرة في بعض أوساط اليسار الناشئ في كوبا والمتأثر بأفكار الأناركية والسياسات الديمقراطية الاجتماعية والتي تركز اهتمامها وجهودها

---

[11] السنتريا *Santería* عبارة عن مجموعة من الطقوس الدينية التي تُمارس في كوبا والتي أحضرها الأفارقة القادمون من الساحل الغربي لإفريقيا إلى كوبا وغيرها من بلدان الكاريبي. وتشتمل على شعوذات تستخدم استحضار قديسين من "العالم الآخر"، أي استحضار أرواح موتى كي تساعد الأحياء في معاناتهم وشقائهم وفتح أبواب الخير والنعمة أمامهم.

على التعاونيات والتسيير الذاتي للعمال كطريق للديمقراطية الاقتصادية.[12]

■ وفي فنزويلا، تشكّل مبادرة "اشتراكية القرن الحادي والعشرين" استمرارية وتعميقاً للعديد من الأفكار الأساسية لتشي غيڤارا، بما فيها شعاره التاريخي "حتى النصر دائما" *Hasta la Victoria Siempre* الذي كان يردده دائما القائد الثوري الراحل أوغو شافيس.

■ في عيون الشباب الثائر في أميركا اللاتينية، كما في عيون الشباب العربي وأحرار العالم، أصبح تشي غيڤارا رمزاً للثورة والتمرد وحركات التغيير الاجتماعي والسياسي، وظلّ كما كان دوماً، رمزاً للثورة والتحرر وقدوة لكفاح الفقراء في العالم الثالث.

■ في الصين الشعبية، ما زال حضور غيڤارا على مدى العقود الأخيرة مرتبطاً بعاملين أساسيين:

الأول، كونه بطلاً من أبطال الحركة الشيوعية في العالم ورمزاً للثائر القادم من أميركا اللاتينية.

والثاني، دفاعه عن العدالة الاجتماعية وحقوق الأغلبية الشعبية.

---

[12] Farber, Samuel, The Politics of Che Guevara: Theory and Practice, Haymarket Books, Chicago, USA, 2016, p. XVI.

■ يذكر جون لي أندرسون، مؤلف أفضل سيرة لغيڤارا، أن غيڤارا تمتع حتى بين بعض المجاهدين الأفغانيين بالإعجاب رغم الخلاف الأيديولوجي والسياسي المطلق بين الاثنين. غير أن هذا لم يقلل من إعجاب المجاهدين به مما يدلل على أنه حاضر وباقٍ في البيئة القادرة على التماثل مع صورة غيڤارا المقاتل المغوار في ساحات حرب العصابات.[13]

■ أما بالنسبة للمجتمع الاستهلاكي في الغرب والمهووس بالاستهلاك وسلعنة كل ما تقع عليه يداه، فقد أصبح غيڤارا "سلعة" ومصدراً للربح وعُلقت صوره وأيقونته على القمصان والقبعات بأشكال لا تُحصى ولا تُعد.

لا نقصد من هذا العرض السريع لصورة غيڤارا وقدوته بين الشعوب، القول أو الإيحاء بأن هذه الكتلة الهائلة من سكّان المعمورة قد درست فكر غيڤارا وأطروحاته، أو أنها تبنّت أساليب نضاله أم حتى جزءًا منها. فليس شرطًا أن تشاطر كل هذه الملايين غيڤارا أفكاره وقناعاته أو حتى بعضها، إلاّ انه ليس بمقدور مَنْ يدرس تاريخ الثورات والحركات التغييرية إنكار أن مسيرة هذا الثائر واستشهاده قد مثلا إلهاماً وقدوة للأجيال التي تتطلع إلى الحرية والتقدم، وهو ما يؤكد راهنية فكر غيڤارا وديمومة إرثه.

[13] Cihan Aksan & Jon Bailes, On Che Guevara: An Interview with Jon Lee Anderson, April 21, 2010, located at: http://www.stateofnature.org/?p=5814

في التحولات التاريخية الكبرى، هناك من ينادي بالثورة ويصنعها ويموت من أجلها، وهناك من يرافق الثورة محاذراً بخبث ولكنه لا يدفع الثمن بل يسطو على تضحيات الآخرين ويمتطي انتصاراتهم. غيڤارا كان من الصنف الأول. لذلك، ستبقى رسالته حاضرة على الدوام ومحتفظة براهنيتها، وسترى الأجيال القادمة فيها القدوة الثورية، لا بسبب قناعاته السياسية أو بلائه في حرب الغوّار فحسب، بل لأنه كان رجلاً صادقاً مع نفسه، ولم يَخن قناعاته أبداً، وظلّ ضميراً للفقراء وهمومهم ولم يتوقف عن النضال لحظة من أجلهم بل دفع حياته ثمناً لها دون أن يشكو.

لقد كثّف التزام غيڤارا بقضية الثورة حياته كلها، وهي روح لا غنى عنها لهزيمة الرأسمالية وانتصار الثورة. إنها تلك السمة التي قاتل بها غيڤارا من أجل تحرير الفقراء والطبقة العاملة والطبقات المستغَلة، وهي الروح التي نفتقدها في عالم اليوم.

القسم الثاني

النشأة والتكوين الثوري

الفصل الخامس

مدخل

بالرغم من وفرة ما كتب عن إرنستو تشي غيڤارا وفيه، قلة هي الكتابات التي تتناول المراحل والجوانب التكوينية في سيرته وفكره. لذا رأيت أن استهل هذا القسم ببعض الملاحظات المنهجية اللافتة للنظر فيما كُتب حول تشي غيڤارا:

1) أن الكثير من الكتابات موسمية بطبيعتها وكثيراً ما تتزامن مع ذكرى ولادته أو استشهاده، تتراوح بين تخليد الثائر وتأبيد إرثه من باب المديح والأيقنة. وهي كتابات، غالباً ما تداعب العواطف وتبتعد عن نهج الاستقصاء والبحث العلمي.

2) قليلة هي الدراسات التي تتناول المراحل المبكرة من حياة تشي غيڤارا وتأثيرات العوامل الذاتية والموضوعية في تكوينه، فيما ينصرف الكثير مما يُكتب عن غيڤارا إلى معالجة سردية لسيرته ونضاله منذ لقائه زعيم الثورة الكوبية فيدل كاسترو وأخيه راؤول حين كانا يعملان على الإعداد للثورة الكوبية في إحدي هضاب المكسيك المقابلة للساحل الكوبي. كان ذلك في تموز (يوليو) 1955 وهناك التحق غيڤارا بطلائع الثورة الكوبية. ولا غرابة في ذلك فالحديث عن غيڤارا ملتصق التصاقاً حميماً بالسياق التاريخي

للثورة الكوبية التي انتصرت عام 1959. وهذه الدراسات متوفرة بما لا يحصى من مراجع ورقية وإلكترونية وبعدة لغات.

3) إذا توخينا خلق وعي وفهم موضوعيين لفكر وإرث غيفارا، فلابد لنا من أن ندرس هذا الثائر في سياقه التاريخي والتكويني وأن نتلمس العوامل التي أثرت في تكوينه الثوري، وهو ما سأحاول معالجته في الفصول التالية وعليه، لن نقدم في هذا الصدد كرنولوجيا لسيرة حياة غيفارا، فهي متوفرة في كل مكان، بل محاولة التوقف عند محطات حياته ونضاله للإضاءة على تكوينه الفكري والثوري.

***

ما هي عناصر التكوين الذاتي والتطور النفسي والفكري والسياسي التي تحدو بطبيب أرجنتيني من الطبقة الوسطى أن يركل بقدمه بحبوحة العيش التي يحظى بها أقرانه ليلتحق بثورة لا هوادة فيها من مرتفعات سييرا مايسترا الكوبية وأدغال الكونغو وبوليفيا؟

ما هي العوامل والظروف الذاتية والموضوعية التي شكّلت أو ساهمت في صياغة تشي الإنسان أولاً ثم الثائر الأممي والقائد العسكري والإستراتيجي والريادي في حرب الغوار، وباختصار غيفارا الثائر الماركسي؟

ستقتصر رحلتنا في هذا القسم على سنوات النشأة والتكوين المبكرة وتتوقف عند انضمام غيفارا للثوار الكوبيين (1955). وسوف نلقي بعض الضوء على العوامل الذاتية والموضوعية التي شكلت أو أسهمت في تكوين تشي غيفارا الإنسان

والثائر وصياغة فكره الثوري والسياسي، والتي لعبت دوراً مهماً في تحديد همومه ومهامه النضالية والنظرية والسياسية.

وفي محاولة لاستشراف ما آلت إليه هذه العوامل والمؤثرات، من خلال الكشف عن جدل الذاتي والموضوعي في نشأته، نجد أنها بكليتها شكلت جزءًا من شخصيته التي تشابك فيها النهج والفكر مع الواقع الاجتماعي. ويهمني أن أشير إلى أن هذه الجدلية تكافلت في صقل رؤية غيفارا للواقع ومعضلاته وفي تقديمه للحلول بنهج علمي يجمع بين تصورات أمينة ومقترحات محددة تستدعي بالضرورة إحداث تغييرات جذرية في المجتمع. وسوف نلمح هذا التزاوج والتناغم بين الفكر والممارسة طيلة المستقبل الثوري لتشي غيفارا.[14]

لقد حرصتُ على الإشارة إلى مسألة بالغة الأهمية في مسيرة غيفارا وهي أن التراكم النظري تناغَمَ مع تجربة وممارسة عملية واستند إلى الإفادة والتعلم من دروسها وعبرها، بقدر ما نهل من كمٍ معرفي وتثقيف ذاتي ثرين. ولعلنا نجد في هذا تفسيراً للإنجازات الثرية التي استطاع تحقيقها في حياته القصيرة.

إن إندماج كل هذه السمات وتكاملها في شخصية غيفارا، وعلى رأسها سمة الإنسانية والأخلاقية الشيوعية التي وصمت مسيرته، والتناغم الفريد فيما بينها تبلور بوضوح في المركبات الأساسية لفكر تشي غيفارا نضاله الثوري، كما أنه مثّل في الآن

[14] Garcia, Maria del Carmen Ariet, *El Pensamiento Politico de Ernesto Che Guevara*, Ocean Press, Havana, 2003, p. 60.

ذاته قطيعةً تامة مع نمط وفكر وأسلوب النضال الذي ساد آنذاك في قطاعات كبيرة من اليسار التقليدي في أميركا اللاتينية وغيرها من أرجاء العالم.

***

دور الفرد في التاريخ

"تتزامن التغيرات الشخصية مع تطور ظروف النشاط الثوري"

كارل ماركس

في "الأيديولوجية الألمانية" (1846)

يقتضي الفهم الموضوعي لغيفارا وإرثه الثوري أن نعالج، ولو بشكل عاجل، إشكالية دور الفرد في التاريخ وإسهامه في صناعة الحدث، لأنه في غياب ذلك يتعذر فهمه في سياقه التاريخي. وربما تكون هذه المقدمة ضرورية لإبعادنا عن معايير الشهرة والتقديس والأيقونية، على أهمية هذه ودورها الإيجابي في صناعة التاريخ وصياغة أحداثه وفي حراك الشعوب بشكل عام.

نبدأ بالسؤال: هل يصنع الرجال التاريخ؟ وهل حقاً أن أفعالهم وأنشطتهم هي منبع التطور التاريخي؟ أم أن للتاريخ وللحدث التاريخي سياقه و"حياته" وحراكه وقوانينه العامة التي تسبق أفعال الأفراد والعظماء وتؤسس لدورهم؟

تظل هذه الإشكالية، إشكالية دور الفرد "والعظماء" في التاريخ، حبلى بالأسئلة ومفتوحة للنقاش، إلاّ أنني سأبدي بعض الملاحظات المكثفة في محاولة لاستشراف الوحدة الديالكتيكية بين الذاتي والموضوعي:

1) كان التاريخ، إلى أن جاء الفهم المادي، سرداً لأخبار الحكام والملوك. فهمُ الذين يصنعونه ومن ثَمّ يكتبونه لنا بما يتوافق مع رؤيتهم ومصالحهم. فالفكر البرجوازي يلقننا أن الفرد (الملك، الحاكم، القائد، العسكري...الخ) هو الذي يقوم بالدور الأساسي والحاسم في صنع التاريخ ولم ير السرد البرجوازي للتاريخ أن تطور الإنسان والمجتمعات البشرية محكوم بقوانين ونظم، وأن دور الفرد يصبح ممكناً فقط في ظل ظروف وأوضاع اجتماعية (طبقية) معينة.

2) أما الماركسية فجاءت لتكشف العلاقة الجدلية بين الفرد (الذاتي) والقوى الموضوعية التي تحكم حركة المجتمع والتاريخ. فالمادية التاريخية لا تنكر دور الفرد في التاريخ بل هي تموضعه وتقرأه في سياقه المادي والتاريخي، وترى أن الأفراد وتأثيراتهم، كما يقول بليخانوف في كتابه "دور الفرد في التاريخ" (1898)[15]، مهما عظم شأنهم وقدراتهم ومواهبهم لا يستطيعون وحدهم أن يحددوا مجرى التطورات التاريخية والتغيرات الاجتماعية التي تحتكم بالأساس إلى قوى وظروف موضوعية. فأسباب هذه التطورات والتغيرات تكمن، تحديداً، في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وإصطفافاتها الطبقية المتناقضة والمتوترة. (من الأمثلة على ذلك: دور لينين كقائد للثورة البلشفية عام 1917، ودور جمال عبد

[15] Plekhanov, G.V., On the Role of the Individual in History (1898). The text was located 1 October 2013 on the following URL: http://www.marxists.org/archive/plekhanov/1898/xx/individual.html

الناصر في ثورة يوليو 1952 والحركة القومية العربية في القرن العشرين، ودور فيدل كاسترو في الثورة الكوبية وغيرها من الأدوار التي جاءت بعد اختمار الشروط الموضوعية واكتمال المقدمات المادية لعملية التغيير والثورة).

3) تصبح شخصية الفرد وقدراته ومواهبه وكل ما يندرج تحت ذلك من صفات وسمات عاملاً في التطورات الاجتماعية فقط إذا ما سمحت العلاقات الاجتماعية (تناقضاتها وصراعاتها) لهذه العوامل أن تفرز تأثيراتها، وإذا ما أتاحت هذه العلاقات المناخ ووفرت البيئة لفعلها. بعبارة أخرى، هناك "محدوديات" لدور الأفراد في التاريخ والمجتمع، ومهما عظم شأن الفرد وقدرته، فانه لا يستطيع أن يفرض أو يقيم أو يغير علاقات اجتماعية وتاريخية إذا لم يتوافق هذا مع الأوضاع وميزان القوى القائم في المجتمع واتجاه حركته.

4) يرى فريدريك إنجلز أن المجتمعات محكومة بضرورات، هي في جوهرها اقتصادية، تقف خلف الحدث الذي قد يبدو أمراً عارضاً أو مجرد صدفة. وفي إطار هذه الضرورات، تتوجب معالجة دور الأفراد والعظماء. فالقوى الإنتاجية وتطورها هي السبب العام للتقدم التاريخي للإنسان والمجتمع وهي التي تحدد التغيرات المتتالية في العلاقات الاجتماعية. إلا أن هذا لا ينفي أن الأحداث التاريخية قد تأخذ ملامح هذا الفرد أو القائد، أو أنها قد تنطبع بخصائصه وسماته، كما أنه لا يغفل أن خصائص وشخصية وعقلية الأفراد ذوي التأثير تترك بصماتها العميقة على الأحداث وقد تغير ملامحها

وربما بعضاً من نتائجها، إلا أن هذه الخصائص لا تبدل الاتجاه العام للتغيير والأحداث والتاريخ.

خلاصة القول إن دور الفرد في التاريخ وصنع الحدث، يظل إشكالياً وربما خلافياً، ولكنه بإمكاننا أن نقدم الملاحظات الموجزة التالية:

1) إن الخصوصيات الفردية للشخصيات البارزة تتحكم بالجانب الفردي في الأحداث التاريخية. بالطبع، فإن عامل الصدفة يلعب دوراً معيناً في مجرى الأحداث، الاّ أن الأسباب العامة هي التي تقرر في النهاية الاتجاه الذي ستتخذه هذه التطورات التاريخية.

2) إن تطور قوى الإنتاج والعلاقات (الاجتماعية - الاقتصادية) المتبادلة بينها من خلال عملية الإنتاج، هي (أي القوى) التي تحدد النتيجة النهائية للأحداث التاريخية.

3) إلاّ أن هذه العلاقات ليست آلية، كما يبدو، فهناك تبادل وتفاعل بين الناس والوسيلة من حيث العلاقات المتبادلة، والتحكم في مسار الأحداث هو أيضا متبادل. وهذا التفاعل هو ما يتحول ديالكتيكياً لخلق الواقع الجديد.

4) تتعدد الأسباب والدوافع التي تأخذ بالأفراد للمشاركة في الحركات الثورية. فقد يكون الدافع الأساسي لدى بعضهم هو الأفكار السياسية والانتماءات الإيديولوجية، ولدى البعض الآخر رفض النظام والواقع القائمين، وبعض آخر يرى دوره من خلال المشاركة في التغييرات الاجتماعية الكبيرة لأنه ببساطة لا يستطيع الوقوف على الحياد أو على هامش الحدث.

الفصل السادس

العالم في زمن تشي غيفارا

ملامح عامة

غادر غيفارا سنوات المراهقة والدراسة الثانوية (1947) مع ولوج القرن العشرين إلى نصفه الثاني. وكانت حربان عالميتان إمبرياليتان قد حصدتا أرواح الملايين من البشر، ودمرت عالماً ليقوم مكانه عالم آخر تتجلى بعض معالمه في الوقائع التاريخية التالية:

. شهد العالم، قبل أن تضع الحرب الإمبريالية الأولى (1914 - 1918) أوزارها انتصار الثورة الاشتراكية الأولى في التاريخ البشري في الاتحاد السوفيتي (1917). وقد كانت هذه الثورة السبب في النهوض السوفييتي وبناء الاشتراكية في ذلك البلد وتصنيعه وإقامة قوة عسكرية وإرادة شعبية قادرة على الصمود في وجه العدوان النازي خلال الحرب الثانية وهزيمته.

. قيام ثورات أوروبا الشرقية التي هزمت النازية والفاشية وأقامت المنظومة الاشتراكية.

. انتصار الثورة الاشتراكية في الصين (1949).

. صعود الولايات المتحدة إلى زعامة العالم الرأسمالي، الذي يحلو للغرب أن يسميه "العالم الحر"، بعد احتضار القوى الكولونيالية الهرمة (خصوصاً بريطانيا وفرنسا).

. وقوع العالم في استقطاب حاد بين فكي "حرب باردة" بين معسكري الرأسمالية والاشتراكية واحتدام الصراع بينهما والذي وجد تجسيده العسكري، إضافة إلى تجلياته العقائدية والسياسية، في نشوء حلفين عسكريين: الأطلسي (1949) ووارسو (1955).

كما شهد العالم، مع بزوغ النصف الثاني من القرن العشرين، العديد من المحطات الساخنة التي مثلت تصادم هذين المعسكرين وجسدت المواجهة بين مشروع الإنسانية في الحرية والتنمية والاشتراكية مع مشروع الرأسمالية في نهب الشعوب واستغلالها. وفي عرض سريع لهذه المحطات، نكتفي بذكر بعضها:

. قيام الكيان الصهيوني الاستيطاني على أرض فلسطين عام 1948 كتجسيد مادي للمشروع الإمبريالي . الصهيوني في الوطن العربي وكقاعدة متقدمة للإمبريالية الأميركية في تلك المنطقة.

. اندلاع الحرب الكورية (1950 . 1953) وتقسيم ذلك البلد إلى جزئيه الشمالي والجنوبي.

. إطاحة وكالة المخابرات الأميركية بالحكومة والحركة الديمقراطية في غواتيمالا (1954).

. تصاعد المكارثية في الولايات المتحدة واشتداد حملة محاربة الشيوعية.

. انطلاقة العالم الثالث في ثورات شعبية ونهوض حركات التحرر في العديد من بلدانه (ثورة يوليو في مصر وثورة الجزائر والثورة الكوبية وغيرها في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية).

. انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي (فبراير 1956) حيث أعلن خروتشيف إدانة جرائم ستالين و"محو الستالينية" وإنتهاج سياسة التعايش السلمي مع الرأسمالية.

. التدخل العسكري السوڤييتي في هنجاريا عام 1956.

الأوضاع في مسقط الرأس . الأرجنتين

اتسمت الأوضاع في الأرجنتين عام ولادة ﻏيڤارا (1928) بأزمة اقتصادية حادة ازدادت سوءًا عام 1929 وصاحبها انهيار اقتصادات العديد من البلدان الرأسمالية. وبالنسبة لبلدان أميركا اللاتينية، فقد تميزت هذه المرحلة:

1) من منظور التدخلات الخارجية، بالتوسع الإمبريالي للولايات المتحدة داخل تلك القارة ووقوع بلدانها تحت نير الهيمنة الإمبريالية الأميركية، ولم تكن الأرجنتين استثناءً.

2) أما على المستوى الداخلي، فقد أمسكت قلة برجوازية عميلة ومستبدة بمقادير الحكم ومقدرات شعوبها.

3) في مقابل هذه الهجمة، أخذت الأحزاب الشيوعية بالظهور في تلك البلدان عقب الثورة البلشفية (1917) وخلال مرحلة الكفاح ضد الفاشية والنازية في ثلاثينات القرن الماضي والحرب الإمبريالية الثانية التي انتهت بدحر الاحتلال النازي ووصول الأحزاب الشيوعية، التي قادت ذلك الكفاح التحريري، إلى السلطة في أوروبا الشرقية وإقامة المنظومة الاشتراكية.

وصل خوان بيرون *Juan Peron* إلى الحكم (1946) بعد أن عاشت الأرجنتين عقداً طويلاً من الفساد والتدهور في كافة المجالات الاجتماعية والاقتصادية. وقد جاءت حقبة حكمه واعدة باستنهاض الطبقة العاملة الأرجنتينية وتنظيم الحركة العمالية وتصاعد النضال الشعبي من أجل الحرية والديمقراطية.

شارك بيرون في الحكومة الأرجنتينية بمنصب وزير للدفاع عام 1943، إلاّ أن دوره تعاظم مع وصوله إلى مواقع النفوذ في الحكومة وانتخابه رئيساً للبلاد في فبراير 1946. وقد استمر في الحكم إلى عام 1955 حيث شاركته النضال زوجته المعروفة ب "إفيتا" *Evita* (والتي التصق اسمها بالنضال الجماهيري في الأرجنتين إلى أن وافتها المنية من داء السرطان عام 1952). فاز بيرون ثانية بالانتخابات عام 1952 وبقي في الحكم إلى أن أطاح به انقلاب عسكري عام 1955 فقضى ما تبقى من عمره منفياً في إسبانيا.

في ظل هذه الظروف، قضى غيفارا سنوات شبابه في الأرجنتين البيرونية وفي سياق سياساتها. إلاّ أنه يبدو أن هذا الأمر

لم يترك أثراً كبيراً على غيفارا مع أن وصول الحركة البيرونية إلى السلطة أحدث غلياناً اجتماعياً في ذلك البلد وأنذر بدخول الحركة العمالية والجماهيرية مسرح العملية السياسية. فقد شكّلت سياسة بيرون تهديداً لمصالح الطبقة التي كانت تنتمي إليها أسرة غيفارا، ولعل هذا ما يفسر عدم انخراط أسرته في عملية التغيير الاجتماعي التي سادت المجتمع الأرجنتيني آنذاك رغم تعاطف والديه مع الأفكار التقدمية واليسارية. وليس هناك ما يشير إلى أن غيفارا الشاب قد انحاز لأي من هذه التيارات أو انتمى إلى إطار حزبي معين. إلاّ أن هذه العوامل شكلت جزءًا من حياة أسرة غيفارا والظروف التي عاشت في ظلها وتركت بصماتها على حياته.

جيل غيفارا

تميز العالم الجديد الذي قام على أنقاض الحرب الإمبريالية الثانية (1939 . 1945) بفضل نضال الجماهير وقيادة الأحزاب الشيوعية لحروب التحرير الشعبية ضد الاحتلال النازي والشروع بمرحلة البناء الاشتراكي في تلك المجتمعات، تميز بتألق الفكر الاشتراكي وازدهار ثقافة جديدة وظهور أنماط متميزة وملتزمة من الفن والأدب والمسرح وغيرها من الأنشطة الثقافية والفكرية والعلمية وببزوغ فهم جديد للدور السياسي والاجتماعي للثقافة والمثقف: دور ملتزم بأهداف التغيير الاجتماعي وتحرير الإنسان من أغلال الاستغلال الرأسمالي وانعتاقه نحو الحرية والتحرر والتقدم.

وهو ما عمد الإعلام الرأسمالي دوماً، في خضم حربه مع الاشتراكية، إلى طمسه وتشويهه وخاصة في العقدين الأخيرين.

أما على مستوى أميركا اللاتينية، فقد شهد هذا الجيل هزائم وإخفاقات الحكومات الإصلاحية المتتالية في تلك البلدان. وعليه، جاء هذا الجيل نتاجاً لهذه التوترات والإرهاصات السياسية والاجتماعية حيث ساهم عاملان أساسيان في صياغة وعيه ودوره:

1) الهيمنة الرأسمالية الأميركية على جوانب الحياة في أميركا اللاتينية (السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية).

2) الهزائم التاريخية للمحاولات والحكومات الإصلاحية وسياساتها وإستراتيجيتها في التصدي للسياسات الإمبريالية الأميركية. وكان من نتيجة هذا الفشل أن أخذ الكثير من أحزاب "اليسار الديمقراطي" في التأقلم مع الأوضاع الجديدة و"تقبل" الهيمنة الأميركية كأمر واقع ومقبول على غرار ما حدث في البلدان العربية بعد الانهيار السوفيتي وانفراد الولايات المتحدة بقطبية العالم حين أخذ اليسار الفلسطيني والعربي في أعقاب ذلك الانهيار يتجه نحو "الديمقراطية" وخطاب العولمة الرأسمالية وسياساتها النيوليبرالية واستدخال نهج التسوية مع المحتل الصهيوني.

هذا هو الجيل الذي انتمى إليه تشي غيفارا، جيل خمسينات القرن العشرين في بلدان العالم الثالث وأميركا اللاتينية بشكل خاص، وهو جيل أخذ على عاتقه إعادة تقييم الأوضاع وتحديد مهام المرحلة ووسائل النضال وتشكيل الأطر التنظيمية

القادرة على الاضطلاع بهذه المهام. ولعل في تصنيف جميس بتراس، المفكر الأميركي اليساري، لهذه الحركات والتحولات الثورية ما يوضح السياق والدور الذي اضطلع به جيل تشي غيفارا وما تمخض عن نضاله في العقود اللاحقة .فقد قسّم بتراس النضال الثوري في التاريخ المعاصر لأميركا اللاتينية إلى موجات أربع[16]:

1) الموجة الأولى (1959 . 1967) من انتصار الثورة الكوبية حتى استشهاد تشي غيفارا.

2) الموجة الثانية (1968 . 1976): الانتفاضات الجماهيرية في الجنوب والانقلابات العسكرية.

3) الموجة الثالثة (1977 . 1990): صعود الحركات الثورية في أميركا الوسطى (السلفادور والثورة السندناستية في نيكاراغوا وصولاً إلى "اتفاقية السلام").

4) الموجة الرابعة: الحركات الثورية الاجتماعية والسياسية الجديدة التي عبّرت عن نضال الهنود الأصلانيين والفلاحين في أرياف أميركا اللاتينية (مثل الانتفاضة الساباتية في المكسيك في مطلع عام 1994) والتي تمتد إنجاراتها حتى يومنا هذا.

---

[16] James Petras, Latin America: Thirty years after Che: Assessment of the Influence of Ernesto 'Che' Guevara, Monthly Review, October 1997.

الفصل السابع

العوامل الذاتية في تكوين غيڤارا

نتناول في هذا الفصل المرحلة المبكرة من حياة غيڤارا أي تلك التي سبقت لقائه بفيديل كاسترو، فهي، إذن، رحلة في السنوات المبكرة من حياة غيڤارا بغية تقصي العوامل والمؤثرات التي عملت على تكوين هذا الثائر.

ولعله من الخطأ أن نبالغ بتأثير العوامل الذاتية المحضة في تكوين الفرد وتقييم دوره في المجتمع والتاريخ، ولكنه من الخطأ أيضاً التنكر له. وعليه، سنحاول تشخيص العوامل والمؤثرات الذاتية والشخصية والعائلية دون أن نغفل العوامل الاجتماعية التي كانت تطبع البيئة التي ترعرع فيها تشي غيڤارا وتنتج نشأته الفكرية والنفسية ودورها في توجيه الفكر والمواهب والصفات الشخصية.

الخلفية العائلية

يعود اسم غيڤارا إلى مقاطعة الباسك في شمال إسبانيا، وهي المقاطعة التي انحدر منها العديد من العائلات العريقة في الأرجنتين. وتعود أسرة غيڤارا إلى أصول إيرلندية (والده) وباسكية

(والدته). ويرى بعض المحللين أنه بالرغم من 'أرستقراطية' جذوره العائلية، إلا أن عائلته أصبحت من الطبقة الوسطى في الأرجنتين بسبب العوز والخسائر المالية التي مُنيت بها.

المنبت الطبقي

على الرغم من أن غيفارا لم يعاني الفقر والجوع كغيره من أطفال أميركا اللاتينية، إلاّ أنه لم يتفاعل مع وسطه العائلي ولم يعاشر أقرباءه كثيراً، كما أن أصدقاءه لم يكونوا من ميسوري الحال بل كان منفتحاً على كافة الفئات الاجتماعية وأكثر تقرباً من الفقراء والأشقياء منهم.

حظي غيفارا بتعليم عالٍ في كلية الطب في جامعة بوينس آيريس في العاصمة الأرجنتينية، ما كان من الممكن أن يوفر له أسباب الحياة الكريمة كطبيب في تلك المدينة الكبيرة. أما شقيقته سيليا فقد كانت مهندسة معمارية، وشقيقه روبرتو محامياً وشقيقته الأخرى آنا ماريا كانت أيضاً مهندسة معمارية. ولكن على الرغم من منبته الطبقي وتحدره من عائلة أرجنتينية أوروبية بيضاء، إلا أن غيفارا انحاز طيلة مسيرته الثورية للفقراء والمهمشين ولم يشقّ درب الثورة لمنفعة شخصية أو مصلحة خاصة.

والدان غير تقليديين

انخرط والدا غيڤارا، خلال سنوات نشأته المبكرة، في القضايا السياسية والاجتماعية التقدمية التي عصفت بالأرجنتين والعالم في تلك الآونة، وتضامنا بشكل خاص مع مناضلي الحرب الأهلية الإسبانية (1936 . 1939). فبعد هزيمة الجمهوريين في تلك الحرب وانتصار الديكتاتور فرانكو لاذ العديد من المناضلين الإسبانيين إلى الأرجنتين طالبين اللجوء السياسي. وقد ناصر والدا غيڤارا هؤلاء اللاجئين السياسيين وكان لهما الكثير من اللقاءات والاتصالات مع قادتهم السياسيين والعسكريين الذين عايشهم غيڤارا خلال سنوات نشأته المبكرة وتأثر بهم.

ترعرع غيڤارا في بيت لا يأبه بالقيم التقليدية، وبقي أميناً لنشأته هذه، فلم يكترث بالطقوس والتقاليد البالية ولم يأبه بالهندام، وكان يكره ربطات العنق والجاكيتات واللباس الأنيق ويرفض المشاركة في الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية. وتروي هيلدا غاديا، الشيوعية البيروانية وزوجة غيڤارا الأولى، أنه كان يتندر بولع الكوبيين بالنظافة الشخصية وتغيير ملابسهم بعد الانتهاء من أشغالهم اليومية، وتنقل على لسانه قوله: هذا جيد، ولكن ماذا سنفعل ونحن في الجبال؟ إنني أشك أنه سيكون لدينا صابوناً يكفي لغسيل صحوننا كي لا يصيبنا المرض.[17]

[17] Farber, The Politics of Che Guevara, p. 11.

كان غيفارا يحب السير على الأقدام مسافات طويلة، وقد عُرف بنزعته لبساطة العيش وكثيراً ما كان يجد نفسه بدون نقود. ويمكننا القول بان حياة غيفارا ومسلكه قد خلا من كافة المظاهر الرسمية المتحجرة كما تشهد على ذلك علاقاته مع الآخرين ومسلكه في الاجتماعات واللقاءات الرسمية والدبلوماسية حين مثّل الحكومة الكوبية في منظمة الأمم المتحدة ومنظمة التضامن الأفرو. أسيوي ولقاءاته مع رؤساء الدول وغيرها من المنابر الدولية.

والدة غيفارا: أم متمردة

تحدرت الوالدة سيليا *Celia* من عائلة كاثوليكية وترعرعت في بيئة متدينة صارمة، إلاّ أنها انقلبت على معتقداتها وتدينها وتخلت عنها حين أحبت والد غيفارا الذي كان يتعاطف مع الحزب الاشتراكي. وقد تمت خطبة والدي غيفارا رغم معارضة وامتعاض أسرة والدته فكان أن تمرد العروسان على مراسيم الزواج التقليدية السائدة آنذاك.

كانت والدة غيفارا إحدى أوائل نساء الأرجنتين اللواتي لبسن البنطلون وظهرن في الحياة العامة، وكان شعرها قصيراً جداً وهو الأمر الذي لم يكن مألوفاً في تلك الآونة. وكانت تقود سيارتها بنفسها، كما أنها كانت تحتفظ بحساب بنكي خاص بها.

بيد أن الأهم من هذا كله، أنّ والدة غيفارا كانت واسعة الاطلاع والمعرفة، وكانت، بالإضافة إلى لغتها الأم . الإسبانية، تتقن

الفرنسية وعلى إلمام جيد بالإنكليزية. كانت طموحة ومثابرة وشديدة التصميم على الوصول إلى غايتها، فما أن شرعت بعمل إلاّ وأنجزته مهما تكلفت من جهد أو تضحية ومهما بلغ الثمن. إلى ذلك كانت جريئة ومقدامه لا تردعها مشقات الحياة ومخاطرها.

الأم والابن: علاقة خاصة... ومميزة

كان إرنستو غيڤارا بكْرَ أمه ولم يتمكن بسبب مرض الربو ونوباته المتكررة من متابعة الدوام المدرسي بشكل دوري، وكثيراً ما كان يتغيب عن المدرسة، فما كان من والدته إلا أن أخذت على عاتقها مسؤولية تدريسه حينما كان يلزم فراش المرض.

هكذا، لازمت الأم طفلها أياماً طويلة حين كان يقعده المرض وأعانته على القيام بواجباته المدرسية ومتابعة تعليمه كي لا يحول المرض دون ذلك. وهكذا توطدت العلاقة الوثيقة بين إرنستو الصغير وأمه منذ نعومة أظفاره وبقيت كذلك طيلة حياته. وقد حافظ غيڤارا على مراسلة والدته باستمرار فكان يشاركها همومه ويحيطها علماً بأخبار أسفاره وتنقلاته.

المرض: الربو

أصيب الطفل إرنستو غيڤارا بالتهاب الرئتين بعد ولادته ببضعة أيام وما أن بلغ الربيع الثاني من عمره حتى أخذ يعاني من

مرض الربو ونوباته التي صاحبته طيلة حياته وكثيراً ما أقعدته الفراش.

كان مرض إرنستو سبباً في تنقلات أسرته المتعددة، حيث اضطرت العائلة للتنقل في أماكن سكنها بحثاً عن طقس أكثر ملائمة لصحته أملاً في التخفيف من وطأة نوبات الربو. كما كان للمرض وشدة نوباته كبير الأثر على نمو الطفل إرنستو. فعلى سبيل المثال، كانت الكلمات الأولى التي نطق بها: "بابا، إبرة"، مستغيثا بوالده أن يسعفه بحقنة الدواء (الأدرينالين) كي تعينه على التقاط أنفاسه. وقد ولَّد المرض في غيفارا الصبر وشدة العزيمة، فتسلح بآليات المقاومة ومواجهة المرض وتحديات الحياة، وربما كان السبب في أفعاله التي كثيراً ما كانت تطمح إلى تحقيق "الممكن الأقصى" إن جاز التعبير والتغلب على الصعوبات والعقبات التي تعترض سبيله، كما خلق لديه القناعة بأن الإنسان قادر، إذا ما توفرت الإرادة، على القيام بأي شيء. بالإضافة إلى ذلك، تعلم إرنستو الصغير التكيف مع المرض فكان يمارس نشاطاته وألعابه ورياضته رغم نوبات الربو القاسية إذ كانت تحدوه الرغبة في مشاركة أقرانه اللعب واللهو.

كان مرض الربو السبب في إعفاء غيفارا من الخدمة العسكرية، ولكنه أرغمه على التزام الفراش ساعات بل أياماً عديدة مما وفر له فترات طويلة من المطالعة والتفكير والتأمل في سنوات النشأة المبكرة والتي سرّعت من نضوجه الفكري والإنساني. هكذا تغيرت معالم حياة غيفارا وإلى الأبد، وهكذا صَقَلت القراءة

والمطالعة شخصيته منذ صغره وأصبحت هوايته المفضلة وجزءاً من طبيعته وعادة لم تبرحه حتى في أحلك ظروف حياته.

حب الطبيعة

يعود شغف غيڤارا بالطبيعة والأدغال إلى طفولته المبكرة حيث قضى تلك السنوات في شمال الأرجنتين.[18] ولعل الفضل في حبه للطبيعة يعود إلى والديه اللذين اختارا أن يقيما في شمال البلاد (إقليم *Misiones*) حيث الطبيعة الخلاّبة والغابات الكثيفة. ويبدو أن جده أيضاً كان مولعاً بالطبيعة والمغامرة وكان إرنستو الطفل يقضي ساعات طويلة يستمع بشغف لوالده الذي كان يحدثه عن مغامرات جده بتفاصيل وحكايات تركت في نفسه عميق الأثر.

ينحو دارسو سيرة غيڤارا إلى تفسير حبه للطبيعة وللهواء الطلق وفسحة المكان إلى إصابته بالربو وتعطشه الدائم للهواء والتنفس بحرية. وهذا صحيح. إلاّ أنه تجدر الإشارة أيضاً إلى أن تنقلات أسره غيڤارا وإقامتها في أماكن متعددة تتميز بالطبيعة الخلاّبة والهواء الطلق كان لها كبير الأثر على نشوء هذه النزعة لديه. فقد بقي حتى لحظة وفاته يتطلع دوماً للعيش في الطبيعة المفتوحة والهواء الطلق رغم ما رافق ذلك من صراع متواصل مع

[18] من باب المفارقة، يلحظ والد غيڤارا في كتابه عن ابنة أنه لقي مصرعه في الأدغال البوليفية المجاورة والتي تشابه في مناخها وتضاريسها شمال الأرجنتين.

نوبات الربو. وقد لازمت هاتان السمتان . التوق للطبيعة والصراع مع المرض . غيفارا في كافة منعطفات حياته وشكلتا عاملاً حاسماً في تكونيه النفسي.

الشجاعة وتحدي المخاطر

أحب غيفارا تحدي الخطر وشَغُفَ بتسلق المرتفعات والجبال وتلذذ بعبور الجسور خصوصاً إذا جرت من تحتها الأنهار. وقد تحلى بشجاعة وقوة إرادة نادرة،

إضافة إلى ما عُرف عنه من عناد لازمه طيلة حياته، وكذلك ظلّ إرثه وأفكاره التي لا تزال ثابتة بعناد عقوداً بعد استشهاده. وهذا أمر تنفرد به ندرة من الأفراد في التاريخ، وهم أشخاص متميزون: فقد فعل غيفارا ما قال انه سيفعله، كما أنه قال ما كان يؤمن به ويفكر به، وهما أمران نادران بين الساسة.

ولا شك أن أيام التدريب للكفاح المسلح استعداداً للثورة الكوبية صلّبت عود غيفارا وكذلك فترة السجن التي قضاها في المكسيك. كل هذا جعل منه رجلاً صلباً وأهله لحياة الثورة المقبلة. وقد حفلت حياة غيفارا بالمواقف والأحداث التي تأكد هذه الخصال، فلا غرابة، إذن، أن منحه كاسترو، بعد فترة وجيزة من انطلاقة الثورة الكوبية، لقب "كوماندانتى" ***comandante*** وهو أعلى مرتبة عسكرية في قوات الثورة آنذاك.

وقد تجلت شجاعته في لحظات حياته الأخيرة لدى وقوعه في الأسر، إذ أنه لم يستسلم إلا بعد أن جُرح في قدمه، وأصاب العطب مسدسه فتعطل عن العمل، واشتدت نوبات الربو التي أخفق في النجاة منها بسبب افتقاره للدواء. كما تجلت في صرخته في وجه الضابط البوليفي المخمور حين دخل عليه لتنفيذ أمر إطلاق الرصاص على غيفارا، فما كان من غيفارا إلا أن صاح به أن يطلق الرصاص "فلن تقتل سوى رجل".

هكذا، وبشجاعة قلّ نظيرها، استقبل غيفارا لحظة استشهاده.

الفصل الثامن

رحلات تشي: البحث عن القضية.. الثورة

تمثل رحلات غيڤارا بعداً مهماً ودائم الحضور في مسيرته وفي فهمه الدقيق للواقع الاجتماعي في أميركا اللاتينية والتصاقه به. ولعلنا نجد في هذه الرحلات أول التعبيرات عن التناغم بين النظرية والممارسة العملية الذي اتسم به غيڤارا وكان واحداً من أعند نماذجه.

أحبَ غيڤارا منذ طفولته حياة التنقل حيث اعتاد السفر مع والديه، وقد زودته هذه الأسفار بالخبرات التي استثمرها لاحقاً في رحلاته، كما هيأت له التماس المباشر مع الطبيعة والتفاعل معها وهو ما كان يعشقه. ولا شك في أن غيڤارا الشاب كان مدفوعاً في رحلاته المتميزة بحب التجوال والتعرف على بلده الأرجنتين وغيره من بلدان أميركا اللاتينية، إلاّ أن القراءة الأمينة لرحلاته الطويلة والمتكررة والمحفوفة بالمخاطر وشحة المال وما كانت تتطلبه من جهد كبير، تقودنا إلى الاستنتاج بان غيڤارا الشاب لم يكن يبحث، من وراء تلك الأسفار، عن مجرد السياحة، بل كان يسعى إلى تلمس الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لشعوب تلك القارة ومعاينة معاناتهم جرّاء الفقر والاستغلال وقمع الأنظمة الديكتاتورية التي نصّبتها الإمبريالية الأميركية في تلك البلدان.

الرحلة الأولى (الأول من يناير 1950): كان غيفارا قد بلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً حين قام بهذه الرحلة وكان حينها طالباً في كلية الطب، وخلالها جال بلده الأرجنتين ووقف للمرة الأولى أمام واقع الظلم والفقر وغياب أدنى أشكال العدالة الاجتماعية في بلده وشاهد التفاوت السحيق في مستوى المعيشة والظروف الاجتماعية والاقتصادية في المقاطعات الأرجنتينية المختلفة والتي كان يعيش بعضها "كدولة داخل دولة".[19]

الرحلة الثانية (4 يناير 1952): شرع بها غيفارا بعامين بعد رحلته الأولى بصحبة صديقه ألبرتو غرانادو، وضمت، بالإضافة إلى الأرجنتين، عدداً من دول أميركا اللاتينية. وقد أكدت هذه الرحلة لغيفارا بان الظروف الاجتماعية والاقتصادية لشعوب تلك القارة لم تكن تختلف عن أوضاع الجماهير الأرجنتينية، إن لم تكن أسوأ وأكثر تردياً، كما أغنت معرفته وإلمامه بأجزاء عديدة من القارة اللاتينية. هكذا استطاع غيفارا أن يلمس بشكل شخصي ومباشر معاناة الجماهير وأن يعايش ظروفها القاسية.

وكان أثر هذه الرحلة عليه كبيراً وواضحاً في حياته كما جاء في مذكراته "ملاحظات من الرحلة". منذ تلك اللحظة، لم يعد غيفارا نفس الشخص الذي غادر الأرجنتين، كما قال. فقد تُوفي هذا الشخص الأول كما كتب في تلك المذكرات "الذي وطأت قدماه تراب الأرجنتين مرة أخرى لدى عودته إليها". "لم أعد أنا نفسي، على

---

[19] ما زالت هذه الفوارق الاجتماعية، بعد ما ينوف عن نصف قرن من رحلات غيڤارا شاهدة على تفاقم الفقر والظلم الاجتماعي في ظل السياسات النيوليبرالية الإمبريالية في الأرجنتين وشتى بلدان أميركا الجنوبية والوسطى.

الأقل لم أعد ذات الشخص. فقد غيرني هذا الترحال عبر أميركتنا أكثر مما ظننت".

الرحلة الثالثة والأخيرة: قام بها غيفارا وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وهي الرحلة التي وسعت آفاقه وخبراته الشخصية والفكرية والنفسية وسارعت في إنضاج تطوره الثوري والسياسي والأيديولوجي. كان لهذه الرحلة، الأخيرة قبل أن يلتحق بالثوار الكوبيين في تموز/ يوليو 1955، الفضل الكبير في صقل شخصية غيفارا وتكوينه الثوري.

جال غيفارا في هذه الرحلة بوليفيا والبيرو والإكوادور وبنما وكوستاريكا ونيكاراغوا وهندوراس والسلفادور وغواتيمالا حتى حط به الرحال في المكسيك. في كوستاريكا وغواتيمالا التقى العديد من الكوبيين الذين ساهموا في الهجوم على الثكنة العسكرية المونكادا (26 يوليو 1953) وهي المحاولة الثورية الأولى التي قادها كاسترو ضد الدكتاتور باتيستا.[20]

في رحلته هذه وخلال إقامته في غواتيمالا عام 1953 التقى غيفارا بالصحفية الشيوعية البيروانية هيلدا جاديا *Hilda Gadea* والتي أصبحت زوجته الأولى وأنجبت طفلتهما الأولى هيلديتا *Hildita* (هيلدا الصغيرة).

انخرط غيفارا في حركة المقاومة في غواتيمالا عام 1954 التي ساندت آنذاك الحركة الديمقراطية التي تزعمها يعقوب أربينز

---

[20] راجع "ثبت المصطلحات".

Jacobo Arbenz بعد أن أطاحت بحكمه (سبتمبر 1954) وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية وكانت تلك، كما يُرجح بعض المحللين، من أولى تجليات ما سُمي بحقبة "الحرب الباردة" بين المعسكرين.

بعد هزيمة الحركة الديمقراطية غادر غيفارا غواتيمالا إلى المكسيك. ونظراً للأهمية التي تحظى بها تجربته في غواتيمالا في اكتمال نضوجه الفكري والسياسي، فسوف نعود إليها لاحقاً بمزيد من التفصيل والمناقشة. (أنظر فصل: "غواتيمالا: التجربة والمنعطف").

السياق التاريخي والسياسي لرحلات غيفارا

في حين اتسمت الحقبة التي قضى فيها غيفارا سنوات طفولته ومراهقته بعلاقات الهيمنة الإمبريالية التي شملت أميركا اللاتينية وما صاحبها من تقلبات وتوترات اجتماعية وسياسية عاصفة، فإن مرحلة شبابه واكبت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وما حملته من هزّات عميقة على كافة الأصعدة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فقد سادت أميركا اللاتينية، والعالم بشكل عام، عملية "تعافي" اقتصادي تميزت بتغلغل رأس المال الأجنبي وتشوه البنية التنموية في تلك البلدان والذي جاء نتيجة شحة رأس المال المحلي مما أدى إلى احتجاز التنمية وتبعيتها للهيمنة الخارجية واستنزاف اقتصادات تلك البلدان ومواردها.

كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي سادت البلدان التي زارها غيڤارا في أميركا اللاتينية قد تفاقمت إلى درجة كبيرة وشكّلت المقدمات المادية لمشهد القارة اللاتينية الذي نعيشه اليوم. وكان لهذه الأوضاع بالغ الأثر على كافة مستويات الحياة العامة في أميركا اللاتينية، كما أنها شكّلت عاملاً حاسماً في تكوين تشي غيڤارا السياسي والثوري دون أن يكون هو ذاته قد ألمّ ب أو تلمس كل هذه التفاصيل وربما لم يكن مدركاً لأهمية هذه الأحداث.

خلاصة القول، أن أوضاع الشعوب والجماهير بقطاعاتها الفقيرة والمعدمة، والتي شكلت في كل الأحوال الأغلبية السكانية من تلك المجتمعات، هذه الأوضاع صعقت غيڤارا وأشعلت فيه فتيلة النضال والتصميم على الدفاع عن هذه الجماهير.

أما في بلد غيڤارا، الأرجنتين، فقد شهد عقد 1945 . 1955 نهوضاً اقتصادياً وارتفاعاً في مستوى المعيشة حيث ارتفعت الأجور بنسبة 50%، كما رافقت هذا النهوض تحولات نوعية وكمية في البنى الاقتصادية وتفوق القطاع الصناعي على الزراعي مما أدى إلى تغيرات في سياسات الحكومة الأرجنتينية.

وعلى المستوى الدولي، اتسمت تلك المرحلة بعدة ملامح أهمها:

. استقطاب الأوضاع السياسية في العالم بين المعسكرين، الاشتراكي والرأسمالي.

. توحش الإمبريالية الأميركية وصعود اليمين في الولايات المتحدة واشتداد هستيريا المكارثية والعداء للشيوعية.

. انتصار الاتحاد السوڤييتي ودول أوروبا الشرقية على النازية والفاشية وصعود بلدان المنظومة الاشتراكية.

. انتصار الفيتناميين في معركة دين بين فو عام 1954 حيث هزم الثوار الشيوعيون الفيتناميون المحتل الفرنسي.

- اندلاع الحرب الكورية (حزيران/ يونيو 1950 – تمّوز/ يوليو 1953)

. نهوض حركات التحرر الوطنية في العالم الثالث وظهور أنظمة وطنية تسعى إلى تلبية المطالب الشعبية، وتحدي الهيمنة الإمبريالية والأجنبية القائمة في تلك البلدان (على سبيل المثال الحركة الثورية في غواتيمالا (1951 . 1954)، حكومة مصدق في إيران (1953)، ثورة يوليو في مصر (1952)، الثورة الجزائرية (1954 . 1962) وغيرها).

أسفار غيڤارا: مشاهدات ودلالات

تكتسب الرحلات التي قام بها غيڤارا في بلده الأرجنتين وعبر القارة اللاتينية أهميتها من حيث أنها تعيننا على فهم تطوره الفكري والثوري، من ناحية، ومن الناحية الثانية فإنها تشير بوضوح إلى عزمه المبكر للتعرف على تلك القارة وأوضاع شعوبها، هذا العزم

الذي كان بمثابة امتداد طبيعي وعملي لرغبته في اكتساب المعرفة النظرية في الفلسفة والاجتماع والسياسة. ويمكننا القول بأنه منذ تلك اللحظة أصبحت النظرية والممارسة توأمين في مسيرة غيڤارا ونضاله.

تدلل رحلات غيڤارا في هذا السياق على أمرين أساسيين:

1) العودة إلى الطبيعة والتلامس معها ومقاومة مرض الربو الذي كانت تشتد وطأته وتزداد نوباته سوءاً ووتيرةً بتغير الأحوال الجوية. وهكذا عمقت هذه الرحلات تجربة غيڤارا مع الطبيعة وحبه لها وولعه بالحياة خارج جدران البيوت.

2) يسّرت هذه الأسفار لغيڤارا التعرف على أوضاع الشعوب والفقراء في القارة اللاتينية وهو ما ترك أثراً دائماً على تكوينه وتطوره الفكري والسياسي وشكل لاحقاً مؤشراً واضحاً لمسيرته ونضاله. وقد ساهم هذا الالتصاق المباشر بالواقع المادي للشعوب، والتعرف عن كثب على معاناتها، في صقل مفاهيم في الثورة والتغيير وفي هذا تحديداً تكمن أهمية ودلالات رحلاته المتعددة.

صُعق غيڤارا لما شاهده في رحلاته من تناقض صارخ بين فقر الإنسان، من جهة، وغناء الطبيعة ووفرة الموارد الطبيعية في بلاده وفي القارة اللاتينية من جهة أخرى. وقد ترك هذا التناقض في نفسه أثراً عميقاً لم يبرحه طيلة حياته. التقط غيڤارا تلك التناقضات بحس مرهف فأضحت القوة الدافعة لأفعاله وساهمت

في صياغة شخصيته المرهفة الحس وتعزيز التزامه الطبقي بالفقراء وقضاياهم فنذر ذاته للنضال في سبيلها. وربما نستطيع أن نعقد المماثلة، من حيث السياق على الأقل، بين التأثيرات التي تركتها رحلات غيفارا على فكره السياسي ومسيرته الثورية، وتلك التي تأثر بها فريدرك إنجلز قبل ذلك بقرن من الزمن حينما شاهد الفقر المدقع الذي فتك بعموم الطبقة العاملة الإنكليزية نتيجة الاستغلال الرأسمالي ودونها في كتابه "أوضاع الطبقة العاملة في إنجلترا" (1845).

اطلع غيفارا خلال زيارته لعاصمة حضارة الإنكا القديمة، بلدة كوزكو في بيرو على حضارة الإنكا من الشعوب الهندية الأصلانية والأطلال المذهلة لمعبد ماتشو بيتشو *Picchu Macchu*، وشاهد بأم عينيه تبعات وآثار أربعة قرون من الاستعمار الأوروبي الأبيض لأميركا اللاتينية والظلم الذي تعرض له الهنود الأميركيون الأصلانيون على أيدي هؤلاء الفاتحين المحتلين. ومما لا شك فيه أن ما شاهده غيفارا في البيرو ظل محفوراً في ذاكرته وجدانه وولد فيه أقصى مشاعر الكراهية للقوة الإمبريالية المهيمنة.

يمكننا أن نوجز أهمية أسفار غيفارا ودلالاتها في النقاط التالية:

1) كانت هذه الأسفار امتداداً طبيعيا وتلقائيا لرغبة غيفارا في المزيد من المعرفة النظرية التي كان يطلبها بلا كلل وبشكل مبرمج.

2) كما كانت امتداداً عملياً لممارسة وتطبيق هذه المعرفة. إذ أن غيفارا أحب السفر الذي أصبح حياته ومصيره، إلا أن أهم ما في

أسفاره أنها كانت وسيلته في تلمس درب الثورة وجغرافيتها، وبهذا المعنى كانت رحلاته بحثاً في المعنى والجوهر وسعياً وراء مشروع الإنسان الجديد، مشروع غيفارا في الثورة.

3) شاهد غيفارا تاريخاً طويلاً من الغزو والاستغلال المستمر لأميركا اللاتينية من قبل الكولونيالية الإسبانية ولاحقاً الإمبريالية الأمريكية، أدى إلى تعزيز وعي قوي مناهض للإمبريالية بين الطبقات المستغلة. في النصف الأخير من القرن العشرين، توجهت هذه المرارة إلى حد كبير حيال الإمبرياليين من أميركا الشمالية.

4) ساهمت هذه الرحلات في صياغة الفكر السياسي والثوري لغيفارا وبوادر الوعي الشيوعي المبكر في بحثه عن الحلول السياسية والأخلاقية لتلك المشاكل. وهناك عاصمة البيرو، على سبيل المثال، التقى غيفارا بالدكتور بيسكى ***Pesce***، الطبيب والشخصية البارزة في الحزب الشيوعي البيرواني، والذي كان لحواراته مع غيفارا كبير الأثر في تكون هذا الأخير الفكري والماركسي.

5) أما على المستوى الشخصي، فقد وضعت رحلاته وخاصة الأخيرة منها، حداً "للأحلام" والمشاريع الشخصية في النجاح المهني والشخصي، ليستبدلها بالالتحام بقضايا الفقراء والمعدمين. وهكذا، انتقل غيفارا من الطبيب الذي يكتفي بمعالجة المرض، إلى الثوري الذي يناضل من أجل اجتثاث جذوره بما فيها من استغلال وظلم وفقر وأمية. وهنا يسهل أن نلحظ انه بقدر ما انصرف غيفارا بعيداً عن "المشروع الشخصي" بقدر ما أخذ يقترب من مشروع الثورة وأخذ يصيغ رؤية ونهجاً ثوريين مختلفين: فلا خلاص من

الآفات الاجتماعية بحلول وسطية وتوفيقية، بل إن محوها لا يتأتى إلا بثورة شاملة تدمر النظام القائم وتجتثه من جذوره لتقيم مكانه نظاماً جديداً.

وسيتجلى تأثير هذه الرحلات على مسيرته الثورية في المفاهيم والشعارات الرئيسية التي رفعها غيڤارا طيلة حياته وفي إرثه الذي خلفه لنا وللأجيال الشابة، والذي يفسر لنا ديمومة غيڤارا:

. معاداة الإمبريالية دون مهادنة.

. العنف الثوري والكفاح المسلح كوسيلة رئيسية للنضال.

. الاشتراكية، الأخلاقية الشيوعية، الإنسان الجديد (والمجتمع الجديد): إنسان القرن الحادي والعشرين، أممية النضال، ماركسية العالم الثالث، سمات النضال في القارة اللاتينية ووحدة شعوب هذه القارة.

قد تتعدد الأسباب التي أثرت في اتجاه مسيرة غيڤارا وقد يتعذر إيعازها وتفسيرها بسبب واحد، فقد كان غيڤارا بلا شك مهتماً بالأفكار السياسية، كما أنه كان ناقماً على الأوضاع الاجتماعية التي شاهدها في بلدان أميركا اللاتينية، غير أنه من المؤكد أنه كان شديد التأثر على وجه الخصوص بالتقلبات الاجتماعية القوية التي شهدها خلال إقامته في بوليفيا وغواتيمالا. وعلى الرغم من تعدد الأسباب والعوامل، فإنه من الواضح أن حياته اتخذت اتجاهاً جديداً ومنعطفاً حاداً وغير متوقع بعد رحلته الأخيرة ومعايشته لأحداث هذين البلدين، وهو ما سيكون موضوع الفصل التالي.

الفصل التاسع

غواتيمالا: التجربة والمنعطف

"وُلدتُ في الأرجنتين، وقاتلتُ في كوبا، وأصبحت ثورياً في غواتيمالا."

تشي غيفارا

غيفارا في بوليفيا عام 1953

بالطبع بوسع المرء أن يضيف إلى ما قاله غيفارا أعلاه: "واستشهدت في بوليفيا التي أحببتها". فقد أخذته الأسفار بعيداً عن وطنه ومسقط رأسه، كي تعود به بعد دورة حياة كاملة ليُقضى شهيداً في أقرب بقعة من موطنه: بوليفيا، ومن أجلها.

لعل بوليفيا من أكثر المفارقات دلالةً في مسيرة غيفارا، ولا نقصد هنا استشهاده فيها عام 1967 وحسب، بل إقامته فيها عام 1953 حيث غُرست البذور الأولى لتكوينه الثوري.

وصل غيفارا إلى بوليفيا عام 1953، حيث استقر به الترحال في سياق أسفاره. وكان ذلك بعد انتصار الثورة البوليفية عام 1952 بقيادة الحركة الوطنية الثورية *MNR* التي سعت إلى تغيير جذري في

البنية الاقتصادية والاجتماعية وتصفية قوى التحالف الاقتصادي التي كانت تتحكم بثروات المعادن وإقامة نظام وطني والحفاظ على السيادة الوطنية في وجه الاوليغارشية والإمبريالية الأميركية. فكان تأميم المناجم من أول إجراءات الحكومة الجديدة في مرسوم (31 أكتوبر 1952) والإصلاح الزراعي (2 أغسطس 1953).

انخرط غيڤارا خلال إقامته في بوليفيا مع مجموعة من النشطاء السياسيين وشاركهم المناقشات السياسية في مهام المرحلة وضرورات التغيير الثوري. وهناك التقى أيضاً ببعض أفراد الجالية الأرجنتينية الذين كانوا يقيمون في العاصمة البوليفية لاباس (وفق النطق الإسباني *La Paz*) وينعكس تأثير الأحداث الاجتماعية العاصفة التي شهدتها بوليفيا في تصريحات غيڤارا عن الجالية الأرجنتينية المقيمة هناك وقياداتها واصفاً إياها: "عفا الزمن عن أفكارهم منذ أمد" وأنهم حافظوا على "هذه الأفكار بشكل منعزل ومنفصل تماماً عن الإعصار البروليتاري التي انفجر في بوليفيا آنذاك."

تركت العملية الثورية التي شاهدها في العاصمة البوليفية الانطباع الأكثر ديمومة على غيڤارا. فقد وصف بوليفيا في إحدى رسائله إلى أسرته كبلد "مفعم بالحركة والحيوية ويثير الاهتمام". وقبيل إقرار الإصلاح الزراعي في الثاني من آب 1953، كتب إلى والده في يوليو 1953 معبراً عن رغبته في البقاء في بوليفيا لفترة أطول فـ"هذا البلد مثير للاهتمام للغاية، فهو يعيش لحظة من الفوران الثوري". وبعد ذلك اندلع القتال والمعارك في جميع أنحاء البلاد.

ولعله يكفينا في هذه المرحلة من التطور السياسي لغيفارا، أن نلحظ تأثير الأحداث في بوليفيا على آرائه. فللمرة الأولى في حياته، يتأثر غيفارا مباشرة بلهيب الثورة، بينما كان في الماضي ورغم تسارع الأحداث مراقباً بدل أن يكون مشاركاً وناشطاً. وفي خضم الأحداث في بوليفيا، نراه يوجز آراءه ووجهة نظره السياسية محدداً بوضوح وللمرة الأولى اتفاقه أيديولوجياً مع الأفكار الاشتراكية، حسب ما جاء في رسالة إلى خالته بياتريس (بتاريخ 10 كانون الأول 1953) والتي كانت تجمعه بها علاقة خاصة ووثيقة.

غواتيمالا في التكوين الثوري لتشي غيفارا

إذا كان للأحداث في بوليفيا تأثير كبير على غيفارا، فإن التطورات في غواتيمالا، حيث انخرط بالنشاط السياسي للمرة الأولى، قد غيرت اتجاه حياته إذ أعلن عن موقفه وتأييده للحركة الثورية في ذلك البلد وعبّر عن بعض الأفكار التي رصد حياته من أجلها.

مع وصوله إلى بلدان أمريكا الوسطى، بعد تنقله في أميركا الجنوبية، يكون غيفارا قد دخل عالماً مختلفاً إلى حد ما عن ذلك في الجنوب من أمريكا اللاتينية. فقد هيمنت الإمبريالية في بلدان الجنوب بالتشارك مع الطبقة الرأسمالية الوطنية الضعيفة. غير أن حضور الطبقة العاملة في المدن كان قوياً، كما أن انخراط سكان المدن في الحياة السياسية كان أكثر نضوجاً، وعليه كانت

مجتمعات أميركا الجنوبية أكثر تطوراً. كان هذا هو الحال حتى في أفقر بلدان أميركا الجنوبية في ذلك الوقت مثل بوليفيا وبيرو. أما في بلدان أميركا الوسطى فقد كان الإمبرياليون يتصرفون وكأن البلاد وأهلها وثرواتها ملكية خاصة بهم وذلك من خلال شركاتهم الكبرى مثل *United Fruit Company* وغيرها.

خلال إقامته في غواتيمالا، التقى غيڤارا العديد من الثوار والنشطاء السياسيين وانخرط في النضال هناك ضد الإمبريالية، وكان من بينهم مناضلون كوبيون كانوا قد اتخذوا من غواتيمالا ملاذاً سياسياً لهم.

الإقامة في غواتيمالا

وصل غيڤارا إلى غواتيمالا بين الثالث والعشرين والرابع والعشرين من ديسمبر عام 1953 وعايش التجربة الديمقراطية وإنجازاتها في ذلك البلد والتي شملت الإصلاح الزراعي وتأميم الشركات الأجنبية الكبرى. وكان غيڤارا آنذاك متواجداً مع مجموعة كبيرة من المغتربين من شتى دول أميركا اللاتينية.

حصل غيڤارا، خلال إقامته في غواتيمالا، على عمل كطبيب في أحد المستشفيات حيث تعرف على هيلدا جاديا وتزوج منها. كانت هيلدا بيروانية اتخذت من غواتيمالا مقراً للجوئها السياسي بعد أن أبعدت من وطنها البيرو بسبب نشاطها السياسي كزعيمة لمنظمة شبابية راديكالية، وكانت شيوعية، وإليها يعود الفضل في تعريف

غيڤارا بالعديد من الأدبيات السياسية والماركسية بشكل خاص بما في ذلك بعض أعمال ماو تسي تونغ.

انضم غيڤارا إلى منظمة الشبيبة الشيوعية في غواتيمالا وانخرط في حركة المقاومة التي ساندت آنذاك الحركة الديمقراطية (1951 . 1954) التي تزعمها *Arbenz Jacobo* والتي أطاح بها انقلاب سبتمبر 1954 بدعم وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. وبحكم كونه مواطناً أجنبياً، اضطر غيڤارا، في خضم الأحداث العارمة وحملة الاعتقالات التي تلت الإطاحة بتلك الحكومة، إلى اللجوء إلى السفارة الأرجنتينية في غواتيمالا لحماية سلامته الشخصية حيث أخبره العاملون في تلك السفارة بان المخابرات المركزية الأميركية *CIA* كانت قد لاحظت نشاطه السياسي وأخذت ترصد تحركاته وفتحت له سجلاً استخبارياً في ملفاتها.

قضى غيڤارا شهراً في السفارة الأرجنتينية وكان ذلك في ظل حكم الرئيس الأرجنتيني بايرون. وعندما عُرضت عليه العودة إلى الأرجنتين، رفض ذلك ومكث في سفارة بلاده إلى أن تمكن من مغادرة غواتيمالا متجهاً نحو الشمال: هذه المرة إلى المكسيك (أواسط سبتمبر 1954) حيث التقى فيدل كاسترو وأخاه راؤول في صيف 1955 لينضم لاحقاً إلى الثورة الكوبية.[21]

---

[21] أقام غيڤارا شهراً في سفارة بلده الأرجنتين كلاجئ سياسي مع العديد من الشباب الذين أصبحوا لاحقاً قادة في الأحزاب الشيوعية وحركات التحرر في غواتيمالا والسلفادور.

الأوضاع السياسية في غواتيمالا

خلفية

قام في أواخر أربعينات القرن الماضي في غواتيمالا نظام حكم جديد بقيادة رافائيل أريفالو *Rafael Arevalo* واعداً بتحقيق الديمقراطية والعدالة والتقدم للشعب الغواتيمالي. وفي عام 1952 تم انتخاب الضابط الشاب يعقوب آربنس *Arbenz Jacobo* رئيساً للبلاد (من مارس 1951 إلى يونيو 1954). وكان تأميم الشركة الأميركية الكبيرة *United Fruit Company* أول ما وعد به إضافة إلى توزيع "التعويضات" من ريع تأميمها على الفلاحين المعدمين، كما شرّع آربنز بتشكيل النقابات العمالية المستقلة والتي كان الحزب الشيوعي آنذاك يلعب دوراً رئيسياً في تنظيمها وقيادتها. حظيت هذه الإجراءات بدعم هائل من الفلاحين في المناطق الريفية وفقراء الشعوب الأصلانية والمُوَلَدين[22] والعمال في المدن، غير أنها أثارت غضب النخبة في غواتيمالا، كما أنها أثارت حنق شركة الفواكه المتحدة وإدارة الرئيس الأميركي أيزنهاور، وسرعان ما أخذت وكالة المخابرات المركزية الأميركية *CIA* بحبك المؤامرات للإطاحة بحكومة الرئيس أربينس.

في أواسط فبراير 1954 تعاظمت الإشاعات عن غزو أميركي لغواتيمالا بغية إجهاض الإصلاحات الاشتراكية التي أنجزها الرئيس

[22] راجع "ثبت المصطلحات".

الغواتيمالي آنذاك. وفي الثامن عشر من حزيران 1954 أخذت القوات العسكرية الأميركية تصل من القواعد الأميركية في هندوراس. وسرعان ما انقضت الإمبريالية الأميركية على هذه الحركة الديمقراطية مستخدمة سلاح الجو ونظمت انقلاباً عسكرياً أطاح بالحكومة تلته حملة واسعة من الاعتقالات والقمع شملت كافة أنحاء البلاد.

أراد الرئيس آربنس أن يتجنب حمام الدم فرفض أن يسلح الشعب والعمّال والفلاحين، فكانت النتيجة القضاء على النظام ودخول غواتيمالا في مسلسل القمع والمذابح لسنوات قادمة.

شكّل هذا الانقلاب المواجهة السياسة الأولى لغيڤارا، الذي كان آنذاك يقيم في غواتيمالا، مع الإمبريالية الأميركية، وربما كان اللحظة الفاصلة[23] بين غيڤارا الرحّالة المتجول بحثاً عن "معركته" وغيڤارا الثائر.[24]

---

[23] تشير الدلائل أنها شكلت أيضاً الصفحة الأولى في ملف غيڤارا غيڤارا لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي في الولايات المتحدة والذي لاحق غيڤارا حتى اغتياله في بوليفيا عام 1967. للاستفاضة:

Michael Ratner (Editor) and Michael Steven Smith (Editor), Che Guevara and the FBI: U.S. Political Police Dossier on the L Latin American Revolutionary. Ocean Press, Melbourne and New York, 1997.

[24] لجأ العديد من الثوار الكوبيين إلى المكسيك بعد فشلهم في الهجوم على القاعدة العسكرية "المونكادا" *La Moncada* في جنوب الجزيرة عام 1953. وقد تم إطلاق سراحهم في عفو عام أراد منه ديكتاتور كوبا باتيستا أن يلمع صورته. وهناك في مرتفعات المكسيك أقام فيدل كاسترو ومجموعة من الثوار الكوبيين قاعدتهم للتدريب العسكري والتهيئة للعودة إلى كوبا وإشعال الثورة فيها.

مؤثرات تجربة غواتيمالا وعبرها

شكل عام 1954 منعطفاً كبيراً في تاريخ غواتيمالا كما أسلفنا، أما في مسيرة غيفارا، فقد شكّلت تجربة غواتيمالا ما بين 1953 و1954 نقطة تحول حاسمة. فقد كتب في إحدى رسائله إلى أسرته واصفاً الأوضاع التي عاينها في في ذلك البلد أنه "لا يوجد بلد ديمقراطي مثل هذا البلد". وقد مثلت تجربته هذه نقلة نوعية من البحث عن قضية نضاله إلى اكتشافه مشروع حياته. فبعد أن تقارب غيفارا مع واقع الجماهير في القارة اللاتينية، جاءت التجربة الغواتيمالية لتكون الحالة الثورية الأصيلة الأولى التي شكلت صعوداً ثقافياً وسياسياً وأيديولوجياً في حياته، كما شكلت امتداداً واستمرارية لدراسته للفلسفة، ولكن هذه المرة بانحياز واضح نحو الماركسية. إضافة إلى أنها منحته فرصة التعرف على العديد من سياسيي ومثقفي تلك الحقبة. وهكذا كانت غواتيمالا وغيرها من تراكمات الوعي بالظلم لشعوب أميركا اللاتينية السبب الأساسي في التحاقه بالثوار الكوبيين.

فما هي أهم تأثيرات التجربة الغواتيمالية على غيفارا وما هي العبر التي استخلصها منها؟

1) الاكتمال الثوري

مع وصوله إلى المكسيك، بعد أن اختتم تجربتيه في كل من بوليفيا وغواتيمالا، كان غيفارا قد اكتمل في نضوجه السياسي والتزامه الصريح بالاشتراكية. ويذهب العديد من المحللين إلى أن

المرحلة الغواتيمالية في حياة غيفارا دشنت الفصل الأخير في تكوينه الماركسي، كما يرون أن السخط الذي أثارته في نفسه معاملة "اليانكي" في الولايات المتحدة (الأميركي الشمالي)[25] لشعوب أميركا الوسطى والجنوبية قد دفع غيفارا إلى التعمق أكثر في دراسة الإمبريالية والرأسمالية والاقتصاد السياسي، وهناك في المكسيك تابع دراسته لأعمال كارل ماركس وفريدرك إنجلز وفلاديمير لينين وغيرهم.

هكذا جعلت تجربة غواتيمالا من غيفارا شيوعياً راديكالياً وإن لم يكن منتظماً في صفوف أي حزب شيوعي، ومن هنا، ربما، ذهب بعض المحللين إلى تسميه بـ"الشيوعي المستقل". هكذا وصل غيفارا إلى المكسيك ليلتحق بالثوار الكوبيين قادماً من غواتيمالا متطوراً في نضوجه الثوري وحاملاً هذه القناعات وعبر التجارب التي استقاها من تجرته في غواتيمالا.

كان غيفارا، قبل تجربته في غواتيمالا، ثورياً في طور التكوين، أما في غواتيمالا، فقد اكتمل نموه كثوري أميركي لاتيني، حسب ما ورد في رسالة كتبها من كوستاريكا (10 ديسمبر 1953). فهي تجربة امتزجت فيها خبرات غيفارا الشاب التي جناها من رحلاته وإيمانه بضرورة تعميق تثقيفه الذاتي (وهو المشروع الذي صقل نزعة غيفارا نحو القومية الأميركية اللاتينية ووحدة شعوب تلك القارة) من جهة، وتأصيل عدائه للإمبريالية من جهة أخرى. يقول

[25] ما درجَ الأميركيون اللاتينيون على تسميته *el Norte Americano* تمييزاً عن شعوب أميركا الوسطى والجنوبية.

غيفارا في هذه التجربة إنها صقلت شخصيته كثائر أميركي لاتيني وعالم ثالثي وإن هناك أمراً واحداً لا يرقى إليه الشك، وهو أن أميركا [اللاتينية] ستكون مسرح نشاطه"... "وفي الحقيقة أعتقد أنني توصلت إلى فهم والى الشعور بأنني أميركي [يقصد أميركي لاتيني... م.ع.] ذو طبيعة متميزة...".[26]

وفي فضائها الأرحب، تتجلى مؤثرات التجربة الغواتيمالية على غيفارا في البعد الأكثر أهمية وحسماً في مساره الثوري، وهو العثور على ضالته والمبادرة بمشروع الثورة، إذ كان قد أكمل حينئذٍ نضوجه كثائر ووصل إلى محطة في تطوره ونموه اتسمت بالسمات التالية:

. إنسانية ثورية مرهفة وعميقة.

. التزام بالفكر الثوري والسياسي الذي جاء حصيلة التثقيف الذاتي الدءوب الذي أضحى جزءاً لا يتجزأ من نشأته وتطوره.

. اعتناقه الفكر الماركسي، كما شهد على ذلك كاسترو لحظة لقائهما في المكسيك صيف 1955.

. الخبرات والتجارب التي حصدها من رحلاته ومعاينته لأوضاع شعوب أميركا اللاتينية.

[26] Garcia, El Pensamiento Politico de Ernesto Che Guevara, p. 5.

. وأخيراً الالتزام بالنضال من أجل تحرير شعوب القارة اللاتينية وتحقيق وحدتها.

يبقى أن نؤكد أن الحديث عن التكوين الفكري لغيفارا ملتصق التصاقاً حميماً بتجربته في الثورة الكوبية وفي دوره في الحكومة الثورية الكوبية وبالمجمل، بالسياق التاريخي لكوبا ولثورتها وطبيعة المهام التي التي فرضها مشروع التنمية وظروفها الموضوعية التي اتسمت بتبعية كوبا وطبقتها الحاكمة للإمبريالية، تبعية قوية للحد الذي لن تسمح معه ولا حتى لبرنامج إصلاح ليبرالي. وكما هو الحال في بلدان أميركا اللاتينية الأخرى كانت الطبقة الرأسمالية المحلة في كوبا ضعيفة جدا وفاسدة ومكبلة الأيادي للإمبريالية لاستكمال مهام الثورة الديمقراطية البرجوازية والتي كان لابد من إنجازها إذا قُدر للمجتمع أن يتطور.

2) الالتزام الحزبي

ليس هناك شك بين دارسي سيرة غيفارا أن تجربته في غواتيمالا شكّلت نقطة التحول الحاسمة في حياته، والتي نقلته من الشاب الثائر والمتمرد أو اليساري المثالي والتائه إلى غيفارا المقاتل والملتزم بقضية الثورة ومصالح الفقراء.

صحيح أن غيفارا أخذ ينشط سياسياً بعد أن غادر بلده الأرجنتين وراح يطوف بلدان أميركا الجنوبية، وصحيح أيضاً أن تجربته في غواتيمالا لم تدفعه لينضم إلى صفوف الحزب الشيوعي، غير أن ما شاهده في ذلك البلد من فقر وقمع ومعاناة الجماهير،

وخصوصاً بين الهنود الأصلانيين الذين كانوا الأكثر جوعاً وفقراً وبؤساً، هيأ غيفارا للالتزام بالعمل الحزبي والتنظيمي وكان الحافز لأن يلتحق بتنظيم سياسي وهو ما فعله حين انضم إلى الثوار الكوبيين المنضوين تحت قيادة كاسترو في المكسيك في صيف 1955.

في غواتيمالا وجد غيفارا نفسه، للمرة الأولى، منسجماً مع البيئة الجديدة من خلال لقائه مع مبادئ وأفكار "حركة الشباب الشيوعي" في ذلك البلد، ومن خلال الانخراط في الحركة الثورية التي مثّلت في تلك الآونة حلم الثورة والتغيير والخلاص للملايين من فقراء أميركا اللاتينية.

3) تحديد العدو: الإمبريالية الأميركية

غادر غيفارا غواتيمالا مقتنعاً قناعةً تامةً بأن الإمبريالية الأميركية هي العدو الأول للتغيير الراديكالي في أميركا اللاتينية، وأن طريق محاربتها هي بالكفاح المسلح لأن أي مساومة أو مصالحة معها تعني في نهاية التحليل التواطؤ معها ومع عملائها المحليين وأدوات الثورة المضادة، وليصبح كل من يتعامل معها لقمة سائغة في خدمة مصالحها الإمبريالية. رافقت هذه القناعة غيفارا طيلة حياته، ولم تأتي تجاربه اللاحقة في كوبا وغيرها من ساحات النضال التي خاضها، إلا لترسخ قناعته وتزيده ثباتاً على مبادئه.

هكذا زرعت التجربة الغواتيمالية في غيفارا عداءً للإمبريالية والرأسمالية إذ شاهد بأم عينيه دور الولايات المتحدة كقوة إمبريالية داعمة للأنظمة الرجعية والديكتاتورية في أميركا

اللاتينية؛ وأيقن بحتمية الصدام بين محاولات التغيير في تلك القارة مع هذا العدو. غير أن هذه التجربة أكدت لغيڤارا بوضوح دور الشيوعيين في هذا النضال، فالتزم منذ تلك اللحظة بالشيوعية. وهكذا لازمه عداءه للإمبريالية وإيمانه بالشيوعية طيلة حياته. وفي رسالة إلى والدته، كتب غيڤارا في تقييمه للأحداث التي ألمت بذلك البلد والضربة العسكرية التي أطاحت بالحكومة الثورية في غواتيمالا، كتب عن دور الشيوعيين الغواتيماليين الذين "صانوا العقيدة" حسب وصفه وأنهم الوحيدون الذين واصلوا النضال، وتابع قائلاً في رسالته تلك "...أعتقد انهم جديرون بالاحترام وأنني، عاجلاً أم آجلاً، سألتحق بالحزب [يقصد الحزب الشيوعي، م.ع.] ".

4) هزيمة وفشل الأوليغاركية العميلة

عاين غيڤارا بوضوح، من خلال التجربة الغواتيمالية، الحصار الدائم والفشل المتكرر للاوليغاركية المحلية الرجعية وردة الفعل الإمبريالية حيال برنامج حكومة الرئيس الغواتيمالي يعقوب أربنس الذي كان يهدف إلى النهوض من بلد تابعٍ واقتصاد شبه كولونيالي إلى بلد ذي سيادة وطنية واستقلال اقتصادي يوفر لشعبه حياة أفضل.

5) العنف الثوري والكفاح المسلح

كان من دروس تجربة غواتيمالا، وخاصة ردة فعل غيڤارا على تخاذل الرئيس الغواتيمالي آربنس في تسليح الشعب والتصدي المسلح لمؤامرة السي آي إيه، أن أدرك غيڤارا دور القائد والشجاعة

والاستعداد للدفاع عن البلاد وعن الآخرين والإيثارية والتضحية من أجل القضية والثورة. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن شجاعة غيفارا لم تقتصر على قدراته القتالية، بل ساهمت في صياغة مسلكية رفاقه من الثوار في الأدغال الكوبية والتزامهم الصارم بالنظام وجعلت منه قدوة لرفاقه من المقاتلين.

كانت غواتيمالا بالنسبة لغيفارا "مدرسة ثورية". وبالرغم من أن هزيمة تلك المحاولة على أيدي وكالة المخابرات الأميركية قد أدت به إلى الإحباط، إلاّ أنها علمته دروساً بالغة في السياسة والتاريخ، إذ أكدت له بالدليل الملموس أن الإصلاح السياسي والبرلماني غير مجدٍ في إنجاز التغيير وعمقت لديه وعياً ثورياً بضرورة الثورة والكفاح المسلح المنظم كوسيلة للنضال وبأن العنف الثوري هو السبيل الوحيد لإنجاز التغيير الاجتماعي والسياسي وتحقيق الاشتراكية. إذ أنه كان أهم دروس تلك التجربة أن الحكومة لم ترغب في تسليح الشعب من طلاب وعمّال وفلاحين في الدفاع عن الوطن وإنجازات الثورة مما أدى إلى سحق النظام وإسقاط حكومة الرئيس آربنس. أمّا غيفارا فقد كان على يقين من أنه لو ذهب الرئيس الغواتيمالي آنذاك إلى الريف مع مجموعة من الثوّار الحقيقيين، فان احتمال وإمكانية القتال ستكون مختلفة. إضافة إلى أن موقفه كرئيسٍ شرعيٍ للبلاد كان سيحوله إلى رمزٍ ثوريٍ من شأنه أن يشجع إقامة حكومة ثورية ولتغير الوضع برمته في غواتيمالا ومستقبلها.

وبهذا المعنى، كانت تجربة غواتيمالا لحظة تبلور الفكر الثوري عند تشي غيڤارا. فقد طرح الكفاح المسلح بوضوح ودون مواربة كوسيلة رئيسية لنضال الشعوب.[27] وفي غواتيمالا اعتنق غيڤارا مبدأ العنف الثوري كوسيلة للتحرر من الهيمنة الأجنبية في القارة اللاتينية، وأنه الوسيلة الوحيدة التي ستلحق بالعدو خسائر كبيرة، وبهذا يكون غيڤارا قد غادر وإلى الأبد، أفكار غاندي في اللاعنف التي آمن بها حين كان يافعاً.

منذ تلك اللحظة، سواء أدرك غيڤارا ذلك أم لا، وسواء فعله عن وعي أو لاوعي، انخرط غيڤارا بنضال الشعوب والتزم في مشاركتها كفاحها. وبعبارة أخرى، فان تجربة غواتيمالا جذّرت قناعات غيڤارا وأصبح، وهو الآن في السادسة والعشرين من عمره، مهتماً بالسياسة والعمل السياسي، وعلى الرغم من أنه لم يكن حزبياً ماركسياً بعد ولكنه كان مقتنعاً بعمق بأن الكفاح المسلح هو الدرب الوحيد للتقدم إلى الأمام.

6) تنظيف صفوف الثورة من الأعداء والعملاء

لا تستطيع الثورة أن تصمد وأن تحافظ على تماسك قواها إذا ما أتاحت الفرصة لأعدائها وقوى الثورة المضادة أن يوحدوا قواهم وينظموها ضدها. لذلك كان غيڤارا يرى ضرورة تنظيف جيوب الثورة المضادة والمتساقطين وتصفية الخونة والعملاء

---

[27] يدوّن غيڤارا في مذكراته أنه يوم حدوث الانقلاب، كان في زيارة لآثار المايا قرب الحدود الغواتيمالاية مع الهندوراس، ولم يخف امتعاضه عندما لحظ غياب الكفاح المسلح المنظم والذي رأى انه كان حرياً بأن يقود المقاومة والدفاع عن الديمقراطية.

والمتعاونين مع العدو والتي قد تشكّل عقبات أمام الثورة في المستقبل. ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف ولماذا قررت الحكومة الثورية في كوبا غداة انتصار الثورة وعلى نحو عاجل التخلص من أعداء الثورة، وأوكلت هذه المهمة إلى غيڤارا. وقد تسببت تلك المهمة لاحقاً بسيل من الاتهامات والإشاعات الكاذبة والمغرضة التي أطلقها عملاء ومثقفو الإمبريالية الأميركية حول أحكام غيڤارا "الظالمة" على العديد من الخونة والمتعاونين مع العدو إبان الثورة الكوبية. ومن هنا ألصقت بغيڤارا تهم القاتل والسفاح والمتعطش للدم وغيرها وسوف نعود إلى مناقشة هذه النقطة لاحقاً في فصل "غيڤارا بين التشهير والتشويه".

7) تجربة غواتيمالا ووحدة أميركا اللاتينية

كانت عزلة غواتيمالا وقيادتها في عهد الرئيس آربينيس أحد أسباب فشل الأخير في تسليح الشعب وتطهير الجيش ومؤسساته من العملاء والمتآمرين. لذلك نظر غيڤارا إلى وحدة شعوب أميركا اللاتينية كضمانة لصمود الثورة الكوبية ونشر الثورة في بلدان تلك القارة.

الفصل العاشر

المؤثرات الفكرية والسياسية في التكوين الثوري

حب المطالعة

نشأ تشي غيفارا في بيت يحب المطالعة واقتناء الكتب فحوى منها ما يقارب مكتبة صغيرة. وشرع، بمعونة والدته وتشجيعها، في رحلته مع الكتب منذ نعومة أظفاره، منذ أن كانت أمه، كما أسلفنا، تقضي ساعات طويلة تقرأ له وهو على فراش المرض.

لم يكن غيفارا تلميذا مهتماً بالدراسة ولكن معلميه وصفوه بأنه كان ذكياً[28] ومولعاً بالقراءة يحمل كتاباً في رفقته دوماً، ودءوباً على القراءة باستمرار ودون كلل وفي كل لحظة تتاح له، حيث كان الكتاب جليسه الدائم ورفيق دربه، فإذا ما أصابته نوبة الربو وحالت دون مشاركته زملائه في الألعاب الرياضية، نراه ينتحي أطراف ملعب المدرسة وفي يديه كتاب يقرأه.

يذكر غيفارا في مذكراته، التي حرص دوماً على تدوينها، أنه كان يتوقف خلال رحلاته في المكتبات العامة في البلدان التي يزورها

---

[28] Alvarez De Toledo, The Story of Che Guevera, p. 48.

حيث يقضي ساعات في القراءة.[29] وتشير وقائع استشهاده أن الجنود البوليفيين عثروا على كتاب "الثورة الدائمة" لليو تروتسكي في حقيبته لحظة وقوعه في الأسر.

المؤثرات الثقافية

ربما ليس من المعروف عن غيفارا أنه كان شغوفاً بالشِعر والأدب ولكنه كان يوليهما اهتماماً كبيراً. فقد أخذ يقرأ الشاعر التشيلي بابلو نيرودا (1904-1973) وهو في الثانية عشر من عمره وحفظ الكثير من قصائده عن ظهر قلب. كما قرأ لوركا وأنطونيو ماتشادا وغيرهما من شعراء أميركا اللاتينية وكان يردد قصائدهم على مسامع أصدقائه.[30] ومن مشاهير كتاب أميركا اللاتينية طالع بنهم اوراسيو كيروغا ***Horacio Quiroga*** وخوسيه أينخرينيروس ***Jose Ingrenieros*** ومن الكتاب العالميين قرأ أناطول فرانس. وفي سن الخامسة عشر قرأ خوسيه مارتي، ملهم الثورة الكوبية ورمزها في القرن التاسع عشر، إضافة إلى مهاتما غاندي وماركس وإنجلز وجون شتاينبك و"عناقيد غضبه".

---

[29] خلال زيارته للبيرو، على سبيل المثال، قرأ غيفارا كتاب "مدينة الإنكا الأخيرة" نسبة إلى قبائل الهنود الأصلانيين في تلك المناطق لمؤلفه هيرام بيجهام *Birham Bigham* وكذلك كتاب "الامبراطورية الاشتراكية للإنكا" بقلم لويس بوتورا *Luis Boutura*

[30] نذكر منهم على سبيل المثال: Pablo Neruda, Frederico Lorca, Miguel Jernandez, Antonio Machada, Cesar Vallejo, Jose Hernandez, Jose Marti, Alonso Ercillo, Jose Luis Borgus, Leopoldi Marechel.

قال ألبرتو جرانادو، الصديق الحميم لغيفارا والذي رافقه في رحلة الدراجة النارية الشهيرة، في حديث مع صحيفة جرانما الكوبية عام 1967، إن غيفارا تعرف على مفاهيم فرويد في التحليل النفسي منذ سن الرابعة عشر، ويبدو أنه قرأ بعض أدبيات التحليل النفسي (سيجموند فرويد وكارل يونغ وألفريد أدلر) والتي كانت آنذاك في مهدها ولم يكن يلم بها الكثيرون من مثقفي أميركا اللاتينية.

لم ينضم غيفارا إلى أي تنظيم سياسي طلابي طيلة فترة الدراسة الجامعية إلا أنه طالع في أربعينيات القرن الماضي ماركس وستالين وموسوليني وسارتر، كما حظيت الثورة الصينية باهتمامه. وفي سن التاسعة عشر، في مطلع التحاقه بكلية الطب، عمد غيفارا إلى قراءة الأدبيات الماركسية ومناقشتها مع صديقته تيتا ***Tita*** والتي كانت عضواً في منظمة الشبيبة الشيوعية.

انكب غيفارا خلال إقامته في المكسيك (1955 و 1956)، وكان قد بلغ من العمر السابعة والعشرين، على مطالعة أعمال ثوار ذلك البلد مثل مذكرات بانتشو فيبا ***Pancho Villa*** وأدبيات الثورة المكسيكية (1910)، كما قرأ معركة ستالينغراد والحرب الكوبية والأدبيات الثورية المعاصرة لشعوب أميركا اللاتينية والكاريبي والعالم الثالث.

في سن السادسة والعشرين أخذ يلتقط الأدب الروسي الكلاسيكي فقرأ تولستوي وجوركي وديستويفسكي وطالع أفكار الثوري الروسي بيترو كروبوتكين ***Kropotkin Piotro*** وأعمال لينين

("ما العمل؟" و"الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية") وماركس (رأس المال) وماركس وإنجلز (البيان الشيوعي) وإنجلز (أصل العائلة، الملكية الخاصة والدولة، من الاشتراكية الطوباوية إلى الاشتراكية العلمية)، كما قرأ العديد من مآثر الأدب الصيني وأدبيات الثورة الصينية.[31]

الفلسفة: مرشدة الفعل الواعي

يلحظ مؤرخو سيرة غيڤارا أن مطالعاته، رغم تنوعها، لم تكن عشوائية بل كانت في كثير من الأحيان جزءًا من مشروع تثقيف ذاتي .إلاّ أن التثقيف الذاتي لم يتبلور برنامجاً ولم يتخذ ملامح واضحة، إلا عندما احتلت دراسة الفلسفة والتاريخ موقعاً مركزياً في اهتمامات غيڤارا . قرأ "تاريخ أوروبا المعاصر" في 25 مجلداً وشرع، وهو في السابعة عشر من عمره، في تنظيم قراءاته في مجال الفلسفة، أحد فروع المعرفة التي كان يتوق إلى دراستها، فأخذ يدون ملاحظاته ويجمعها في "معجم فلسفي" تكاثرت صفحاته حتى بلغت سبعة عشر دفتراً ما زالت محفوظة في مركز دراسات تشي غيڤارا في هافانا. وقد تضمن هذا المعجم عدة فصول عن ماركس وإنجلز تمّ نشرها في هافانا عام 2007 تحت عنوان[32]:

---

[31] Sotolongo, Pedro Luis, Ernesto Che Guevara, Ethics and Aesthetics of an Existence, Editorial Jose Marti, Havana, Cuba, 2002, pp. 65-71.

[32] Alvarez De Toledo, The Story of Che Guevera, p. 55.

كان غيفارا متعطشاً لدراسة الفلسفة، ولكن ليس في شكلها المجرد بل باعتبارها قوة قادرة على أن تحرك الممارسة العملية وتوجهها. بعبارة أخرى، أن ترشد أشكالاً من الفعل الواعي نحو غاياته وأهدافه وأن توجهه في مشروع تغيير العالم والتغلب على محدودياته. فالفلسفة (والمعرفة بشكل عام) عند غيفارا أداة لتحقيق مشروع حياته، مشروع الثورة، ووسيلة لتحقيق قيم العدالة والإنسانية وإزاحة الظلم عن كاهل الفقراء والوصول إلى "الإنسان الجديد"، وهي القيم التي ناضل من أجلها وتجسدت في الإنجازات التي حققها والأحداث التي ساهم في صنعها.

ضمت "دفاتر" غيفارا الفلسفية بين دفتيها كافة فروع المعارف الفلسفية إلاّ أن أعمال ماركس وحياته تألقت مكاناً خاصاً فيها. وحيث أولى غيفارا اهتماماً خاصاً للمشاكل الاجتماعية وانعكف على دراسة الماركسية في تلك السن المبكرة، فقد رسّخ هذا في وعيه فهماً للأسباب المادية والجذرية لتلك المشاكل، وهو النهج الذي رافقه طيلة حياته ورسم معالم فكره ونضاله. بالإضافة إلى دراسة الطب البشري، انغمس غيفارا خلال سنوات دراسته في مطالعة الأدبيات الماركسية وأثار حولها الكثير من الجدل مع زملائه ونشطاء منظمة الشبيبة الشيوعية في العاصمة الأرجنتينية بيونس أيريس.

هذا عرض خاطف لأهم الأعمال الفكرية والأدبية التي طالعها غيفارا وأسهمت في توجيه مساره الفكري وصياغة مفاهيمه

حول الثورة والمجتمع والتاريخ، إضافة إلى دراسة الطب واهتمامه الخاص بأمراض الحساسية. وتلك هي التربة الفكرية التي ترعرع فيها غيفارا الثائر والمثقف العضوي الذي سيكتمل نضوجه وتطوره الفكري في سنوات الثورة اللاحقة بعد انضمامه إلى صفوف الثوار الكوبيين وتوليه مهام حزبية وحكومية رفيعة وحساسة في ذلك البلد.

المؤثرات السياسية

1) الحرب الإسبانية ومناهضة النازية

لاذ الكثيرون من مناضلي "الجمهورية الإسبانية" بعد هزيمتهم في الحرب الأهلية الإسبانية ضد الدكتاتور الفاشي فرانكو (1936 - 1939)، لاذوا باللجوء إلى الأرجنتين. وقد تأثر غيفارا بالعديد من قادة هؤلاء اللاجئين السياسيين الذين التقاهم من خلال اتصالات وجهود والديه في مناصرتهم، كما كان صديقاً لأبنائهم. إلاّ أنه تأثر بشكل خاص باثنين من هؤلاء القادة الإسبانيين: الدكتور خوان أغيلار ***Aguilar Juan*** الطبيب ورئيس شعبة الخدمات الصحية في البحرية الإسبانية، والجنرال خورادو ***General Jurado***. وكان غيفارا يقضي ساعات طويلة، ولم يكن آنذاك قد تجاوز التاسعة من عمره، مستمعاً بشغف شديد للجنرال خورادو الذي كان يروي له قصص الحرب في إسبانيا. كان الصغير غيفارا شديد الإعجاب بهذا الرجل ومنه تعلم دروس الشجاعة والفداء

والذود عن الوطن، كما تأثر بتواضعه وعدم اكتراثه بالأبهة والألقاب. وربما تلقن منه فضيلة ولاء القائد العسكري للجنود والمقاتلين من المراتب العسكرية الدنيا وعدم التخلي عنهم في الأوقات العصيبة وهي عبرة لم تبرحه عندما أصبح قائداً عسكرياً في الثورة الكوبية إذ لازمته طيلة حياته وظل أميناً لها في تعامله مع رفاقه وإيثارهم على ذاته حتى الرمق الأخير.

2) "الحزب الأول" في حياة غيڤارا

من أجل مناهضة الفاشية والنازية وخشية انتشارها في الأرجنتين وذلك الجزء من العالم، أسس والد غيڤارا منظمة سياسية تدعى "العمل الأرجنتيني" ضمت بين صفوفها أطيافاً سياسة وأيديولوجية متباينة التقت على برنامج حدٍ أدنى عماده مناهضة الفاشية والنازية والدفاع عن الحقوق القومية لشعوب أميركا اللاتينية. وقد انضم غيڤارا إلى هذه المنظمة وهو في الحادية عشر من عمره وبقي عضواً نشيطاً فيها حتى السابعة عشر مرافقاً والده في العديد من النشاطات والتجولات السياسية. وقد تفانى غيڤارا في خدمة هذه المنظمة واستحوذ عليه شعور عميق بالمسؤولية تجاهها حيث صرف جلّ وقته وجهده في تنفيذ المهام التي كان يُكلف بها رغم نوبات الربو التي كانت تصيبه تكراراً في تلك السنوات. ومع بلوغه السابعة عشر من عمره، أصبح غيڤارا أكثر استقلاليةً في فكره ونشاطه السياسي وأخذت نزعته إلى المواقف الراديكالية تتبلور بوضوح أكبر.

3) الماركسية

تقول الباحثة ماريا غارسيا إن هناك ثلاثة عوامل حاسمة كان لها أكبر الأثر في تكوين غيڤارا وصياغة فكره السياسي والثوري، وهذه العوامل هي[33]:

1) الفكر الماركسي

2) رحلات غيڤارا

3) تجربة غواتيمالا

سنناقش فيما يلي العامل الأول، الماركسية، أمّا رحلات غيڤارا وتجربته السياسية في غواتيمالا فقد أفردت لها فصلين في هذا الكتاب.

التعرف على الفكر الماركسي

كان لمفكري أميركا اللاتينية كبير الأثر على التكوين الفكري والأيديولوجي لغيڤارا. فقد سادت بين فئات اليسار في تلك الحقبة أطروحات عدة تمثلت بقناعتين أساسيتين:

---

[33] ماريا غارسيا *Maria del Carmen Ariet Garcia* رئيسة مركز تشي غيڤارا للدراسات في هافانا وهي متخصصة في سيرته والمسؤولة عن أرشيفه ومخطوطاته ووثائقه.

1) معاداة الإمبريالية السياسية والاقتصادية، وقد حمل لواء مناهضة الإمبريالية عديد من مفكري ومناضلي القارة اللاتينية من شيوعيي كوبا والبيرو والأرجنتين.

2) فقدان الثقة في الحكومات مع القناعة بأن الدولة تستطيع أن تضمن المصلحة العامة وأن تكون الوسيلة لتغيير المجتمع تغييراً فعلياً.

وقد ألمحنا سابقاً إلى أن غيڤارا قرأ ماركس واهتم بفكره، كما كان قد اطّلع على الأدبيات الماركسية التي توفرت في مكتبة والده منذ كان يافعاً. وعلى الرغم من أن غيڤارا تبنى الماركسية في العشرينيات من عمره، غير أنه لم ينتسب إلى أي حزب شيوعي بل على خلاف ذلك كان ناقداً بشدة لسياسات الأحزاب الشيوعية في أمريكا اللاتينية وانصياعها المطلق لتعليمات موسكو، كما كان ناقداً ومعارضاً في السنوات اللاحقة للنظام الاقتصادي والاجتماعي السوفييتي.

كان صديقه ألبرتو غرانادو ماركسياً قبل أن يشرعا في رحلتهما الشهيرة، غير أن غيڤارا كان ما زال متردداً في أن يصف نفسه ب"الماركسي". وكذلك كان صديقة ***Maestro Hugo Pesce*** أحد تلاميذ خوسى كارلوس مارياتيجى ***Carlos Mariategui Jose*** الذي يعتبر أبا الماركسية في أميركا اللاتينية. وقد كان لهذا الصديق تأثير على التطور السياسي لغيڤارا. بالإضافة، كثيراً ما كان صديق عمره ***Gonzalez - Aquilar Pepe*** يردد بان غيڤارا كوّن فكره

السياسي متخذاً من أفكار ماركس نقطة الانطلاق ومضيفاً إليها أفكار العديد من المفكرين المعاصرين.

أما زميلته في كلية الطب تيتا إنفانتي*Tita Infante* والتي كانت عضواً في منظمة الشبيبة الشيوعية في الأرجنتين، فقد تركت هي بدروها تأثيراً على غيفارا خلال سنوات الدراسة الجامعية. إلا أنه وجد آنذاك أن الحزب الشيوعي في ذلك البلد كان بعيداً عن التماس مع واقع الجماهير الأرجنتينية. وقد ظلّ على هذا الرأي حول الأحزاب الشيوعية في العديد من بلدان أميركا اللاتينية والعالم. بعبارة أخرى، لم يكن غيفارا يعتبر هذه الأحزاب من أتباع فكر ماركس، حتى وإن ادعوا التزامهم بالفكر الماركسي، بل كانوا يستخدمون الماركسية كلما رأوا في ذلك مصلحة لهم.

التقى غيفارا خلال زيارته لعاصمة البيرو، ليما، بالدكتور بيسكي *Pesce*، الذي كان شخصية بارزة في الحزب الشيوعي البيرواني، وأحد أتباع الفيلسوف الماركسي البيرواني خوسيه مارياتيغي، صاحب كتاب "سبعة مقالات تفسيرية للواقع في بيرو" المنشور عام 1928 والذي يُعتبر من كلاسيكيات الفكر الماركسي في أميركا اللاتينية. وفي هذا الكتاب، منح مارياتيغي أهمية خاصة ودوراً كبيراً للسكان الأصلانيين والفلاحين في النضال من أجل الاشتراكية. وقد كان للحوارات التي أجراها غيفارا مع الطبيب بيسكي أثراً عميقاً عليه. فما كان من غيفارا بعد عقد من الزمان، إلاّ أن أرسل له نسخة من كتابه الأول "حرب العصابات" مع إهداء يقول "إلى الدكتور هوغو بيسكي الذي، وربما دون أن يدري، حرّك تغييراً كبيراً

في موقفي تجاه الحياة والمجتمع، وبنفس روح المغامرة كما هي الحال دائماً، ولكنه كان موجهاً نحو أهداف أكثر انسجاما مع احتياجات أمريكا".

حتى تلك الآونة، وعلى الرغم من المناقشات مع الدكتور بيسكى، لم يكن غيڤارا قد جاهر باعتناقه الأفكار الماركسية، ولكن آراءه كانت قد أخذت في التشكل والتكوين، وبدأ بالتعبير عنها، ولا سيما أنه بدأ بتطوير الأفكار الأممية علناً، على الأقل في سياق أمريكا اللاتينية.

أثناء إقامته في المكسيك (1955)، اعتقل غيڤارا بسبب نشاطه السياسي وسجن لمدة خمسة أشهر. وقد تولى التحقيق معه ضابط مكسيكي ادّعى بأنه خبير بالشيوعية. وفي الرد على سؤال خلال التحقيق عن معتقداته السياسية، لم يتردد غيڤارا بالتصريح بأنه كان "طالباً للفلسفة الماركسية" وأنه يتفق تماماً مع مفاهيمها. إلا أنه أضاف أن الاتحاد السوڤييتي ارتكب العديد من الأخطاء في تفسير هذه الفلسفة وتطبيقها. وفي التحقيق ذاته، أقرّ غيڤارا بقناعته بأنه يجب أن يكون هناك حزب حاكم واحد وأن ديكتاتورية البروليتاريا يجب أن تتحقق وبإيمانه بان الأنظمة الإمبريالية سوف تنقرض وسوف تطيح بها الثورة عن طريق العنف الثوري لأن الإمبريالية تحمل في ذاتها بذور دمارها.

ويشهد فيدل كاسترو على هذا بقوله: " التقيت بغيڤارا بعد خروجي من السجن والرحيل إلى المكسيك. وكان ذلك في عام 1955... كان غيڤارا قد درس الماركسية . اللينينية بنفسه وأصبح

مقتنعاً بها.. كان غيفارا، لحظة لقائنا، ثورياً ناضجاً يتمتع، إضافة إلى ذلك، بمواهب عظيمة وذكاء خارق وقدرات نظرية واسعة".[34]

4) الزواج الأول: الحب والشيوعية

سبق وذكرت أن غيفارا التقى خلال إقامته في غواتيمالا (1953) بالصحفية البيروانية هيلدا غاديا والتي أصبحت زوجته (الأولى). كانت غاديا شيوعية واسعة الاطلاع وتتمتع بشبكة كبيرة من العلاقات مع شيوعيي المكسيك وغيره من بلدان أميركا اللاتينية. وبعد وصول غيفارا وزوجته إلى المكسيك بفترة وجيزة تمّ اعتقال زوجته وإبعادها عن البلاد.

خلال إقامتهما في المكسيك، وفّرت هيلدا لغيفارا العديد من الأدبيات الماركسية وخاصة كتب ماو تسي تونغ وعرفته على بعض اللاجئين الكوبيين في المكسيك حيث التقى الكوبي أنطونيو (نيكو) لوبس *Antonio (Nico) Lopez* والذي أطلق على غيفارا، للمرة الأولى، لقب "تشي". كما عرّفته على راؤول كاسترو، والذي قدمه بعد أيام قليلة لأخيه فيدل، وهكذا تمّ التحاق غيفارا بالثوار الكوبيين في المنفى المكسيكي.

5) دور كوبا في التكوين الثوري لتشي غيفارا

أ) لقاء فيدل كاسترو

34 Sotolongo, Che Guevara, Ethics and Aesthetics of an Existence, p. 68.

بعد تعرفه على أنطونيو لوبس، التقى غيڤارا بعض مؤيدي فيدل كاسترو ومجموعة كبيرة من هؤلاء الثوار بعد وصوله إلى المكسيك وانضمامه إليهم.

التقى غيڤارا فيدل كاسترو في إحدى أمسيات صيف 1955، وكان كاسترو آنذاك قد حطّ رحاله في الهضاب المكسيكية القريبة من العاصمة مكسيكو سيتي ليعد لانطلاقة الكفاح المسلح في كوبا والإطاحة بدكتاتورها باتيستا. وبالرغم من اختلاف الخلفية السياسية لكلٍ منهما، فقد كان هذا اللقاء حاسماً في حياة غيڤارا.

ولم يمض على تعارفهما ساعات قليلة حتى تقدم فيدل من غيڤارا طالباً منه الالتحاق بالثوار الكوبيين، فأجاب غيڤارا بالإيجاب دون تردد. وهكذا التحق غيڤارا بصفوف الثوار الكوبيين في "حركة 26 يوليو". وليس هناك من شك في أن غيڤارا وجد في كاسترو ورفاقه القوة الثورية الأكثر نضالية وجاذبية من الأحزاب الشيوعية في ذلك الوقت.

لم يكن الخط السياسي السائد بين الثوّار الكوبيين خطاً ماركسياً، وإن كان بينهم بعض الشيوعيين الكوبيين، بل ساد بين هؤلاء فكر الأب الروحي للحركة الوطنية الكوبية جوزي مارتي ***Jose Marti***. كان فيدل كاسترو، قائد الحركة الثورية الكوبية واسع الثقافة والاطلاع، وتميز بأنه كان معنياً بالممارسة العملية وبالفعل الثوري فوق كل شيء.[35]

[35] Farber, The Politics of Che Guevara, p. 9.

ب) غيفارا في الحكومة الثورية الكوبية

في تقييم دور غيفارا في كوبا وموقعه في التجربة الكوبية بشكل عام، هناك إجماع بين دارسي فكر غيفارا على أنه كان الأكثر تطوراً بين قادة الثورة الكوبية والأكثر اطلاعاً وإلماماً بالنظرية الماركسية وتاريخها. غير أن غيفارا، بالمقابل، تعرض للكثير من النقد بسبب ما أسماه ناقدوه ب"لامبالاته" بالفوارق في الخصوصيات والسياقات النوعية للظروف النضالية والاجتماعية والسياسية في مختلف بلدان أميركا اللاتينية مما دفعه، وفق رأيهم، إلى نزوعه نحو تعميم التجربة الكوبية ومفهوم الفوكووية (بؤر حرب العصابات) على مجمل بلدان أميركا اللاتينية دون الأخذ بالاعتبار هذه الخصوصيات والفوارق.

لعبت كوبا دوراً حاسماً في التطور الفكري والسياسي لتشي غيفارا وفي صياغة مشروعه الثوري برمته. فقد وفرت له عشرة سنوات من الخبرة النضالية والسياسية: منذ لقائه بـ فيدل كاسترو في صيف 1955 عندما كان الزعيم الكوبي ورفاقه يعدون العدة للثورة الكوبية، ثم كمقاتل وقائد عسكري في حرب الغوار(1956 - 1959) وصولاً إلى انتصار الثورة في الفاتح من يناير 1959. بعد دخول الثوّار إلى العاصمة هافانا في الأيام الأولى من يناير 1959، عُين غيفارا قائداً للثكنة العسكرية *La Cabana* والتي كانت تعتبر من أهم الثكنات العسكرية في كوبا. وبعد زيارات عديدة استمرت لعدة أشهر في بلدان آسيا وأفريقيا خلال صيف 1959، تولى غيفارا خلال الأعوام 1959- 1965 (قبل مغادرته للجزيرة إلى الكونغو)،

العديد من المهام الحكومية والحزبية والنضالية في كوبا. في نوفمبر 1959 تم تعيينه محافظاً للبنك الوطني الكوبي (البنك المركزي)، وفي عام 1960 تقلَّد غيفارا منصب رئيس المعهد الوطني للإصلاح الزراعي واستمر في منصبه هذا حتى أصبح وزيراً للصناعة في فبراير 1961، حيث ظلّ إلى حين تخليه عن كافة مناصبه الحكومية والحزبية عام 1965 حين انخرط في النضال الأممي في الكونغو ثم في بوليفيا حيث استشهد.

لقيت أفكار غيفارا خلال "الجدل الكبير" ***El Gran Debate*** (بين عامي 1963 و 1964) الكثير من الاهتمام وكانت مثاراً للنقاش والتقييم سلباً وإيجاباً، كما أنها حظيت بانتشار واسع مثلما حظيت سياساته وإجراءاته في وزارة الصناعة ونظام التمويل عن طريق الميزانية[36] الذي كان عرضة للنقد، كما كان في الآن ذاته مدعاة للتأييد والمحاكاة في مؤسسات الدولة الكوبية الأخرى.

خلاصة القول، أن التجربة الكوبية لعبت دوراً كبيراً في تكوين غيفارا الفكري وصقل أفكاره. وهنا نلحظ تطابقاً كبيراً بين المواقف النظرية والأطروحات التي طوّرها غيفارا وصقلها بعد مغادرته كوبا من جهة، وتلك التي طرحها في مساهماته خلال "الجدل الكبير" والتي جسدها في نظام التمويل عن طريق الميزانية،

---

[36] راجع "ثبت المصطلحات".

See Chapter 24, “On the Budgetary System of Financing”, in Venceremos! The Speeches and Writings of Ernesto Che Guevara. Eidt. by John Gerassi, The MacMillan Company, New York, 1968, pp. 292-316.

من جهة أخرى. وقد كان لتجربته العملية في وزارة الصناعة وتطبيق هذا النظام الفضل في ترسيخ وتثبيت أفكاره وأطروحاته النظرية.

ج) غيفارا والشيوعيون الكوبيون

خلفية

حفل تاريخ الحزب الشيوعي الكوبي منذ تأسيسه عام 1925 بالعديد من المواقف غير المبدئية وغير الراديكالية مما أدّى إلى انشقاقات متكررة في صفوف الحزب. ولدى وصول باتيستا إلى الحكم وإبّان الفترة الممتدة بين عامي 1938 و 1944 ساند الحزب حكم باتيستا مقابل السماح له (للحزب) بالسيطرة على النقابات العمالية.

لم يدعم الحزب الهجوم الثوري على ثكنة المونكادا (26 يوليو 1953) الذي نظمه وقاده فيدل كاسترو وأخوه راؤول. ناهيك عن أن سياسات الحزب الاشتراكي الشعبي الكوبي *Partido Socialista Popular - PSP* اتسمت بالانصياع الأعمى لخط موسكو، خلافاً لمواقف حركة 26 يوليو التي تميزت بالمواقف الوطنية والمعادية للدكتاتورية.

ظلّت مواقف الحزب الاشتراكي الشعبي الكوبي *PSP* خلال فترة حكم الدكتاتور باتيستا متقلبة. وحتى عام 1957 كانت سياسة هذا الحزب "أقرب" إلى "المعارضة المعتدلة". غير أن تغييراً كبيراً ألمَّ بهذا الحزب في نهاية عام 1957 حين قرر (الحزب) دعم الكفاح

المسلح في الجبال الكوبية، حتى إذا ما حل منتصف عام 1958 كان الحزب قد توصل إلى اتفاقية صامتة وغير معلنة للتعاون مع كاسترو وحركة 26 يوليو التي كانت تخوض الكفاح المسلح ضد الدكتاتور باتيستا.

لم يلتق غيڤارا بالشيوعيين الكوبيين الموالين لموسكو إلا بعد لقائه بكاسترو والتحاقه بالثوّار الكوبيين.[37] وخلال سنوات الثورة الكوبية في الأدغال احتكم غيڤارا في موقفه من قيادة حزب *PSP* وللخلاف بين قيادة حرب العصابات في الأدغال والقيادات الثورية في المدن، احتكم إلى رؤيته لطبيعة الصراع المحتدم في كوبا آنذاك. فقد رأى أن طبيعة الصراع القائم في كوبا هي في الجوهر طبيعة طبقية: حيث مثّلت القيادة في الأدغال البروليتاريا، فيما مثّلت قيادات المدن البرجوازية الصغيرة. غير أن غيڤارا، على الرغم من هذا التحليل، انتقد بشدة نشطاء حركة 26 يوليو في المدن لرفضهم التعاون مع *PSP* والذي شكّل منظمة سياسية تضم بين صفوفها قطاعاتٍ كبيرةً من الطبقة العاملة في المدن.[38]

***

أختتم هذا الفصل بالقول، بأن الماركسية ساهمت في توجيه أفكار غيڤارا وصياغة مفاهيمه وصقل أفعاله وربطها

---

[37] Anderson, Jon Lee, Che Guevara: A Revolutionary Life , Grove press, new York, USA, 1997, p. 139 and Farber, The Politics of Che Guevara, p. 133, footnote 42.

[38] Farber, The Politics of Che Guevara, p. 31.

بالممارسة العملية في البحث عن حلول لمشاكل الإنسان ومستقبله. وبفضل تأثره بهذا الفكر، كان غيڤارا شديد الحرص على التعريف الدقيق للمفاهيم السياسية والثورية في برنامج التثقيف الذاتي التي وضعه لنفسه والتي شملت دراسة الفلسفة وعلوم السياسة والاجتماع. وقد شكل هذا التقارب المبكر مع الماركسية البنية النظرية والسياسية الصلبة التي أضحت الدعامة الرئيسية لفكر غيڤارا وممارسته ونضاله.

القسم الثالث

فكر ومواقف

الفصل الحادي عشر

الركائز الأساسية للفكر السياسي لتشي غيڤارا

مدخل :

أستحضرُ في هذا القسم ومضات من فكر غيڤارا الثوري والإنساني متوخياً الإضاءة على ركائز فكره السياسي والاجتماعي التي شكّلت الأرضية أطروحاته ومساهماته الأساسية. أقول إضاءة تفادياً للادعاء بأن هذه الفصول تقدم شرحاً شاملاً أو عرضاً كاملاً لأفكار غيڤارا، وتوخياً في حث القارئ والكاتب العربيين على المزيد من البحث في هذه المسألة.

لم يملك غيڤارا الإجابة على العديد من الأسئلة ولم يدّعِ ذلك. وليس لنا أن نتوقع ذلك. والحقيقة أننا ما زلنا حتى اللحظة نبحث عن بعضها ولن نصل إليها إلا من خلال التجربة والممارسة والإفادة من أخطائها وعبرها. إلاّ أن غيڤارا ساهم في إنارة الكثير منها وفي رسم الأطر التي يتم البحث عن الإجابات من خلالها، ولم يتسن له أن يقدم نظاماً بديلاً شاملاً أو نظرية متكاملة للإجابة على كافة الأسئلة والتحديات والإشكاليات. ولعل استشهاده المبكر، قطع الطريق على استكمال هذا الدرب، بالإضافة إلى أسباب وعوامل أخرى. يكفينا أن نقول في هذا الصدد، أنه زرع بذور فكر نقدي

رافض لكافة أشكال التخشب، ساعياً إلى التغيير، متوخياً فهماً للماركسية يقوم على أنها لم تقدم "حلولاً جاهزة"، بل رسخت مفاهيم أساسية ومبادئ عامة نستلهمها في نضالنا في سبيل تحرير الإنسان وبناء الاشتراكية.

ويجدر بنا هنا أن نتوقف، ولو استطراداً، لعرض سريع لأهم محطات المسيرة النضالية لتشي غيڤارا، كي يتلمس القارئ الكمَّ الثقيل من المهام والمسؤوليات التي أخذها غيڤارا على عاتقه والدور الذي لعبه في غضون السنوات القليلة قبل استشهاده. فبعد انخراطه في الثورة الكوبية 1956 تحت قيادة فيدل كاسترو وانتصارها عام 1959، ساهم غيڤارا بكل ما أوتي من طاقة في تكوين المجتمع الجديد وبناء الاشتراكية وساهم في الجدل حول إشكاليات التحول الاشتراكي في كوبا، وتوفير الاحتياجات الأساسية والإنسانية ومهام التنمية الاقتصادية والاجتماعية للشعب الكوبي. وقد تولى في هذه الأثناء العديد من المناصب الحزبية والحكومية ومثّل كوبا في المحافل الدولية، وله يعود الفضل الكبير في نسج علاقات التعاون والصداقة مع البلدان الاشتراكية ودول العالم الثالث. وبعد أن غادر كوبا عام 1965، خاض حرب العصابات في حملتي الكونغو (1965) وبوليفيا (1966 – 1967). غير أن هذه المسؤوليات لم تُقعده عن خوض العديد من المعارك السياسية والفكرية، نذكر منها صدامه مع النمط الاقتصادي والإنتاجي السوڤييتي، ومساهماته الاقتصادية في مجال التنمية والبناء الاشتراكي، وأطروحاته في حرب الغوّار ونظرية البؤرة، وخلق الإنسان الجديد، والعمل الطوعي، والثقافة والتثقيف الذاتي، والأخلاقية

الشيوعية وغيرها. وقد أفردنا فصولاً في هذا الكتاب لمناقشة هذه الأطروحات.

على الرغم من تعدد ساحات النضال والأبعاد النظرية والعملية لفكر غيڤارا، فإن المسؤولية تملي ضرورة العودة إلى الركائز الأساسية لهذا الفكر قبل الولوج في التعريف بسماته. ويمكننا القول بأن فكره ومسيرته النضالية تتمحوران حول الركائز التالية:

1) رفض واقع الشعوب الفقيرة والمضطَهَدة في أميركا اللاتينية والعالم الثالث والعالم بأسره، واقع التخلف والظلم والفقر والجوع والمرض، وضرورة الثورة من أجل تغيير هذا الواقع لتحقيق مصالح هذه الشعوب وتنميتها والإيفاء بحاجاتها المادية والروحية.

2) ضرورة تشخيص هذا الواقع وتحديد القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المسؤولة عنه. وقد حددها غيڤارا بوضوح في الرأسمالية والإمبريالية، بزعامة الولايات المتحدة كعدو الإنسانية الرئيسي، مما يعني أن تغيير هذا الواقع يستلزم محاربة هذا العدو كونه السبب الجذري في مشاكل الشعوب. ولكن غيڤارا لم يتجاهل العملاء المحليين والمرتبطين طبقياً ومصلحياً بالإمبريالية الأميركية بل خاض ضدهم ومن أجل إسقاطهم نضالاً دءوباً.

3) اعتنق غيڤارا أسلوب الكفاح المسلح وحرب الغوار (حرب العصابات) في مقارعة الإمبريالية اليانكية، كما كان يسميها، وعملائها المحليين، ولكنه وبالقدر ذاته أكد على حق الشعوب في

المقاومة وحرب الشعب والكفاح بكافة الوسائل المتاحة للمقاومة الشعبية وأشكالها المتعددة.

4) أفضت رؤية غيفارا في البحث عن الحلول والبدائل والتي تمثلت في بناء الاشتراكية كسبيل للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية، أفضت به إلى التصدي لإشكاليات التحول الاشتراكي.

لم يدّع غيفارا بأنه عثر على البديل، بل قدّم في هذا المضمار مساهماتٍ كبيرة منها خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية وتكوين الوعي النقدّي والثوري والأخلاقية الثورية والشيوعية وخلق الإنسان والمجتمع الجديدين وغيرها. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا أن هموم غيفارا الفكرية في "البحث عن البديل" كانت هاجسه الأكبر طيلة سنوات نضاله في كوبا (1959 . 1965) بعد انتصار ثورتها، وكانت موضوع كتاباته وخطبه وأحاديثه حتى استشهاده.

الفصل الثاني عشر

السمات العامة لفكر تشي غيڤارا وإرثه

قبل الولوج إلى فصول هذا القسم، أرى أنه من المفيد الوقوف سريعاً على أهم السمات التي تميّز فكر غيڤارا وإرثه ومجمل تجربته، وقد انتقينا أهمها في الفقرات التالية. والحقيقة أن كلًا من هذه السمات جديرة بدراسة مستفيضة، إلاّ أننا سنكتفي هنا بعرض موجز لأهم عناصرها على أن نعود لتناولها بمزيد من التفصيل في الفصول اللاحقة.

1) كان غيڤارا رجل عصره بامتياز، وبهذا نعني أنه كان نتاجاً للظروف الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية لتلك المرحلة الفريدة: مرحلة ما بعد الحرب الإمبريالية الثانية (1939 – 1945) والنصف الثاني من القرن العشرين. وقد اعتبر غيڤارا من خلال قراءته للواقع أن المهمة الملحة والمركزية هي الإيفاء بالاحتياجات الاجتماعية والإنسانية، المادية والروحية، لشعوب أميركا اللاتينية والعالم الثالث، والتزم بفكره ونضاله بالفقراء والطبقات الشعبية في تلك المجتمعات.

2) الرؤية الشمولية المتكاملة: لا يتسنى فهم أفكار تشي غيفارا ورسالته من خلال عبارات أو أفعال معزولة ومنفصلة عن بعضها البعض، بل كجوانب متعددة لكائن عضوي واحد، تتعدد مفاهيمه وساحات نضاله ولكنها تظل متناغمة متراصة فيما بينها ومصوّبة نحو تحقيق أهدافها.

3) التصاقه بقضايا الفقراء ورفض الظلم أينما كان: لعل من أهم مساهمات غيفارا في الفكر الثوري والتراث الإنساني هو انحيازه التام لقضايا الفقراء ودفاعه عن مصالحهم. وقد تميز موقفه هذا، قولاً وفعلاً، بإنسانية وأممية عميقة وبقناعة بأن معاناة الإنسان أينما كان هي قضية الإنسانية بأسرها. وتشكل هذه السمة النبيلة الركيزة الأساسية في الوعي والممارسة الثورية والأممية لأي مناضل.

4) الرؤية التأسيسية: لقد كتب تشي غيفارا للناس ومستقبلهم برؤية ثاقبة وكأنه يخط بقلم المستقبل لمرحلة قادمة، لأجيال جديدة وإنسان جديد. وبهذا المعنى، بوسعنا أن نصف الكثير من كتاباته بـ"التأسيسية" أي التأسيس لمرحلة قادمة.

وقد جاء التاريخ ليؤكد أن غيفارا كان مصيباً وسبّاقاً ونافذاً في تحليله وقراءته للأوضاع في عصره واستشرافه للمستقبل على ضوء هذه القراءة. والأمثلة على هذا كثيرة، وحسبي هنا أن أذكر بعضها:

أ) لقد حذّر غيفارا من مغبة ومخاطر المؤسسات المالية العالمية (صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، منظمة التجارة

العالمية) كأدوات للرأسمالية قرابة ثلاثين عاماً قبل أن تقوم هذه المؤسسات من خلال سياساتها المالية بتدمير اقتصادات العديد من البلدان وتوريطها بديون هائلة لا تقوى على تسديدها وستعاني من تبعاتها لسنوات طويلة.

ب) كما حذر من النمط الإنتاجي - الاقتصادي السوفييتي ومن استخدام السوفييت لفائض القيمة في التخطيط الاقتصادي وآثاره السلبية والمدمرة على المجتمع وأنه سيؤدي إلى انهيار العملية الاشتراكية، وقد أصبحت هذه المسألة اليوم مألوفة وعلى لسان الكثير من المحللين الاقتصاديين.

ج) ونبّه إلى نظام التمييز العنصري الأبارتهايد في جنوب أفريقيا عام 1962، وبهذا يكون قد سبق "الغرب الديمقراطي" بثلاثة عقود.

5) تحديد العدو... الوضوح والدقة والجرأة: اتسم غيفارا بدقته في تحديد العدو في سياق مرحلته: الرأسمالية والإمبريالية وخاصة الأميركية وأدواتها المحلية في بلدان العالم الثالث. وقد كان تحديده للعدو بمثل هذا الوضوح والدقة، سبباً في إدراجه مبكراً على قائمة اغتيال أعداء الولايات المتحدة والمطلوبين لمخابراتها.

6) تحديد العدو والوعي الثوري: على ضوء التحديد والفهم الدقيقين لطبيعة الصراع وأطرافه ومكونات معسكر الأعداء، ركّز غيفارا على أهمية ودور الوعي النقدي والثوري. فالوعي الثوري يصبح البوصلة التي تحدد اتجاه النضال والحراك والمقاومة، وهو

الذي يحمي الثورة من الردة والتراجع ومن الامتطاء الانتهازي والتلاعب والتسلق والغدر.

7) المقاومة هي ركيزة النضال الأساسية: لم يكتف غيڤارا بتحديده الدقيق للعدو، بل دعى بدون كلل ومن كافة المنابر إلى أممية الثورة وعولمة مقاومة العدو في كل مكان. من هنا، وفي هذا السياق، جاءت صرخته لمساندة شعب فيتنام في حربه ضد الإمبريالية الأميركية ولخلق العديد من "الفيتنامات" لمقارعتها.

8) انسجام النظرية والممارسة: كثيراً ما تبدو الكتابات الثورية والساعية إلى التغيير طوباوية أو أنها تفترق عن الواقع بمسافات، غير أن كتابات غيڤارا تميزت بالالتصاق بالواقع والنضال من خلاله، وترجمة النظرية والفكرة المجردة إلى واقع مادي ملموس في حياة الجماهير، وبما لا يقل أهمية، وقدرته على استنباط نظريات وأفكار جديدة من الواقع والممارسة العملية.

ومن هنا نرى أن غيڤارا توصل إلى نظريته وبنى مفاهيمه عبر تجربته وممارسته النضالية، واستمر في تطويرها بالقدر الممكن على ضوء حصيلة ودروس هذه التجربة. وقد جاءت أفكاره جامعة مترابطة مع ممارسته بروابط وثيقة تشكّل وحدة عضوية بين النظرية والممارسة: نظرية تشخص الواقع وتحلله، وانغماس عملي في النضال من أجل خلق الواقع الجديد. وقد عُرف عن غيڤارا اهتمامه البالغ بتحليل الموقف النظري، ولكنه حرص دوماً على الجانب العملي والتطبيقي منه: أي تحديد الموقف النظري بدقة والاستفادة من ذلك في تحديد موقعه ودوره في العملية النضالية.

أليس هو مَن قال: "نحن من أولئك الذين يضعون أرواحهم على راحات أيديهم، من أجل البرهنة على حقائقهم". هنا تتجسد حكمة غيفارا في أنه كان يقود بالمثال والقدوة، وإلاّ يطلب أبداً من أولئك الذين يعملون تحت إمرته لقيام بما لا يتعهد هو القيام به، إضافة إلى رفضه كافة الامتيازات.

تميز غيفارا عن غيره، من مؤيديه و معارضيه، سواء في مرحلة الثورة كقائد عسكري مغوار، أو في مرحلة البناء الاشتراكي وفي كافة مواقعه و مسؤولياته الحكومية والحزبية، تميز بأنه قرن أفكاره بالممارسة العملية التي عمقت، بدورها، مفاهيمه النظرية وغرستها عميقا في وعيه وعقيدته.

لعله من الصحيح ما قاله فيدل كاسترو في أكثر من مناسبة بأن غيفارا انفرد بالفرصة لتطبيق أفكاره ووضعها في الممارسة العملية وأخضعها للتجربة. ولكنه صحيح أيضا أن غيفارا لم يتوان عن إخضاع أفكاره ممارسته للمراجعة والتقييم، فكان يعود في كل مرة، من خلال التجربة العملية إلى إغناء أفكاره وتطويرها.

ففي كل مراحل نضاله، جاءت أفكار غيفارا محاولة أمينة لفهم المشاكل الأساسية. ويمكننا القول، رغم موته المبكر الذي حال دون نضوج الفكر والنظرية الثورية، إن غيفارا وبقدر ما استطاع توصل إلى تصور نظري كي يستخدمه كأداة في الممارسات الضرورية للعملية النضالية؛ ولاستعادة الفكر الثوري لوظيفته أي أن يكون دليلاً أساسياً لتوجيه عملية التغيير ورسم التحولات وتصور مشروع المستقبل.

خلال فترة "الجدل الكبير" في كوبا التي امتدت على مدى عامي 1963 و 1964 وتميزت بمعارك فكرية حادة، خاض غيفارا العديد من هذه المعارك والتي كانت من مقتضيات المرحلة، ليس فقط من أجل الممارسة العملية، ولكن أيضا من أجل تطوير وإغناء النظرية الثورية.

بهذا المعنى، فان فكر غيفارا يشكّل تربة فكرية خصبة وموقعاً نضالياً في آن واحد ليبني في المحصلة فكراً نقدياً وثورياً لتحرير الإنسان والمجتمع وخلق ثقافة جديدة و"إنسان جديد". وفي هذا الصدد، أوضح تشي غيفارا العلاقة الجدلية بين النظرية والممارسة ومهمة المناضل الثوري مؤكداً: أننا لا نستطيع أن نكون أبناءَ ممارسة مجردة أو ممارسة مبنية على الفعل النظري لوحده، لأن هذا لا يعني شيئاً ولا يؤدي بنا إلى أية نتيجة. لكن هناك كسل عقلي يحول دون الوصول إلى خلفية هذه المشكلة وعمقها وإلى معرفة ما نقوم به ولماذا. هناك انضباط مفرط للالتزام بـ"الخط" [يقصد الخط السياسي أي الحزبي م. ع.] وافتقار للانضباط الواعي الذي يطرح سؤال: لماذا نفعل هذا؟

تلك هي سمة فريدة للمفكرين الثوريين تنطوي على عظمة وديمومة رسالتهم الثورية التي طالما أقضّت مضاجع أصحاب السلطة والهيمنة. فالمفكرون الثوريون الذين يسطرون روائع الثورة على الواقع القائم وبناء مستقبل أفضل، يشكلون تهديداً للقوى المهيمنة ومصالحها. لهذا السبب، وبسبب فكره الثوري، وقع غيفارا منذ مرحلة مبكرة ضمن دائرة اهتمام الاستخبارات

الإمبريالية الأميركية أثناء نشاطه في غواتيمالا في عام 1954 وقبل انخراطه في الكفاح المسلح والثورة الكوبية، واستمرت ملاحقته حتى استشهاده.

9) تشي غيفارا... الثائر العملي

لو حكمنا على غيفارا وفق قول خوسى مارتي[39] بـ"أن الرجل العملي هو الوحيد الذي يتحول حلمه اليوم إلى قانون الغد"، لأدركنا كيف توجب على غيفارا أن يكون عملياً وأن يجمع بين النظرية والممارسة، بين الكلمة والبندقية، وهو ما حدا به إلى رسم إستراتيجية ثورية تحدد المهام الملحة والآنية ولكنها تظل في رؤيتها بعيدة المدى تتجاوز الآني لترتبط مباشرة بالواقع القائم ولتبقى مصوبة دائماّ نحو بوصلة الشعوب الفقيرة واحتياجاتها ومصالحها.

على ضوء ما تقدم، يمكننا القول بان "غيفارا العملي" حقق الوحدة والانسجام بين أفكاره وممارسته الثورية، وجاء معبراً عن ومتناغماً مع الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية لشعوب أميركا اللاتينية والعالم الثالث وكافة فقراء ومضطهدي العالم.

10) الوعي الثوري الجديد

منح تشي غيفارا الوعي الثوري معانٍ وأبعاداً ومضامين عديدة، وربط الوعي وعملية تكوينه جدلياً بالممارسة والعمل من ناحية، والإنتاج من ناحية ثانية، وبما لا يقل قدراً ربط تكوين الوعي بخلق ثقافة جديدة. ناهيك عن أنه آمن بأن التعليم هو الولادة

[39] أنظر "ثبت المصطلحات".

الحقيقية للإنسان الحر، وعليه، فالوعي أيضاً يبدأ بالتعليم وبمحو الأمية.

وسوف نعود إلى مسألة الوعي ومفاهيمه عند غيفارا في فصول أخرى من هذا الكتاب. ولكن يجدر بنا في هذا المقام أن نسوق مثالاً على موقع الوعي في فكر غيفارا حتى وسط أقسى الظروف، حيث شرع غيفارا في إنشاء محطة إذاعة اسمها "راديو المتمرد" في منتصف فبراير 1958 بعد أن قطعت الثورة الكوبية شوطاً كبيراً في السيطرة على المناطق المحررة. ولا يفوتنا أيضاً أن نذّكر بـ" الحملة الوطنية لمحو الأمية" التي قامت بها الحكومة الثورية في كوبا بعد عامين من انتصار الثورة وشملت كافة أنحاء البلاد.

11) الأخلاقية الثورية... الشيوعية... والاغتراب

تنطلق الأخلاقية الثورية، كما رآها غيفارا، من ضرورة اجتماعية ومن طموحات وآمال الجماهير، ومن إرادة لخلق واقع جديد يتناقض مع الواقع القائم وتعمل على تقويضه من أجل خلق مجتمع جديد. بعبارة أخرى، فان الأخلاقية الثورية تشمل نسقاً من الطموحات والآمال التي تحرض على الواقع القائم، وبهذه الوسيلة تحث القوى الاجتماعية والسياسية - التي تشكل الرافعة للتغيير والحاملة لمشروعه - على النضال من أجل تغيير الأوضاع القائمة. من هنا، فإن الأخلاقية الثورية ليست طوباوية ولا هي بعيدة عن الواقع أو نفي له، كما يوحي منظرو البرجوازية، بل هي وسيلة لتوحيد قوى الطبقات المستغَلة على أرضية مشتركة وموحدة من

أجل دفعها إلى الأمام. وفي هذا كله، فهي (الأخلاق الثورية) نتيجة للظروف الاجتماعية - الاقتصادية والتطور التكنولوجي والثقافي والحضاري للمجتمع.

وقياساً على هذه المفاهيم، لم يكن غيفارا مجرد ثوري أو منظر للاشتراكية، بل كان قدوة أخلاقية وهو ما لا يقل أهمية. وفي التأكيد على هذا، يقول فيدل كاسترو "إن الاشتراكية دون أخلاق لا معنى لها". في هذا المجال أيضاً، عمل غيفارا دون كلل أن يضع أقواله موضع التنفيذ والممارسة، وأن يحقق التناغم والانسجام بين أفكاره السياسية والاقتصادية والعسكرية على ضوء فلسفته وأخلاقيته الشيوعية عبر سنوات حياته القصيرة. وهنا تكمن أهمية هذه الأخلاقية الثورية والتي شكّلت مساهمته الكبيرة وإثراءً للنظرية الماركسية والتراث الثوري الإنساني بشكل عام.

12) الإيثارية عند غيفارا

في فكره وممارسته، ركّز غيفارا على الإيثارية في العلاقات الإنسانية وفي التعامل مع الآخرين، وأولاها اهتماماً كبيراً في العمل الثوري. ويذهب بعض المحللين إلى أن البيئة والخلفية التي نشأ غيفارا فيهما، تركتا أثراً كبيراً على أفكاره ومواقفه السياسية. وقد تميزت هذه البيئة بالامتيازات التي توفرت في الأرجنتين المزدهرة خلال النصف الأول من القرن العشرين، وإلى تلك البيئة نستطيع أن نرد العديد من السمات الشخصية والفكرية لغيفارا ومواقفه:

- رفضه للامتيازات؛

- دفاعه عن ضرورة تضحية الفرد في سبيل المجتمع والمصلحة العامة؛

- التطوعية المتفانية التي اتصف بها غيڤارا خلال حياته ومسيرته والتي تقوم على فكرة أن الإنسان، بوعيه وإرادته، يستطيع أن يتغلب على العوائق الموضوعية والمادية؛

- مواقفه السياسية التي لم تستطع في بعض الأحيان أن تتوقف عند الخصوصيات السياسية والاجتماعية، كما حصل في تجربته في الكونغو على سبيل المثال.

13) التطوعية في فكر غيڤارا: عنصر من عناصر الشيوعية

لعل هذا من أكثر السمات تجلياً في نضال غيڤارا وحياته: التطوعية المتجذرة في المبادئ الماركسية. وقد تجلت تطوعية غيڤارا في:

1) الفعل السياسي: حيث اعتقد أن حرب الغوّار كانت ممكنة وقابلة للممارسة في بلدان أميركا اللاتينية بغض النظر عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. هذه النظرة تعبر عن أممية غيڤارا وإيمانه بنشر الثورة.

2) التطوعية في العمل والتنمية الاقتصادية والبناء الاشتراكي.

14) "ديمومة تشي": تنتمي أفكار غيفارا من حيث الجوهر إلى الأفكار التي تتسم بقدرتها على مقاومة عوامل التقادم والهرم، لذا ظلت حية نابضة حتى يومنا هذا. ولعلّ مرد ذلك يعود إلى انهماكها العميق بهموم الإنسان من خلال التمسك بالمثل العليا في العدالة والمساواة بين البشر، وبهذا تستطيع أن تنفذ إلى أعماق النفس والعقل البشريين، وأن تدخل التاريخ من بواباته الكبيرة كأحد المفاتيح الرئيسية في حاضر الإنسان ومستقبله. وفي هذا تكمن ضمانه حيويتها وقدرتها اللامحدودة على التجدد.

تكمن ديمومة تشي غيفارا في الحضور الدائم لأفكاره وقدوته لأنها تعبر عن احتياجات الشعوب، وهذه الديمومة تعني أن غيفارا، وما يمثله من فكر ومشروع وقدوة ورمزية، شيء حي وليس مجرد "شيء من الماضي". بكلام آخر، يمكننا القول إن ديمومة تشي هي عمل ونضال مستمر من أجل قضايا الساعة، وإن الحفاظ عليها يكون عبر استمرار النضال والمقاومة التي أراد أن يجسدها أثناء حياته كما في لحظة استشهاده.

15) الموت المبكر: لقي تشي حتفه ولم يبلغ من العمر الأربعين. وبين عامي 1956 (انطلاقة الثورة الكوبية) و1967 (استشهاده) تولى مهاما ومناصب حسّاسة ورفيعة شملت القائد العسكري الثاني في الثورة الكوبية بجانب فيدل كاسترو، مدير البنك المركزي ووزير الصناعة في كوبا، وممثل الحكومة والثورة الكوبية على المستوى العالمي وثائراً أممياً في الكونغو وبوليفيا.

إلاّ أن حياة غيفارا تظل قصيرة بكل المقاييس مهما بلغ التفاؤل بقدرة الفرد ومواهبه، مما يستوجب الأخذ بعين الاعتبار أن الرجل لم تسنح له فرصة اكتمال تجربته ومفاهيمه وأفكاره وصياغتها في نظرية ورؤية ناضجة متكاملة. وربما تصبح المسألة أكثر وضوحاً وموضوعيةً إذا ما طرحناها على النحو التالي: لو أخضعنا الكثير من الساسة والقادة والثوار في التاريخ الحديث للمعيار الزمني إياه وقيّمنا إنجازاتهم خلال إحدى عشر عاماً من حياتهم، فمن منهم تسنى له أن ينجز ما أنجزه تشي خلال الفترة ذاتها؟

ولكن، على الرغم من أن موت تشي غيفارا المبكر اختزل حياته ونضوجه الثوري والماركسي وحال دون المزيد من عطائه، إلا أنه استطاع عبر حياته القصيرة أن يقدم مفاهيم ثورية ماركسية تُعتبر من أكبر المساهمات في الفكر الثوري في القرن العشرين.

16) نقد الماركسية السوفيتية: سوف أعود إلى هذه المسالة في فصول قادمة بشيء من التفصيل، غير أنني أضفتها هنا على نحو موجز بين السمات الرئيسية لفكر تشي غيفارا ومساهماته في الماركسية لعدة أسباب:

أ) لقد كان نقد غيفارا للاتحاد السوفييتي مبكراً ونافذاً في الرؤية وفي توقع ما لم يكن آنذاك على بال الكثيرين: انهيار نمط الإنتاج السوفييتي والدولة السوفيتية وتجربتها الاشتراكية. وقد شرع غيفارا في نقده هذا من نمط الإنتاج السوفييتي وسياساته في البناء الاشتراكي وصولاً إلى تواطئه مع الإمبريالية الأميركية وادّعاء إمكانية التعايش السلمي مع الرأسمالية.

ب) تجاوز غيڤارا في نقده للسوڤييت النمط السوڤييتي في الإنتاج والتنمية الاقتصادية والاجتماعية وبناء المجتمع الاشتراكي والشيوعي في الاتحاد السوڤييتي، إلى فضاء التنمية الاجتماعية والإنسانية لكوبا وللإنسانية جمعاء. وبهذا المعنى، كان هذا النقد ضرورة للتأسيس للمجتمع والقيم والأخلاقية الاشتراكية والشيوعية.

ج) جاء هذا النقد تعبيراً عن رفض غيڤارا للدوغما في الماركسية كما في السياسة والمجتمع، ووقوفه ضد النظريات المتجمدة والميول البيروقراطية.

17) الاستقلالية ومناهضة المحاكاة

لعل استقلالية غيڤارا هي من أهم ما يميز فكره، إذ أنه لم يرد أن يركن إلى أطروحات سابقيه بقدر ما كان يدرسها بعناية ويحاول تطويرها في خدمة الثورة على الواقع والمتغيرات واستلهامها في استشراف المستقبل.

دعا غيڤارا للحفاظ على الاستقلالية الفكرية للتجربة الكوبية والتمسك بحق الكوبيين بالمبادرة والاجتهاد في بناء الاشتراكية في بلدهم، أي حقهم في صياغة تجربتهم دون تبعية صنمية للنمط السوفييتي، كما دعا إلى مناهضة تيارات الدوغما في الماركسية وكافة أشكال التخوف من أو التردد في تقديم المساهمات في كافة الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

بعبارة أخرى، كان غيفارا يرى أن النضال في شق درب جديد وتجربة جديدة هو ما يضمن صمود الثورة وإبداعها لوسائل استمرارها وتحقيق أهدافها وبناء الاشتراكية، أما الارتكان إلى الاتحاد السوفييتي فسوف يؤدي إلى التراجع.

18) غيفارا وخصوصية أميركا اللاتينية: نعم، لقد كانت أميركا اللاتينية البيئة الطبيعية والموقع الرئيسي لفعل غيفارا وتأثيراته الفكرية والثورية، ولا شك أن محاربة الظلم والاستغلال وتحقيق الحريات والعدالة الاجتماعية في تلك القارة كانت القضية المركزية في نضال غيفارا وهو ما يؤكد خصوصية أميركا اللاتينية في فكره واستراتيجيته النضالية. إلا أن خصوصية هذه القارة في إستراتيجيته لا تنفي أممية نضال غيفارا وفكره وتأثيراته التي عمّت الكرة الأرضية ووصلت قلوب وعقول الشعوب المظلومة.

الفصل الثالث عشر

التغيير: ثورة أم إصلاح؟

تعود بدايات الجدل حول سؤال الإصلاح أم الثورة في الحركة الشيوعية والثورية العالمية إلى أواخر القرن التاسع عشر حين أخذت تيارات تلك الحركة تتجذر في التغيير الاجتماعي وتتنامى في امتداداتها وأبعادها الأممية، أي الاستمرار في الثورة ضد الاستغلال والظلم والاستعمار والهيمنة الإمبريالية أينما كانت.

في مقابل هذا النهج الجذري، ظهر داخل الحركات الثورية والشيوعية نهج إصلاحي تجلى في العديد من التيارات وسياسات المهادنة والمصالحة مع العدو الرأسمالي - الإمبريالي وأعوانه المحليين. وقد استند هذا النهج إلى مقولات انهزامية وتحريفية أهمها:

أ) أن التجربة التاريخية أثبتت خطأ التوقعات حول الانهيار المحتوم للرأسمالية.

ب) وأنه من الممكن التغلب على الفوارق الطبقية السائدة في ظل الرأسمالية بوسائل إصلاحية، مطلبية وقانونية وبرلمانية، مثل تحسين أوضاع الطبقة العاملة، توسيع القدرة على الاستلاف،

تطوير وسائل المواصلات، وتمركز الشركات والمؤسسات التي زادت من نزوعها نحو تعميم الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج.

بعبارة أخرى، رأى أصحاب النهج الإصلاحي:

(1) أن هذه الخطوات ستعيق التناقضات الطبقية التي تقود إلى التمرد الاجتماعي وبالتالي إلى الثورة ضد الرأسمالية؛

(2) وأن هذه الوسائل والتدابير قادرة على التغلب على "فوضى" السوق الرأسمالية حيث أن الرأسمالية قد اتجهت هي ذاتها، نحو إخضاع الإنتاج لأشكال اجتماعية، أي لأشكال الملكية الجمعية للإنتاج أو الإنتاج الاجتماعي *socialized production*، وصولاً إلى الادعاء بان النضال المطلبي النقابي للعمال قادر على انتزاع زيادة في أجورهم من شأنها، في المحصلة، أن تقلل من معدل ربح الرأسماليين إلى حد يتوقف معه الاستغلال الرأسمالي دون الحاجة إلى ثورة اجتماعية. وقد ذهب بعض أصحاب هذا التيار الإصلاحي، وهنا بيت القصيد، إلى أن تصاعد قوة ونفوذ "الديمقراطية الاجتماعية" *social democracy* (مثل حزب الديمقراطية الاجتماعية الألماني SPD والملايين من أعضائه وأنصاره)، يشيران إلى إمكانية وقابلية النظام الرأسمالي للإصلاح عبر الوسائل القانونية والبرلمانية.[40]

---

[40] كان إدوارد برنشتاين (1850 – 1932) من أكبر دعاة ومنظري هذا النهج، وربما تعبر عباراته التالية عن مجمل مواقفه: "بالنسبة لي، فان الحركة [يقصد الحركة السياسية والاجتماعية ـ م. ع.] هي كل شيء، أما الهدف فهو لا شيء".

نهج الثورة

"إن الديمقراطية الكاملة، لا الشكلية، بل الحقيقية والفعّالة ممكنة التصور فقط عندما تتحقق المساواة الاقتصادية والاجتماعية."

روزا لوكسمبورغ

□ حاجج أصحاب النهج الجذري، وكانت روزا لوكمسبورغ من أبرزهم، أن تحقيق المساواة القانونية والسياسية في ظل الرأسمالية لا يمكن أن يحل التناقضات الاجتماعية لنظام يقوم أساساً على قيمة الإنتاج والاستغلال الطبقي والعمل المأجور. وأن الثورة والإصلاح (الدستوري والقانوني)، كما تقول لوكسمبورغ، ليستا وسيلتين مختلفتين للتطور التاريخي نختار واحدة منهما دون الأخرى، بل هما "لحظتان مختلفتان" في تطور المجتمع الطبقي، تحدد كل منهما شروط وظروف الأخرى وتكملها، وفي الحين ذاته تستثني الواحدة منها الأخرى بشكل تبادلي كما هو الحال في البرجوازية والبروليتاريا. ولعل في هذه الكلمات، الكثير من العبر التي يمكننا أن نستنبطها في دراسة واقعنا العربي وسبل الخروج من حالة الانسداد التي نعيشها.

□ في حين أيد هذا النهج الثوري توسيع رقعة الحقوق والحريات الديمقراطية عبر الوسائل القانونية، إلاّ أنه أكدّ على أن إنجاز الديمقراطية الحقيقية الأصيلة ***genuine democracy*** أمر

مستحيل في إطار العلاقات الإنتاجية الرأسمالية. فالحجج الاقتصادية التي روّج لها النهج الإصلاحي تتناول المجتمع من منظور "الفرد الرأسمالي" أو "الرأسمالي كفرد" وتغفل حقيقة الرأسمالية كنظام اجتماعي . اقتصادي وشمولي. لنأخذ، على سبيل المثال، الإنتاج الاجتماعي الذي يدافع عنه الإصلاحيون ويدّعون أنه يستطيع أن يحرر المجتمع من التناقضات المتأصلة والملازمة للرأسمالية، غير أنه في الحقيقة وعلى نقيض ذلك، فانه يدفع بمثل هذه التناقضات إلى مستويات أعلى وأكثر حدة وتوتراً. وعليه، تخلص لوكسمبورغ إلى القول:"علينا أن نتخلى عن كل الآمال بإقامة الديمقراطية كقانون عام للتطور التاريخي حتى ضمن إطار المجتمع الحديث".

□ وعليه، فإن نقد تيار الثورة والتغيير الثوري لنهج الإصلاح يقوم على أن هذا الأخير ركزّ على مركبات جزئية في معالجته للرأسمالية وأغفل تناولها بشموليتها وطبيعتها كنظام، كما أنه عالج الأخطاء الجزئية للنظام بدل التصدي للقانون العام الذي يحكم حركة رأس المال. لذا جاء هذا النقد للإصلاحيين نقداً دياليكتيكياً حيث أن المواقف التي ترتكز على أرضية الإصلاح تؤدي فعلياً إلى تدهور العلاقات وتعميق التناقضات بين الغني والفقير كما تؤدي، في نهاية التحليل، إلى تفاقم هذه التناقضات وانفجار الثورة الاجتماعية. كما أنه من شأن هذه المواقف، وما ينطوي عليها من تطورات وسياسيات اقتصادية واجتماعية، أن تعيق نضال العمال.

***

إذا كان هذا صحيحاً في أواخر القرن التاسع عشر، تُرى كم كان دقيقاً في زمن غيڤارا والكفاح ضد الإمبريالية بعد أن دفعت البشرية ثمناً باهظاً لحربين عالميتين، بل وكم هو صحيح في زمننا في ظل هيمنة العولمة و"الحرب على الإرهاب"، عصر غوانتانامو وأبو غريب وقطع الرؤوس واستشراء الإرهاب في العراق وسورية والعالم أجمع!

في سياق هذا الجدل بين الثورة والإصلاح، وبين القوى المهادنة من جهة، وتلك الداعية إلى الثورة والتغيير الثوري، جاءت أطروحات غيڤارا حاسمة ومستندة إلى قراءة نافذة لتجارب الشعوب وخبراتها.

□ رأى غيڤارا أن نهج الإصلاح والمهادنة يتناقض مع النهج الماركسي، ورفض تبريراته وذرائعه على كافة المستويات:

- التنمية الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية

- على مستوى العلاقات الاجتماعية

- خلق الإنسان الجديد

- العلاقات الدولية والصراع بين الاشتراكية والرأسمالية والكفاح ضد الإمبريالية.

وأكَّد أن هذا النهج ينهزم أمام الحقيقة البسيطة وهي: أن المصالح المادية هي التي تحكم مواقف رأس المال (من طبقات وشركات وأفراد ومؤسسات)، وأن الفوارق الطبقية ليست مجرد

وجهة نظر أو جدل نظري . فلسفي أو أخلاقي في فهم "الحقيقة" بل هي تناقض في المصالح المادية يصل حد التضاد والتناحر، وهنا يكمن فشل المنطق الإصلاحي.

□ لقد رفض غيفارا كافة أشكال المهادنة والمصالحة مع الأعداء وتسوية التناقضات الطبقية والاجتماعية والسياسية عن طريق الإصلاح. فالثورة الكوبية لم تتوقف، وفق رؤية غيفارا، عند القضاء على نظام القمع والاستبداد والإطاحة بحكم الدكتاتور باتيستا في كوبا، بل كان لابد من المضي قدماً إلى تنمية الإنسان والمجتمع في كافة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والبشرية، وهو ما جسّده غيفارا في مشروع البناء الاشتراكي وخلق الإنسان الجديد.

□ لقد بلغت تبعية كوبا وطبقتها الحاكمة للإمبريالية حداً لا تسمح معه ولا حتى إنجاز برنامج إصلاح ليبرالي. فالطبقة الرأسمالية الوطنية (المحلية) في كوبا كانت ضعيفة جدا وفاسدة ومكبلة الأيادي وخادمة للمصالح الإمبريالية، وبالتالي فهي بطبيعتها وبحكم مصالحها مضادة وعاجزة عن استكمال مهام الثورة الديمقراطية البرجوازية والتي كان لابد من إنجازها إذا قُدر للمجتمع أن يتطور. وكذلك كانت الحال، وما زالت، في العديد من بلدان العالم الثالث.

□ صحيح أن غيفارا تلمس معاناة الجماهير في القارة اللاتينية وشعوب العالم الثالث، وأدرك أن توفير الاحتياجات الأساسية لهم يشكّل المهمة الأولى والملحة، ولم يغفل أبداً حقيقة أن ثورة الفقراء وهي الخبز أولاً والمسكن أولاً وغيرها من الاحتياجات،

ولكنه لم يتوقف عند هذا الحد بل سعى إلى توعية الجماهير وتنظيم فعلها ونضالها ضد القهر والظلم بحيث تفهم أسباب معاناتها، وأن هذه الأسباب كامنة في بنية النظام الاستبدادي الحاكم، كي يرتقي وعيها إلى فهم المعيقات التي تعيق ثورة الجماهير ضد هذا الواقع وتغييره. كما أن غيفارا رفض فكرة توفير الاحتياجات الأساسية للجماهير كعمل خيري أو إنساني، بل رأى فيه واجباً ومسؤولية المواطن/الفرد. وفي هذا الوعي، وعي الجماهير لدورها، عثر غيفارا على الضمانة الدائمة لمحو الاستغلال دون رجعة. وبهذا المعنى، فان الثورة لدى غيفارا ووفق مفاهيمه، لم تكن سوى ثورة اشتراكية نحو الشيوعية كي تحرر الإنسان والمجتمع والإنسانية بأسرها من قيود الاستغلال وجشع رأس المال.

□ أما على صعيد الأوضاع الدولية، فإن نهج الثورة، على النقيض من النهج الإصلاحي، يرى أن رأس المال لا يعمل على توفير الاستقرار وتوطيد الأمن والسلام في العلاقات الدولية، إذ أن العلاقات الرأسمالية تفضي دوماً إلى الحروب المستمرة لأن "الأمم الرأسمالية المتقدمة" تتجه دوماً نحو الحروب، نتيجة تساويها في طور النمو الرأسمالي المتقدم لكل منها.

***

يؤكد إرث غيفارا وفكره، وخاصة ما اكتسبناه من تجارب بعد استشهاده، أن نهج الإصلاح لم ينجح، بل أتى بالوبال على الإنسانية. فقد حفلت العقود الأخيرة بالعديد من الحركات والنزعات الإصلاحية والتطبيعية والاستسلامية في التصدي

للسياسات الرأسمالية والإمبريالية والثورة المضادة على كافة المستويات المحلية والإقليمية والعالمية، وكانت الحصيلة تجارب فاشلة ومكلفة من ناحية، كما جاء العديد منها تراجعًا وخيانةً لمصالح الشعوب والفقراء والطبقات الشعبية من ناحية أخرى. وتتغلغل هذه النزعات في نسيج معقد ومتشابك من المشاكل والتحديات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تواجهنا اليوم: الاحتلال والتدخل الأجنبي والانصياع لإملاءات القوى الخارجية والاستقواء بالخارج واستدخال ادّعاءات الغرب الرأسمالي في تعزيز قضايا الديمقراطية والليبرالية والحداثة والعلمنة والتصدي للاستبداد وغيرها.

لقد عشنا خلال الحقبة السابقة، كارثة ما بعد انهيار القطب الاشتراكي وتوغل الهيمنة الرأسمالية في كافة فضاءات حياتنا، الاجتماعية والثقافية والسياسية، لتنبؤنا "بنهاية التاريخ" و"موت الاشتراكية" وبأن "الخيار الوحيد" المتبقي أمام الإنسانية هو الرأسمالية وسوقها وثقافتها، ولتوهمنا بأنها هي التي حققت أعظم "الإنجازات" في القضاء على آفات القرن العشرين الثلاث، الشيوعية والنازية والفاشية، وان الإنسانية قد رست، أخيراً، على شاطئ "الديمقراطية والتقدم والازدهار"...شاطئ الرأسمالية.

الفصل الرابع عشر

مَنْ هو العدو الرئيس؟ ولماذا الرأسمالية والإمبريالية؟

لأن الرأسمالية بمصالحها وجشعها وانفلاتها في تحقيق الأرباح القصوى، تتنافى مع مصالح الأغلبية السكانية في المجتمع والإنسانية أينما كانت، ولا توفر أي مشترك يمكن له أن يجمع البشرية على أرضية واحدة ومشتركة.

□ لم يكن العداء للإمبريالية (وخاصة الأميركية) والولايات المتحدة أمراً مستغرباً في سياق المرحلة التي عاش فيها تشي غيفارا وخلال سنوات طفولته ومراهقته والتي شهدت هيمنة الشركات الأميركية على اقتصادات بلدان أميركا اللاتينية واستغلال ثروات شعوبها، ناهيك عن التدخل السافر في سيادتها وشؤونها السياسية. وحيث لامَ غيفارا الإمبريالية الأميركية والرأسمالية وأدواتها من الأنظمة والعملاء المحليين وحمّلها مسؤولية هذه الآفات الاجتماعية والاقتصادية، فقد تبنى العقيدة الشيوعية في النضال من أجل محوها.

□ رفض غيفارا المقولة التي تدّعي أن التخلف في بلدان العالم الثالث هو من طبيعة المرحلة التي تمرّ بها هذه البلدان والادّعاء بأنه الطور الذي يسبق النمو الاقتصادي كما تروّج الرأسمالية، بل اعتقد برؤية ثاقبة أن السبب الجذري في تخلف

هذه الدول هو النهب الإمبريالي لثرواتها المادية والبشرية، وهو ما أتاح للدول المتطورة أن تبني تقدمها ورفاهيتها. بكلمات أخرى، كان غيفارا يرى أن مستقبل شعوب العالم الثالث وقدرتها على شق طريق التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية منوط بإزالة الرأسمالية والإمبريالية وهيمنتها. كما كان غيفارا يعتقد أن رفاهية شعوب الدول الاستعمارية والمتقدمة صناعيا تقوم على حساب الشعوب الفقيرة ونهب مواردها.

□ يرى غيفارا أن اتخاذ موقف حاسم من الصراع بين الإمبريالية وشعوب العالم الثالث، يقوم على فهم حقيقته (الصراع) وبدون هذا الفهم لا يتسنى تحديد موقف واضح وجذري منه. وعليه، فإن مَنْ لا يفهم الصراع، أو مَن لا يريد أن يفهمه، فهو بالضرورة عاجز عن حسمه.

□ بناءً عليه، أكد غيفارا في أطروحاته على عدم إمكانية التصالح أو المساومة مع الإمبريالية والرأسمالية بسبب طبيعة التناقض التناحري بينها وبين شعوب العالم الثالث. فالغرب الرأسمالي لا يفهم لغة الحوار، وإن حاور فهو يحاور عن خبث وتخطيط مسبق، كما أنه لا يتحاور إلا إذا وجد نفسه في حالة ضعف ووهن أو إذا واجه عدواً قوياً أو كلاهما.

□ تحديد العدو بدقة كان يعني أيضاً أن المواجهة معه مستمرة حتى النهاية وحتى حسم الصراع ومن هنا جاءت مقولته "حتى النصر دائما"، وشعارات الثورة الكوبية التي أطلقها الزعيم الكوبي فيدل كاسترو: الوطن أو الموت، سننتصر!

□ يميل كثير من المحللين إلى الاعتقاد بان عداء غيفارا للولايات المتحدة والإمبريالية الأميركية واعتبارها "العدو الرئيسي للإنسانية"، قاده إلى معاداة كل ما تحبه أو تطالب به أميركا. إلاّ أن مثل هذا التحليل يظل تبسيطاً ساذجاً يغلّب العوامل الشخصية ويتنكر للركائز الفكرية والمفاهيمية لتشي غيفارا، فمعاداته للإمبريالية الأميركية كانت تقوم أولاً وأخيراً على تناقض المصالح: مصالح الشعوب في الحرية والتنمية والعيش الكريم من جهة، وفي الجهة المناقضة مصالح الرأسمالية والإمبريالية القائمة على نهب ثروات هذه الشعوب.

□ لخص غيفارا موقفه من الإمبريالية، والإمبريالية الأميركية على نحو خاص، في رسالته إلى الترايكنتينانتال ***Tricontinental*** (منظمة التضامن مع شعوب آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية) والتي نشرت في 16 ابريل 1967[41]، حيث أكد على:

. أن الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية كنظام عالمي؛

. وعليه، تصبح محاربتها ضرورة تاريخية، لذا طالب بمواجهة عالمية واسعة وطويلة المدى في محاربتها؛

---

[41] Che Guevara Reader: Writings on Politics & Revolution, pp. 350-362.

. طالب الدول الاشتراكية ومؤيديها أن يوحدوا جهودهم في كفاحهم ضد عدو الإنسانية المشترك: الإمبريالية الأميركية؛

. في هذا الكفاح العظيم، رأى غيفارا أن المهمة التاريخية لشعوب العالم الثالث تكمن في القضاء على قواعد ومراكز وجود الإمبريالية في الدول النامية، هذه القواعد التي تشكل مصادر الربح والمواد الخام والأسواق لتصريف السلع القادمة من بلدان المركز. هذه القواعد التي تخضع اليوم إلى "تبعية مطلقة"؛

. كل هذا يعني الضرورة الملحة لإستراتيجية عالمية للحرب ضد الإمبريالية تكون قادرة وفعالة في دعم طليعة البروليتاريا العالمية: فيتنام.[42]

---

[42] تفتح دعوة غيڤارا هذه للعودة إلى مناقشة المصادر المبكرة للأممية الثورية (1919 - 1924) في السنوات الأخيرة لحياة لينين وقبل أن يتولى ستالين قيادة الحزب الشيوعي السوڤييتي واتجاهات السياسة الخارجية للاتحاد السوڤييتي خلال عقود الحقبة الستالينية.

الفصل الخامس عشر

مركزية المقاومة في فكر تشي غيڤارا

"لستَ مهزوماً ما دمتَ تقاوم"

مهدي عامل

ننطلق في هذا الفصل، كما كان المنطلق الفكري عند غيڤارا، من القناعة بان الرأسمالية ليست قدر البشرية، وأن الشعوب قادرة على مقاومتها ودحرها، لأن هيمنة الرأسمالية، بكافة طبعاتها وحقباتها وتجلياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، لا تنبئ سوى بمزيد من الظلم والاستغلال للغالبية الساحقة من البشرية وإفقارها المادي والروحي.

ومن هذا الباب، يجوز لنا أن نقول بأن ما قدمه غيڤارا في فكره ونضاله هنا هو رؤية لغدٍ أفضل وعالمٍ تملكه الأغلبية. وهي رؤية تألقت حلماً لعقود طويلة بعد بزوغ الاشتراكية في عشرينيات القرن الماضي، ثم خبت في الفترة التي تلت انهيار النمط السوڤييتي، إلى أن جاءت يد العولمة الرأسمالية لتحاول اغتيالها ولتصف كل مَنْ يؤمن بها بأنه حالم ما زال يعيش في ستينيات القرن الماضي.

وعليه، فحين نتناول فكر المقاومة عند تشي غيڤارا، لابد من التأكيد على أن المقاومة واحدة من الركائز الأساسية لفكره التي لم تتغير راهنيتها وحتميتها التاريخية في الجوهر رغم التطورات السياسية الطاحنة في العالم ورغم التغيرات التي طرأت على آليات المقاومة وسياقها التاريخي والسياسي.

جذور فكر المقاومة

بدأت بوادر فكر المقاومة لدى تشي غيڤارا مع بدايات قراءاته السياسية والفلسفية. وقد تأثر غيڤارا، حين كان يافعاً، بأفكار مهاتما غاندي في اللاعنف، وكان معجباً بها ومدافعاً عنها. أما مسيرته فقد تطورت، على النقيض من ذلك، ليتبنى أسلوب الكفاح المسلح ضد الهيمنة الإمبريالية الأوروبية والأميركية حتى لحظة استشهاده. فقد تبلورت المقاومة وترسخت كمفهوم أساسي في فكر غيڤارا وفي تحديد العدو ووسائل مقاتلته منذ تجربته في غواتيمالا. وقد أشرنا في فصول نشأته وعناصر تكوينه الثوري إلى العديد من العوامل التي دفعته إلى الثورة وغذّت فيه العداء للإمبريالية الأميركية وسياساتها.

معاني المقاومة عند غيڤارا

□ دور الجماهير: ينطلق غيڤارا من قناعته بأنه لا يحمل مهام الثورة ولا يحمي مسيرتها سوى الشعب الذي من أجله أصلاً

قامت الثورة، ولا يملك الحق والقدرة على الحسم النهائي والمصيري في الكفاح من أجل سبيل الحرية والاستقلال ودحر الإمبريالية سوى الشعوب. قد يصل "التوازن الدولي" وصفقات الدول العظمى إلى تسوية للصراع، ولكن الحل النهائي لا يتم إلا بموافقة الشعوب ومشاركتها. ويذكر لنا التاريخ العديد من الأمثلة حين تمكنت الشعوب من شطب موازين القوى ومفاعيلها إذا ما تناقضت مع مصالحها وطموحاتها. غير أن الشعب لا يستطيع أن يحمي ثورته دون الإنسان الواعي والمتسلح بالوعي الثوري.

نسوق هنا مثالين على ما يقوله غيڤارا:

الأول: تسليح الكوبيين بالوعي والسلاح أثناء الغزوة الإمبريالية الأميركية الفاشلة لبلدهم وخلال أزمة خليج الخنازير[43] (17 نيسان 1961) وانتصارهم في التصدي لهذا العدوان.

والثاني: هو تقاعس الحكومة الغواتيمالية عن تسليح الشعب عام 1953 خلال الانقلاب الذي نظمته وقادته وكالة الاستخبارات الأميركية ضد الحكومة الثورية الغواتيمالية الجديدة. (انظر فصل "غواتيمالا: التجربة والمنعطف").

أما في الحالة العربية، فلنأخذ معركة مناهضة التطبيع مع الكيان الصهيوني ومقاطعة منتوجاته ومنتوجات الغرب الرأسمالي

---

[43] هكذا درجنا على تسمية الغزو بالعربية نقلاً عن المصادر الغربية، أما الكوبيون فيسمونها غنزو خليج غيرون *Invasión de Playa Girón*

الداعم له والذي يشكّل شريان حياته، وهي معركة كبيرة من شأنها أن تلحق الأضرار بالعدو الصهيوني وتشحذ الهمم وتعمق الوعي في الكفاح ضده، إضافة إلى أن هذا الشكل من النضال الجماهيري هو في جوهره مشروع تنموي يقوم على إنتاج ما تتم مقاطعته مما يجند الشعب في النضال اليومي.

□ المقاومة الشاملة وتعدد أساليبها: آمن غيڤارا بالكفاح المسلح ضد الإمبريالية وأدواتها المحلية، كما آمن بأنه (الكفاح المسلح) وسيلة رئيسية لتحقيق أهداف الثورة. غير أنه، على خلاف ما يُشاع في بعض الأحيان، لم يحصر أساليب المقاومة والثورة في العمل المسلح لوحده، بل رأى أن ركائز المقاومة ومبادئها وأساليبها يجب أن تتناغم مع طبيعة وظروف ساحات المواجهة مع العدو على تنوعها، ومرحلة الكفاح ومتطلباته.

فالمقاومة بمعناها الشامل ليست نمطا من أنماط العمل العسكري وحسب، فالعمل العسكري ضد أهداف العدو هو جانب من أنشطة الثورة وأساليبها ضمن عملية ثورية شاملة يكون الشعب فيها هو الحاضنة والبيئة الراعية لها، وتكون الجماهير هي صانعة القرار، كونها صاحبة المصلحة وهي التي تصنع التاريخ بدمائها وتضحياتها.

□ تعدد ساحات المقاومة: تتعدد ساحات النضال والمقاومة عند غيڤارا بتعدد الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية وأساليب النضال وظروف المرحلة ومهامها وتحدياتها.

وقد أفاد غيڤارا من تجربته في هذا المجال: ففي الفترة التي أقام فيها في غواتيمالا (عام 1953)، على سبيل المثال، تجلت المقاومة عنده في الرد على الغزو الإمبريالي وبتسليح الشعب والكفاح ضد الغزوة حتى الموت. أما في الثورة الكوبية، فقد كانت حرب العصابات هي الإستراتيجية للإطاحة بالنظام الدكتاتوري الحاكم آنذاك.

□ تحديد طبيعة التناقض: تؤكد أطروحات غيڤارا على أن الصراع مع الإمبريالية صراع تناحري، وأنه لا إمكانية للتصالح أو المساومة معها، إضافة إلى أن الإمبريالية بطبيعتها لا ولن تقبل بذلك. ناهيك عن أن الولايات المتحدة ترى أنه من حقها تغيير الأنظمة والإطاحة بقادة الدول ورؤسائها أي قتلهم واغتيالهم.[44]

□ مقاومة الإمبريالية: بالإضافة إلى هذا الوضوح في رؤيته للعدو وتحديد أساليب محاربته بدقه، كان غيڤارا حاسماً في قرار المقاومة ورافضا للتراجع أو التهاون . فقد صرّح في ديسمبر1962 ، أي بعد شهرين من أزمة الصواريخ الكوبية، وفي مقابلة مع صحيفة الشيوعية البريطانية ***Daily Worker***، بأنه لو كانت الصواريخ السوفييتية بأيدي الكوبيين لكانوا أطلقوها، مضيفاً بأنه "في مواجهة المعتدي، فإن الخيار الوحيد هو القتال حتى الموت" .لا شك أن غيڤارا كان يدرك النتائج الكارثية التي ستنجم عن إطلاق

[44] في أوائل ستينيات القرن الماضي، انشغل الرئيس الأميركي آنذاك جون ف. كنيدي بالتآمر ضد كوبا وثورتها وزعيمها فيدل كاسترو. للمزيد من التفاصيل حول مواقف ومؤامرات كيندي، راجع الفصلين الثامن عشر والتاسع عشر (ص 249-283) من كتاب:

Alvarez De Toledo, The Story of Che Guevera

الصواريخ ليس على الولايات المتحدة لوحدها فحسب، بل على العالم بأسره، وهنا يكون السؤال : هل كان تصريحه هذا لاستفزاز العدو؟ أم إصرار على المقاومة بأي ثمن؟[45]

□ مقاومة الرأسمالية: لا فصل عند غيڤارا بين الرأسمالية والإمبريالية، ولم يكن يرى في الإمبريالية سوى مرحلة من مراحل الرأسمالية. وعليه كان نهجه واضحاً: إذا كنا نحارب الإمبريالية ونرفض الرأسمالية فعلينا أن نمحو نمط الإنتاج الرأسمالي وعلاقات الإنتاج التي تقوم عليه، وهو ما يفتح أمامنا آفاق الخيار الاشتراكي. وإذا أردنا أن نبني الاشتراكية، فلا بدّ أن ننتج نظرية وفكراً اشتراكياً وأن نبني الوعي (الطبقي والاجتماعي والسياسي) والإنسان كحامل رئيسي لهذا المشروع.

□ أُممية الثورة... أُممية المقاومة: تابع غيڤارا السير على خطى لينين الذي كان قد فسّر في العقد الثاني من القرن الماضي، أن الإمبريالية مرحلة متقدمة من النظام الرأسمالي، وهذا يعني، من ضمن ما يعني، أن الصراع الطبقي على المستوى العالمي، يشكل وحدة مترابطة لا تتجزأ. وأن التضامن بين الشعوب وبين الطبقات المستغَلة (تضامن الطبقات الشعبية) ليس ترفاً ولا مجرد خيار مفضل للشعوب، بل هو ضرورة يقتضيها النضال ضد رأس المال ومصالحه وهيمنته. هذا التضامن، كما رأى غيڤارا وكما أثبتته التجربة الكوبية بما لا يمكن إنكاره، شرط لانتصار الطبقة العاملة والطبقات الشعبية في العالم الثالث.

---

45 Alvarez De Toledo, The Story of Che Guevera, p. 308

لقد التقط غيفارا وبدقة نافذة أن محاولات التغيير الاجتماعي الساعية إلى القضاء على التخلف تصطدم بالضرورة، عاجلاً أم آجلاً، بمواجهة كاملة مع الإمبريالية. ومن هنا أدرك أن المعركة ضد الإمبريالية كبيرة وأن مقاومتها تتطلب، بل يجب أن تكون "مشروعا" أُممياً شاملاً. وقد صرّح في يناير 1965 بعد إكماله جولة في سبع دول أفريقية في يناير 1965:"لقد أصبحت مقتنعاً أنه من الممكن تكوين جبهة عالمية للكفاح ضد الكولونيالية والإمبريالية والنيوكولونيالية".[46]

وعندما توجه إلى إشعال الكفاح المسلح في الكونغو أولاً (عام 1965) ثم في بوليفيا (عام 1966) مستنداً إلى الكفاح المسلح وحرب الغوّار، فإنه كان يسعى إلى تحقيق حلمه الذي ناضل من أجله طيلة حياته: تعزيز الثورة الأممية من أجل مستقبل أفضل للإنسانية ومن أجل محو الفقر والاستغلال الذي شكّل مشروع غيفارا الثوري ومغزى حياته.

ومن هذا المنطلق أيضاً نادى غيفارا بثورة العالم الثالث ضد الإمبريالية وكافة أشكال التبعية، ورأى أن الضمانة الوحيدة لانتصار هذه الثورة هي في أمميتها حيث تنخرط شعوب العالم الثالث، وتدعمها الدول الاشتراكية (آنذاك) بوضوح ودون تحفظ ومن باب الواجب الثوري لا العمل الخيري. ضمن هذا الإطار أصبح التضامن واجباً ثورياً وليس مجرد خيار: تضامن شعوب العالم الثالث وحركات التحرر الوطني فيما بينها، من ناحية، وتضامن

---

[46] Ibid., p. 280.

الدول الاشتراكية والقوى التقدمية في العالم مع العالم الثالث والدول النامية، من ناحية أخرى. وكي لا يدع غيڤارا مجالاً للالتباس، أضاف أنه إن لم تتضامن الدول الاشتراكية مع ثورات العالم الثالث فإنها تصبح شريكة ومتواطئة مع القوى الرجعية: "إن تمني النجاح للضحية لا يكفي، فعلى المرء أن يشاركها مصيرها. على المرء أن يشارك الضحية الموت أو النصر".[47]

في هذه الرؤية يتجلى المسار الفكري والثوري لتشي غيڤارا حيث طغى الطابع الإنساني والأممي على فكره وممارسته وأسس لمواقفه من وحدة أميركا اللاتينية ***pan-americanismo*** ووحدة شعوب العالم الثالث في نضالها وتمسكه بالأبعاد الإنسانية العميقة للماركسية وإيمانه بالثورة والنضال الأمميين ضد الإمبريالية. ومن هذا المنطلق أيضاً أدرك غيڤارا في مرحلة مبكرة[48] من الحرب الفيتنامية أن التضامن الأممي مع الشعب الفيتنامي عن طريق خلق "فيتنامات" متعددة ضرورة تاريخية ومهمة كل الثوار في العالم.

يجمع بعض المحللين على أن نظرة غيڤارا الشمولية للعالم ربما تعود في جزء منها إلى خلفيته انتروبولوجية، وكونه أرجنتيني الأصل وليس كوبياً، بالإضافة إلى أنه كان بعيداً عن السياسة

---

[47] “Create Two, Three, Many Vietnams”: A Message to Tricontinental, in Che Guevara Reader: Writings on Politics and Revolution, p. 352.

[48] صرح تشي بهذا بعد عامين من العدوان الأميركي على فيتنام الذي شهد أول فصوله في القصف الوحشي في فبراير 1965. انظر "رسالة الى العالم الثالث" التي نشرت في 16 أبريل 1967. راجع المرجع السابق.

القومية الأرجنتينية، وقد يفسر هذا لماذا كانت معاداته للإمبريالية أكثر عمقاً، في حين كان يبدو "أقل وطنية" (بمعنى الولاء لبقعة جغرافية معينة مقابل الانتماء للبشرية بأسرها) وأكثر أممية من رفاقة الكوبيين الذين التقى بهم في المكسيك.

بقي أن نقول في هذا الصدد، أنه من الملفت أن موقع غيفارا الأممي يعود إلى نضاله وكتاباته ومواقفه كمقاتل غوّار في كوبا والكونغو وبوليفيا، ولكنه يجدر القول أيضاً إن إرثه السياسي - الذي لا يقل أهمية وتأثيراً وديمومة - يعود إلى الدور الرئيس الذي لعبه كأحد كبار قادة الثورة الكوبية في بناء النظام السياسي والاقتصادي - الاجتماعي في كوبا والذي ساهم في رسم مستقبل كوبا لأجيال قادمة.

□ حتمية المقاومة وحتمية النصر: كانت قناعة غيفارا بهزيمة الإمبريالية راسخة ومتجذرة لا تهزها المتغيرات والتطورات السياسية. فقد قال في وصفه لانتصار الثورة الكوبية ودحر العدوان الأميركي على كوبا وخلال أزمة الصواريخ الكوبية (أكتوبر 1962) بأنها هزيمة للإمبريالية الأميركية مؤكدّاً أنها الهزيمة الأولى، ولكنها، حسب قوله، لن تكون الأخيرة.

وحين ندقق في حالة الإمبريالية اليوم، وبصرف النظر عن اختلاف وجهات النظر في الأسباب والدوافع والملابسات التي تحيط بالسياسات الإمبريالية الأميركية، فإنه لم يعد خافياً أن الولايات المتحدة قد أخذت تتراجع في ساحات عديدة وهو تراجع، على ندرته وبغض الطرف عن أسبابه وربما نواياه الخبيثة، أمر جديد في

السياسات الإمبريالية وهو ما يشكّل أرضية لترسيخ الفكرة التي ترفض الخنوع لمقولة "أميركا القادرة على كل شيء". وقد عبّر عن هذه الفكرة ماو تسي تونغ حين نعت الإمبرياليين "بنمورٍ من ورق"، وكان ذلك قبل أن يأتي غيفارا ليكرس فكره ونضاله لتأكيد قناعته بحتمية مقاومة الإمبريالية وقدرة الشعوب على هزيمتها. وكان ذلك في مرحلة سطوة الولايات المتحدة وجبروت تفوقها العسكري والنووي والإستراتيجي.

□ استمرارية المقاومة: تعتبر استمرارية المقاومة ركيزة رئيسية في فكر غيفارا. وقد أكدّ مراتٍ عديدة بأنه بنفس القدر الذي احتاجت به كوبا إلى الثورة، فهي بحاجة ملحة، في مرحلة ما بعد الثورة، لتنمية المجتمع، مما استدعى من قيادة الثورة التصدي لجملة من التحديات والمشاكل نأتي على ذكر بعضها.

في البدء كانت أولية الثورة في الإيفاء بالاحتياجات الأساسية للشعب الكوبي، ثم في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية للكوبيين وما تضمنته من مقارعة العدوان والحصار الأميركيين. وفي خضم هذه المعركة التنموية استشرف غيفارا مهاماً وتحدياتٍ عديدة ستكون بمثابة معارك تتطلب النضال والمقاومة والمشاركة الشعبية، ومن أهم هذه التحديات:

- رفض محاكاة النمط السوفييتي في بناء الاشتراكية وضرورة مناهضة نمط الإنتاج السوڤييتي في التنمية الاقتصادية وطرح رؤيته للبديل والذي يتطلب العمل على عدة محاور أهمها خلق الإنسان الجديد والشيوعية الجديدة والأخلاقية الثورية

والوعي الثوري وأطروحته حول الحوافز المعنوية والعمل الطوعي في كوبا.

- ومن أجل متابعة التغيير الثوري وبناء المجتمع رأى غيفارا الحاجة إلى كسر محدوديات الدقرطة السياسية والتي اعتبرها جزءًا من نهج الرأسمالية والنيوكولونيالية.

- بالإضافة كانت هناك حاجة لإفساح المجال للشعب والأنصار كمشاركين ومؤيدين للفكر الثوري. ومن أجل تحقيق ذلك كان لابد من كسر حاجزين:

الأول، حاجز "الديمقراطية" الخالية من العدالة الاجتماعية والتي لا تملك مشروعاً وطنياً متكاملاً.؛

والثاني، حاجز الماركسية الإصلاحية والدوغمائية والتي كانت إشارة واضحة ومبكرة لنقد النمط السوفييتي في الإنتاج والبناء الاشتراكي.

□ المقاومة والتنمية: مكرراً مقولة ماركس، يقول غيفارا: "لا يكفي أن نفسر العالم، هذا العالم يجب أن يتغير... على الإنسان أن ينفض عنه العبودية وأن يتوقف عن كونه أداة للبيئة وأن يتحول إلى مهندسٍ لمصيره"، وهذا يعني التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية للمجتمع في مرحلة ما بعد انتصار الثورة. ولن تكون هناك تنمية لبلدان العالم الثالث دون مقاومة للنهب الإمبريالي والتبعية للمركز الرأسمالي. كان غيفارا يرى، كما ذكرنا في مكان آخر، أن التخلف في التنمية ليس طبيعة المرحلة التي تسبق

تطور الدول النامية وصعودها[49]، بل إن الدول النامية هي تلك التي عانت من نهب الدول المتطورة التي بنت تقدمها ورفاهية شعوبها على حساب الدول الفقيرة التي دفعت الثمن لتطور هذه المجتمعات.

في الثاني من أغسطس 1961 ترأس غيڤارا الوفد الكوبي إلى اجتماع *Inter-American Economic and Social Council* والذي عُقد في مدينة مونتيفيديو *Montevideo* الأوروغوانية، وهو المؤتمر الذي سعى فيه الرئيس الأميركي آنذاك، جون كنيدي، إلى إطلاق ما أسماه "التحالف من أجل التقدم" وهو فكرة كنيدي وحيلته في الهيمنة الاقتصادية على بلدان أميركا اللاتينية. أما غيڤارا فكان يرى أن ما تجتاحه بلدان أميركا اللاتينية هو تنمية صناعاتها بدل أن تستلم العون الأميركي والذي سوف تستخدم دول أميركا اللاتينية في شراء المواد الخام المستوردة من الخارج وهو ما سيعود بالربح على الشركات الأميركية.

□ المقاومة الداخلية: المقاومة هي موقف الإنسان تجاه ما يحدث في المجتمع والسياسة والحياة، ورفض الواقع الظالم وما يحمله من استغلال وفقر وبؤس. وبهذا المعنى فإن المقاومة تفضي إلى حالة من الاشتباك الدائم مع الواقع المرفوض. وهنا تكتسب فكرة المقاومة أبعاداً نفسية وذاتية في موقف الفرد وخياراته ومواقفه، وسوسيولوجية أيضاً من حيث أن المقاومة هي موقف

---

[49] لهذه الأسباب كان غيڤارا يرفض مصطلح البلدان المتخلفة أو "غير النامية" *undeveloped*، ويعتبره مجحفاً ومهيناً لشعوب العالم الثالث.

جمعي ومجتمعي. بيد أن المقاومة ليست مجرد مقولة نظرية، بل هي ممارسة فعلية ضد واقع ماديٍ قائم. وهذا يتطلب تطوير وعي الفرد وقيمه وأخلاقه، وهو ما قصده غيفارا بأطروحة الإنسان الجديد. غير أنه لا يتسنى الوصول إلى هذا الشكل من المقاومة وتبلور مشروع الثورة دون الوعي النقدي والثوري. وهو ما أكدته تجارب الشعوب، أي أن الوعي الجمعي/ الاجتماعي عند الشعوب هو الأصدق والأكثر أصالة في مواجهة العدوان السافر والمباشر على حقوقها ومصالحها المادية والمعنوية.

خاتمة

لقد جسّد غيفارا معاني المقاومة، فكان القدوة في حياته واستشهاده. وفي كل لحظة واجه فيها الموت أو مشقات النضال، كان غيفارا ينهض بعزيمة أقوى، فالمقاومة لا توفر ضمانة للانتصار بل يبقى هناك دوماً احتمال الفشل أو الهزيمة. ولأن المقاومة عنده تعني خيار الحياة وهويتها وجوهر الوجود وقيمته العليا، نراه يستلهم قوته من وعيه ومن إرادته ومن الطاقة الكامنة في داخله.

لقد عاش غيفارا مقاوماً بسلاحه وفكره بالرغم من الأخطاء والإخفاقات، وحتى لحظة الموت ظلّ يعيش حلمه من أجل عالمٍ آخر. من هنا نفهم استهزاءه واحتقاره للموت لحظة إطلاق الرصاص عليه. فالمقاومة لا تموت بموت الشهداء لأن موت الشهيد هو انتصاره الأزلي وهو بداية عهده، أما الفكرة فلا تموت على الإطلاق.

هكذا رأى غيفارا الدنيا وأوضاع الإنسانية آنذاك، وأن المقاومة هي الخيار الوحيد بل الفرصة الوحيدة أمام شعوب العالم الثالث آنذاك، فهل اختلف الأمر اليوم؟

الفصل السادس عشر

الكفاح المسلح وحرب الغوّار

احتل الكفاح المسلح وحرب الغوّار موقعاً مركزياً في فكر غيفارا ونضاله. وضمن ظروف ذاتية وموضوعية معينة درسها غيفارا بعناية، كانت إستراتيجية البؤر الثورية ناجعة وفعّالة.

بالإضافة إلى ذلك، قدّم غيفارا مساهمات عملية وميدانية في قيادة حرب العصابات في كوبا حيث كان القائد العسكري الثاني بعد زعيم الثورة الكوبية فيدل كاسترو وسرعان ما حاز على لقب كوماندانت *comandante* بفضل بلائه بلاءً حسناً في معاركها ورسم إستراتيجيتها.

كان غيفارا مقتنعاً بأن إستراتيجية البؤر الثورية سيكتب لها النجاح خاصة في بلدان أميركا اللاتينية إن توفرت قيادات ذات خبرة تأخذ المبادرة وتشعل ساحات القتال. ومن هذا المنطلق، ومن أجل تأييد الدرب الكوبي ونجاحه وإمكانياته ذهب بنفسه إلى الكونغو (1965) وبوليفيا (1966) ليقوم بنفسه ببناء بؤرة الكفاح المسلح في هذين البلدين. هكذا قالها غيفارا بكل وضوح وبدون مساحيق ودون الحاجة إلى اللجوء إلى معجم من التبريرات والتنظيرات الملتوية التي تغزو خطابنا وثقافتنا اليوم والتي تأتينا من كل حدب وصوب لتخلط مفاهيم العنف الثوري بـ"الإرهاب".

غير أن أطروحة حرب الغوّار في الفكر الغيفاري أثارت، وما زالت، الكثير من الجدل في الأوساط السياسية والفكرية الثورية. وحيث يضيق هذا الفصل بتقييم الغيفارية بكافة مفاهيمها وما دار حولها من جدل على مدى العقود الأخيرة، فإننا سنتناول عرضاً موجزاً لها دون أن يخل ذلك بمرتكزاتها وعناصرها الأساسية، كما رآها غيفارا وعلى ضوء تجربة الثورة الكوبية. وهذا يستدعي التوقف عند بعض المحطات المفصلية في المسار الفكري والسياسي لتشي غيفارا، والانتقادات التي تعرضت لها هذه الإستراتيجية في كفاح الشعوب. ولا ننوي من وراء ذلك استنساخ التجربة الكوبية أو الغيفارية، والتي قيل فيها الكثير، سلباً وإيجاباً، بل استخلاص العبر والدروس لمشروع المقاومة العربية من خلال رؤية ترفض الدوغما والصنمية وتستلهم القوانين العامة لحركة الشعوب والتاريخ، وفي الوقت ذاته تدرك خصوصيات وسمات المقاومة العربية ضمن الواقع العربي الذي يكتنز بالعديد من العوامل الموضوعية والذاتية (بما فيها الكامنة) للنهوض وإحداث التغيير الثوري.

ومن أجل تعريف القارئ بمختلف المصطلحات المتبادلة التي استخدمت في الأدبيات السياسية للدلالة على نظرية البؤر الثورية، نورد بعض المفردات مثل حرب العصابات وحرب الغوّار، وما يرادف إستراتيجية البؤر الثورية بالإسبانية أي ***foco*** أو الفوكوية ونظرية الفوكو ***focoism***).

نشر غيفارا كتابه "حرب العصابات" عام 1963 جمع فيه سلسلة من المقالات كان قد نُشرت في *"Olivo Verde"* المجلة الأسبوعية للقوات المسلحة الكوبية وضمّنه أطروحاته الأساسية.[50] بالطبع، لم يكن هذا الكتاب الأول في هذا المضمار، فقد سبقته كتابات الزعيم الصيني ماو تسي تونغ وجنرال الثورة الفيتنامية فو نيوين جياب، كما أنه لم يكن الكتاب الأكثر أكثر أهمية أو تأثيراً في حرب العصابات. غير أن غيفارا سعى، ونجح في مسعاه هذا، إلى طرح أيديولوجية الحركة الثورية الكوبية وأن يضيفها إلى أدبيات حرب العصابات والتي تضمنت، كما أسلفنا، كتابات ماو وجياب. إلا أن ما تجب الإشارة إليه هو أن كتب ماو وجياب، لم تكن متوفرة مجاناً مثل كتاب غيفارا في أميركا اللاتينية أو في العالم، كما أنها لم تكن مترجمة إلى الإسبانية. بالإضافة إلى ما لا يمكن إنكاره وهو أن كتاب غيفارا في حرب العصابات أصبح دليلاً للحركات المقاومة في التدريب والعقيدة، وملهماً للكثيرين من ثوار أميركا اللاتينية والعالم.

السياق التاريخي لإستراتيجية البؤر الثورية

رأى تشي غيفارا في تحليله للأوضاع السياسية في أميركا اللاتينية، أن الثورة في تلك البلدان قد تأخرت لعدة أسباب، وأن واحداً من أهمها هو فشل الحركات الثورية وقياداتها (بما فيها

[50] ظهر الكتاب بالإنكليزية تحت أكثر من عنوان أهمها
Reminiscences of the Cuban Revolutionary War
والعنوان الآخر
Episodes of the Cuban Revolutionary War

الأحزاب الشيوعية المرتبطة بموسكو والتيارات اليسارية والتروتسكية وغيرها) التي تبنت خطأً سياسياً خاطئاً ومستورداً ولم تنطلق من فهم موضوعي للواقع والظروف المحلية في تلك البلدان. أما الكفاح المسلح، فقد استخدمته هذه الأحزاب استخداماً لفظياً وانتهازياً في معاركها البرلمانية ومن أجل لتحقيق مكاسب سياسية آنية.[51]

من هذا المنطلق، جاءت أفكار غيڤارا وإستراتيجية الفوكو لتضع حركات الكفاح المسلح في صدامٍ مباشر مه هذه الأحزاب والقوى السياسية والتي لم تكن تؤمن بالكفاح المسلح والعنف الثوري ولم تكن نتاجاً لهذا الكفاح أو امتداداً له، كما أنها لم تضع في إستراتيجيتها إشغال الانتفاضات المسلحة ضد الأنظمة الحاكمة.

رأى غيڤارا أن المفتاح الأساسي لانطلاق العملية الثورية في بلدان أميركا اللاتينية (بما فيها الوصول إلى السلطة والإطاحة بالنظام الرأسمالي)، يكمن في إستراتيجية البؤرة الثورية التي لقيت نجاحاً في الحالة الكوبية، مما حدا به للدعوة لاستثمار الثورة الكوبية ونجاحاتها في نشر الثورة الأممية.

[51] من المرجح أن تشي غيڤارا تأثر بفكر خوسى كارلوس مارياتيغي *Jose Carlos Mariategui*(1894 – 1930)، كبير ماركسيي القارة اللاتينية، والذي تمرد على الماركسية الأورثودكسية وأسسَ لمفاهيم الثورة في أميركا اللاتينية.

العناصر الأساسية للبؤر الثورية

1) المشترك في كفاح الشعوب

لقد تشابه كفاح الشعوب، على مدى التاريخ، في العديد من جوانبه بما فيها حروب التحرير الشعبية ومقاومة المحتلين والغزاة. ورغم تماثل هذه التجارب في الأهداف العامة - تحقيق الحرية والاستقلال الوطني وإنجاز التنمية - وبالرغم من تلاقي أساليب نضالها في مبادئها العامة، إلاّ أنها تختلف من حيث خصوصياتها في التاريخ والجغرافية والمجتمع والثقافة، من ناحية، وفي طبيعة العدو ومكوناته من ناحية أخرى. فقد التقت تجارب الشعوب مثل حرب التحرير الفيتنامية والكوبية والجزائرية،، على سبيل المثال، على مبادئ عامة في إستراتيجية مقارعة العدو وتكتيكاتها، وأهمها: تنظيم وحدات مقاتلة صغيرة متحركة، اختيار المكان والزمان في المواجهة مع العدو، الإفادة من عنصر المفاجأة في الهجوم، مرونة الحركة، وتكتيك الكر والفر. بالإضافة إلى هذا كله، سعت هذه التجارب إلى تفعيل كافة أشكال المقاومة الشعبية المدنية (غير المسلحة) من إضرابات واعتصامات ومقاطعة مصالح العدو وصولاً إلى النضالات الطلابية والعمالية والفعاليات السياسية والفكرية والثقافية والاجتماعية.

2) تتلخص إستراتيجية البؤر الثورية في أن تقوم مجموعة صغيرة من الثوار بالمبادرة الثورية بإقامة قواعد عسكرية في الريف (القواعد الارتكازية) وبشكل منفصل عن الفلاحين، ثم تنطلق في عمليات عسكرية متصاعدة مع القوات العسكرية لنظام الحكم

المرتبط ب والمدعوم من الإمبريالية، عاملة على كسب دعم وتجنيد الجماهير التي تأخذ بالالتحاق بها وصولاً إلى النصر النهائي. وتأسيساً على هذه الإستراتيجية، دعت الغيفارية إلى إقامة العديد من هذه "البؤر" في أميركا اللاتينية والعالم كإستراتيجية لكفاح الشعوب.

3) كان العمال والفلاحون، بالنسبة لغيڤارا، في قلب النضال الثوري، ومن هنا ركز على الكفاح المسلح وحرب العصابات في الأرياف، وعلى ضرورة تقديم الدعم السياسي والعسكري واللوجستي في التدريب والتسليح.

غير أن غيڤارا لم يؤيد حرب العصابات في المدن إذ كان يرى أنها لن تنجح لأنها تفتقر إلى الطليعة كما أنها سوف تتسبب في الضرر للمدنيين من نساء وأطفال وشيوخ.[52]

حرب الغوّار والسوڤييت

في مواجهة التحدي الإمبريالي الأميركي، دعت الفوكوية إلى التوجه نحو الاتحاد السوڤييتي طلباً للدعم والمساعدة. غير أن الخبراء والمستشارين السوڤييت في كوبا كانوا ينصحون ويشجعون على الوسائل المحافظة في كفاح الشعوب كما في الصناعة والإنتاج والمجتمع بشكل عام.

كانت تدخلات الاتحاد السوڤييتي وأصابعه ظاهرة في كوبا وغيرها، وكان من تبعات ذلك أن السياسة الكوبية اتخذت، على

[52] وهي أطروحة مختلفة عن نموذج لينين في العصيان المسلح والذي نبع من المدن خلال ثورة 1917.

المستويين الاقتصادي والسياسي، داخلياً وخارجياً، شكلاً تابعاً للمعسكر السوفييتي. وبالرغم من هذا كله، نشر غيفارا، في سبتمبر 1965، مقالته المعروفة "حرب العصابات: كأسلوب" مصراً على دور الكفاح المسلح في نضال الشعوب، ما كان مناوأة صريحة وصارخة لمواقف الأحزاب الشيوعية في أميركا اللاتينية الموالية للسوفييت.

كان غيفارا في قلب هذه التطورات العاصفة والمتسارعة في كوبا في مرحلة ما بعد الثورة، ولم يتوان، رغم ذلك كله، في توجيه عدة انتقادات للاتحاد السوفييتي الذي لم يدعم حركات التحرر الوطنية بشكل أكثر جذرية. هذا بالإضافة إلى انتقاداته للسوفييت في مجالات العلاقات التجارية والاقتصادية مع بلدان العالم الثالث مثل كوبا، وكتب الكثير في نقد الاقتصاد ونمط الإنتاج السوفييتي.

تأثيرات إستراتيجية البؤر الثورية

1) أكدّ غيفارا، في العديد من كتاباته ومحاضراته وخطبه، أنه من الممكن نقل التجربة الكوبية إلى ساحات نضال أخرى في أميركا اللاتينية. وقد كان لهذه الرسالة وقع كبير وتأثير عميق على الجيل الجديد من المناضلين والمقاتلين في تلك القارة. وفي هذا الصدد، حاجج غيفارا أن مجموعة صغيرة من المقاتلين (البؤرة) بوسعها أن تنطلق من الجبال والأدغال وأن تخوض الكفاح المسلح وأن تكسب خلال هذا الكفاح دعم الجماهير والقوى السياسية والاجتماعية،

وأن تتنامى إلى حالة ثورية وصولاً إلى النصر والإطاحة بالحكومات الطاغية والمستبدة.

2) وجد الكثير من الحركات والتيارات الثورة في أميركا اللاتينية أن نظريه غيفارا، وفي سياق المرحلة التي ناضل فيها، شكّلت بديلاً للأحزاب الشيوعية الفاسدة والمتعفنة في بلدان أميركا اللاتينية، والذين استحقوا بجدارة لقب "الشيوعيين الكذبة"، والذين كانوا ملتزمين بالخط السوفييتي وتعليمات القيادة السوفييتية في موسكو. غير أن ما تجدر الإشارة إليه، وهو الأهم، أن السياسة السوفييتية كانت تعارض أسلوب الكفاح المسلح في النضال ضد الأنظمة القائمة في تلك القارة والتي كانت حكومات مؤيدة وتابعة للإمبريالية الأميركية.

3) كانت حرب العصابات بطبيعة إستراتيجيتها وتكتيكاتها تَعِدُ بالأمل بنصر قريب. لذلك قامت في أوائل عقد الستينيات وبوحي من التجربة الكوبية، عدة محاولات لخوض الكفاح المسلح في كل من البيرو والأرجنتين وفنزويلا وغيرها من بلدان أميركا اللاتينية، غير أن النجاح لم يحالف أياً منها.

البؤر الثورية في ميزان التاريخ

نقد إستراتيجية البؤر الثورية

يتمترس الكثيرون من منتقدي غيفارا وراء عدة مقولات نناقش أهمها في ما يلي:

1) نجاح الثورة الكوبية ليس دليلاً على صحة "البؤرة الثورية": لقد نجحت إستراتيجية الفوكو في كوبا، ولذلك رأى غيڤارا أنها مرشحة للنجاح ضمن ظروف (ذاتية وموضوعية) مشابهة. وقد ارتأت القيادة الكوبية أنه بإمكان الثوريين الأمميين الاستفادة من هذه التجربة لما فيها من منفعة لصالح الشعوب المقهورة، وتكرارها واستثمار عوامل النجاح والقوة فيها. ويفضي بنا هذا إلى مسألتين هامتين علقتا بإرث غيڤارا طيلة العقود الماضية: (1) أن الثورة الأممية كان قناعة وعقيدة لدى قيادة الثورة الكوبية وليس لدى غيڤارا لوحده، و(2) أن دعم ونشر الثورة الأممية، بالإفادة من التجربة الكوبية، لا يعنى كما يروّج الإعلام الإمبريالي تصدير الثورات على شكل استنساخ التجربة الكوبية وعلى نحو أعمى يتجاهل إرادة الشعوب المضطَهدة وظروفها وخصوصياتها.

فهل كان نجاح الثورة الكوبية دليلاً على نجاعة إستراتيجية البؤر الثورية؟

يذهب بعض المحليين وخصوصاً من التيارات الماوية إلى أن نجاح التجربة الكوبية لم يقدم الدليل على جدوى نظرية البؤر الثورية، وأن نجاح هذه الأخيرة يعود إلى عوامل ذات دلالة أعمق: أي أن نجاح الثورة الكوبية يعود إلى دور القوة الثورية المسلحة (العامل الذاتي) في النضال ضد واقع الاستغلال وما ينتجه هذا من أزمة سياسية (العامل الموضوعي) مقروناً بدور طبقة فلاحية مستعدة وقادرة على حمل السلاح ضد قوى الاضطهاد والظلم (إلى جانب البروليتاريا الفلاحية وأشباه البروليتاريا). بعبارة أخرى، يرى

هؤلاء المحللون، أن التجربة الكوبية تؤكد على التداخل الدياليكتيكي بين الذاتي (القوة المسلحة) والموضوعي (أزمة النظام ونضالات الجماهير ووجدانها)[53]. ولكنهم رأوا أن الغيفارية غالت في أهمية ودور الكفاح المسلح، مؤكدين على أن الكفاح المسلح ضروري في مراحل النضال المختلفة، وأنه في حين يرتقي هذا الكفاح إلى شكل النضال الرئيسي في مرحلة ما، فإنه قد يتراجع ولا يعدو الشكل الرئيسي للنضال في مرحلة أخرى.

2) لقد كان نجاح حرب العصابات ممكنا بسبب الظروف الموضوعية التي سادت في كوبا وغيرها من بلدان أمريكا الوسطى ومنطقة البحر الكاريبي الأخرى آنذاك، غير أنه لم يكن ممكناً لغيڤارا أن يكرر هذا النجاح في بلدان أمريكا اللاتينية حيث كانت الظروف مختلفة، خاصة حيث كان سكان المدن أكثر قوة من سكان الريف الذين يقلون عنهم عدداً مما كانت عليه في أمريكا الوسطى. فعلى سبيل المثال، لم يكن الريف الفنزويلي يعاني مثل الريف الكوبي، وعليه فان نظرية غيڤارا لن تلقى نجاحاً في فنزويلا كما في حالة الريف الكوبي.

3) تجاهل الظروف والأوضاع الخاصة بكل بلد: يقول الناقدون إن غيڤارا تجاهل خصوصيات السياق السياسي في كل حالة أو بلد، ولم يستخدم هذا السياق وخصوصياته ليرشد فعله السياسي. فقد كان تركيزه على القيام بالثورة وحرب العصابات وتوفير الشروط

53 Wolf, Lenny, Guevara, Debray, and Armed Revisionism, p. 92.

للقيام بذلك. وهذا ما أدى بغيفارا، وفق ناقديه، إلى الاستنتاج بأن كافة بلدان أميركا اللاتينية كانت، في منتصف ستينيات القرن الماضي، جاهزة لحمل السلاح في الأرياف وهو استنتاج يتجاهل الفوارق الكبيرة في الظروف السياسية والاجتماعية - الاقتصادية التي كانت قائمة في تلك القارة آنذاك.

ولعل هذا "العمل الإستراتيجي والتكتيكي"، كما أسماه صاموئيل فاربر، يعود إلى ردة فعل غيفارا السلبية للميول الانتخابية والسياسية التي كانت سائدة آنذاك بين الأحزاب الشيوعية في أميركا اللاتينية الموالية لموسكو. ولمزيد من تبيان هذا التناقض، يسوق فاربر حادثة اللقاء الذي جمع غيفارا وماريو مونخى *Mario Monje* زعيم الحزب الشيوعي البوليفي (الموالي لموسكو) يوم 31 ديسمبر 1966. في ذلك اللقاء طلب غيفارا من مونخى مساندة الحزب الشيوعي البوليفي لحرب العصابات والالتحاق بقواعدها التي كان غيفارا قد باشر بالإعداد لها في الأدغال البوليفية. وما كان من مونخى إلا أن يرد على غيفارا بقوله: "في رأسك ثمة بندقية، أما في رأسي فهناك سياسة". رفض مونخى طلب غيفارا وافترق الاثنان.

هذا الرد المقتضب والسريع يعني أن درب الأحزاب الشيوعية التقليدية في أميركا اللاتينية آنذاك (الموالية لموسكو) كان عبر الانتخابات والهبّات الشعبية ونضال النقابات والمنظمات الشعبية وليس عبر الكفاح المسلح.[54]

[54] Farber, The Politics of Che Guevara, p. xxiii.

كان غيفارا قد تعرض لمثل هذه الردود والانتقادات في السابق من موسكو ذاتها أو الأحزاب الشيوعية الموالية لها في بلدان أميركا اللاتينية. وفي رده على هذه الادعاءات، كتب غيفارا آنذاك:

- "أن تكون طليعة الحزب، فهذا يعني أن تكون في مقدمة الطبقة العاملة من خلال الكفاح من أجل الوصول إلى السلطة. وهذا يعني أن تعرف كيف تقود هذا الكفاح عبر الدروب القصيرة وصولاً إلى النصر".[55]

- أما في رده على أطروحة الخصوصيات الظروف الذاتية المختلفة من بلد إلى بلد، فقد كتب غيفارا:

"تستطيع الظروف الذاتية في كل بلد - عوامل الوعي الثوري، التنظيم، القيادة - أن تسرّع أو تؤخر بالثورة وفقاً لحالة التطور[في كل بلد]. عاجلاً أم آجلاً، وفي كل حقبة تاريخية، إذ تنضج الظروف الموضوعية، فإن الوعي يكتمل، والتنظيم يتحقق، والقيادة تنهض، وهو ما ينتج الثورة".[56]

4) يدّعي الكثيرون من منتقدي غيفارا أن فشل حملتيه في الكونغو وبوليفيا كان ناتجاً عن خطأ النظرية والإستراتيجية لديه. وفي حين أن أحداً لا ينكر فشل هاتين الحملتين في تحقيق النتائج المرجوة، بما فيهم غيفارا نفسه، إلاّ أن هذه المقولة تتجاهل العديد من العوامل والظروف المحلية التي واجهها غيفارا في هذين البلدين، عوامل كان لها تأثيراً كبيراً وحاسماً على مصير الكفاح المسلح.

---

[55] Anderson, Che Guevara: A Revolutionary Life, p. 582.
[56] Ibid., p. 582.

في ختام مذكراته عن حملة الكونغو، يقول غيفارا:"لقد تعلمتُ في الكونغو أن هناك أخطاء لن أكررها أبداً، وأخرى قد تتكرر، وأخطاء جديد سوف تُرتكب. أغادر [الكونغو] وأنا أكثر إيماناً من أي وقتٍ مضى بحرب الغوّار. ولكننا فشلنا. إن مسؤوليتي لعظيمة: لن أنسى الهزيمة ولا عبرها القيّمة".[57]

لم يلقَ غيفارا في مرحلة كفاحه في بوليفيا الدعم من السكّان المحليين، بل لمس أن الكثيرين من شبّان وأسر الفلاحين البوليفيين كانوا يمقتون أرباب عملهم، ولكنه لم يستطع أن يجند أحداً منهم أو أن يكسب تأييدهم، ناهيك عن أنه لم يستطع أن يتواصل مع الكثيرين منهم لأن نسبة كبيرة منهم لم تكن تتكلم الإسبانية بل كانوا يتكلمون لغاتهم الهندية الأصلية. إلى هذا، كتب في مذكراته أن سكان هذه المنطقة "يتمتعون برؤوس كالصخور لا يمكن اختراقها".

لكن مما لا شك فيه، أن الوقائع أثبتت، بالرغم من فشل غيفارا في حملتي الكونغو وبوليفيا، أن العدو كان واحداً في كل الحالات: فقد كانت الإمبريالية الأميركية وراء دعم وتسليح وتدريب أعداء غيفارا ولم تتوقف سياساتهم عن معاداة الشعوب وقمع مقاومتها ودعم الثورة المضادة في العديد من أجزاء العالم. كل هذا قاد الثائر غيفارا إلى القناعة المطلقة بأن العدو الحقيقي، سواء بالعلن أو بالاختباء خلف الستار، كان الإمبريالية الأميركية. وهي عبرة، ما دمنا بحاجة إلى تكرارها والتأكيد عليها مراراً في خضم

[57] Alvarez De Toledo, The Story of Che Guevera, p. 322.

الأحداث المريعة التي مرّ بها الوطن العربية وخصوصاً في مشرقه عبر السنوات الفائتة.

5) الكفاح المسلح ليس أسلوب النضال الوحيد: على الرغم من أهمية ومركزية حرب العصابات والبؤر المسلحة في فكر غيڤارا فإنها لم تشكّل لديه أسلوب الكفاح الوحيد. أي أنه لم يغلق الباب أمام أشكال الكفاح الأخرى والمتعددة. فليس من الضرورات في كفاح الشعوب أن تلجأ إلى الكفاح المسلح في كل الحالات أو في كل ثوراتها أو محاولاتها التغييرية. فالمقاومة الشعبية الشاملة بكافة الأساليب والآليات حق للشعوب، غير أن هذا لا يغير ولا يقلل من حقها وخيارها في الكفاح المسلح كوسيلة رئيسة وفق ظروفها وخياراتها.

فالمقاومة عند غيڤارا مشروع كفاح طويل الأمد يأخذ من الأشكال والأساليب ما يتوفر للجماهير كي ترتقي إلى ثورة شعبية شاملة وتحقق التغييرِ الجذري الذي تصبو إليه في المجتمع والإنسان وصولاً إلى مجتمع وإنسان جديدين.[58] بعبارة أخرى، لم يرَ غيڤارا ولم يطالب بالكفاح المسلح أسلوباً وحيداً لنضال الشعوب بل اعتبره وسيلة رئيسية تاركاً للشعوب اختيار وسائل كفاحها وأولوياتها

[58] عُقدت في هافانا في حزيران 2013 ندوة لتخليد ذكرى عيد ميلاد تشي غيڤارا، وقد جاء في واحد من أبحاث تلك الندوة أن "ليس هناك ما هو أبعد عن الواقع من القول بان تشي تشبث بالكفاح المسلح على أنه السبيل الوحيد لكفاح الشعوب". وقد أردف كاتب البحث ريغالادو، موضحاً بأنه على العكس من ذلك، أصر تشي على أن الشعوب تمارس الكفاح المسلح الثوري عندما تقتنع بأن السبل المتاحة لتلبية احتياجاتهم ومصالح الحيوية، قد أصبحت مغلقة. وأكد على أن حرب العصابات كانت أكثر فعالية في ظل الظروف الموضوعية التي سادت في أمريكا اللاتينية في زمن تشي غيڤارا.
http://www.oceansur.com/noticias/culmina-coloquio-che-guevara-en-la-hora-actual-85-anos-de-su/

وفق ظروفها وخصوصياتها. فالكفاح المسلح وحرب العصابات لم يكن يوماً الدرب الوحيد لتحقيق التغيير الثوري والاجتماعي في كوبا، والثورة الكوبية لم تقتصر في كفاحها على حرب العصابات في أدغال وأرياف كوبا، بل رافق ذلك أشكال عديدة من النضال العمّالي والطلابي في المدن والإضرابات العامة والعصيان المدني وغيرها. وقد شهدنا في السنوات الأخيرة، وفي ساحة غيفارا النضالية الرئيسية أي أميركا اللاتينية، تحولات اجتماعية وسياسية تحققت بأساليب نضالية أخرى مثل العملية الانتخابية التي تنامت في العقدين الأخيرين وأضحت منبعاً للتعبير عن الطموحات الشعبية وتعزيز سلطة الشعب على نحو غير مسبوق وللمرة الأولى في تاريخ أميركا اللاتينية، حيث تمّ وصول قوى وقادة تقدميين واشتراكيين إلى السلطة عن طريق الانتخابات وفوز المرشحين الذين يعبرون عن مصالح الجماهير العريضة.[59] وهي حالة تؤكد على ما سبق وذكرناه أن الثورة هي حالة ممتدة وطويلة المدى، بينما الكفاح المسلح ومعاركه هي حالة نضالية وأسلوب كفاح في مرحلة معينة وضمن ظروف معينة أيضاً. ولذا فإن انتصارات أميركا اللاتينية التي شهدنا في الأعوام الأخيرة هي تطورات طبيعية لتراكم الفعل الثوري بدءًا من سيمون بوليفار إلى تشي غيفارا وصولاً إلى تشافيز وغيرهم. إلا أن الذين لا يؤمنون بالتاريخ لا يفهمون هذه الرؤية.

في زمننا هذا، أصبح مَنْ يؤمن بالكفاح المسلح وكأنه آتٍ من ماضٍ غابر أو من كوكبٍ آخر. كيف لا وقد غسل الخطاب الرأسمالي

[59] للاستفاضة انظر مقالة الصديق د. نور الدين عواد: "امريكا اللاتينية: انتخابات كوبا ومواطنة إكوادور" في موقع "كنعان"، على الرابط التالي:
http://kanaanonline.org/quarterly/?p=26

عقول الكثيرين الذين استدخلوا مقاومة الشعوب المشروعة وكفاحها البطولي وكأنها "إرهاب".

فماذا تبقى للشعوب المضطَهَدة من وسائل النضال؟ وكم من محتل غادر مستعمراته برضى وبدون مقاومة وهزيمة؟

في المقابل، وعلى سبيل المقارنة، نرى أن المقاومة العربية في العراق ولبنان وفلسطين، تضفي على أطروحة غيفارا في الكفاح المسلح بعداً يؤكد ما آمن به وناضل من أجله. فبغض النظر عن حساب الأرباح والخسائر للحرب الصهيونية ضد لبنان عام 2006، والتي قيل فيها الكثير، إضافة إلى تجربة المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأميركي، وتجارب المقاومة الفلسطينية ضد العدوان الصهيوني المتكرر على قطاع غزّة وبشكل خاص حرب تمّوز 2014، بغض النظر عن هذه الحسابات، فإن الحقيقة الماثلة أمامنا بوضوح وعناد هي انه لا يمكن تجاهل أو التقليل من أساليب حرب العصابات وحرب الشعب ومدى نجاعتها، مما يعيد إلى الأذهان سؤال: هل حقاً أن الكفاح المسلح والعنف الثوري هو أسلوب ولى زمنه لمجرد أننا نعيش الآن مرحلة جديدة: غياب القطب الاشتراكي وهيمنة القطب الأميركي الوحيد على مقدرات الشعوب ومصائرها وبطش عولمة رأس المال.

6) لم تعد إستراتيجية، في نظر الكثيرين من منتقدي غيفارا، صالحة في عالمنا المعاصر. فقد ولّدت المتغيرات الدولية منذ استشهاد غيفارا عالماً آخراً ومختلفاً عن زمن تشي غيفارا كما يقول هؤلاء. وهي مشاهدة دقيقة في جرد التطورات العميقة التي هزّت

العالم بعد الانهيار السوفييتي وإحكام الوحدانية القطبية الرأسمالية قبضتها عليه. وفي شرح هذه المتغيرات التي يأتون بها لتبرير مقولتهم، يسترسل هؤلاء في أن عالم اليوم يقوم على دعائم مختلفة أهمها: نظام عالمي جديد جاء إثر الانهيار السوفييتي، حارب السرديات التاريخية الكبرى وروّج لنهايتها معلناً موتها، مثل زوال القومية واندحار الاشتراكية ومشروعها، ونهاية التاريخ واستسلامه لوحدانية القطبية الأميركية وهيمنة الإمبريالية الغربية وعولمة رأس المال بزعامة الولايات المتحدة.

ويبدو أن الكثيرين لم ينتبهوا إلى أن قراءة غيفارا على هذا النحو تنطوي على تعامي عن رؤيته في أن الثورة ضرورة تاريخية كي يتحرر الإنسان من كافة أشكال الاستغلال، وهي رؤية تتضمن استمرارية النضال طويل المدى وديمومة الثورة وشموليتها وتكيفها مع المتغيرات المحلية والدولية. يقول غيفارا "كل فعلنا . الثوري . ليس إلا صرخة في وجه الإمبريالية". لذا فإن كنه أطروحات غيفارا يتمثل في المقاومة ومحاربة الإمبريالية والرأسمالية دون هوادة وأينما تواجدت، وأن حرب الغوّار ليس سوى إحدى الوسائل، قد تناسب بلداً ما ولا تناسب الآخر، وقد تثبت صحتها وفعاليتها في حالة بينما تلقى الهزيمة في حالة أخرى، وقد تنجح اليوم وتفشل غداً. ولعل مسيرة غيفارا منذ انتصار الثورة الكوبية (1959) وحتى مغادرته كوبا إلى الكونغو (1965) كانت خير دليل على قناعته باستمرارية النضال طويل الأمد وأممية الثورة ضد الإمبريالية والرأسمالية وهو ما لا يتنافى مع ضرورة وحتمية الكفاح المسلح وحق الشعوب في ممارسته ضد أعدائها مهما كانوا.

7) أما عن اتهام غيڤارا بالعقلية "المتهورة" و"المستهترة"، فالذين يعرفونه عن قرب والذين شاركوه نضاله يقرّون بأنه تميز بشجاعة نادرة وفق قول قائد الثورة الكوبية فيدل كاسترو مضيفاً أن الشجاعة والتهور أمران مختلفان. والحقيقة أن غيڤارا كان يدرس ساحات النضال دراسة جدية قبل اتخاذ القرار والإقدام على خوض الكفاح المسلح، كما حصل في حالتي الكونغو وبوليفيا، كما كان يتمحص الظروف الموضوعية والذاتية (السياسية والاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية والجغرافية) إن كانت مواتية لإطلاق الكفاح المسلح.[60] فغيڤارا لم يكتفِ بمجرد التنظير للكفاح المسلح بل مارسه ببسالة وريادة فائقة، ولهذا أصبح ملهماً للعديد من حركات الكفاح المسلح وحرب العصابات.

وفي حين اعتبر غيڤارا الكفاح المسلح في العديد من الحالات وضمن سياق وظروف معينة الوسيلة الرئيسية لكفاح الشعوب من أجل التحرر الوطني والاستقلال والتخلص من الهيمنة الإمبريالية - وما زالت هذه الأطروحة صحيحة في قوانين مقاومة الشعوب - إلا أنه كان أيضاً يدرس ظروف الساحة النضالية لتكون مواتية لهذا الشكل من النضال. فهو، على سبيل المثال، لم يدافع عن حرب العصابات في المدن، وذلك لعدة أسباب أهمها:

---

60 لدى وصول غيڤارا الى بوليفيا في نوفمبر 1966، كان عدد سكان هذا البلد أربعة ملايين نسمة. إثنان وأربعون بالمئة من هؤلاء كانوا يموتون بسبب سوء التغذية، و10 بالمئة كانوا دون مأوى، فيما لم يتوفر في 86% من المنازل أدنى الشروط الصحية.

- أنه لن يُكتب لها النجاح بسبب استحالة تشكيل الطليعة المقاتلة؛

- وأن مثل هذه الحرب تتسبب في خسائر إنسانية فادحة جلّها من الأطفال والنساء والمدنيين.

وهنا لابدّ من التمييز بين الإخفاق بسبب ظروف قاهرة وتحديات كبيرة واجهها في ساحات نضاله ولم يتمكن من التغلب عليها (كما حصل في الكونغو وبوليفيا)، وبين الإخفاق بسبب التهور والاستهتار. هذا ناهيك عن تخلي القوى التي عوّل على دعمها ومساندتها خصوصاً في توفير الحاجات اللوجستية كما حصل مع قيادة الحزب الشيوعي البوليفي أثناء نضاله في ذلك البلد. فالوقائع تحدثنا، عن تخلي قيادة الحزب الشيوعي البوليفي عن تقديم الدعم لغيڤارا وحنثوا وعودهم، وعن العديد من كوادر ذلك الحزب زاروا غيڤارا في الأدغال البوليفية وعادوا بانطباعات رافضة وممتعضة من تكتيكاته التي رأوا أنها "غير الواقعية". ولا شك أن مجمل موقف هذا الحزب كان متأثراً بالموقف السوڤييتي وإملاءاته.

8) يفتقر كثيرون ممن انتقدوا غيڤارا، خصوصاً في الأوساط الأكاديمية "الباردة" وأيضاً البيروقراطية والحزبية، يفتقرون إلى الروح الثورية والخيال الثوري الذي دفع انطلاقة غيڤارا نحو النضال الأممي. وهي مسألة تشترط وجود الوعي والإرادة الثورية. ويدفعنا هذا التحليل للتمييز بين تعاطف الإنسان العادي مع المضطهَدين، بما في ذلك المواقف اللفظية التي تملأ فضاءات السياسة والإعلام والديماغوغية وحتى الأكاديمية، من جهة، وبين

تطوع المناضل الثوري للقتال من أجل الفقراء والمضطَهدين ومعهم أينما كانوا. ومن هنا، فإن التحليل الأكاديمي لغيڤارا يظلمه لأنه تحليل بارد وجبان. لعل ما يثبت ما نذهب إليه أن غيڤارا لا يزال أيقونة لكل من يؤمن بالتغيير ويسعى إلى الثورة. هذا ناهيك، عن أن الكثير من الادعاءات التي تتخذ مظهر النقد، كثيراً ما تهدف في محصلتها إلى تشويه الفكر الثوري، لا فكر غيڤارا لوحده، وتدمير وعي الأجيال الناشئة.

الفصل السابع عشر

مفهوم الوعي الجديد عند غيڤارا

«..هل نسي البعض أن الفكر ليس في ذاته قوة مادية، بل في صيرورته وعي الجماهير؟ أما الشيوعيون فهم الذين يعلمون أن للنظرية العلمية جسداً هو جسدهم، وأعصاباً هي أعصابهم، وعاطفة هي عاطفتهم، وأنّ لها حياة هي حياة نضالهم، وحباً في عيونهم حتى الشهادة. فليبحث (المتفكرون) عنها في هذه العيون التي ترى، وفي الأيدي التي تحاول التاريخ يومياً، تدكه وتحاوله، تشق فيه درب التحرر...»

مهدي عامل

في "النظرية في الممارسة السياسية"

شكّل خلق الوعي الثوري والنقدي محوراً رئيسياً في فكر تشي غيڤارا واحتل موقعاً مركزياً في مسيرته النضالية. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن العديد من مساهماته الفكرية والاقتصادية والثورية تتمحور حول هذه الأطروحة التي تعتبر الوعي الجديد حجر الأساس في بناء الإنسان الجديد والمجتمع الجديد وصولاً إلى "الإنسانية الكاملة".

نتناول في هذا الفصل إشكالية الوعي عند غيڤارا وأهم أبعادها، وسوف نطرق المسألة في المحاور التالية:

1) تكوين الوعي: منطلقات ومفاهيم

2) جدلية الوعي... والعمل... والإنتاج

3) تكوين الوعي والاشتراكية

***

على خلاف ما يبدو للكثيرين أن غيڤارا كان يتعجل العملية الثورية سواء في كوبا أو في سعيه للثورة الأممية في الكونغو وبوليفيا، وعلى خلاف ما اتهمه به كثيرون بالتهور والتسرع، كان غيڤارا يدرك في العمق أن الثورة لا تنتصر إلا إذا اكتملت ظروف نجاحها الذاتية والثورية. ولكن ما كان غيڤارا يرفضه، وما يبدو أن الكثيرين لم يلتقطوه في مسيرة هذا الثائر، هو حالة السكون والانتظار "لنضوج ظروف الثورة" دون الفعل الإنساني، ومن هنا كان ينظر إلى دور الفرد والثائر والمثقف الثوري والطليعة الثورية وبؤر الكفاح المسلح، كدور حاسم وعامل محفز في الإعداد للعملية الثورة وإنضاجها وتوفير شروط انتصارها الذاتية والموضوعية.

أمّا في مرحلة ما بعد الثورة، أي بعد انتصارها وإمساك القيادة الثورية بمقاليد السلطة والشروع في التنمية الاشتراكية وبناء المجتمع والإنسان الجديدين، فقد أدرك غيڤارا أنها مرحلة مثقلة بالكثير من المسؤوليات والتحديات والتعقيدات وأن أولوياتها تتمثل في الإيفاء بالاحتياجات المعيشية الأساسية للشعب والتصدي

لمهام التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية. غير أن غيڤارا أدرك أيضاً برؤية ثاقبة أن الثورة لن تستطيع بلوغ أهدافها دون أن تنقلب على المفاهيم التي كانت سائدة في العهد البائد ودون أن تخلق منظومة جديدة من القيم والمفاهيم أي دون أن تخلق الإنسان الجديد. وهذه، حسب غيڤارا، عملية تطول وتحيط بها المعوقات والتعقيدات التي تتفاوت من مجتمع إلى آخر، ومن حالة ثورية إلى أخرى.

ومن هنا، كان غيڤارا يرى أنه من العاجل والملح الشروع بخلق الوعي الثوري والتمهيد لفرش ثقافي لمرحلة جديدة ومفاهيم جديدة كي تدخل حيز التنفيذ، ومن ثَم تشتبك، من خلال عملية بناء المجتمع الجديد، مع الإنتاج والممارسة والتجربة بغية تراكم التجارب وصولاً إلى الحالة الأرقى، الوعي الأرقى. ويتضمن هذا، فيما يتضمنه، مفهوماً مركزياً من مفاهيم غيڤارا وهي أن الممارسة هي التي تخلق الوعي الجديد. فالواقع عنده هو الذي يستدعي الحاجة إلى خلق وعي جديد للنضال من أجل تجسيد الأهداف وتحقيقها. بكلمات أخرى، آمن غيڤارا بان الممارسة النضالية تخلق واقعاً ثورياً وحالة نضالية تساهم في خلق الوعي والثقافة الجديدين.

(1)

تكوين الوعي: منطلقات ومفاهيم

انطلق غيڤارا من ربط الوعي بطبيعة البنى الاجتماعية - الاقتصادية (الطبقية) أي البنى المادية التحتية. بمعنى أن هذه

الأخيرة هي التي تنتج القيّم والأفكار والثقافة (والعقلية) وتعمل على ترسيخها وتعميقها وإدامتها في المجتمع، مما يفضي إلى الاستنتاج بأن الوعي في جوهره حالة اجتماعية وليس مجرد حالة ذهنية أو عقلية أو ثقافية مجردة. وعليه، فإن خلق الوعي الجديد، النقدي والثوري، يجب أن ينطلق من تغيير البنى الاجتماعية - الاقتصادية. لذلك رأى غيڤارا في المكونات التالية ما يشكّل العناصر الأساسية في خلق الوعي الجديد:

1) دور الثقافة في خلق الوعي الجديد؛

2) التثقيف الذاتي: مسؤولية المجتمع والفرد؛

3) تجديد الفكر والأخلاقية الشيوعية وربط الوعي الجديد بالممارسة والأخلاقية الثورية والشيوعية؛

4) الوعي الجديد والأجيال الجديدة وديمومة الثورة.

أولاً: الوعي النقدي وبناء الثقافة الجديدة

تكمن حجة غيڤارا الأساسية في أن النضال من أجل التحرير، تحرير الوطن والمجتمع والإنسان، من جهة، ومكافحة الرأسمالية والإمبريالية من جهة أخرى، يمثلان مركباً جامعاً *synthesis* متزامناً للإنسانية والثورة في سبيل وعي جديد، وأن هذه الثقافة الجديدة هي الأساس الضروري لتأسيس قيم جديدة والتي تخلق بدورها تغييرات فعلية ملموسة في مسلكية الفرد والجماهير.

لا يتسنى بناء ثقافة جديدة ووعي نقدي ثوري دون منظومة أفكار ونسق فكرية جديدة تحل محل موروث قيّم العهد القديم البالية وتجسد قيّم الواقع الجديد والمنشود. فهذه الأفكار والمفاهيم هي حجر الأساس لآية ثقافة جديدة وأي وعي نقدي جديد:

1) شريطة أن تظل ملتصقة بواقع الإنسان وتعبر عنه وتعمل لخدمة مصالحة والإيفاء باحتياجاته الأساسية والمعيشية. ويتطلب هذا، أول ما يتطلب، أن تكون هذه الأفكار قادرة على التغيير بمعنى إنجازه وتحقيقه. فلا قيمة للأفكار عنده، الفلسفية منها على وجه الخصوص وتلك ذات الأبعاد الاجتماعية التاريخية، لا قيمة لها إن بقيت مجردة، اللهم إلا القيمة الغيبية التي لا تعنى بالإنسان والمجتمع. فالقيمة الحقيقية للأفكار تكمن في قدرتها (وقدرتها الكامنة أيضاً) على اكتشاف الحقائق الجديدة على أرضية دراسة ووعي الواقع الجديد من أجل تغييره.

2) يستتبع هذا أن تبقى هذه الأفكار في حركة مستمرة ومواكبة لحركة التاريخ والمجتمع ومتفاعلة معهما فاعلة فيهما في تواصل لا ينقطع. فالثقافة وموروثها ليسا أمراً ساكناً،، وعليه تتمثل المهمة (والإشكالية) في صنع ثقافة جديدة تتكيف مع الواقع الجديد وتتناغم مع متطلباته ومستجداته.

3) هذا يعني أنه يتوجب اختبار هذه الأفكار دوماً وملائمتها لفهم الواقع وقدرتها على الفعل فيه، وكذلك من أجل إغنائها وتعميقها وإزالة ما علق بها من شوائب وتشوبهات وزيف. ولعل في

هذا يتجلى ما قصده ماركس في عبارته الشهيرة حول مهمة الفلسفة في تغيير الواقع وليس مجرد تفسيره.

4) لا تكمن أهمية الثقافة - من حيث قدرتها على امتحان الزمن والديمومة والصمود في وجه المتغيرات والمستجدات - في أن تصبح متخشبة متكلسة بحجة الحفاظ على قيمتها الأزلية وإلى ما وراء الحاضر وما بعد الآني، بل تكون المهمة في القدرة على اختراق بعد الزمن محتفظة على حيويتها: أي قدرتها على فهم الواقع بكل مستجداته وتغييره. ويستدعي هذا أن تكون الثقافة قادرة على نسج كافة العناصر الضرورية لتوفير الحاجات الأساسية عبر التطور الاجتماعي . التاريخي.

ثانياً: الوعي والتثقيف الذاتي

لم يتوخى تشي غيفارا في أعماله وكتاباته أن يتوقف عند حدود التحليل أو طرح الموقف السياسي، وإنما حرص على أن يقدم نموذجاً للسلوك الإنساني والمعرفي والفكري، كما حرص على خلق وعي نقدي ثوري تحليلي قادر على مواجهة التحديات المقبلة والصراعات التي ستتخذ أبعاداً وأوجه متعددة وجديدة. وتعبيراً عن التزامه الفكري والعملي، ربط غيفارا الوعي والتثقيف الذاتي بالتنمية الفكرية والتطور السياسي وبذل جهوداً كبيرة في صياغة المفاهيم النظرية في خضمّ نشاطاته ومسؤولياته الكثيرة والمتعددة. وقد كان السعي الحثيث إلى المعرفة والبحث والدراسة والتثقيف

الذاتي الصارم الذي اتّبعه غيڤارا منذ أن كان يافعاً، هو العامل الرئيسي الذي حكم نشاطه وساهم في صقل أفكاره وسلوكه الثوري والإنساني. وقد عُرف عنه شغفه بالقراءة وحبه للكتب حتى في أشد اللحظات صعوبة وخطراً على حياته.

دعى غيڤارا إلى ما سمّاه "التثقيف الذاتي المنظم"، وطالب الفرد والمجتمع بالقيام بمسؤوليته حيال هذه العملية التي تتخذ، حسب رأيه، مسارين متزامنين:

1) مسار يقوم به المجتمع بالتثقيف والتربية على نحو مباشر وغير مباشر؛[61]

2) والمسار الآخر يتمثل بما يقوم به الفرد مساهماً في عملية تكوين ذاته ووعيه

عن طريق التثقيف الذاتي.

أما الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك فهي التثقيف المنظم والذي يمكن اكتسابه من خلال مراحل مختلفة يتنامى فيها دور العمل الجماعي. ولم ينكر غيڤارا أن هذه العملية مضنية وتتطلب الكثير من الجهد والوقت، إلا أنه كان يرى فيها مهمة ملحة وعاجلة. لذلك، وبدافع من حرصه على التعجيل بها، طوّر طرائق ووسائل

[61] من أجل خلق الإنسان الجديد، عملت الثورة الكوبية على محو الأمية ومنح جميع أفراد المجتمع التعليم المجاني وغيرها من الخدمات الأساسية مثل الرعاية الصحية المجانية الشاملة. ولم يكن قد مضى على انتصار الثورة الكوبية عامان حين أعلنت الحكومة الثورية "الحملة الوطنية لمحو الأمية" والتي بدأت يوم الأول من يناير 1961 وانتهت في 22 ديسمبر من العام ذاته وتعتبر بحق أكبر حملة منظمة لمحو الأمية في العالم.

مختلفة في تجنيد الجماهير جامعاً في ذلك بين المصالح الفردية والجمعية. ولعل الحوافز المادية والمعنوية والعمل التطوعي وغيرها كانت من أهم هذه الآليات شريطة أن تواكب عملية تكوين الوعي وتعميقه كوسيلة للتقدم نحو الاشتراكية. وسوف نفرد فصلاً في هذا الكتاب لمناقشة موقف غيفارا من الحوافز المادية والمعنوية.

أما مسيرة غيفارا، فتحكي لنا قصة الإنسان في بناء ذاته وتهذيبها وإثرائها بالقيم العليا وتشبثها بإرادة الإنسان وقدرته، رغم الظروف غير المواتية أو المعاكسة، على أن يخلق ذاته، وأن ينحت طريقه في خدمة المجتمع والإنسانية.

وفي هذا السياق، التفت غيفارا أيضاً إلى أن دور التكنولوجيا لا ينبغي أن يتوقف عن استخدامها في التصنيع والإنتاج الاقتصادي وحسب، أو "استخدامها لترويض الشعب"، بل "أنه يمكن وضعها في خدمة الشعب لتحريره"، حسب قوله. وهذه هي الإشكالية الأساسية. فالنمو الاقتصادي وحده لن يجلب التقدم الاجتماعي بالنسبة للأغلبية، والتحديث في ظل نظام الهيمنة يجلب، في أفضل الأحوال، "تحديثاً من أجل الهيمنة" وتعميقها. غير أن العامل الحاسم في كل هذا هو النشاط الذي يحرر الإنسان وإبداعه (النشاط التحريري ***actividad libereradora***).

ثالثاً: الممارسة الثورية وتكوين الوعي

ليست البنية الاقتصادية للمجتمع وحدها هي التي تحدد طبيعة الثورة ومهامها كما يعتقد الكثيرون، بل، كما يرى غيفارا،

فإن الممارسة الثورية تساهم هي الأخرى بدور مهم وحاسم في تحديد تلك الطبيعة وتلك المهام، لأنها تمنح القوى الاجتماعية . الاقتصادية الإحساس الإيجابي والقوي وتشكّل القوة الدافعة في فعل الجماهير والتزامها بالثورة والنضال. وهي (أي الممارسة الثورية) كما قال غيڤارا هي الوحيدة التي يمكنها تهيئة الظروف للتغيير الاجتماعي وخلق الواقع الجديد. وقد وجد غيڤارا في الوسائل التالية أهم عناصر هذه الممارسة في:

1) تعبئة وتوعية الجماهير الكادحة والفقيرة والمظلومة؛

2) توجيه التربية والمناهج التعليمية في المدارس والمعاهد والجامعات نحو خدمة أهداف الثورة والمساهمة في بناء المجتمع الجديد وتنشئة الأجيال الصاعدة على التضحية من أجل الكل الجمعي، وهو ما يتطلب أن يكون التعليم المدرسي ومناهج المعرفة والعلوم قابلة للترجمة إلى ممارسات عملية في الحياة اليومية للجماهير؛

3) النضال بالطرق والوسائل الراديكالية؛

4) بعد الاستيلاء على السلطة، يتوجب على القيادة الثورية استخدامها لأغراض خلق الواقع الجديد.

هذه هي مهام الراهن التي من خلالها يتسنى تحقيق تنمية الفرد والمجتمع الذي لا تكمن في التنمية الاقتصادية وحسب، ولكن في تحرير الإنسان أيضاً. وتتكرر هذه الأفكار المركزية في نصوص

غيفارا الأساسية مثل "في نظام التمويل عن طريق الميزانية" و"التخطيط الاشتراكي: معناه".

وعي الفرد بين الموروث والجديد

لقد اهتم غيفارا بدور الفرد والجماهير في المجتمع وتغييره، مؤكداً أن هناك علاقة ديالكتيكية للثقة بين الفرد والجماهير. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، أولى علاقة الجماهير بالقيادة بالغ الأهمية.

يرى غيفارا أن الفرد ليس منتوجاً جاهزاً، لأنه لا يزال يحمل في وعيه جوانب سلبية موروثة من الماضي ينقلها معه إلى الواقع الراهن الجديد. كما كان يؤمن، بأن محو هذا الموروث من خلال تطور المجتمع الجديد، يتطلب تطوير وعيا جديدا يتسم بقيّم ذات مواصفات جديد. وهذا ما قصده بقوله الشهير:"... على المجتمع بأسره أن يتحول إلى مدرسة كبيرة". وعليه، فإن درب التحول في الوعي طويل وحافل بالصعوبات، وقد يتطلب في كثير من الأحيان التقدم في خطوات إلى الأمام، وأخرى إلى الوراء. فمحو الوعي الزائف حسب غيفارا يتطلب عملاً دءوباً ومتواصلاً.

الوعي والنضال الجماهيري

ليس من العسير إيقاظ الوعي وشحذ الهمم في الأوقات العصيبة وزمن الأزمات وهو ما يسّر من تفعيل الحوافز المعنوية.

بيد أن العبرة تكون في الحفاظ على هذه الوتيرة في تنمية الوعي الجديد، الذي يتمثل في عقلي جمعي بعير عن المصلحة العامة والجمعية للناس والإنسانية، والذي يتشكل مع تطور المجتمع الجديد، ورفع الفعالية الإنتاجية اللذين يتطلبان خلق الوعي حيث "تمتلك القيم معايير ومعاني جديدة". هذا كله، يتطلب تطوير وعي تتخذ فيه القيّم أصنافاً جديدة، وهو ما دفع غيفارا للقول بأنه "يجب تحويل المجتمع في مجمله إلى مدرسة عملاقة."

في هذا السياق، تجدر الملاحظة أن تجربة الثورة الكوبية وعملية بناء الاشتراكية في كوبا خلقت قناعات راسخة لدى غيفارا بأن التجنيد الواعي للجماهير يمكن أن يتحول إلى عامل موضوعي في الحياة السياسية والنضال الاجتماعي. وقد عاين غيفارا هذه العبرة بأم عينيه، وأشار مرات عديدة إلى دور الجماهير الحاسم في الثورة الكوبية وحماية منجزاتها ومشاركتها الحاشدة في السنوات الأولى التي تلت انتصارها.

كما حصل في لحظات فارقة ألمت بتلك الجزيرة: في أعقاب الغزو الإمبريالي الأميركي لخليج الخنازير (أبريل 1966) وأزمة الصواريخ الكوبية (اكتوبر 1962) وما صاحب هاتين الواقعتين من استماتة الجماهير وتفانيها في الدفاع عن الوطن والثورة وتجسد ذلك في ساعات العمل الطويلة والمضنية، والعمل التطوعي بلا مقابل، والنضال من أجل إيجاد الحلول للمعضلات اليومية والإيفاء بحاجاتهم الأساسية بإمكانيات ضئيلة وفي مواجهة غزوة إمبريالية لم تتوقف منذ ذلك الحين.

من هنا، يمكننا القول أن هذه التجارب زرعت في وعي غيڤارا بذور مفاهيمه حول مسألة الوعي والأخلاقية الشيوعية الثورية حيث رأى، وهو الثوري الملتحم بالجماهير وحياتها ونضالها اليومي، العلاقة الجدلية بين الظروف الذاتية والموضوعية التي تدفع بالثورة، كما لاحظ، وبالقدر نفسه، التحول الاجتماعي والتقدم الاقتصادي الذي أحرزته كوبا بفضل المشاركة الشعبية.

يعيدنا هذا إلى مقولة ماركس التي كثيراً ما تتردد ومفادها: إن سلاح النقد لا يمكن أن يحل محل نقد السلاح، القوة المادية لا يمكن الإطاحة بها إلا بالقوة المادية، لكن النظرية تغدو هي أيضا قوة مادية حين تستحوذ على الجماهير.

الوعي والبيروقراطية

لاحظ غيڤارا من خلال تلك التجارب والأزمات التي عصفت بكوبا في السنوات الأولى بعد انتصار الثورة، كيف تقلصت البيروقراطية وانخفض معدل غياب العمال عن مواقع عملهم رغم تجنيد العديد منهم في مهام الدفاع العسكري. أدرك غيڤارا حينذاك طبيعة ودور البيروقراطية في تدمير الروح الثورية وهو ما شهده فيما بعد في زياراته للاتحاد السوفييتي وبلدان أوربا الشرقية شكل هاجسا دائما لديه.

رابعاً: الوعي وديمومة الثورة

الوعي الجديد: مشروع طويل المدى

تفيد القراءة المتأنية لأفكار غيفارا ومسيرته، أنه كان يدرك، على خلاف ما يُروج عن نزعه نحو "التسرع"، أن درب التحول في الوعي طويل وحافل بالصعوبات، وقد يتطلب في كثير من الأحيان التقدم في خطوات إلى الأمام، وأخرى إلى الوراء. فمحو الوعي الزائف يتطلب عملاً متواصلاً. ففي المرحلة الانتقالية ومرحلة بناء الاشتراكي والمجتمع الجديد، يقول غيفارا، إنه "يمكننا أن نرى الشخص الجديد يُولد، إلا أن صورته لم تكتمل بعد، بل لن يتسنى اكتمالها لأن هذه العملية تسير بشكل موازٍ لتطور أشكال اقتصادية جديدة."

تنتمي أفكار غيفارا في أطروحة الوعي وخلق الإنسان الجديد وغيرها إلى تلك النسق من الأفكار التي تتسم من حيث الجوهر بديمومتها وقدرتها على مقاومة عوامل التقادم والهرم، لذلك ظلت حية نابضة حتى يومنا هذا. ولعل أهم ما تتسم به هذه الأفكار هو الانهماك العميق والانشغال بهموم الإنسان من خلال اكتشاف المثل العليا في العدالة والمساواة بين البشر لأنها بهذا تستطيع أن تنفذ إلى أعمال النفس والعقل البشريين وأن تدخل التاريخ من بواباته الكبيرة كأحد المفاتيح الرئيسية في حاضر الإنسان ومستقبله. وفي هذا ضمانه حيويتها وقدرتها اللامحدودة على التجدد.

وربما يعيننا هذا على فهم ديمومة الأفكار والمبادئ الإنسانية: فقد بقيت قيم الماجنا كارتا، على سبيل المثال، حية، كما ظلّ إرث وشعارات الثورة الفرنسية متوقدا حتى الساعة[62]، وبما لا يقل أهمية وتأثيراً "البيان الشيوعي" الذي ما زال حاضراً بيننا ذلك الحضور البهي والدائم. في هذا السياق، تأتي صرخة تشي غيڤارا من أجل خلق الإنسان الجديد المتحلي بوعيٍ جديد، على الرغم من تباين الأفكار والمفاهيم والحقبات التاريخية التي ظهرت فيها. ولعل ما يميّز غيڤارا أنه كان بين الندرة التي صاغت هذه القيم والأفكار وأثار حولها الجدل ولم يكلّ يوماً عن القتال من أجلها.

الوعي والأجيال القادمة

التفت غيڤارا، ربما أكثر من غيره من مفكري وثوّار عصره، إلى أن الأجيال الجديدة هو شرط بقاء الثورة وضمانة استمرارها. كما أنه أدرك من خلال قراءته لتاريخ الثورات أن إهمال الأجيال الجديدة - كناقلة واعية للثورة وضرورة لاستمرارها - سيؤدي إلى اختفاء إرثها وهدرها وضياعها هباءً. وفي تحقيق حلمه بالإنسان الجديد، كان غيڤارا يعوّل على الجيل الناشئ لأنه جيلٌ منفتحٌ على واقع جديد وراغب في التعلم، كما أنه لا يعاني من الترسبات

---

62 دون الدخول هنا في توظيف هذه الشعارات والأفكار النبيلة في خدمة المصالح الاستعمارية الفرنسية بسنوات قليلة بعد إعلانها.

الثقافية للمجتمع الرأسمالي أو ربما يعاني القليل منها. كل هذا، من منظور غيڤارا، كان يستدعي إعادة تربية الأجيال الناشئة من خلال التربية البيتية والمدرسة والمناهج التدريسية ومحو الأمية.

يقول غيڤارا: "على هذا الجيل أن يدفع ثمن المجد بالتضحية. عليه (أي الجيل) التضحية بالذات يوماً بعد يوم من أجل بناء الغد بجهوده... إن التزامكم يتجاوز حدود كوبا، الالتزام بنشر الشعلة الأيديولوجية للثورة في ركن في الأميركيتين وفي أي ركن في العالم حيث يتسنى لصوتنا أن يُسمع".

ولعل هذا الفهم للوعي وضرورته ووظيفته في صنع الثورة واستمرارها ودور الأجيال الناشئة، هو أحد أسرار استمرارية غيڤارا ذاته وديمومة رمزيته وإرثه.

(2)

جدلية الوعي... والعمل... والإنتاج

ذكرنا سابقاً أن غيڤارا ربط الوعي بالثورة والممارسة الثورية، وبقدر لا يقل ربط الوعي وتكوينه وتطويره بالعمل البشري (والعمل الطوعي أيضاً)، وبهذا منحه معانٍ جديدة أكثر عمقاً وشموليةً: وفي صيرورة العمل وجدليته مع الوعي واشتباك كلاهما مع الواقع يولد الإنسان الجديد. ويعتبر غيڤارا بين القلة التي تستطيع من خلال تعاليمها وقدوتها وسيرتها، أن تخدم بجدارة وفعالية كأداة لتغيير العلاقات الاجتماعية الرأسمالية وللتدليل على أن وعي العامل يجب أن تكون نقطة الانطلاق والبداية في تكوين

وصياغة "الإنسان الجديد" وخوض معرك النضال الاجتماعي الثوري.

وفي جدلية الوعي والعمل والإنتاج في تكوين الوعي النقدي، سنعالج الجوانب التالية:

- العمل كواجب اجتماعي
- الوعي والعمل الطوعي والتضحية من أجل المجتمع
- محاربة سلعنة العمل
- الوعي وجدل الحوافز المادية والمعنوية (الأخلاقية)
- مسؤولية العامل: تحسين الذات والتثقيف الذاتي
- الوعي والأجيال القادمة

العمل ك"واجب اجتماعي"

لاحظ غيڤارا من زياراته للاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية، أن المعضلة الكبرى في تجربتهم تمثلت في الإبقاء على بعض الآليات الرأسمالية في عملية الإنتاج مثل الحوافز المادية للعمال ومكافأتهم المالية وتعزيزها والدفاع عنها كضرورة في زيادة الإنتاجية. وقد شكّلت هذه المسألة إحدى محطات خلاف غيڤارا الرئيسية مع نمط الإنتاج السوڤييتي والتي سنعود إليها بشيء من التفصيل في مكان آخر من هذا الكتاب. ومن هنا فإن التحدي الكبير، كما رآه غيڤارا، يكمن في صياغة مفاهيم جديدة وترسيخها في عملية وعلاقات

الإنتاج، والانطلاق من ذلك إلى وضع السياسات الجديدة التي تتوخى في نهاية المطاف محو سلعنة العمل.

رأى غيڤارا أن خلق الوعي الثوري الجديد يرتبط جدلياً بعملية الإنتاج والعلاقات الإنتاجية (الطبقية)، ومن هنا نظر إلى العمل ك"واجب اجتماعي" من زاويتين مهمتين:

1) شكّل "العمل كواجب اجتماعي" مدخله ووسيلته لإزالة الربط بين العمل من جهة، والمكافأة المالية من جهة أخرى وصولاً إلى محاربة سلعنة العمل ومحوها. وقد عمل على ترسيخ هذا المفهوم وتطويره في وزارة الصناعة الكوبية خلال فترة توليه مهامها كي ينسف قانون القيمة كإحدى الآليات الرأسمالية الأكثر خطورة وتأثيراً.

2) يقتضي تحقيق هذا، حسب غيڤارا، تغيير العلاقات الطبقية والاجتماعية من أجل خلق ثقافة جديدة حيال عملية للإنتاج قوامها وشرطها الأساسي أن يتوقف الإنسان عن كونه سلعة، وإقامة نظام يوفر للإنسان القدرة على تأدية عمله كإيفاء لواجبه الاجتماعي.

رفض غيڤارا، إذن، المفاهيم التقليدية في العمل (معدل الأجور، الحوافز المادية والمكافأة المالية للعمال، تعويض العاطلين عن العمل وغيرها من الظواهر التي شاهدها في زياراته للاتحاد السوڤييتي والدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية) وعمل على ترسيخ مفهوم "العمل كواجب اجتماعي".

حاجج غيڤارا، ودأب على التأكيد، أن التحرر الكامل للإنسان يتحقق عندما يصبح العمل واجباً اجتماعياً يقوم به الفرد برضى تام وحين تقوم ديمومته على نظام قيم يساهم في تحقيق الفعل الواعي في أداء المهام والواجبات. وهذا يعني، فيما يعني، أنه يوجب على الإنسان أن يفهم أنه ليس عليه أن يعمل من أجل مراكمة السلع المادية، فهذا أمر أناني وفردي، بل أن يدرك أن مهمته الأخلاقية تملي عليه أن يتفانى في العمل من أجل المجتمع. وقد أشار في محاضرة للعمال الكوبيين في أكتوبر 1960، إلى الحاجة إلى العمل والإنتاج أكثر من مجرد الكفاية والرفاهية المادية، وطالب عمّال كوبا "بالتضحية من أجل الاشتراكية". بالمقابل رأى غيڤارا أن المجتمع سوف يعتني بالعامل وبأسرته واحتياجاتهم.[63]

الوعي ونمط الإنتاج

كان غيڤارا يرى أن الفارق الرئيسي بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي يكمن في نمط الإنتاج الذي يشكّل العامل الأساسي

---

[63] كان هذا تماماً ما قاله غيڤارا في رسالة الاستقالة التي قدمها لفيدل كاسترو لدى مغادرته كوبا متوجهاً إلى الكونغو (1965)، حيث ذكر في تلك الرسالة أنه ليس قلقاً على أسرته لأنه يعلم أن الدولة ستعتني بهم. وقد قرأ كاسترو هذه الرسالة على الملأ يوم 3 أكتوبر 1965 مؤكداً لأنها لم تكن مؤرخة ولكنها وصلته من غيڤارا في الأول من نيسان 1965. أنظر:

Che Guevara Reader: Writings on Politics & Revolution, pp. 386-387.

والحاسم الذي يحدد علاقات الإنتاج ووسائله، والذي يحدد طبيعة الدولة والسلطة بل والمجتمع. وحيث أن نمط الإنتاج يعكس طور التنمية الاقتصادية والاجتماعية وطبيعة قوى الإنتاج وعلاقاته والتي تحدد بدورها وعلى أساسها تقوم البنى الفوقية من سلطة وقانون وأخلاق وقيم وثقافة، فإننا نرى أن غيڤارا ربط الإنتاج المادي بالإنتاج الروحي والثقافي للشعب، حيث يرافق هذا الأخير الإنتاج والتنمية المادية للمجتمع. غير أنه مع إدراكه لدور العملية الإنتاجية في صناعة الوعي ورفعه، إلاّ أن غيڤارا لم يقلل أبداً من دور العمل الذاتي في تكوين الوعي، بل اعتبره عاملاً أساسياً في تهذيب الوعي والارتقاء به.

يقول غيڤارا، في معرض حديثه حول "التمويل عن طريق الميزانية"، أنه يضمن الخطين الأساسيين الواجب الالتزام بهما من أجل الوصول إلى الشيوعية، وهما: التكنولوجي (التقدم التكنولوجي)، والوعي. لأن الولوج إلى الشيوعية لا يمكن قياسه لا بدخل الفرد ولا بمعدل أجر العامل. ويضيف في هذا الصدد: "إن الشيوعية هي الوعي وإنتاج البضائع المادية. حسناً، ولكن ما هو الإنتاج إن لم يكن الاستخدام المتواصل للتكنولوجيا... والذي هو نتيجة التركيز الهائل والمتزايد لرأس المال، أي المزيد من تركيز رأس المال الثابت أو الميت بالعلاقة مع رأس المال المتغير أو العمل الحي. تكتمل هذه الظاهرة في الرأسمالية المتقدمة: أي الإمبريالية. لأن الرأسمالية لم تمت وبقيت على قيد الحياة بسبب قدرتها على استخدام الربح، الموارد من البلدان التابعة وبسبب تصدير الصراعات والتناقضات بفضل تحالفها مع طبقتها العاملة ضد

كافة البلدان التابعة الأخرى. إن بذور التكنولوجيا الاشتراكية موجودة في الرأسمالية المتطورة أكثر بكثير مما يُسمى بنظام "التمويل الذاتي" والذي هو الوريث لشكل من الرأسمالية كان قد تم تجاوزه والذي أصبح بالرغم من ذلك نمطاً للتنمية الاشتراكية.

يطمح نظام "التمويل عن طريق الميزانية" إلى تطبيق الإنجازات الرأسمالية وبالتالي يتجه نحو المركزية. يقول غيفارا: "باختصار، فإن محو الآليات الرأسمالية - تبادل السلع بين الشركات، الفوائد المصرفية، المصلحة المادية المباشرة كرافعة...الخ - والاستفادة من أحدث التطورات الإدارية والتكنولوجية الرأسمالية، هذا هو طموحنا.. ليس بوسعنا أن يكون لدينا جنرال موتورز، والتي لديها من الموظفين ما يفوق موظفي وزارة الصناعة، إلا أننا نستطيع أن يكون لدينا تنظيم، والحقيقة أنه لدينا تنظيم مشابه لشركة جنرال موتورز".[64]

المشاركة الشعبية والعمالية

أكدّ غيفارا على ضرورة المشاركة الواعية (الفردية والجمعية) في كافة الآليات، على مستوى القيادة والإنتاج، وربط هذه الآليات بضرورة التربية التقنية والأيديولوجية على نحو يضمن ترابط هذه العمليات وتفاعلها فيما بينها وتطورها المتزامن...". وبهذه

[64] Yaffe, Helen, Che Guevara: The Economics of Revolution, Palgrave Macmillan, London, UK, 2009, p. 238.

الطريق، يتم الوعي الكامل للكائن الاجتماعي والذي يؤدي بدوره إلى التحقيق التام للإنسان لطبيعته وكسر قيود الاغتراب".[65]

كان غيفارا يرى أنه يتوجب على المجتمع الثوري أن يفهم العلاقة بين وعي الفرد والإنتاج. وكان يشدد على حاجة القوى العاملة أن تزيد من إنتاجها من أجل حماية الثورة في تلك المرحلة من تاريخ كوبا وأميركا اللاتينية ومن أجل الإيفاء بالاحتياجات الأساسية للمجتمع. وكان ينتقد استخدام العمال لدورات التدريب المهني أو التثقيف السياسي كعذر للتخلف أو الغياب عن العمل.

لقد أدرك غيفارا ضعف المشاركة العمالية في رسم الخطط وفي إدارة الشركات. وفي حين أقرّ بذلك علناً في مواقفه، إلا أنه رفض ادعاء معارضي "التمويل عن طريق الميزانية" الذين خلصوا إلى أن السبب في ضعف المشاركة العمالية هو افتقار العمال للمصلحة المادية في الإنتاج. كان هؤلاء النقّاد، يرون أن الحل لهذه المعضلة يكون في أن يقوم العمال بقيادة المصانع وأن يكونوا مسؤولين مالياً عنها، وأن تتحدد الحوافز، سلبية وإيجابية، حسب نتائج إدارتهم. وقد وافق غيفارا أن يكون عامل واحد قائداً لوحدة الإنتاج كممثل لكافة العمّال، ولكن لا على تضاد مع الدولة. وعلى التخطيط المركزي أن يستخدم بعقلانية كافة عناصر الإنتاج، إلا أن هذا التخطيط لا يمكن إقراره حسب مجلس عمالي لوحدة إنتاجية واحدة أو حسب رأي عامل واحد.

العمل الطوعي كآلية لخلق الوعي

---

[65] Alvarez De Toledo, The Story of Che Guevera, p. 258.

استخدم غيفارا في مسعاه لخلق الوعي الجديد العديد من الآليات، إلا انه رأى في "العمل الطوعي" الوسيلة الفضلى لتحقيق ذلك، ومن هنا أولاه أهمية خاصة، ليس فقط لأنه يساهم في بناء الثورة، بل لأنه ضروري لتطوير الوعي الاجتماعي الذي لابد للإنسان الجديد أن يتحلى به. وكان هو نفسه قدوة تُحتذى إذ كان ينضم في العطلة الأسبوعية، بالإضافة إلى ساعات عمله الطويلة، إلى العمال في برنامج العمل الطوعي في حقول السكر في كوبا.

رأى بعض ناقدي غيفارا أن التطوعية التي دعا إليها غيفارا تؤدي إلى إنكار الظروف الموضوعية والتقليل من أهميتها، فيما وجه إليه بعض آخر اتهامات بالمثالية والطوباوية الثورية، كما ذهب بعضهم إلى أنه غالى في قيمة العمل لتطوعي واستعداد الفرد للتضحية وبذل الذات من أجل الوطن والثورة. ولا شك أن غيفارا تميز بنزعات وميول طوباوية، إلاّ أنه كان، بالدرجة الأولى، رجل ممارسة وفعل واستطاع تحقيق الكثير من الإنجازات في فترة قصيرة من نضاله في كوبا (1959 . 1965). كما أن غيفارا لم يكن أول الماركسيين الذين شجعوا العمل اليدوي لأنه عمل إيجابي في بناء الاشتراكية، بل سبقه إلى ذلك كلٌ من لينين وماو تسي تونغ.

نحو "إنسانية كاملة": محاربة سلعنة العمل

لم يكن هناك مندوحة أمام غيفارا في سعيه نحو "الإنسانية الكاملة" من معالجة العقبات والتحديات التي تحول دون الوصول

إليها. وقد رأى أن العقبة الرئيسية تتمثل تحديداً في سلعنة العمل في ظل نمط الإنتاج الرأسمالي. فلابد، إذن، من تغيير العلاقات الاجتماعية في مرحلة التحول من الاشتراكية إلى الشيوعية، أي لابد للعمل أن يتوقف عن كونه "سلعة". أما الإنسان فيجب أن يشكّل موقفا اجتماعياً وجمعياً وأن يخلق ثقافة جديدة حيال عملية الإنتاج.. ثقافة تشترط أن يتوقف الإنسان عن كونه سلعة وإقامة نظام يوفر للإنسان القدرة على تأدية عمله كإيفاء لواجبه الاجتماعي، وصولاً إلى تحقيق ما دعا إليه ماركس حين قال بان الإنسان يصل إلى الحالة الأكثر إنسانية حين يقوم بالإنتاج دون أن يكون مكرهاً على أن يبيع نفسه كسلعة من اجل الإيفاء بالحاجات المادية والفيزيائية.

الوعي الجديد والحوافز المعنوية

أكد غيفارا في كافة أطروحاته على أن الحوافز المادية (مثل زيادة الأجور، المكافآت المالية والمادية، زيادة العلاوات..الخ) ثانوية في بناء المجتمع الجديد ووضعها في المكان الثانوي بعد الحوافز المعنوية التي اعتبرها حجر الأساس في مشروع الاشتراكية الجديدة وفي التغيير الاجتماعي المنشود واعتبرها ضمانة لمستقبل الإنسانية.[66] وقد احتل الوعي والفعل الخلاّق للجماهير مكاناً

[66] للاستفاضة في وجهة النظر الماوية في هذا المجال راجع:

أساسياً في ماركسية تشي غيفارا الذي استخدم التجربة الكوبية ودوره فيها لتطوير مفاهيمه في هذا المجال.

وقد عرضنا في فصول أخرى من هذا الكتاب موقف غيفارا من الحوافز المادية ودورها في الحياة الاقتصادية وفعاليتها في زيادة الإنتاجية، كما تطرقنا إلى نقده لنمط الإنتاج السوفييتي الذي عوّل على هذه الحوافز إلى حدٍ كبير في تحفيز الإنتاجية لدى العمّال.

غير أن ما يهمنا في هذا المقام أن نتناول أطروحة غيفارا في نقده لدور الحوافز المادية وتغليبه لأهمية وفعالية الحوافز المعنوية (أو الأخلاقية) لا في زيادة الإنتاجية وحسب، بل في خلق الوعي الجديد والإنسان الجديد في المجتمع الاشتراكي وصولاً إلى الشيوعي.

لقد أولى تشي غيفارا الحوافز المعنوية (الأخلاقية) ***Moral Incentives*** جلّ اهتمامه التي استحوذت على موقع مركزي في كافة أنشطته الفكرية والسياسية، كما تناول بعناية بالغة العديد من المسائل المتصلة بها مثل علاقة الوعي وتطويره عن طريق الحوافز الأخلاقية، دور هذه الحوافز في خلق الإنسان الجديد، وتأثيراتها على الجماهير، الفرد وعلاقته بالجماهير، الدولة والقيادة، تطوير الوعي الشعبي ودوره في مشاركة الجماهير في بناء المجتمع الجديد.

Material Incentives: Readings from before and after the Death of Mao Tsetung ،Liberations Books, Los Angeles, (no publishing date.)

تميزت أطروحة تشي غيفارا حول الإنسان الجديد عن رؤية ماركس ولينين وحتى ماو تسي تونغ في الموضوع نفسه.

فالحوافز المادية والربحية (الاقتصادية) التي دافع عنها السوفييت ومنحوها موقعاً مركزياً في اقتصادهم، هذه الحوافز، وفق غيفارا، لم تخدم أو تساهم في تقدم الاشتراكية، إذ أنه تساءل كيف يكون الوصول إلى الاشتراكية باستخدام الأدوات الرأسمالية؟ أما الماوية، فقد رأت أن التشجيع المعنوي والمكافأة المادية يسيران جنباً إلى جنب إلاّ أنها اعتقدت أن التركيز في المراحل الأولى لبناء الاشتراكية يجب أن يكون على الأول. كما رأت أن الحوافز المعنوية (أو التشجيع المعنوي كما أسمته) ليست كافية في بعض الفترات التاريخية في بناء الاشتراكية عندما تكون الموارد شحيحة وعندما يكون وعي الناس ما زال متدنياً.[67]

كان غيفارا يرى أنه بقدر ما يصبح الوعي جمعياً (اشتراكياً)، أي بقدر ما تتسنى إزاحته من فضاء المصلحة الفردية والأنانية إلى خدمة المجتمع والكل، بقدر ما نجد أن القطاع الشيوعي من الاقتصاد يتنامى ويتسع ليصبح الأساس في تعزيز الشيوعية بشكل تدريجي في المجتمع. إلا أن المهم أن يبدأ هذا في مرحلة التحول الاشتراكي وخلالها.

عندما يشعر الفرد (العامل، الفلاح، المواطن) بأنه جزء متكامل من الكل الجمعي (المجتمع والوطن)، فان هذا يعطي المعنى لجهوده وعمله. وعندما ينتفي التناقض والتنافس بين حاجات

[67] Alvarez De Toledo, The Story of Che Guevera, p. 258.

ومصالح للفرد ومصالح المجتمع، وهو ما يتجلى للإنسان في الترابط والتماثل بينها، وعندما يثق بالفعل المشترك للكل الجمعي، عندها الفرد يصبح راغباً ومستعداً للمزيد من العطاء والتطوع من أجل المصلحة العامة والمشتركة، ناهيك عن أن شعور الفرد بأنه جزء متكامل من الكل الجمعي يضفي على جهوده وعمله معنىً إضافياً. وقد أشار مراراً إلى أنه خلال المرحلة الثورية، يكون من السهل الالتزام وتطبيق الحوافز الأخلاقية (المعنوية)، غير أن الإشكالية تكون في الحفاظ على استمرار هذا الوعي الجديد والذي يجب أن يتشكل ويتنامى خلال مرحلة التحول الاشتراكي.

وفي رؤية استشرافية لمستقبل البناء الاشتراكي، اعتقد غيڤارا بأنه كلما ضربت هذه القيم جذروها العميقة في وعي الإنسان وساهمت الحوافز المعنوية في صياغة وعي الإنسان الجديد، نكون قد حققنا العامل الأساسي في التحول الاشتراكي: تحرير المبادرة الذاتية لدى الفرد والجماعات وفئات المجتمع. وعندها لا تعود هناك ضرورة للتوجيه من الخارج من أجل ضمانة المنفعة للجميع كما تزول الحاجة إلى الحوافز المادية والرقابة والسلطة الخارجية ومحاربة الغش والفساد، لان الإنسان يصبح "أكثر إنسانيةً" وينطلق في أفعاله وأنشطته من دوافع ذاتية أي تصبح أفعاله، كما أسماها ماركس، "أنشطةً ذاتية" لأنها تنبع من "الإرادة الواعية للإنسان". وعندما تنبع أفعال الإنسان من "داخله" ولا تفرض عليه من "الخارج"، وتتحكم في توجيه أنشطته عوامل الوعي الذاتي، يعيد الإنسان اكتشاف نفسه ككائن وقوة معنوية ويعيد الإمساك بالمبادرة في أنشطته وحياته. هكذا تعزز الحوافز

المعنوية الوعي الذاتي بحرية الإنسان وتصل به إلى الانعتاق التام كي يصبح مشاركاً وفعّالاً في شؤون المجتمع والكل الجمعي. ومن هنا يتضح دور الحوافز المعنوية في إنجاز الانتقال التاريخي الكبير من حيّز "الحاجة" إلى فضاء "الحرية".

في الكلمات التالية، يوجز لنا غيفارا عصارة فكرته وتجربته معاً في أهمية الحوافز المعنوية في تنمية الوعي:

"نعتقد أن تنمية الوعي تكون أكثر فعالية في تنمية الإنتاج من الحوافز المادية. ونستند في تقديرنا هذا على تنمية المجتمع الضرورية لتحقيق المجتمع الشيوعي والتي تقتضي ضمناً أن يتوقف العمل عن أن يكون ضرورة مؤلمة وأن يتحول إلى ضرورة لذيذة. وحيث أن هذا التقدير ينطوي على قدر من الذاتية، فلابد من التأكد منه من خلال التجربة، وهو ما نشاهده. فإذا اتضح من خلال التجربة أن هذا يشكل رادعاً خطيراً لتنمية القوى الإنتاجية، فانه يتوجب علينا في هذه الحالة اتباع مسارٍ صحيٍ والعودة إلى الدروب التي تمّ طرقها سابقاً. إلاّ أن هذا لم يحدث بعد، بل أن هذا النهج، مع ما توفر من القدرة على تحسينه، ما فتئ يكتسب المزيد من الثبات ويؤكد تماسكه الداخلي".[68]

مسؤولية العامل/ الفرد: تحسين الذات

---

[68] العدد الخامس من المجلة الكوبية "صناعتنا الاقتصادية" *Nuestra Industria Economica* الوارد في كتاب: Alvarez De Toledo, The Story of Che Guevara, p. 298.

لم يكن غيفارا، كما يحلو لناقديه أن يذكرونا دوما، مثالياً ولامبالياً بالواقع ومتخطياً له من خلال أحلامه. بل كان مدركاً لدور ومحدوديات الحوافز المادية، كما أدرك أهمية أجر العامل في حياة العامل نفسه وتحسين أوضاعة المعيشية. إلا أنه كان يرى أن الحل لإشكالية تحسين أوضاع العمال على المدى الطويل، ومن منظور خدمه المجتمع ككل واحد، إنما يكمن في تعليم العمال وتطوير قدراتهم وتأهيلهم الفني والعلمي واكتسابهم مهارات فنية جديدة. كما ارتأى أن هذه الخدمات يمكن توفيرها للعمال من خلال الحوافز المادية التي تزيد من أجر العامل من خلال تحسين الذات: تنظيم برامج ودورات دراسية ومهنية تقدم للعاطلين مجاناً في حين يتلقى العمال أجورهم كاملة كما لو كانوا يزاولون عملهم.

كان هذا هو هاجس غيفارا الدائم ولم يكن يكل عن البحث عن اكتشاف آليات من أجل إزالة العلاقة بين العمل وأجر العامل والذي هو جوهر نمط الإنتاج الرأسمالي، وذلك عن طريق نسف قانون القيمة ومردوده في عملية توزيع العمل، ذلك النسف الذي يعني البدء في عملية محو سلعنة العمل ***de-commodification labor***.

فتحسين الذات، عن طريق التعليم والتدريب والتأهيل الذي إذا ما أتم دورته كاملة، فإنه يعني المساهمة في التنمية الاجتماعية ورفع الإنتاجية والفعالية في مكان العمل وهو ما يترجم في الواقع إلى تطوير فعالية قوى الإنتاج الضرورية في مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية.

أما تعليم العمّال وتدريبهم، فقد رأى غيڤارا أنه يجب أن يحقق وظائف ثلاثة:

1) التعليم كثقافة عامة وتنمية المعرفة وإغناء الكم المعرفي لدى الإنسان؛

2) التعليم السياسي (التربية والتثقيف السياسي)؛

3) التأهيل المهني والتكنولوجي والفني.

أصبحت مفاهيم غيڤارا حول العمل والعناصر الفكرية المكونة لها، خلال سنوات عمله كوزير للصناعة في كوبا جزءًا تكاملياً لا يتجزأ من نظام "التمويل عن طريق الميزانية" الذي اعتمده غيڤارا كخط للإدارة الاقتصادية والبناء الاقتصادي في مرحلة التحول الاشتراكي.

(3)

تكوين الوعي والاشتراكية

"نحن الاشتراكيون أكثر حريةً لأننا أكثر اكتمالاً، وأكثر اكتمالاً لأننا أكثر حرية".

تشي غيفارا

تصدت الثورة الكوبية، بعد انتصارها في مطلع يناير 1959 والإطاحة بنظام الدكتاتور باتيستا، لمهام التنمية الاجتماعية والاقتصادية. وربما كان تشي غيفارا المبادر بين قادة تلك الثورة الذي رأى أن الطريق الوحيد لهذه التنمية هو الدرب الاشتراكي[69]، وهو الدرب الذي تبنته الثورة لاحقاً. وسوف يذكر التاريخ، أن كوبا هذه - والتي كانت أول ثورة اشتراكية في الغرب والتي قامت من أجل الإطاحة بنظام ارتبط ارتباطاً وثيقاً ولعقود طويلة بأعتى سياسة إمبريالية (مادياً وثقافياً) - لعبت دوراً مهماً ومميزاً في تلك المرحلة الجديدة من عولمة الثورة ضد الرأسمالية.

أدركت الثورة الكوبية من تجربتها الذاتية حين تبنت الاشتراكية كدرب للتحرر الوطني والتنمية، أن التحول الاشتراكي

[69] أعلنت الثورة الكوبية على لسان زعيمها فيدل كاسترو عن اختيارها للدرب الاشتراكية للمرة الأولى في خطابه (بتاريخ 16 أبريل 1961)، في أعقاب الغزو الإمبريالي الأميركي على خليج الخنازير. غير أن غيڤارا كان قد تحدث علناً عن الماركسية والاشتراكية قبل ذلك.

وخلق مشروع للمجتمع الجديد في ظل ظروف القمع والظلم في أغلب بلدان العالم، يتطلب الذهاب إلى ما هو أبعد بكثير مما يُفترض أن يتيحه أو يسمح به "طور النمو" الذي يمر به ذلك المجتمع. وهذا يوجب التصدي للمقولة التي تدّعي أن المجتمع الجديد هو مجرد نتيجة لتطور تدريجي، ولأنه، أي المجتمع الجديد، ليس صالحاً للرأسمالية، وأن مصادرة وسائل الإنتاج أو تأميمها يمكّن هذه المجتمعات من إحراز النصر واجتياز المرحلة. بعبارة أخرى، أنه من الضروري العمل على خلق ثقافة جديدة، وهو ما يعني ضمناً خلق تصور جديد للحياة والعالم في ذات الوقت الذي يتوجب فيه على الثورة وقيادتها أن تسعى لتلبية الاحتياجات الأساسية والضرورية للشعب.

كانت هذه التوطئة ضرورية للتعرف على البيئة التي عمل فيها غيڤارا وتصدى لإشكاليات وتحديات البناء الاشتراكي في كوبا من منطلق فهمه لظروف هذا البلد المستعمَر/ المتخلف والذي عانى قرونا من الاستعمار الإسباني تلتها عقودٌ من النهب الإمبريالي والتبعية للرأسمالية ألأميركية[70]، أي من منطلق فهمه لقضايا

---

[70] يشكل احتجاز رأس المال الأميركي للاقتصاد الكوبي على مدى الخمسة عقود الأولى من القرن العشرين، وهيمنة الشركات الأميركية على اقتصاد ذلك البلد، يشكلان السمة الرئيسية لأوضاع وظروف كوبا عشية انتصار الثورة الكوبية في مطلع يناير 1959. وعليه، فإن فهم التجربة الكوبية (ثورتها، وكفاحها لتحقيق الاستقلال والسيادة الوطنيين، وإنجاز التنمية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الكوبي)، لا يتسنى خارج هذا السياق. وما لا يقل أهمية، وهو ما تجدر الإشارة إليه، أن الحصار الإمبريالي الغاشم الذي لم يتوقف منذ انتصار تلك الثورة وحتى يومنا هذا، يشكل شرطاً أساسياً لفهم تطور كوبا على كافة المستويات في العقود التي تلت الثورة، أي منذ عام 1959 إلى يومنا هذا.

الاشتراكية ومتطلبات بنائها في هذا البلد. ومن أجل تحقيق هذه الغاية، انخرط غيڤارا في نضال يومي استحوذ على طاقته وجهده طيلة حياته السياسية في كوبا التي تولى خلالها إدارة البنك المركزي ووزارة الصناعة وغيرها من المسؤوليات الحكومية والحزبية من يناير 1959 إلى حين مغادرته كوبا عام 1965 وانطلاقه نحو النضال الأممي في الكونغو ومن ثَم في بوليفيا حيث استشهد عام 1967.

الاشتراكية الممكن تحقيقها إذن، كما اعتقد غيڤارا، لا تعتمد على "نمو القوى المنتجة بالتناسب مع علاقات الإنتاج" وحسب، ولا على التنمية الاجتماعية التي ستنجم عن النمو الاقتصادي فحسب، بل تستند إلى تغيير جذري في المنظور إلى ما يتم إنجازه وتحقيقه، والثورات المتعاقبة التي تعيش تجربتها الذاتية والخاصة بها وعمليتها الثورية.

وبالقدر نفسه، لم يؤمن غيڤارا بأن الاشتراكية أو بناءها دوغما أو مجرد نظرية أو شكلاً من أشكال رأسمالية الدولة. لهذا السبب كان يرى أن "الاشتراكية ما زالت شابّة ولها أخطاؤها. وفي كثير من الأحيان يفتقر الثوّار إلى الوعي والجرأة الفكرية اللازمة لمواجهة مهمة تطوير الفرد الجديد بالوسائل التقليدية. وهم يعانون من تأثير المجتمع الذي أنشأهم فيصيبنا الضياع وتستحوذ علينا مشاكل البناء المادي".

غيفارا والطبيعة البشرية

في محاربتها للاشتراكية وكفاح الإنسان لإزالة الاستغلال وتحقيق العدالة الاجتماعية، وفي سعيها المحموم لترويج أيديولوجيتها وتأكيد صحة نهجها، ترتكز الرأسمالية في فرضياتها على بعض الادعاءات، ومن أهمها أن الرأسمالية تعبّر عن الطبيعة البشرية وتتناغم معها في نزعتها نحو حب الامتلاك (الملكية الخاصة) والمنافسة بين الأفراد والشركات من أجل الإثراء والتقدم والتفوق. في حين أن الاشتراكية، وفق ادعاء الرأسمالية، تناقض طبيعة الإنسان وتنفي رغباته "الطبيعية" في المنافسة وتكبح طموحاته في التقدم والارتقاء.

لم يؤمن غيفارا بأن هناك طبيعة بشرية محددة مسبقاً علينا أن نقبلها كما هي. على العكس من ذلك، كان يرى أن المهمة الأساسية تكمن في تطوير العلاقات الإنسانية وسبل تحولها وتحسينها من أجل خلق الوعي والإنسان الجديد. كان يرى أن إنسان "القرن الحادي والعشرين سوف يكون نحن أنفسنا". وتبدأ هذه العملية في بداية الكفاح، إذ أننا "في موقف مقاتلينا نلمح رجل المستقبل (...) إن إيجاد صيغة للحياة اليومية لاستمرارية واستدامة هذا الموقف البطولي هو واحدة من مهامنا الرئيسية من وجهة النظر الأيديولوجية". وقد رأى غيفارا في هذا الإنسان الجديد تعبيراً عن الوعي الثوري بل معناه الحقيقي.

الوعي وبناء الاشتراكية

يمثل نقد الرأسمالية ومحو نظامها وقيمها نقطة البداية عند غيفارا من أجل بناء أرضية الوعي الاشتراكي/ الشيوعي الذي يؤسس للمشروع الاشتراكي ومستقبل أفضل للإنسانية.

وبشأن التحول الاشتراكي يقول غيفارا: "من أجل بناء الشيوعية، وبالتوازي مع توفير الأساس المادي، علينا أن نبني الإنسان الجديد (...) ويجب أن يتحول المجتمع كله إلى مدرسة كبيرة عملاقة". كان غيفارا يرى في الاشتراكية مشروعاً تاريخياً لبناء مجتمع جديد يقوم على المساواة والتضامن والعمل الجمعي والإيثارية الثورية والحوار الحر والمشاركة الشعبية.[71]

ولا ريب في أن الفكر الماركسي حفل بمثل هذه الأفكار والمبادئ منذ أواسط القرن التاسع عشر، فقد عبر عنها مفكرون ماركسيون في سياقات تاريخية مختلفة، غير أنه صحيح أيضاً أن العديد من التجارب والممارسات في تطبيق وبناء الاشتراكية، كما حصل في الاتحاد السوفييتي والمنظمة الاشتراكية في أوروبا الشرقية، جاء مناقضاً لهذه المفاهيم. وهنا تكمن أهمية مساهمات غيفارا، ليس في نقد النمط السوفييتي في الإنتاج وبناء الاشتراكية وحسب، بل في خلق الوعي والإنسان الجديدين. وفي سبيل المضي قدماً في تحقيق هذه الأهداف الطموحة، لا ينسى غيفارا أوجه

---

[71] Olivier Besancenot and Michael Lowy, Che Guevara: His Revolutionary Legacy, Monthly Review Press, USA, 2009, p. 41.

التقصير الهائلة والأخطاء والتشوهات الناتجة عن عملية التحول نفسها ومن خلالها، والتي انتقدها بلا هوادة ودون كلل أو غموض. في هذا المجال، كما في غيره، نلمس الكثير من العمق في معانيه وصياغة المفاهيم وتقديم التحليل في الوقت المناسب.

كان غيفارا يرى أن التحولات الاشتراكية لن تتحقق ولن تدوم بدون وعيٍ جديد، ودون التخلص من موروث نمط الإنتاج السابق، الرأسمالي والمتخلف. وقد انتابته الخشية مما شاهده في البلدان الاشتراكية آنذاك من استخدام الآليات الرأسمالية في عملية الإنتاج في بناء الاشتراكية في كوبا، وهو ما كان السبب في معارضته لمحاكاة نمط الإنتاج السوفييتي الذي، وفق رأيه، يعرّض المشروع الاشتراكي برمته للخطر وينذر بإعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية الرأسمالية والوعي الرأسمالي بالرغم من ملكية الدولة لوسائل الإنتاج. وهكذا كان، فقد أثبت انهيار النمط السوڤييتي في البناء الاشتراكي (ومعه بلدان المنظمة الاشتراكية في أوروبا الشرقية) أن التحولات الاشتراكية لن تتحقق ولن تدوم بدون وعيٍ جديد، ودون التخلص من موروث النمط السابق، الرأسمالي والمتخلف.

بالإضافة إلى ذلك، لحظ غيڤارا أن الطرائق التقنية في مجال التكنولوجيا والإدارة في ظل الاشتراكية لم تتطور بشكل متزامن كما حصل في النظام الرأسمالي. ونتيجة لذلك، يقول غيڤارا، إن الدول الاشتراكية عندما لمست فشلاً فادحاً في الأساليب الإدارية، فإنها نظرت حولها واكتشفت الرأسمالية. إلا أن ما لم يحققه " التمويل عن طريق الميزانية" هو الدمج الكامل للإنسان في

عمله بحيث لا يصبح هناك حاجة لاستخدام الروادع المادية (أو الحوافز السلبية). بعبارة أخرى، تساءل غيفارا "كيف لنا أن نضمن أن كل عامل يشعر بالضرورة الحيوية لمساعدة الثورة، وفي الوقت ذاته يشعر بأن العمل لذة، كما نشعر نحن القادة". قبل أن يضيف: "هذا يُترجم فعلياً إلى استعادة الإنسان لطبيعته من خلال العمل المحررِ والتعبير عن الظروف التي يعيشها المرء من خلال الثقافة والفن". لهذا السبب اعتقد تشي غيفارا أن النضال ضد الدوغمائية والسطحية مهمة ضرورية خلال مرحلة بناء الاشتراكية.[72]

[72] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 238.

(4)

الوعي والاغتراب في فكر غيفارا

في السياق التاريخي

منذ انطلاق الثورة الفرنسية بشعارات "الحرية والمساواة والإخاء"، أصبحت هذه الشعارات مبادئ سامية للإنسانية بأسرها. إلا أن هذه الشعارات قد تحولت في ظل الرأسمالية إلى نقيضها: فالاغتراب حلّ محل الحرية، وهيمنة الطبقة الرأسمالية تمحو أي إمكانية للمساواة، أما الفردانية والأنانية قد أودت بالإخاء.

كان كارل ماركس من روّاد المفكرين الذين درسوا مسألة الاغتراب وآثاره على الإنسان والمجتمع مستنداً إلى تحليل تأثيرات نمط الإنتاج الرأسمالي على الوعي الإنساني والعلاقات الاجتماعية والتي كثفها ماركس، منذ كتاباته المبكرة ("الأوراق الاقتصادية"، 1844)، في تجلياتها السيكولوجية والسوسيولوجية في إشكالية "الاغتراب".

أوجز ماركس مفهومه عن الاغتراب بأنه نشاط أو حالة من الانسلاخ حين يصبح الفرد أو المجموعة أو حتى المجتمع باسره مغترباً عن:

1) نتائج أو حصيلة نشاطه أو جهده وبالتالي يصبح مغترباً عن ذلك النشاط ذاته؛

2) الطبيعة التي يعيش فيها؛

3) عن الأفراد الآخرين من حوله.

وبالإضافة إلى تلك، ومن خلال هذه الحالات الثلاثة فرادى أو مجتمعة، فان الاغتراب يشتمل اغتراب الفرد عن ذاته، الاغتراب الذاتي.

أما تجليات الاغتراب الفلسفية والسيكولوجية للعلاقات الاجتماعية الرأسمالية فقد ردّها ماركس إلى التناقض الناتج عن (1) سلعنة العمل (قوة العمل) و(2) مفعول وتأثيرات قانون القيمة. وكان الاغتراب عند ماركس (1) اغتراباً عن عملية الإنتاج و(2) تناقضاً ناتجاً عن الصراع الطبقي.

جاءت بعده أدبيات الفكر الماركسي تنبض بالأفكار الحية والنزعة الإنسانية التي جعلت الإنسان وتحقيق ذاته همّها الرئيسي. إلاّ أن "تحقيق الذات" من منظور هؤلاء المفكرين لا يعني ولا يكون بخسارتها أو بذوبان الفرد في كتلة أو جمع جماهيري، وإنما بالتحرر من أحاسيس الاغتراب في مجتمع "للكل". وقد تركت هذه المساهمات أكبر الأثر وظلّت الأكثر عمقاً وراديكاليةً في فكر القرنين التاسع عشر والعشرين. فقد سعى ماركس إلى "التحرر الكامل" لكافة الخصائص والحواس البشرية، حيث تصبح العين "عيناً بشرية" وحيث يصبح الشيء "شيئاً إنسانيا اجتماعياً". أمّا روزا لوكسمبورج فقد تحدثت عن "السعادة الاجتماعية" والحرية للكل "كامتياز خاص" وعن "محبة كل يوم جميل". وبدعها تألق تشي

غيڤارا في وصفه للثوري الذي تحدوه "مشاعر الحب العظيمة" وعن الحاجة إلى "الإنسان الجديد" الذي يولد من خلال المشاركة المسؤولة في "مجتمع للكل". وقد جهد هؤلاء وغيرهم من المفكرين الماركسيين في صياغة رؤية لمجتمع متكامل يشعر كل فرد فيه بالترابط حيث "التنمية الحرة لكل فرد هي شرط للتنمية الحرة للجميع"، كما قال ماركس. وفي المعنى ذاته قال غيڤارا: "ليست الثورة، خلافاً لما يزعم البعض، جهازاً لقياس الإرادة والمبادرة الجمعية. على العكس من ذلك، فهي المحرر للقدرة الفردية للإنسان. إن ما تفعله الثورة هو توجيه هذه الطاقة".

بوسعنا أن نكثف الجوهر العام لهذه الرؤية في النقاط التالية:

أ) تطلع الإنسان إلى التحرر خلال حياته هذه وفي دنياه لا في "الآخرة"، مستعيناً بالمعرفة والعلم والارتقاء بالوعي وتجنيد فقراء ومضطهدي هذا العالم - مادة التغيير في مشروع الثورة.

ب) ينتج الاغتراب الإنساني أساساً وبكافة تجلياته عن اغتراب العامل (والفلاح والكادح) عن إنتاجه وعمله بسبب استغلال الإنسان للإنسان.

ج) يخلق النظام الرأسمالي بطبيعته وقوانين تطوره التناقضات والتفاوتات بين الناس والطبقات والفئات مما يستدعي النضال ضد الاستغلال والفوارق الاجتماعية والاقتصادية من أجل إيجاد وسائل لتعميم عادل للثروة والموارد وإشراك المجتمع فيها.

وهو ما يشكل الخيط الرابط بين نضالات الشعوب في الثورة الأممية.

لم يكن غيفارا، ولا مَنْ سبقه من المفكرين، حالماً رومانسياً في هذا المسعى ولم يكن فهمهم لأحداث زمنهم ردة فعل، بل استند إلى تقييم نقدي للمجتمعات الإنسانية واقتصادها السياسي ونظمها الاجتماعية وتطورها منذ القدم مروراً بما لا يحصى من إرهاصات وتغييرات عميقة وحروب أودت بحياة الملايين من البشر. من هنا، فان دراسة هذه أعمال غيفارا ومَنْ سبقه وتأثيراتها لا تستوي دون تجليسها في سياقها التاريخي رغم تباين الحقبات التاريخية المختلفة التي كتبت فيها.[73]

أ) منذ أطروحات ماركس المبكرة حول الاغتراب وإشكالياته في أربعينيات القرن التاسع عشر، تميزت الحقبات التاريخية التي تلت بتصاعد وهيمنة رأس المال بوتيرة متسارعة وبسعيه نحو التوسع والاستيلاء على أسواق جديدة بغية مضاعفة أرباحه حتى ولو كان ثمن ذلك حروباً دموية تذهب ضحيتها الملايين. وكانت نتيجة هذا المشروع الرأسمالي المسعور إثراء القلة وإفقار الأغلبية وتعميق الهوة السحيقة بين الطبقات والفئات الاجتماعية.

---

[73] رغم تباين الحقبات التاريخية وزمان ومكان هذه النصوص، فقد تشابه مؤلفوها في أعمارهم لدى كتابتها: ماركس (30 عاماً)، انجلز (28)، لوكسمبورج (27)، وتشي غيڤارا (37).

ب) وفي الآن ذاته، اتسمت هذه الحقبات بالغليان الاجتماعي والشعبي من ثورات وإضرابات وانتفاضات، والتي جاءت لتأكد أمراً واحداً، وإن اختلفت في الشكل، وهو رفض العمّال والفلاحين والفقراء لواقع الاستغلال الذي يعيشونه وتصميمهم على النضال من أجل الانعتاق الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ونحو التحكم في الثروة التي ينتجونها بما أنهم أصحابها وملاّكها الحقيقيون. هذا ما تكرس في الفكر الماركسي وأدبياته منذ صرخة ماركس وإنجلز في "البيان الشيوعي" لوحدة عمّال العالم وشعوبه في النضال ضد الرأسمالية وفي التعبير عن معاناة وأوجاع الطبقات الشعبية. وفي هذا الوعي تجد الثورة معناها ويجد الثوار معنى حياتهم وغاية وجودهم ونضالهم.

ج) لم تتكون، ولم تكتمل أفكار هؤلاء الثوار في فراغ أو في عزلة أكاديمية، بل استقوا المعرفة والتجربة ممن سبقهم، فجاء نتاجهم ثمرة دراستهم ومشاهداتهم وانخراطهم العملي في نضالات حركات التغيير الثورية والاجتماعية في عصرهم مما دفع هؤلاء الثوار إلى آتون الأحداث، فحراك الجماهير والشعوب والفقراء لا يتوقف بل يميز كل حقبات التاريخ بشكل أو بآخر وبوتيرة أو بأخرى. كما جاءت هذه الأعمال لتتناول الحقبة التي عايشتها وتتعامل مع قضاياها ولتحدد مهام المرحلة. ف"البيان الشيوعي" جاء بتكليف من عصبة الشيوعيين الألمان لوضع برنامج للحزب، وكذلك جاءت كتابات فلاديمير لينين وروزا لوكسمبورج جاءت في خضم معركة بناء الحركة الشيوعية الروسية والألمانية والعالمية والرد على المحاولات الارتدادية في تلك الحركة.

أما مساهمات تشي غيڤارا فقد تزامنت مع تصاعد حركات التحرر في العالم الثالث ونهوض بلدان حركة عدم الانحياز ومع انطلاقته نحو الثورة الأممية في الكونغو وبوليفيا. لذا جاءت أعمال هؤلاء مشتبكة مع الواقع بعيدة عن الدوغما والتشنج العقائدي ملتصقة بأوضاع الجماهير الفقيرة والكادحة.

غيڤارا والاغتراب

في أطروحتة حول الاغتراب، كما في غيرها من أطروحاته المركزية، استند غيڤارا إلى أدبيات ماركس وغيره من المفكرين الماركسيين، وبناءً عليه، أصبح التحدي كما رآه غيڤارا في إحلال الاغتراب (الاغتراب عن عملية الإنتاج) والتناقض (الناجم عن الصراع الطبقي) بالاندماج والتضامن أي تطوير موقف جمعي تجاه الإنتاج. ومن هنا التقط المأزق الذي وقع فيه النمط السوفييتي حيث ساد قانون القيمة وتم بالمقابل، إهمال التثقيف السياسي وهما العاملان اللذان أعاقا تطوير الوعي وتغييره.

في ظل الرأسمالية تدفع المزاحمة إلى المزيد من الإنتاجية عبر الإنجازات التكنولوجية وتعميق الظلم والاستغلال، وهكذا يتصاعد الاغتراب والتناقض مع زيادة الإنتاجية. أما في الاشتراكية فان تطوير القوى المنتجة يمكن أن يكون أقل تسارعاً حيث تنتفي المزاحمة، ولكن ينبغي أن يصحب ذلك نمو الوعي. في ظل الاشتراكية أيضاً يتم إحلال قوى السوق بالتخطيط حيث يأخذ العمال بزمام

عملية الإنتاج بدل أن يكونوا عبيداً لها ولمتطلبات التراكم الرأسمالي. فالاشتراكية تعمل على إلغاء هذا النمط - نمط الإنتاج والعلاقات الإنتاجية وما يقوم على أساسها من علاقات اجتماعية - من جذوره كي يشعر المرء بتحقيق الذات عبر منفعة الكل الجمعي بدل أن يضيع ضحية الاغتراب. وحين تلغي الاشتراكية والشيوعية هيمنة الطبقة الرأسمالية لتقيم في مكانها المساواة والعدالة الاجتماعية، فإنها تعزز التضامن بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين شعوب الأرض بدل الفردانية والاستهلاكية والاستغلال.

الشيوعية، إذن تقدم نقيض النمط الرأسمالي حيث يكون الإنسان كائناً اجتماعياً مكتمل التطور وحيث يعود إلى "ذاته" ككائن بشري واجتماعي. وفي هذا يكمن الحل الجذري للتناقض القائم بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، أي الحل الحقيقي الذي يتمثل في السعي نحو الجوهر، وحل الصراع بين الحرية والحاجة، بين الإنسان والطبيعة والكائنات الأخرى. فالشيوعية، على حد قول ماركس، "هي التي تحل لغز التاريخ، أما الوعي فهو ذلك الحل".

خاتمة

خلاصة القول، أن غيفارا أقام على هذه الأسس أطروحته المركزية في مسألة الوعي وضرورة تطويره بالتزامن مع التغيرات الاجتماعية الأخرى عن طريق الحوافز المعنوية والارتقاء بمفهوم العمل إلى مستوى المهمة والواجب الاجتماعي. ومن رحم هذا الوعي، رأى تشي غيفارا، يُولد الإنسان الجديد ذو القيم الجديدة والتي تؤسس بدورها لأخلاقية جديدة (الأخلاقية الشيوعية) كأساس للمجتمع الجديد، حيث تسود علاقات التضامن بين الأفراد وحيث تتناغم حياة الفرد وأنشطته اليومية مع الأهداف العليا للمجتمع. هذا هو، بإيجاز، أساس الماركسية الإنسانية التي دعا إليها غيفارا حيث يتحرك الأفراد ويتصرفون ضمن ظروف موضوعية وضمن عملية البناء الاشتراكي على أساس الأخلاقية الثورية المتمثلة بالتضحية والتضامن والتي تتميز بالتوازن والانسجام بين الفكر والفعل.

الفصل الثامن عشر

غيڤارا في جدل الحوافز المادية والمعنوية

على مدى مسيرته النضالية خلال الثورة الكوبية (1956 – 1959) ومرحلة بناء الاشتراكية التي تلت، كانت مسألة الحوافز المعنوية والمادية محوراً أساسياً في فكر تشي غيڤارا وإرثه، كما كانت مَعْلماً بارزاً في خلافه مع السياسات الاقتصادية السوفيتية،

وفوق هذا وذاك شكّلت جزءًا متكاملاً من الجدل الذي احتدم في كوبا حول استخدام الحوافز من أجل رفع الكفاءة والنجاعة والإنتاجية وتطوير الوعي الاشتراكي وحول قانون القيمة واستخدام الآليات الرأسمالية في مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية فالشيوعية. وفي حين ينظر الكثيرون إلى أن اهتمام غيڤارا بالمكافآت المعنوية والوعي الجمعي وإصراره عليهما على أنه نزعة مثالية، فإن النظرة الشاملة للفكر السياسي والاقتصادي الغيفاري توصلنا إلى فهم الترابط الوثيق المتبادل بين المعنوي والمادي لديه.

ويمكننا بشيء من الإيجار أن نوضح هذه الإشكالية كما رآها غيڤارا:

1) إذا كان من المفترض أن يقوم المجتمع الاشتراكي بتوزيع المنتوج الاجتماعي على أساس التبادل المتساوي بين السلطة من جهة، وبين مقدار العمل المبذول في إنتاجها من جهة أخرى، فانه لابد لهذا المجتمع أن يبتعد بل أن يتخلى عن القوانين الرأسمالية التي تضبط حركة العمل والسلعة والإنتاج والتوزيع وما شابه.

2) حين يغيب قانون القيمة عن العديد من مجالات الحياة الاقتصادية فإننا نصبح أمام عدة تحديات:

أ) كيف نعوّض العامل عن عمله وجهده؟

ب) كيف لنا أن نزيد من الإنتاجية؟

ج) كيف يمكننا التغلب على ثنائية العمل الفيزيائي (الجسدي) والعمل الذهني؟

د) كيف نحقق التوازن بين الاستثمار في وسائل الإنتاج من جهة، ووسائل التوزيع من جهة أخرى؟

تلك هي التحديات كما رآها غيفارا واعتقدَ أنه يمكننا التصدي لها وإيجاد الحلول عن طريق "العمل الواعي للذين يسعون إلى بناء المجتمع الاشتراكي". غير أن تجربة غيفارا في البناء الاشتراكي في كوبا ومواجهة هذه التحديات توقفت بسبب رحيله عن كوبا وانتقاله إلى ساحات نضال أخرى في الكونغو ثم في بوليفيا، وأيضاً بسبب استشهاده المبكر، وظلت هذه المسالة دون أن تكتمل البدائل والحلول في ذهنه وتجربته.

غيڤارا والحوافز المادية

تساءل غيڤارا: إذا ما ألغينا المزاحمة والاستغلال الرأسماليين، فما الذي سيشكل إذن القوة الدافعة للتنمية الاقتصادية؟

وفي محاولة الإجابة على هذا السؤال، درس غيڤارا تجربة النمط السوڤييتي في الإنتاج وتعويض العمال ومنحهم الحوافز والمكافآت المادية. وبدون أن نخوض الآن في نقد غيڤارا لنمط الإنتاج السوفيتي والذي سنعود إليه في فصول قادمة بشيء من الاستفاضة، نكتفي بالإشارة إلى ملاحظتين أساسيتين:

1) الأولى، ومفادها أن الاتحاد السوڤييتي حين ارتكن إلى الحوافز المادية؛ فإن هذه الأخيرة أعادت بدورها إنتاج اللامسؤولية الاجتماعية التي تتصف بها الرأسمالية. وبالإضافة، تمّ توسيع الحوافز المادية حتى شملت قطاعات اقتصادية غير منتجة، وكذلك اتساع فئة "القادة" مما فتح الباب على مصراعيه أمام الفساد، وهي الظاهرة التي أضحت متفشية في البيروقراطية السوفيتية. فالحوافز المادية تتطور منطقياً لتصبح امتيازات وهذه بدورها تنتج مصالح سياسية وأهدافاً مناقضة لمصالح الشعب العامل في الاتحاد السوڤييتي وفي العالم بشكل عام.

2) والثانية، أن غيڤارا في معرض نقده لنمط الإنتاج، ولنأخذ على سبيل المثال المزارع التعاونية السوفيتية (الكولخوزات)، فإنه لم يَرَ ضرورة للفروق في الأجور التي كان

يتلقاها المزارعون حسب مقدار إنتاجهم. بل اقترح، عوضاً عن ذلك، أن تُعتبر هذه المزارع شكلاً من أشكال ما قبل الاشتراكية في المرحلة الأولى للتحول الاشتراكي مكرراً إصراره على أن حتى "الملكية التعاونية" لهذه المزارع ليست شكلاً اشتراكيا.

كيف نظر غيڤارا إلى قيمة العامل؟

عرّف غيڤارا معدل العمل (المعدل الإحصائي للعمل) على أنه "مقدار العمل اللازم لخلق منتوج في فترة زمنية محددة، آخذين بالاعتبار مستوى المهارة العادية وفي ظل ظروف معينة لاستخدام الآلات. وهو المساهمة بقدر معين من العمل الذي يستطيع أن يقدمه فرد واحد للمجتمع. إنها إتمام الواجب الاجتماعي".

كانت الوزارات الكوبية باستثناء وزارة الصناعة التي كان يرأسها آنذاك غيڤارا تسير حسب النمط السوفييتي، نظام "التمويل الذاتي"، وكان العامل الكوبي في هذه الوزرات يتلقى زيادة في أجره قدرها 50 % إذا ما زاد من إنتاجه ب 50 %. أما العامل في وزارة الصناعة في الفترة التي كان يديرها غيڤارا حسب نظام "التمويل عن طريق الميزانية". فكان يتلقى مكافآت مالية إذا ما فاق إنتاجه المعدل المتوقع. إلا أن هذه المكافأة أو الزيادة في الأجر، وإن كانت تقر بأن الحوافز المادية شر لابد منه، إلا أنها لم تكن تتماشى بشكل تناسبي مع زيادة إنتاجية العامل. كان غيڤارا يرى، مستنداً إلى ماركس، أن جزءًا من فائض الإنتاج الذي يخلقه العامل بجهده

يجب أن يُستثمر في الإنتاج الاجتماعي (زيادة رأس مال الوحدات الإنتاجية أو الشركات، توسيع العملية الإنتاجية، زيادة الاحتياطي المالي، شراء معدات وتقنيات جديدة..)، بينما يذهب جزءٌ آخر إلى الاستهلاك الاجتماعي (على شكل التكلفة الإدارية للمجتمع، توفير خدمات الضمان الاجتماعي، تغطية حاجات العاطلين عن العمل (البطالة) وغيرها).

بالإضافة إلى ذلك، اشترط غيڤارا على أن الزيادة في الأجر (أو المكافأة المالية كحافز مادي) يجب ألاّ تتجاوز الأجرة الأساسية للمرتبة الأعلى من مرتبة العامل حسب جدول الأجور الذي أعدّه غيڤارا ليشمل كافة أصناف العمالة في كوبا. أما إذا رغب العامل في أن يتقاضى أجرة تساوي المرتبة التي تعلو مرتبته، فعليه، في هذه الحالة، أن يحسّن ويطور مهاراته ومؤهلاته أي الالتحاق بدورات تدريب وتأهيل فنية وعلمية وأكاديمية.

هكذا نرى كيف كان غيڤارا يجهد في البحث عن توازن بين (1) مكافأة العامل ماديا - إدراكاً منه بمقتضيات المرحلة التي كان يعيشها وإيفاءً باحتياجات العامل والمجتمع المادية - على أن تتناسب هذه المكافأة وفائض الإنتاج الذي يخلقه العمل، من ناحية، (2) وبين أن تتاح للعامل فرصة تحسين وتطوير قدراته ومهاراته، من ناحية أخرى. فعلى سبيل المثال، يستطيع العامل الذي يرغب في متابعة دراسته والتخرج بمؤهلات أعلى، أن يلتحق بدورات دراسية أو تدريب مهني وأن يتوقف عن العمل خلال تلك الفترة مع الاستمرار في تلقي أجره. وبعد أن ينهي دراسته أو دورته

يستطيع أن يعود إلى عمله ويعمل برتبة أرقى وبأجر أعلى. بالطبع، يمكن العودة إلى المحاججة والإصرار على أن غيڤارا عاد في نهاية المطاف إلى الحوافز المادية: إلى زيادة أجر العامل، إلا أن الفارق هنا يكمن في أن هذا الحافز المادي لم يكن مباشراً ولا مادياً صرفاً، ولم يستند بل ولم يقم على معايير العلاقة بين "العمل" والأجر الذي يتلقاه مقابل عمله.

كانت جهود غيڤارا، إذن، منصبة باستمرار وثبات على كسر الرابطة الكامنة بين العمل والأجر، وما صاحب ذلك بالضرورة من كسر الرابطة الفكرية والمعنوية بين مفاهيم الإنتاج من جهة والتتجر *commercialization* أي الروح التجارية الساعية دوماً إلى الربح. وهذا كله، ينبع في الأساس من مفهوم غيڤارا الأساسي لهدف الإنتاج ألا وهو الإيفاء بحاجات المجتمع لا جني الربح كما هو الحال في ظل الرأسمالية.

نستطيع إذن أن نستشف بسهولة الربط الذي أكد عليه غيڤارا بين رفع مستوى الإنتاج وزيادة الفعالية الإنتاجية من جهة، ورفع المستوى الفني والتكنولوجي والتعليمي للعمال من جهة ثانية. ومن هنا أيضا طالب بتعليم وتأهيل العاطلين عن العمل ورأى في ذلك حلاً لمشكلة البطالة، وفي الوقت ذاته وسيلة لزيادة الإنتاجية.

الحوافز المعنوية

هل بمقدور الحوافز المعنوية والأخلاقية التي دعا إليها غيفارا، وسيطرة العمال أنفسهم على الإنتاجية، هل بمقدورها أن تعوض بالقدر الكافي عن تدني مستوى الإنتاجية في المجتمعات التي تمر بمرحلة التحول الاشتراكي؟

لا أعتقد أن أحداً يملك الإجابة الشافية على هذا السؤال ولم يتسن لتجربة البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية وغيرهما تقديم تلك الإجابة. وعليه، فإننا ما زلنا نبحث عنها اليوم بعد فشل نمط الإنتاج السوفييتي وانهياره اللاحق، وانتهاج الصين الشعبية درب الإنتاج الرأسمالي.

العيش الكريم حق طبيعي وليس امتيازاً

لم يلتفت غيفارا كثيراً ولم يصر على الفهم والدلالات السيكولوجية للوعي من حيث كونه الوسيلة الأساسية، الذي يتم من خلالها التعبير عن تفاعل الإنسان مع البيئة في أشكال العمل الواعي، وإنما ذهب إلى ما هو أبعد: الوعي كوسيلة لمقاربة الجوانب السلبية والسيئة التي ترثها الاشتراكية عن الرأسمالية، والوعي أيضا كقوة حقيقية ومتنامية تعيد إنتاج ذاتها مع العمل الثوري الفعّال. من هنا، أكد غيفارا على الحاجة الملحة لخلق وتطبيق قوى الوعي التي من خلالها يمكن ضمانة تنمية القوى المنتجة. ولهذا السبب أيضاً احتلت الحوافز المعنوية مكاناً رئيسياً في فكر غيفارا

الاقتصادي والسياسي أي أنه رأى فيها أداة لخلق الوعي ومفهوماً جيداً للعمل "كواجب اجتماعي".

رأينا في فصل سابق كيف كرّس غيفارا مفهوم "العمل كواجب اجتماعي"، كمنطلق لتحرير العمل (والعامل) من السلعنة وكي يتمكن العمال من الاستغناء عن هذه الحوافز المادية والمالية. وفي هذا الصدد، رأى غيفارا أن الاشتراكية تكمن في انخراط الناس والعمال في عملهم على نحو لا يحتاج إلي حوافز مادية، أي حين تصبح هذه الحوافز غير ضرورية، بل حين يشعر كل عامل بالحاجة الملحة بأن يدعم الثورة والمجتمع، وعليه فإن تأدية عمله تصبح أمراً ممتعاً ويبعث السرور في نفسه. بعبارة أخرى، ما يريد غيفارا أن يقوله هو أن يقوم العامل بالإنتاج وبتأدية دوره في إدارة المصانع كممثل عن الآخرين وعن المجتمع وتعبيراً عن الوعي الثوري وليس رغبة في أو سعياً وراء الحوافز المادية. في هذا يكمن، كما رأى غيفارا، معنى وجوهر التقدم الحاسم أي الارتقاء إلى الوعي الثوري.

لم ينطلق غيفارا في سعيه لخلق "الوعي الشيوعي" من منظور أخلاقي أو مثالي بحت، ولم يكن موقفه مجرد شطحة مثالية، بل استند فيما ذهب إليه إلى أسس مادية وموضوعية. وقد رأى أنه كي تستطيع الحوافز المعنوية تأدية الدور المنوط بها، لا بد أن يتوفر شرطان أساسيان:

1) العدالة في التوزيع: أي ضمانة حقوق ومصالح أولئك الذين يضحون ويتطوعون ويبذلون الذات من أجل المجتمع والوطن والتنمية، وهذا يتطلب توزيع ثمار الإنتاج على الكل، كما

يتطلب هذا محو نمط الإنتاج الرأسمالي كي يتسنى نزع فائض القيمة من أيدي القلة ووضعه تحت تصرف المجتمع وفي خدمة أهدافه والإيفاء بحاجاته.

2) الإيفاء بالحاجات الأساسية لكل أفراد المجتمع (المأكل والملبس والمسكن والرعاية الصحية والتعليم وغيرها)، وفي هذا ضمانة وديمومة التطوع والعطاء.

فإذا غابت هذه الضمانات، ينكفئ الفرد على ذاته وأنانيته وحماية مصالحه ويقع فريسة للقلق والخوف من الوقوع في كارثة أو ضائقة ما. هكذا فهم غيفارا وقيادة الثورة الكوبية مقولة: "كل حسب مقدرته، للكل حسب حاجته"، وهذه هي مقومات النهج الذي وجه الثورة الكوبية في توفير الحاجات الأساسية لجماهيرها والذي ما زال، باعتراف العدو والصديق، أكبر إنجازات هذه الثورة. فالإيفاء بهذه الحاجات ليس عملاً خيرياً لان البقاء والعيش الكريم حق لكل مواطن وليس امتيازاً ولا ترفاً. وكي يتسنى خلق وعي جديد لابد أن تتوفر هذه المعادلة في العطاء والضمان الاجتماعي في المرحلة الانتقالية للاشتراكية.

هل كان غيفارا مثالياً؟

فيما يلي إجابة غيفارا ذاته على هذا السؤال: "إن الاقتصاد الاشتراكي من دون قيم أخلاقية شيوعية أمر لا يعنيني. نحن نكافح الفقر ولكننا أيضا نكافح الاغتراب. إن إحدى غايات الماركسية

الأساسية هي إزالة المصلحة المادية، إزالة عامل "المصلحة الذاتية للفرد" وإزالة الربح من الحوافز السيكولوجية للإنسان. لقد كان ماركس معنيا بأمرين: الحقائق الاقتصادية وكذلك انعكاساتها على العقل، وهو ما أسماه "حقيقة الوعي". فإذا تجاهلت الشيوعية حقائق الوعي، فإنه يصبح من الممكن استخدامها كطريقة للتوزيع، ولكنها لا تعود معبرة عن القيم الأخلاقية الثورية".

الفصل التاسع عشر

مفهوم "الإنسان الجديد" عند غيڤارا

"على عتبة الألفية الثالثة، فإن مصير الجنس البشري يعتمد على الإجابة على السؤال: هل من الممكن تحويل الطبيعة البشرية؟"

***ميخائيل هيلير*[74]**

لم يكن تشي غيڤارا أول من طرح مفهوم "الإنسان الجديد"، أو نحت هذا المصطلح، فقد سبقه في ذلك كتّاب ومفكرون ماركسيون أدرجوا هذا المفهوم في الأدبيات الشيوعية والماركسية كما أدرجته الثورة البلشفية ضمن مهامها الأولية والملحة.

غير أن غيڤارا أعطى هذا المصطلح معانٍ ودلالات عديدة ميّزت مساهمته الفكرية والثورية في إثراء هذا المفهوم.[75]

---

[74] مؤرخ روسي وصاحب كتاب

Cogs in the Wheel: The Formation of Soviet Man (1987), by Mikhail Heller

[75] للاستفاضة راجع كتاب

Cheng ،Yinghong, Creating the "New Man": From Enlightenment Ideals to Socialist Realities ،University of Hawaii Press, Honolulu, USA, 2009.

تستند مساهمة غيفارا هذه إلى خبراته التي واكبت انغماسه في تجارب ثلاثة:

- الثورة الكوبية والتحولات التي لَمَسَها غيفارا في المقاتلين الغوّار خلال تلك الثورة وما تلاها من تطورات ثورية في بناء المجتمع الكوبي الجديد؛

- عملية بناء الاشتراكية في كوبا؛

- اطلاعه على النمط السوفييتي في البناء الاشتراكي والمجتمع الجديد ونقده للتجربة السوفييتية وإخفاقها في بناء الإنسان الجديد.

أنجز غيفارا عمله *"الاشتراكية والإنسان في كوبا"* وغيره من نتاجه السياسي والفكري، في غمرة انشغاله بالإعداد لمشروع كفاحه الأممي بعد أن قرر التخلي عن مهامه الحزبية والحكومية في كوبا والانطلاق في ثورة أممية في بلدان العالم الثالث، والتي رأى فيها غيفارا مرحلة المخاض لولادة المجتمع البشري الذي سيكون مجتمعاً تحولياً نحو الاشتراكية.

يتناول الكاتب سعي الإنسان عبر التاريخ إلى صناعة وتشكيل "الإنسان الجديد"، إلى أن أخذ الشيوعيون في القرن العشرين بالعمل على بناء مجتمع جديد من خلال صياغة الإنسان الجديد الذي بوعيه ومنظومة قيمه الجديدة سيتجه نحو القيم الاشتراكية بدلاً من قيم الاستهلاكية والفردانية الرأسمالية في المجتمعات البالية والتي تتم الإطاحة بها لبناء المجتمعات الاشتراكية. يستفيض الكتاب في دراسة ومقارنه التجارب الشيوعية الرئيسية في هذا المجال في القرن العشرين: التجربة الكوبية والسوفيتية والماوية في الصين الشعبية.

أرسل غيفارا دراسة " الاشتراكية والإنسان في كوبا"، خلال زيارته للجزائر شباط/ فبراير(1965 ، إلى مجلة *Marcha* الأوروغوانية الأسبوعية التي قامت بنشرها للمرة الأولى يوم 12 مارس 1965 تحت عنوان: "من الجزائر...إلى مارتشا : الثورة الكوبية اليوم ." وقد نشرته تلك المجلة بضعة أيام بعد خطاب غيفارا الشهير في الندوة الاقتصادية الثانية لمنظمة التضامن الأفرو . أسيوي في الجزائر التي انعقدت يوم 24 فبراير1965. وكان غيفارا قد ختم جولته في القارة الأفريقية (ديسمبر 1964) والتي أرادها أن تكون استكشافية إعداداً لرحيله عن كوبا وانطلاقه نحو الكفاح الثوري الأممي والذي بدأه في الكونغو في أبريل (عام 1965. ثم أعادت المجلة نشرة الدراسة ذاتها يوم 5 تشرين الثاني) نوفمبر (من العام ذاته تحت عنوان: "ملاحظة خاصة من تشي غيفارا". ومنذ ذلك الحين، ذاع صيت هذه الدراسة وتم نشرها عدة مرّات بعناوين وطبعات مختلفة وبالعديد من اللغات أكثرها شهرةً:" الاشتراكية والإنسان في كوبا."

ولادة مفهوم "الإنسان الجديد" عند غيفارا

بدأ غيفارا بتشكيل مفاهيمه حول "إنسان المستقبل" (الإنسان الجديد) من خلال مشاهداته وخبراته في الحرب الثورية الكوبية (1956 . 1959)، وأخذ بتدوين ملاحظاته الأولية في كتاباته وخطاباته المبكرة. فقد عاين غيفارا كيف يتفانى المقاتل في مرحلة الثورة، مرحلة البطولة، ويقدم التضحيات ويتحمل المسؤوليات الجسيمة، ويتكبد المخاطر التي تحيق به، في سبيل أداء واجباته

الثورية. وفي مواقف هذا المقاتل في هذه المرحلة "كنا نتلمس رجل وامرأة المستقبل".

ولم يكن قد مضى على انتصار الثورة في كوبا بضعة أشهر، حين نشر مقالة بعنوان: "الانعكاسات الاجتماعية للجيش الثوري" (1959). وفي خطابٍ له عام 1960 بعنوان "الطبيب الثوري" طوّر تشي أفكاره حول هذه المسائل وأشار إلى أن كوبا تعمل على "خلق نمط جديد من الفرد [الإنسان]" بفضل الثورة التي حققتها ولأنه "ليس هناك ما يمكن أن يثقف الإنسان...مثل أن يعيش عبر الثورة ذاتها".[76]

كانت تلك هي البوادر المبكرة للمفاهيم التي طوّرها غيڤارا في أعماله اللاحقة والتي أصبحت جزءًا أساسياً من مفاهيمه حول الفرد/ الإنسان كلاعب مباشر وواعي في عملية البناء الاشتراكي. فالإنسان عند غيڤارا، كما كان عند ماركس من قبله، هو الجوهر وهو اللاعب الأساسي، وهو الذي يصنع ظروفه وبيئته، ولكنه في فعله هذا إنما يعيد خلق ذاته ويساهم في تكوين الإنسان الجديد. بعبارة مختصرة، أدرك غيڤارا أن الإنسان لن يغير الواقع ما لم يغير وعيه ويخلق الإنسان الجديد. وهو ما لحظه غيڤارا من تغيرات في مقاتلي حرب العصابات أثناء الثورة الكوبية في أدغال كوبا.

[76] Che Guevara, Socialism and Man, in Che Guevara, Global Justice, Liberation and Socialism. ed. Maria del Carmen Ariet Garcia, Ocean Press, Australia, 2002.

يقدم لنا غيفارا في هذه الدراسة تحليلاً، وإن بدا جنينياً، للعلاقة بين (1) البنية الفوقية والعوامل الذاتية (الأيديولوجية، السياسية، الأخلاقية، الثقافية) من جهة، و(2) القاعدة المادية (الاقتصادية) في المجتمع الاشتراكي خلال سنوات الثورة الكوبية وبدايات البناء الاشتراكي في ذلك البلد (1959 . 1965)، كمدخل إلى فهم الإنسان الجديد، من جهة ثانية.

ويشير غيفارا إلى أن المجتمع، في مرحلة البناء الاشتراكي، يعيش في ظل العلاقات الاقتصادية للنظام السابق (العلاقات السلعية) التي لا تزال عالقة ومترسبة في الثقافة والعقلية والذهن الجمعي. ويعتري هذه المرحلة في العملية الثورية الكثير من التوتر والقلق وغياب الاستقرار مما يتطلب الكثير من الصرامة والحزم في مرحلة مبكرة وشاقة من البناء الاشتراكي والتحول الاجتماعي. وفي هذه الحقبة يغلب تعزيز الحوافز المادية كي يتسنى تجنيد وتنظيم المجتمع وتصعيد وتيرة الإنتاج لتوفير الحاجات الأساسية للمجتمع. وبالرغم من انشغاله وانخراطه في العديد من مهام تلك المرحلة، نحى غيفارا كما نرى في عمله هذا، نحو الوسائل والطرائق ذات الطبيعة الأخلاقية لتحقيق هذين الهدفين (تنظيم المجتمع وزيادة الإنتاج) دون إغفال أو التقليل من أهمية الحوافز المادية وخاصة تلك ذات الطبيعة الاجتماعية والمرتبطة بتوفير الحاجات الأساسية للمواطن. وربما تكون هذه، على ما يرى أرماندو هارت[77] من أهم

[77] راجع "ثبت المصطلحات".

الإسهامات الكوبية في الفكر الاشتراكي والتي لا تتناقض مع أفكار ماركس وإنجلز ولينين.[78]

الركائز الأساسية لمفهوم"الإنسان الجديد"

□ الوعي والإنسان الجديد

انطلق غيفارا من رفضه للمقولة التي تدّعي أن الرأسمالية ملازمة للبشرية وأن البشر بطبيعتهم أنانيون وطماعون ومتناحرون فيما بينهم، وأنهم يرفضون التعاون والتكافؤ بين بعضهم البعض، بل أراد، على النقيض من ذلك، أن يثبت أن بناء الوعي الشيوعي لدى العمال والطبقات الشعبية وعامة الجماهير قادر، بالطبع ليس لوحده، على بناء الإنسان الجديد.

□ دور الثقافة في تغيير المجتمع

بقيت الفلسفة في الغرب وسيلة لتفسير العالم والطبيعة، ولم تكن وظيفتها تتجاوز هذه المحدودية وبعض التحليقات الفلسفية في فضاءات المجتمع والإنسانية، إلى أن جاء ماركس وإنجلز ليؤكدا بنظرة ثاقبة أن وظيفة الفلسفة ومهمتها تكمن في تغيير العالم، فكانا بذلك أول من أسس وطرح البعد الاجتماعي

[78] Manifesto: Three Classic Essays on How to Change the World ‹Che Guevara, Karl Marx & Friedrich Engels, Rosa Luxemburg ‹ ‹Ocean Press, Melbourne, Australia, 2005, pp. 19-20.

كإحدى المواضيع الأساسية في مسألة الثقافة، أي أنهما وضعا هذه المسألة في الجبهة الأمامية في تحديات الفكر الأوروبي الغربي.

تكمن مساهمة غيفارا الأساسية، كما ذكرنا في مكان آخر، في تزامن محاربة الرأسمالية وكفاح الشعوب من أجل التحرير في مسيرة الإنسانية وصياغة الوعي الجديد، وهو ما سيشكل، وفق غيفارا، الركيزة الضرورية لتأسيس قيم جديدة وتغييرات فعلية ملموسة في مسلكية الفرد والجماهير.

يشير أرماندو هارت إلى مسألة انشغل عنها الكثيرون من الماركسيين خلال القرن العشرين ولم تندمج في الممارسة الاشتراكية بعد وفاة لينين وهي: الأهمية والدلالات السياسية العديدة للثقافة ودورها في المجتمع. وهي قضية كثيراً ما أشار إليها تشي غيفارا وفيدل كاسترو وأكدا على أهميتها حتى أصبحت بالفعل جزءًا من إرث الثورة الكوبية ومساهماتها. ويضيف هارت مؤكداً أن سرقة وتزييف وتشويه ثقافات الشعوب المضطَهدة، كانت على الدوام الآلية الرئيسية للقوى المستغِلة والمستعمِرة كي تفرض الهيمنة على الآخرين من أجل تحقيق مصالحهم. ويرى هارت أنه لا يتسنى فهم مسألة الثقافة ودورها دون استيعاب هذا المبدأ الأساسي.[79]

□ الوعي الجديد وإخفافات الاشتراكية في القرن العشرين

يأخذنا غيفارا، في مجمل ما يثيره من قضايا، إلى التأمل في التحديات التي واجهتها الاشتراكية عبر القرن العشرين وخاصة

[79] Ibid., pp. 11-26.

خلال الحقبة السوفيتية وفشل سياسات تلك الحقبة في معالجة مسألة الثقافة والوعي وخلق النظم القيمية الجديدة والإنسان الجديد. يتكشف لنا، بعد بضعة عقود وبطريقة أكثر جلاءً وتحديداً، طيف من القضايا الذاتية والثقافية والأخلاقية والمعنوية، لا يمكن الفصل بينها وبين السعي نحو مستو شامل من الثقافة في المجتمع. فثقافة التحرر والانعتاق، وأفكار غيفارا حول العوامل الذاتية، ذات صلة وأهمية مباشرة وملحة بعملية التحليل الثوري لموضوعة تأثيرات الثقافة في التنمية الاجتماعية . الاقتصادية. ولعلها الدرب الوحيد الذي يؤدي بنا إلى فكرٍ فلسفيٍ جديد وفعلٍ سياسيٍ متناغم مع الأوضاع المعاصرة.

إن تحديد تأثيرات الثقافة ودورها في التنمية أمر أساسي وضروري كي يتسنى تطوير الأفكار اللازمة لمواجهة القرن الحادي والعشرين. وهي مسألة لم تستوفِ حقها من الدراسة في التجارب الاشتراكية ومعاركها الفكرية في القرن العشرين، وبقيت مرجأة، رغم الحاحيتها ودورها الحاسم في تاريخ الشعوب وحركتها الثقافية وتأثيرات الثقافة عليها، وبالرغم من أنها تقع في لب المراجعة النقدية للتجارب الاشتراكية والثورية والقومية وأسباب فشلها. وكذلك هو الحال في وطننا العربي، حيث لا تزال المسألة مرجأة أيضاً رغم إلحاحيتها.

□ الإنسان الجديد كمنتج من أجل المجتمع

لقد آمن غيفارا أن الوصول إلى الاشتراكية يجب أن يكون عبر طريقة أكثر فعالية، وهي الإنسان الجديد.

يتوجب على هذا الإنسان أن يفهم أنه ليس عليه أن يعمل من أجل مراكمة السلع المادية، فهذا أمر أناني وفردي. بل على الفرد أن يعلم أن مهمته الأخلاقية أن يتفانى في العمل من أجل المجتمع، وبأن المجتمع بالمقابل، سوف يعتني به وبأسرته واحتياجاتهم. وقد كان هذا تماماً ما قاله غيفارا في رسالة الوداع لأطفاله: "تذكروا أن الثورة هي الأمر المهم، وأن كل واحد منّا لوحده لا يساوي شيئاً"، وما قاله في رسالة الاستقالة التي قدمها لفيدل كاسترو قبل التوجه إلى الكونغو، حيث ذكر في تلك الرسالة أنه ليس قلقاً على أسرته لأنه يعلم أن الدولة ستعتني بهم.[80]

□ الاشتراكية... العملية الإنتاجية... علاقات إنسانية جديدة

اعتبر غيفارا أن إقامة علاقات إنسانية جديدة هي الهدف المركزي من وراء الثورة والاشتراكية. هذا هو المعيار الأساسي لتقييم كافة الإنجازات، سلباً أو إيجاباً، أي بقدر ما يسهم كل إنجاز في التسريع أو التأخير في هذا المشروع: مشروع الإنسانية الجديدة.

وعليه، حذّر غيفارا من المخاطر التي تقع فيها الطليعة الثورية عندما تنشغل في بناء عملية الإنتاج لتلبية حاجات الناس والتغلب على الفقر الذي عانت منه قروناً طويلة. وكان يخشى، أكثر ما يخشى، أن يصبح الإنتاج (مقداره ومعاييره) هو الغاية القصوى ويضيع الهدف الأساسي الذي من أجله قامت الثورة. ومن هنا

---

[80] A Letter to Fidel Castro", in Che Guevara Reader: Writings on Politics & Revolution ‹pp.386-387.

اصطدم مع مدرسة العقلانية الاقتصادوية[81] لأنها حصرت اهتمامها بالإنجازات الاقتصادية البحتة والتي رأى غيفارا أنها ستؤدي إلى استخدام وسائل وتنفيذ سياسات تركز على النجاحات الاقتصادية في المدى القصير وتجازف بالمستقبل الثوري برمته لما تسببه من تآكل تدريجي في الوعي.

نادى غيفارا باستخدام الموارد المتوفرة، على شحها في المراحل المبكرة للبناء الاشتراكي، في إنجاز تنمية متعددة الوجوه والأبعاد: الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية. ولن يتسنى هذا، كما رأى، إلا في التلازم والتكامل بين البناء الاقتصادي من جهة والتثقيف الشيوعي للإنسان من جهة أخرى دون فصل بين الاعتبارات لاقتصادية وتلك السياسية . الأيديولوجية: "يتطلب بناء الشيوعية، بالإضافة إلى بناء القاعدة المادية الجديد، بناء الإنسان الجديد".

وفي رده على الذين يلهثون وراء النتائج السريعة، أكد غيفارا أن الانتقال السريع إلى الاشتراكية، في ظروف الشعوب المضطَهدة التي تعاني من التخلف المزمن ونهب مواردها وقلة رأس المال، سيكون محالاً دون تضحيات جسيمة وعلى كافة المستويات. "ليست الاشتراكية مجتمع رفاه، كما أنها ليست مجتمعاً طوباوياً يقوم على طيبة الإنسان كإنسان. الاشتراكية نظام ينهض تاريخياً ويرتكز أساسا على وضع وسائل الإنتاج الأساسية والتوزيع المتساوي للثروة في خدمة المجتمع بأسره ضمن إطار الإنتاج الاجتماعي. في رأينا أن

[81] التي كثيرا ما كالت له النقد واتهمته بالفشل الذريع في بناء الاقتصاد الكوبي.

الشيوعية هي ظاهرة وعي وليست مجرد ظاهرة إنتاج. لن نستطيع الوصول إلى الشيوعية عن طريق التراكم الآلي البسيط للبضائع التي يتم توفيرها للناس.. لا يتسنى تحقيق الشيوعية كما عرّفها ماركس، وهي الشيوعية التي نطمح إليها، إذا لم يكن الإنسان واعياً، إذا لم يخلق الإنسان وعياً جديداً تجاه المجتمع". وكان شعاره: "إنتاج، مزيد من الإنتاج، وعي... تلك هي الأسس التي ينبغي للمجتمع الجديد أن يقوم عليها".[82]

على ضوء ما سبق ذكره من المفاهيم أن نفهم كيف ولماذا كان غيڤارا يخشى استخدام الآليات الرأسمالية في عملية الإنتاج في كوبا الاشتراكية ومحاكاة النمط السوفيتي في هذا المجال لأنه رأى أن هذا سيعرّض المشروع الاشتراكي برمته للخطر وينذر بإعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية الرأسمالية والوعي الرأسمالي بالرغم من ملكية الدولة لوسائل الإنتاج والتخطيط الزراعي.

□ الحوافز المعنوية وتكوين الإنسان الجديد

أولى غيڤارا اهتماماً كبيرا لدور الحوافز المعنوية في خلق الإنسان الجديد. وقد طوّر غيڤارا مفاهيمه هذه بفضل الخبرات النضالية التي اكتسبها في التجربة الكوبية. وقد ناقشنا في فصلٍ

---

[82] Tablada, Carlos, Che Guevara :Economics and Politics in the Transition to Socialism ،See chapter" The Marxist conception of politics as concentrated economics and its importance in economic management under socialism .".Pathfinder Press, New York, 1989 .

آخر موقفه من الحوافز المادية والمعنوية وهي أطروحة مركزية في فكر غيڤارا لأنها تحتل حيزاً كبيراً ومؤثراً في كافة أنشطة الإنسان الفكرية والسياسية. وبالقدر ذاته تعاطى غيڤارا مع دور الحوافز المعنوية في تطوير الوعي وخلق الإنسان الجديد، إضافة إلى علاقة الفرد بالجماهير، الدولة والقيادة، تطوير الوعي الشعبي ودوره في مشاركة الجماهير في المجتمع الجديد. ولعل ما يميز موقف غيڤارا في هذه المسألة على خلاف غيره من المفكرين أن هذه الحوافز (أي المعنوية) تأتي في المكان الأول والرئيسي في بناء الإنسان والمجتمع الجديديْن لأنها حجر الأساس في مشروع الاشتراكية الجديدة وفي التغيير الاجتماعي المنشود وضمانة لمستقبل الإنسانية[83]، فيما اعتبر الحوافز المادية (مثل زيادة الأجور، المكافآت المالية والمادية، زيادة العلاوات..الخ) ثانوية ووضعها في المكان الثاني بعد الحوافز المعنوية.

الماركسية الإنسانية:

الحوافز المعنوية . الوعي الجديد . انعتاق الإنسان

---

[83] رأت الماوية أن التشجيع المعنوي والمكافأة المادية يسيران جنباً إلى جنب إلاّ أنها اعتقدت أن التركيز يجب أن يكون على الثانية. كما رأت أن الحوافز المعنوية (أو التشجيع المعنوي كما اسمته) ليست كافية في بعض الفترات التاريخية في بناء الاشتراكية عندما تكون الموارد شحيحة ويكون وعي الناس ما زال متدنياً. للاستفاضة في وجهة النظر الماوية في هذا المجال راجع:

Material Incentives: Readings from before and after the Death of Mao Tsetung, Liberations Books, Los Angeles, (no publishing date).

تهدف الاشتراكية إلى إلغاء العلاقات الاجتماعية الناجمة عن نمط الإنتاج الرأسمالي. وقد رأى غيڤارا أن الحوافز المعنوية، من خلال عملية خلق الوعي الجديد، كفيلة بإقامة الربط والتماثل بين مصلحة ومنفعة الفرد من جهة ومصلحة المجتمع (الكل الجمعي) من جهة أخرى كي يتمكن المرء من الشعور بتحقيق الذات عبر منفعة الكل الجمعي بدل أن يضيع ضحية الفردانية والاغتراب كما هو حاصل في المجتمع الرأسمالي. كما تعزز هذه الحوافز علاقات التضامن بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الشعوب المختلفة. وعندما يشعر الفرد بأنه جزء متكامل من الكل الجمعي، يصبح لجهوده وعمله معنىً عميقاً وينتفي التناقض والتنافس بين حاجات ومصالح للفرد من ناحية، ومصالح المجتمع من ناحية أخرى. هكذا تتوطد ثقة الفرد بالعمل في سبيل المصالح المشتركة للكل الجمعي ويصبح الفرد راغباً في المزيد من العطاء والتضحية.

تساهم الحوافز الأخلاقية، إذن، في تشكيل وعي الإنسان الجديد وفي تحرير المبادرة الذاتية لدى الفرد والجماعات وفئات المجتمع. عندها تنتفي الحاجة إلى "التوجيه من الخارج" لضمانة المنفعة الجمعية كما تزول الحاجة إلى الحوافز المادية والرقابة والسلطة الخارجية ومحاربة الغش والفساد ويصبح الإنسان، في وعيه الجديد، "أكثر إنسانيةً" وينطلق في أفعاله وأنشطته من دوافع ذاتية وترتقي أفعاله إلى ما أسماه ماركس "أنشطةً ذاتية" تنبع من "الإرادة الواعية للإنسان" ويصبح قادراً على الإمساك بالمبادرة في أنشطته وحياته وصولاً إلى الانعتاق التام، وبهذا يحقق المجتمع نقلته التاريخية من حيّز "الحاجة" إلى فضاء "الحرية".

□ الإنسان الجديد... الإنسان الاشتراكي

اعتقد غيفارا أن الاشتراكية ما زالت في طفولتها من حيث تطوير النظرية الاقتصادية والسياسية بعيدة المدى. وعليه، فان الفكرة المركزية في أطروحته تدور حول الفرد الذي يعيش وجوداً مزدوجاً: ككائنٍ فريدٍ وكعضوٍ في مجتمع، ودور العوامل الذاتية والثقافية وارتباطها بتربية الفرد وتثقيف الإنسان الجديد، الإنسان الاشتراكي. وبيت القصيد لدى غيفارا أن تقدم الثورة "يستلزم تطوير وعي يشمل نظماً قيمية جديدة" وأنه بعد انتصار الثورة يتوجب على "المجتمع ككل أن يتحول إلى مدرسة كبيرة".

كان غيفارا يرى أن الإنسان الجديد والمجتمع الجديد لا يقومان على نفس الأخلاق والقيم، وبذات الوسائل والأساليب، وعلى ذات القوى ومفاهيم العمل التي كانت سائدة في المجتمع القديم. إذن، فالمولود قادم، وسيأتي الإنسان الجديد من مخاض مجتمع جديد يتشكل ويتبلور من خلال النضال ولبناء الاشتراكي.

بالنسبة لغيفارا فإن الغاية من الأخلاق الثورية هي ولادة الإنسان الجديد الكامل، الإنسان الذي تتغذى أفكاره ونظرياته من ممارسته، والإنسان الذي يرتكز في أفعاله وممارساته على النقد الجذري للعالم من حوله بغية تغييره وعلى النقد الجذري لكافة المظاهر والإيماءات التي تهدف إلى مخادعة الوعي والنيل به من أجل استرضائه وصولاً إلى تدميره.

أما السؤال فيبقى، هل تستطيع الإنسانية أن تغفل الآمال والتطلعات التحررية التي تأطرت بالفكرة الشيوعية؟

تُرى، هل من لحظة نكون فيها أحوج إلى دراسة واستيعاب هذه الأفكار، من هذه التي نعيشها اليوم!

□ الإنسان الجديد وثقافة السوق

حين يتحول المواطن إلى مستهلك

لا يكتفي راس المال بالتحكم بالاقتصاد واستغلال العمل بل يسعى للهيمنة على كافة أبعاد الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. فليس هناك، إذن اقتصاد السوق دون مجتمع السوق ودون ثقافة السوق. وبهذا يضمن راس المال تراكم الربح في حدوده القصوى أي بلا حدود. ولهذا أيضاً فإن التراكم يصبح الغاية والهدف ويعني المزيد من التراكم من أجل التراكم ذاته. لقد فهم غيفارا هذا القانون الرأسمالي جيداً، وأدرك أن رأس المال يسعى بكافة الوسائل إلى تجهيل الناس وتدمير وعيهم الاجتماعي والسياسي بشكل منهجي ومتواصل، كي يتسنى له تأسيس وترسيخ ثقافة الخنوع وقيمه والتي درج الغرب الرأسمالي على تسميتها" ثقافة الإجماع *consensus* ".

ففي ظل هذه الثقافة والنظم القيمية السائدة يصبح المواطن مجرد مستهلك ويقف متفرجاً سياسياً يراقب الحدث دون أن يفهمه ودون أن يمتلك القدرة على فعل شيء.

هكذا يحل "المستهلك" من المنظور الوظيفي محل "المواطن" بالرغم من تبجح الديمقراطية الغربية عن المواطنة وحقوق المواطن.. إلى آخر هذه المعزوفة. إلاّ أن الأمر لا يتوقف عند المواطن/ الفرد، بل يتجاوزه إلى ثقافة الاستهلاك التي تغزو المجتمع كله وتصبح معايير الديمقراطية والحرية وحقوق المواطن والإنسان، بل معايير التقدم ذاته، تصبح خاضعة لأيديولوجية الاستهلاك. وإذا كانت الرأسمالية الأمريكية "صاحبة الفضل" في خلق الشروط الموضوعية لنشأة هذه الأوضاع، فإن الأمر لا يختلف جذرياً، كما لا يخفى على المراقب، في المجتمعات الأوروبية الغربية بل والشرقية بعد انهيار الأنظمة الاشتراكية، والعديد من مجتمعات العالم الثالث وإن بدرجات متفاوتة.

واستناداً إلى ما توصل إليه ماركس وشرحه بوضوح من أن وسائل الإنتاج إنما هي التي تحدد الاستهلاك وليس العكس، رأى غيڤارا أن الإنسان هو المحور الرئيسي في هذه العملية، بل هو الأساس في المشروع الاشتراكي. وسعى إلى توظيف العلم والتكنولوجيا في خدمة الإنسان والإنسانية جمعاء مؤكدا على أن راس المال إنما يسخر كلاهما لخدمة غايته النهائية: الربح على حساب إفقار الجنس البشري كله.

□ الإنسان الجديد والاغتراب

في ظل الرأسمالية تحولت شعارات "الحرية والمساواة والإخاء" التي أطلقتها الثورة الفرنسية (البرجوازية ولكن التقدمية في سياق حقبتها) منذ أكثر من قرنين، إلى نقيضها. ففي حين يتبجح رأس المال بهذه القيم نرى الاغتراب يحل محل الحرية، وهيمنة الطبقة الرأسمالية مكان المساواة، أما الأخوة فقد ضاعت كليةً لتحل محلها آفات الفردانية والاستهلاكية والأنانية.

في المقابل، كان غيڤارا يرى أن الخلاص من أزمة الاغتراب يكمن في الاشتراكية تعمل على إلغاء هذا النمط من العلاقات الاجتماعية من جذوره كي يشعر المرء بتحقيق الذات عبر منفعة الكل الجمعي بدل أن يضيع ضحية الاغتراب القائل. كما تلغي الاشتراكية هيمنة الطبقة الرأسمالية لتقيم مكانها المساواة والعدالة الاجتماعية، وتعزز التضامن بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين شعوب الأرض بدل الاستهلاكية والاستغلال.

□ علاقة الفرد بالجماهير

يقول غيڤارا "إن الأمر الذي يصعب فهمه على أولئك الذين لم يعيشوا تجربة الثورة، هو تلك الوحدة الديالكتيكية الوثيقة بين الفرد والجماهير، حيث يؤثر أحدهما بالآخر، وحيث تتفاعل الجماهير في الوقت ذاته كتجمع للأفراد مع قادتهم" لقد حلل غيڤارا بدقة علاقة الفرد بالجماهير والدور الحاسم للوعي حيث رأى أنه يستحيل بناء المجتمع الجديد دون إدراك الحقوق والواجبات. وهذا

ما يشكل آلية التحول الاشتراكي ويتخذ الشكل الأساسي للتعبير عنه من خلال الوعي. وعلى خلاف التشوهات التي أنتجتها الاشتراكية المحققة في القرن العشرين واعتمدت بالأساس على الفصل بين القاعدة المادية للمجتمع والبنية الفوقية. وقد جاءت وقائع العقود الأخيرة لتشير بوضوح إلى أن غيفارا كان محقا عندما دقت الأزمة الأخلاقية والسياسية بنيان النظام الاشتراكي وأدت إلى انهيار في الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الأخرى في أوروبا الشرقية.

□ الإنسان الجديد وتكوين المجتمع الجديد

"كما قلتُ... فإنه من السهل، في اللحظات العصيبة، أن نجد حلاً فعالاً عن طريق الحوافز المادية.... إلا أن الحفاظ على فعاليتها يتطلب تطوير وعي يقوم على نظم من القيم الجديدة. وهكذا فإنه يتوجب على المجتمع بأسره أن يتحول إلى مدرسة كبيرة."

تشي غيفارا

يمر تكوين المجتمع الجديد عبر عملية مزاحمة شديدة مع الماضي. ويتجلى هذا الماضي من خلال وعي الفرد حيث ترقد رواسب التثقيف بكل ثقلها، ذلك التثقيف الذي يتجه دوما وبشكل منتظم نحو عزل الفرد. كما تتسم هذه العملية بحدة التناقضات والصراعات بسبب ديمومة واستمرار العلاقات السلبية خلال عملية التحول الاشتراكي. وطالما ظلت السلعة (والعلاقات الناتجة

عنها) بحكم كونها الوحدة الاقتصادية الأساسية في المجتمع الرأسمالي، فسوف تظل آثارها موجودة وملموسة في تنظيم الإنتاج وعلاقاته، وبالتالي في نشوء الوعي.

حاجج غيفارا، ودأب على التأكيد، أن التحرر الكامل للإنسان يتحقق عندما يصبح العمل واجباً اجتماعياً يقوم به الفرد برضى تام وحين تقوم ديمومته على نظام قيم يساهم في تحقيق الفعل الواعي في أداء المهام والواجبات.

أما الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك فهي التثقيف المنظم والذي يمكن اكتسابه من خلال مراحل مختلفة يتنامى فيها دور العمل الجماعي. ولم ينكر غيفارا أن هذه العملية مضنية وتتطلب الكثير من الجهد والوقت، إلا أنه بدافع من حرصه على الإسراع (التعجيل بها)، طوّر طرائق ووسائل مختلفة في تجنيد الجماهير جامعاً في ذلك بين المصالح الفردية والجمعية. ولعل الحواجز المادية والمعنوية من هذه الآليات شريطة أن تواكب عملية تكوين الوعي وتعميقه كوسيلة للتقدم نحو الاشتراكية.

□ نحو "إنسانية كاملة"

لم يكن هناك مندوحة أمام غيفارا في سعيه نحو" الإنسانية الكاملة "من معالجة العقبات التي تقف في طريق وصولنا إليها .ومن هنا، رأى أن العقبة الرئيسية التي تعيق وصولنا إلى الإنسانية الكاملة هي تحديداً "سلعنة" أو تسليع" العمل في ظل نمط الإنتاج الرأسمالي والذي كان، بدوره، إحدى وظائف قانون القيمة .فلابد،

إذن، من تغيير العلاقات الاجتماعية في مرحلة التحول من الاشتراكية إلى الشيوعية، أي لابد للعمل أن يتوقف عن كونه "سلعة ."أما الإنسان فيجب أن يشكل موقفاً اجتماعياً وجمعياً حيال عملية الإنتاج، ثقافة جديدة قوامها وشرطها أن يتوقف الإنسان عن كونه سلعة وإقامة نظام يوفر للإنسان القدرة على تأدية عمله كإيفاء لواجبه الاجتماعي - مثل استخدام التكنولوجيا لخلق ظروف أفضل تتيح للإنسان المزيد من الحرية، استخدام العمل الطوعي.. الخ - وصولاً إلى تحقيق ما دعا إليه ماركس حين قال بأن الإنسان يصل إلى الحالة الأكثر إنسانية حيت يقوم بالإنتاج دون أن يكون مكرهاً على أن يبيع نفسه كسلعة من أجل الإيفاء بحاجاته المادية والفيزيائية.

□ الفرد وصناعة التاريخ

تفضي بنا هذه الإشكالية إلى ما طرحه ماركس وإنجلز حول دور الفرد في صناعة التاريخ. فالتاريخ البشري ليس سوى التحول المستمر للطبيعة البشرية. والحقيقة أن الماركسية لا تنكر أهمية العامل الذاتي في التاريخ والدور الواعي للبشرية في تطور المجتمع. فالناس يصنعون التاريخ، ولكنهم لا يفعلون ذلك باتفاق كامل مع إرادتهم الحرة ونواياهم الواعية. وبعبارة ماركس وإنجلز فإن "التاريخ لا يفعل شيئاً. أنه "لا يملك ثروة"، إنه "لا يشن معارك". أنه الإنسان، الإنسان الحي الحقيقي الذي يفعل كل ذلك، الذي يملك ويحارب؛ التاريخ ليس شخصاً منفصلاً يستخدم الإنسان كوسيلة

لأهدافه الخاصة؛ التاريخ ليس سوى فعالية الإنسان الذي يلاحق أهدافه."[84]

□ الإنسان الجديد: عملية طويلة المدى

أشار غيفارا إلى أنه "يمكننا أن نشهد، في مرحلة البناء الاشتراكي، ولادة الشخص الجديد. أما صورة هذا الشخص فلا تكون مكتملة، وليس بمقدورها أن تكتمل، لأن هذه العملية تسير على نحوٍ موازٍ لتطوير الأشكال الاقتصادية الجديدة." وقد نشهد أحياناً اختراقاً بين القيادة والجماهير إذا تم الإسراع في تنفيذ هذه العملية. لذلك، فإذا ما أردنا أن نسير على الدرب الصحيح الذي يتيح نمواً خلاّقاً ومتجانساً فإنه من الضروري خلق الآليات والمؤسسات الثورية التي تسمح بتطابق أو تلاقي الحكومة والمجتمع برمته مع التكيف وفق الظروف النوعية والخاصة لبناء الاشتراكية والابتعاد، بقدر الإمكان، عن الديمقراطية البرجوازية. وهذه عملية طويلة المدى، لذا نرى غيفارا يضيف: "أن الدرب طويل ومجهول إلى حدٍ ما. نحن ندرك محدودياتنا. إننا نصنع إنسان القرن الحادي والعشرين - إنه نحن أنفسنا. إننا نصوغ أنفسنا في حياتنا اليومية، لنخلق إنساناً جديداً بتقنيات جديدة. إن الشخصية تلعب دوراً في التجنيد والقيادة بقدر ما تجسد أرقى الفضائل وطموحات الناس وبقدر ما تحول دون أن نضل الطريق".

[84] كارل ماركس وفريدريك إنجلز، "العائلة المقدسة"، الفصل السادس، دار دمشق (سنة النشر غير مذكورة)، ص 118.

نقد مفهوم الإنسان الجديد عند غيفارا

المبالغة في دور الفرد والعمل الطوعي

ذهب بعض الناقدين لغيفارا إلى أنه كان ينحو إلى مفاهيم مثالية حول الفرد والذات وأنه شطّ وغالى في دور الفرد وفعله في الثورة والتغيير الاجتماعي والتاريخي، ونسب إلى الفرد أفكاراً ومعتقداتٍ كفيلة بان تولد واقعاً مادياً، أو بعبارة أكثر أخرى يصبح الفرد (ومعتقداته) قادراً على تحديد الواقع لا العكس حيث يحدد الواقع طبيعة الفرد. غير أن غيفارا لم يرَ في هذا تنكراً لمقولة ماركس الكلاسيكية في أن الأفكار تصبح قوة مادية تلعب دوراً رئيسياً في التغيير الثوري، إلا أن هذا الدور يتوقف على مدى قدرة هذه الأفكار على أن تسكن وعي الجماهير أولاً، كما يتوقف ثانياً على قدرتها في أن تعكس واقعاً موضوعياً وإلى أي حدٍ تكشف وتفسر القوانين التي تحكم حركة وتطور هذا الواقع.

رأى بعض الماويين، على سبيل المثال، أن غيفارا بالغ في أهمية العامل الذاتي ودور الفرد، وأنه عمل على"الإنكار التام لأهمية الظرف الموضوعي في كافة مراحل الكفاح المسلح، وتفضل، بدلاً عن ذلك، أن تتصرف وكأن الظرف الموضوعي قد اكتمل ولم يتبقى على الثوار إلاّ أن يتحلوا بالشجاعة والتكتيك الحسن".[85]

[85] Wolf, Lenny, Guevara, Debray, and Armed Revisionism, p. 92.

بالإضافة، اتهم الكثيرون غيفارا بالمثالية والطوباوية الثورية لأنه غالى في قيمة العمل الطوعي واستعداد الفرد للتضحية وبذل الذات من أجل المجتمع والوطن والثورة. ولا شك أن غيفارا تميز بنزعات وميول طوباوية، إلاّ أنه كان، بالدرجة الأولى، رجل ممارسة وفعل واستطاع تحقيق الكثير من الإنجازات في فترة قصيرة في كوبا (1959 . 1965). أما البعض الآخر من الناقدين، فقد رأى أن التطوعية التي دعا إليها غيفارا تؤدي إلى إنكار الظروف الموضوعية والتقليل من أهميتها.

رأى بعض معارضي غيفارا أن النمط السوفييتي (القائم على الإدارة الاقتصادية حسب نظام "التمويل الذاتي") يؤدي إلى خلق الأوضاع المادية التي تقود بدورها "أوتوماتيكيا" إلى خلق الأوضاع الاجتماعية. إلاّ أن غيفارا لم يبخل بالرد عليهم مخالفهم الرأي ومشدداً على مقولته بأنه يتوجب على الاشتراكية أن تطوّر نظام إدارة اقتصادية يحقق التناغم بين الهدفين، المادي والاجتماعي، ويأخذ بالحسبان رعاية الإنتاج وتنمية الوعي على نحو متزامن: "كي نبني الشيوعية، لابد من خلق الإنسان الجديد بالتزامن مع خلق القاعدة (المادية – م. ع.)". كان من الطبيعي إذن أن يمتد الجدل بين غيفارا (ومطالبته بمحو قانون القيمة) من جهة، ومعارضيه (القابلين بهذا القانون والمدافعين عنه) من جهة أخرى، إلى الخلاف بين الفريقين حول مسألة الحوافز (المادية والمعنوية ودور كل منها في عملية الإنتاج). وتجدر الملاحظة أن غيفارا كاد يقف وحيدا في تلك المرحلة، حيث لم تؤيده سوى القلة، ناهيك عن

أن تلك القلة كانت تفتقر إلى الكفاءة الفكرية والمعرفية التي تؤهلها للمساهمة في هذا الجدل.

الفصل العشرون

البحث عن البديل الاشتراكي:

الاشتراكية مشروع تاريخي لمجتمع جديد

يكاد لا يخلو أي من فصول هذا الكتاب من طرح أو عرض لرأيه غيڤارا في البديل الاشتراكي ومستقبل الاشتراكية كمشروع لخلاص البشرية. وفي مشروعه هذا، انطلق غيڤارا من رفضه الجذري للرأسمالية وإيمانه بحتمية تصفيتها كنظام بربري متوحش قائم على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان،

ولم يرَ في هذا النظام سوى كوارث الفقر والجوع والمرض ومسلسل لا ينتهي من الحروب. وفي هذا السياق، فإنه ليس من المغالاة أن نقول إن غيڤارا لعب دوراً عملياً وتأسيسياً وملهماً في المشروع الاشتراكي التي تبنته كوبا منذ عام 1962، وساهم بدون كلل في الإنجازات التي حققها الشعب الكوبي خلال السنوات المبكرة التي تلت انتصار الثورة (1959)، وهو ما مهّد لمسيرة كوبا وتطورها منذ ذلك الحين على كافة المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

مساهمات غيڤارا

شرع غيڤارا في معالجة البناء الاشتراكي وإشكاليات التخطيط الاقتصادي في مطلع عام 1961 كوزير للصناعة في الحكومة الكوبية[86]، إلاّ أنه لم يكمل المشوار بسبب مغادرته الجزيرة عام 1965 منطلقاً في ثورته الأممية، ولم يتسن له أن يبلور مفاهيم متكاملة رغم أنه انكب على دراسة النظريات الاقتصادية الماركسية طيلة تلك الحقبة .ولكن على الرغم من ذلك، فإن مساهمة غيڤارا في البناء الاشتراكي تكتسب أهمية خاصة للاعتبارات التالية[87]:

1) محاولة غيڤارا طرح بديل أصيل للاشتراكية والبناء الاشتراكي ينبع من إنسانية عميقة تقوم على علاقات إنسانية جديدة.

2) إعادة الروح للاشتراكية والشيوعية والجمع بين التنمية الاقتصادية وبناء البنية المادية للإنتاج وتوفير الحاجات والخدمات الاجتماعية للمواطنين من جهة، وضرورة تزامن هذه العملية مع خلق وتطوير وعي جديد للإنسان الذي يعمل على بناء المجتمع

---

[86] عُين تشي غيڤارا وزيراً للصناعة في 21 فبراير 1961 وبقي في هذا المنصب إلى يوم استقالته في أوائل عام 1965 (يرجح أنه كتب رسالة الوداع لفيدل كاسترو في الأول من أبريل 1965)، أي أنه كان فعلياً مهندس الاقتصاد الكوبي طيلة هذه الفترة.

[87] Tablada, Carlos, Che Guevara :Economics and Politics in the Transition to Socialism, See chapter "The Marxist conception of politics as concentrated economics and its importance in economic management under socialism".

الجديد ضمن رؤية شيوعية جديدة وأخلاقية شيوعية أصيلة، من جهة أخرى.

3) تكريس المشاركة الجماهيرية كضمانة للسيادة الوطنية حيث أخذ غيفارا منذ عام 1960 (أي بعد عام من انتصار الثورة الكوبية) بمعالجة إشكالية السيادة الوطنية والاستقلال الاقتصادي منطلقاً من أن الخطوة الأولى في تحقيق هذه السيادة تكمن في الاستقلال السياسي، يلي ذلك العمل تدريجياً نحو التنمية والاستقلال الاقتصادي وبناء الاشتراكية. بعد إحراز السلطة السياسية، تتمحور كافة الجهود، وفق رأي غيفارا، حول صيانة السيادة الوطنية التي ترتكز أساساً على الاستقلال الاقتصادي والتخلص من التبعية، وتصبح الانتصارات والإنجازات الاقتصادية عنصراً مهماً في الوصول إلى الهدف الإستراتيجي الأساسي: السيادة الوطنية. وقد ذهب غيفارا إلى أبعد من ذلك فأكّد على أن السيادة الوطنية، كي تتسنى لها الديمومة، تتطلب تحولاً بنيوياً يقوم على سلطة الشعب وعلى المشاركة الكاملة للجماهير في صنع القرار وتوجيه عملية التغيير.

4) التقاط غيفارا لمأزق النمط السوفييتي في البناء الاشتراكي مبكراً ونقده علناً ودون تقديس للكهنوت السوفييتي. وسوف نعود إلى مناقشة هذه المسألة لاحقاً في سياق نقد غيفارا للاتحاد السوفييتي.

5) الانسجام عند غيفارا بين النظرية والممارسة.

معالم الدرب الجديد

قدّم غيڤارا، في إطار الجدل الذي اشتد في كوبا، العديد من الأفكار في مجال البحث عن درب جديد في البناء الاشتراكي يقوم، بالإضافة لنظام التخطيط المركزي، على الأسس التالية:

1) معاني الاشتراكية عند غيڤارا

كان غيڤارا يرى أن البديل الاشتراكي يقوم على مبدأين أساسيين:

1) أن الشيوعية في الجوهر "ظاهرة وعي" لا يمكن أن تُقاس بالمعايير الاقتصادية الكمية.

2) إن التقدم التكنولوجي هو الأساس في توسع إنتاج السلع المادية للمستهلك.

من هذا يتبين لنا، أن فكر غيڤارا السياسي ومفاهيمه في البناء الاشتراكي كانا متقدمين على عملية التنمية الصناعية بمعناها الاقتصادي البحت، ومتجهاً بحسمٍ ووضوح نحو بناء مجتمع جديد على كافة الأصعدة المادية والروحية، الاجتماعية والإنسانية. فهو يقول، في هذا الصدد: "لن يكون للاشتراكية معنى، وبالتالي لن يتم إنجازها إلاّ إذا طرحت حضارة وأخلاق اجتماعية ونمطاً لمجتمع يقف كليةً على النقيض من قيم الفردانية التافهة والأنانية والمزاحمة وحرب الكل ضد الكل التي تتسم بها الحضارة

الرأسمالية، أي ضد هذا العالم حيث "يأكل الإنسان أخاه الإنسان".[88]

خلاصة القول، أن الاشتراكية في مفاهيم غيفارا تمثّل مشروعاً تاريخياً للمجتمع الجديد الذي يقوم على قيم المساواة والتضامن والعمل الجمعي وإيثار الغير والجدل الحر ومشاركة الجماهير. وقد استوحى غيفارا هذه القيم والمفاهيم في نقده للاشتراكية القائمة فعلاً في الاتحاد السوفييتي، حيث تصدى للعديد من القضايا التي تتعلق بالبناء الاشتراكي بجرأة نادرة الأمر الذي أثار الكثير من السخط والعداء له. إلا أن التطورات التي صاحبت وتلت انهيار هذا النمط تشير إلى صحة ومصداقية الكثير مما ذهب إليه غيفارا في نقده آنذاك. وما زلنا بحاجة إلى الكثير من الدراسة والتدقيق في هذه المسائل ذات الارتباط الوثيق بما يجري من حولنا اليوم وتأثيراتها الكبيرة على مستقبل الاشتراكية والإنسانية.

2) وسائل الإدارة الاقتصادية

لم يكن غيفارا عالماً اقتصادياً، إلا أنه انكب على دراسة الماركسية والاستنارة بمبادئها في عمله وممارسته. التقط غيفارا ربما مبكراً وقبل غيره أن ما كان السوفييت يقومون به كان يأخذهم

[88] Löwy, Michael" ‹Neither imitation nor copy ‹"Che Guevara: In Search of a New Socialism, .*International Viewpoint*, February, 2003, From the annual lecture presented to the Fondazione Ernesto Che Guevara, Italy, June 15-17, 2001. http://www.internationalviewpoint.org/spip.php?article270

بعيداً عن مفاهيم ماركس وإنجلز في بناء الاشتراكية. وقد تمكن من الوصول إلى جذور هذه المسألة بفضل دراسته وتحليله للتجربة السوفيتية.

كان كتاب "رأس المال" لكارل ماركس الركيزة النظرية الرئيسية لمشروع غيفارا وأفكاره التي طرحها في تلك الفترة من خلال عمله كوزير للصناعة والتي شملت محاور عديدة أهمها: مفعول قانون القيمة في ظل الاشتراكية، دور النقد (العملة)، التمويل، النظام المصرفي في الاشتراكية واستخدام الحوافز المادية والمعنوية. وقد تضمنت أطروحاته ما استخلصه من تجربته في كوبا ونواقص النظرية السوفيتية داعياً إلى المزيد من الدراسة والتحليل للعديد من جوانب الاقتصاد السياسي والتنمية الاشتراكية. إلا أن غيفارا كان يدرك بأن الوقت لن يأذن له بإكمال هذا المشروع فأراد أن يضع البنية الأساسية له على أمل أن يتابع صديقة بوريغو *Borrego* هذه المهمة، ومن هنا طلب من هذا الأخير أن يبقى هذا الأخير في كوبا وألا يصحبه في حملته إلى بوليفيا.

رفض غيفارا النمط الأوروبي الشرقي في بناء الاشتراكية ومجمل مؤثراته على الإنسان والمجتمع، إذ "لا يمكن للاشتراكية أن تتحقق" كما قال "دون تغيير في الوعي لموقف أخوي حيال الإنسانية، ليس فقط داخل المجتمعات التي تسعى إلى بناء

الاشتراكية أو تلك التي حققتها، بل على المستوى العالمي حيال كافة الشعوب التي تعاني من الاضطهاد الإمبريالي".[89]

وخلافاً لمفاهيم "المدرسة الاقتصادية" في البناء الاشتراكي التي ترى في الاقتصاد والسياسات الاقتصادية فضاءً محكوماً بقانون القيمة والسوق ومعزولاً عن الإنسان والمجتمع، رأى غيفارا أن القرارات والسياسات الاقتصادية التي تحدد أولويات الإنتاج ووسائله يجب أن تحتكم بالمقام الأول إلى المعايير الاجتماعية والأخلاقية والسياسية. وعليه، توخى غيفارا نمطاً في البناء الاشتراكي يقوم على أسس مغايرة تماماً للنمط السوفييتي.

3) حرية الجدل والمشاركة الجماهيرية: كان غيفارا يرى أن الاختلاف في وجهات النظر وحق الجمهور العام في التعبير عن هذه الخلافات أمر طبيعي في عملية البناء الاشتراكي في سبيل شرعنة الإجماع الديمقراطي في الثورة. وكان يعتقد بأنه ليس بالإمكان تدمير الآراء المخالفة لآرائنا بالقوة لأن هذا سيحول دون التطور الحر، وعليه يتوجب علينا إمّا أن نتغلب على هذه الآراء بالمحاجة أو أن نسمح لها بالتعبير عن ذاتها. وبدون ديمقراطية حقيقية وحرية المناقشة للحاجات والأولويات وحق الجماهير في الاختيار، فإن التخطيط الاقتصادي سوف يتحول إلى نظام بيروقراطي وغير فعّال كما كان عليه الحال في الاتحاد السوفييتي.

---

[89] Che Guevara’s Speech at the Afro-Asian Conference in Algeria (February 24, 1965) in Che Guevara Reader: Writings on Politics and Revolution, p. 341.

4) الديمقراطية الاشتراكية: رفض غيڤارا مفاهيم الحكم الاستبدادية التي تسببت بأضرارٍ فادحة بالتجارب الاشتراكية في عصره، كما رفض، بشكل مطلق، الديمقراطية البرجوازية والبيروقراطية. إلاّ أنه لم يتسن له، ربما بسبب رحيله المبكر، أن يصيغ رؤية متكاملة للديمقراطية الاشتراكية أو أن يُغني مساهماته في هذا المضمار.

5) في العلاقة بين القومية والاشتراكية

لا يتسنى فهم غيڤارا في عمق أطروحاته في الثورة والتغيير الثوري وبناء الاشتراكية دون إدراك المؤثرات التي خلقها نضال شعوب أميركا اللاتينية وتقاليدها في سبيل التحرر الوطني والعدالة الاجتماعية والاقتصادية على فكره ومفاهيمه. ومن هنا يجب أن نفهم تحليله الذي ارتكز على مبادئ ماركس وأفكاره ولكن في سياق تاريخ القارة اللاتينية وخصوصيات نضالها والظروف الاجتماعية والاقتصادية الموضوعية لشعوبها، وفي سياق انخراط غيڤارا في الثورة الكوبية ولاحقاً في تجربتها الاشتراكية كتجسيد لإيمانه بوحدة شعوب تلك القارة ومصالحها الحيوية ومصيرها المشترك.

***

في بلدان العالم الثالث، رأى غيڤارا أن مشروع التغيير الاجتماعي المستديم يبدأ بثورات التحرير الوطني ومن ثم تحولها إلى الاشتراكية. فأي درب نسلك وما هي وسائل النضال من أجل التغيير والثورة وتحرير الإنسان، وكيف نضمن النصر على الطغاة والمستغِلين؟

هذا هو لب المسألة التي واجها غيفارا وجيله (وما زالت تواجه الأجيال من بعده)، فكانوا روّاداً للثورة وللحلم بعالم أفضل، بل كانوا أبطالاً وقادة ومفكرين تتطلع اليهم الشعوب والجماهير بأمل وثقة وتفاؤل.

أليس هذا ما نفتقره اليوم أكثر من أي وقتٍ مضى.

الفصل الحادي والعشرون

الشيوعية والأخلاقية

غيفارا بين الأخلاقية المثالية... والثورية

"الإنسان هو الفاعل الواعي للتاريخ. وبدون هذا الوعي، الذي يشتمل على كون الفرد كائناً اجتماعياً، لا يمكن أن يكون هناك أية شيوعية".

تشي غيفارا

منذ بواكير وعيه وتكوينه السياسي، ظلت قناعات غيفارا الفكرية والسياسية متناغمة مع أخلاقه الثورية. تنامت هذه القناعات وتجذرت بعد أن لامس، خلال رحلاته في بلدان أميركا اللاتينية، الفقر والجوع والظلم الذي تعيشه الطبقات الشعبية.

كان ذلك قبل أن يغادر بلده الأرجنتين وينضم إلى الثوّار الكوبيين. وهكذا كانت هذه القناعات الدافع والسبب الجذري في مغادرة غيفارا لبلده ولكوبا لاحقاً واعتزاله واستقالته من مناصبه الحكومية والحزبية فيها، والرحيل عن عائلته، طلباً للثورة الأممية. هذه الأخلاقية الثورية التي ترعرعت في وعيه الفردي والاجتماعي،

لم تكن لغزاً بل كانت أمراً جلياً لا لبس فيه لكل مَن درس فكره ومسيرته.

هل كان غيفارا مثالياً؟

يقول كثيرون إن غيفارا كان مثالياً وإن الكثير من أطروحاته وممارسته اتسمت بالمثالية، بل يعزون تعثر مسيرته واستشهاده إلى هذه النزعة .وقد يكونوا محقين وفق معاييرهم للمثالية أو للمثالية الأخلاقية إذا جاز التعبير .فالأخلاقية السائدة مثلها مثل النظم القيمية ***value systems*** هي نتاج نمط الإنتاج وعلاقاته وهي القيم التي تعززها الطبقات الحاكمة والمهيمنة مما يجيز لنا أن نسميها "أخلاقية الطبقات الحاكمة"، وهذه في حقيقتها" انعدام للأخلاقية " لأنها تقف دوماً وراء تزييف الحقيقة وطمس الواقع وتعمل على تغييب الحريات وانعدام المساواة والعدالة الاجتماعية وتعميق الاستغلال والظلم.

فما هي تلك الأخلاقية التي يدعو إليها تشي غيفارا؟ وما هو الجديد فيها أو لنقل ما هو المختلف؟ وهل كانت أخلاقية فلسفية بحتة ومثالية مجردة؟

للإجابة على هذا السؤال، لا بد من العودة إلى القضية الأساسية في فكر غيفارا وهي:

الثورة على الواقع القائم لأنه واقع ظالم للجماهير والطبقات الشعبية، وذلك بهدف تقويضه وخلق واقع جديد. هذه الثورة، في نظر غيفارا، تستلزم المقاومة بكافة أشكالها ولكنها أيضاً تدعو إلى أخلاقية جديدة ووعي جديد أي إنسانٍ جديد. من هنا كانت الأخلاقية الجديدة، أخلاقية ثورية أولاً، ونابعة من ضرورة اجتماعية تعبر عن مصالح وآمال الجماهير، ثانياً، ومن إرادة لخلق واقع جديد يناقض الواقع القائم ويعمل على تغييره وتقويضه من أجل خلق واقع جديد. بعبارة أخرى، فإن المثالية الأخلاقية تشمل نسقاً من الطموحات والآمال التي تحرض على الواقع القائم، وبهذه الوسيلة تحث القوى الاجتماعية والسياسية، التي تشكل الرافعة لمشروع التغيير، على النضال من أجل تغيير الأوضاع القائمة.

من هنا، فإن الأخلاقية الثورية ليست طوباوية كما يوحي البعض ولا هي بعيدة عن الواقع أو نفياً له كما يروج منظرو البرجوازية، بل هي وسيلة لتوحيد قوى الطبقات المستغَلة على أرضية مشتركة وموحدة من أجل دفعها إلى الأمام. وفي هذا كله، فهي نتاج للظروف المادية والروحية للإنسان والمجتمع بما فيها الاجتماعية - الاقتصادية والتطور التكنولوجي والثقافي والحضاري.

الأخلاقية كسلاح للثورة

لقد أسس ماركس لفكرة قوامها أن السياسة ينبغي أن تكون في مركز نشاط وحراك الطبقة البروليتارية. أما لينين

والبلاشفة فقد منحوا هذه الفكرة دفعة هائلة إلى الأمام من خلال الثورة البلشفية في روسيا، وبناء الاتحاد السوڤييتي كقوة معادية للرأسمالية في دولة كبيرة تنامت واتسعت لتصبح حركة عالمية كبيرة واسعة الانتشار. وبعد ما يقارب نصف قرن، تابع غيڤارا رسم خطوط ومعالم لسياسة شيوعية فعّالة تتسم بميزيتين رئيسيتين:

الأولى، أن تكون هذه السياسة أممية حقا؛

والثانية، أنه ينبغي لها أن تستجيب لمطلبين: (أ) أن الإنسان هو الهدف الأسمى لهذه السياسة، و(ب) الحاجة إلى ربط وثيق بين السياسة والأخلاق.

وكانت النقطة المركزية في هذا المفهوم، والتي كررها غيڤارا في العديد من كتاباته، هي الرابط بين الثورة التي على الأفراد أن يقوموا بها وأن يعيشوها كتجربة ذاتية، من ناحية، وبين الثورة في كل بلد ٍوفي العالم أجمع، من ناحية ثانية.

الأخلاق من حيث كونها معايير معنوية تمثل شكلاً من أشكال الوعي الاجتماعي والجمعي، وبهذا المعنى فإنها تمثل أيضاً سلطة معنوية تنظم سلوك الناس في مختلف مجالات وأنشطة الحياة الاجتماعية والإنسانية: العمل، البيت، السياسة، المجتمع. غير أن غيڤارا لم يرَ الأخلاق كمعايير ساكنة، بل ديناميكية في تطور مستمر تتغير وفق البيئة والمجتمع. بعبارة أخرى، تعامل غيڤارا مع الأخلاق كظاهرة تاريخية تعكس التغيرات الثورية في المجتمع

والظروف الجديدة التي تأتي مع تغيير الواقع القديم وإقامة المجتمع الجديد. ومن هنا يمكننا أيضاً أن نرى أن المثالية الأخلاقية عند غيفارا لم تكن غاية بحد ذاتها، بل هي وسيلة وسلاح للنضال الاجتماعي من أجل البقاء، سلاح متميز يتناغم مع حالة خاصة في كل من النضال الطبقي والوطني: الطبقي في الصراع الطبقي والنضال من أجل محو الاستغلال، والوطني في الكفاح من أجل التحرر الوطني وضد الاستعمار الأجنبي والإمبريالية.

الأخلاقية الشيوعية... والاغتراب

في التصريح التالي، والذي أدلى به غيفارا في مقابلة لمجلة الإكسبرس مع الصحفي جان دانيال أثناء زيارته للجزائر في يوليو 1963، تتجلى معاني وجوهر الأخلاقية الثورية والشيوعية التي يدعو إليها غيفارا. يقول غيفارا:

"لست معنياً بالاشتراكية الاقتصادية بدون أخلاقية شيوعية. نحن نناضل ضد الفقر، ولكننا نناضل أيضاً ضد الاغتراب. إن أحد الأهداف الأساسية للماركسية هو القضاء على المصالح الفردية والربح والدوافع النفسية. لقد عبّر ماركس عن قلقه على العوامل الاقتصادية بقدر ما كان قلقاً على انعكاساتها الروحية، وقد أطلق على هذا اسم "حقيقة الوعي". إذا لم تهتم الشيوعية ب"حقيقة الوعي"، فسوف تكون وسيلة للتوزيع، لكنها لن تكون أبداً أخلاقية ثورية".

هنا تكمن أهمية وجسامة المهمة التي أخذها غيفارا على عاتقه في صياغة مفاهيم الإنسان الجديد كما رآه والبحث عن الرافعة الاجتماعية التي تشكّل ركيزته وربما فوق كل شيء، ديمومته. وهكذا يفتح غيفارا على قضايا وفهم متميز ومتطور للاشتراكية وللماركسية الكلاسيكية ويشق عباب أبحار ماركسية من نوع آخر: ماركسية العالم الثالث وشعوبه وفقرائه، وذلك في حقبة هيمنت فيها الماركسية السوفيتية ونمطها في بناء الاشتراكية.

السياسة والأخلاق... تناغم واتساق

كان غيفارا نفسه قدوة للإنسان الجديد ومعبراً عن ذلك في حياته ومسيرته النضالية، لإيثاره للآخرين وفي التزامه بالمبادئ التي دعا من أجلها. وبهذا المعنى كانت حياته ونضاله تعبيراً وتطبيقاً للالتزام الثوري بمصالح الشعوب والفقراء والالتزام الأخلاقي في تحقيق التناغم بين الأخلاق والسياسة والانسجام مع الذات في تحقيق الوحدة بين "العقل" السياسي والأخلاقي.

وهو ما نلحظه فيما كان غيفارا يكرره في كتاباته وخطاباته التي كانت تردد باستمرار وثبات التناغم والاتساق بين الأخلاقيات من جهة والسياسة من جهة أخرى، والتجسيد المادي للوحدة بينهما. وقد شكّل هذا التناغم القوة الدافعة والمحفزة لغيفارا، بل كان مصدر طاقة هائلة للعمل المستمر والنضال المضني، جسدياً وعقلياً، خلال حياته ومسعاه في البحث عن الإنسان الجديد.

لقد تحول اندماج كل هذه السمات وتكاملها في شخصية غيفارا، وعلى رأسها سمة الإنسانية والأخلاقية الشيوعية التي وصمت مسيرته، هذا التناغم الفريد بين كل هذه الصفات تحول إلى إحدى المركبات الأساسية لفكره وممارسته الثورية، والتي مثّلت قطيعةً تامة مع نمط وفكر وأسلوب النضال الذي ساد قطاعات كبيرة من اليسار التقليدي في أميركا اللاتينية وغيرها من أرجاء العالم في تلك الآونة.

هذه هي باختصار الأخلاقية الثورية التي دعا إليها غيفارا وهي التي ما زالت حتى يومنا هذا تمثل إرثه لدى الأجيال الجديدة وخاصة في أميركا اللاتينية والعالم الثالث.

الفصل الثاني والعشرون

أميركا اللاتينية في فكر تشي غيڤارا

"أنا مدين بولائي الوطني لأميركا اللاتينية، ولكل بلدان أميركا اللاتينية. أنا مستعد عندما تدعو الحاجة أن أدفع حياتي ثمناً لتحرير أي بلدٍ من بلدان أميركا اللاتينية دون أن أطلب شيئاً بالمقابل، ودون أن أستغل أحداً. وليس ما أقوله حالة نفسية لشخص يخاطب الجمعية العمومية [للأمم المتحدة] الآن، بل هو مزاج الشعب الكوبي بأسره".

تشي غيڤارا[90]

عندما تعجز أبواق الإمبريالية عن الإقرار بالتأثيرات الأممية لأفكار وقدوة تشي غيڤارا، فإنها تلوذ بأميركا اللاتينية وتدّعي بأن تأثيراته في تلك القارة بقيت طفيفة وضيقة النطاق، وأنها كانت دوماً سلبية ومدمرة لاقتصاديات تلك البلدان. ولعل مبعث هذه الادعاءات يكمن في أن الإمبريالية كانت دوماً قلقة من تأثيرات غيڤارا على مجمل الأوضاع والتطورات في أميركا اللاتينية، ولم تستطع أن تخفي هذا القلق. غير أن ما لا ريب فيه هو أن الإمبريالية كانت قلقة

[90] Alvarez De Toledo, The Story of Che Guevera, p. 303.

أيضاً من أممية فكر غيڤارا وتأثيرات إرثه في ساحات النضال ومحاربة الإمبريالية الأميركية وعملائها المحليين.

لقد قيل الكثير في غيڤارا كمناضل أممي ومفكر ماركسي، ولكن الأساس في فهم غيڤارا يكمن في موقفه من الإنسان والشعوب. وكذلك هو الأمر في موقفه من نضال شعوب أميركا اللاتينية، فالأصل عنده هو في الموقف من الوطن والولاء له وفي الانتماء والهوية القومية، وهو ما شكّل الأساس لإيمانه ودعوته إلى ضرورة وحدة شعوب أميركا اللاتينية من أجل تحقيق الحفاظ على السيادة الوطنية والتخلص من الهيمنة الإمبريالية وتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية.

لقد تعددت الأسباب والدوافع التي ساهمت في تحديد مسيرة غيڤارا واتجاهها، والتي لا يمكن تفسيرها بسبب واحد. فقد كان بلا شك منهمكاً بأوضاع عصره والتيارات الفكرية والسياسية التي سادت آنذاك، غير أن التطورات والأوضاع الاجتماعية والسياسية التي عاينها خلال رحلاته في بلدان القارة اللاتينية تركت فيه آثاراً عميقة وخصوصا بوليفيا (1953) وغواتيمالا (1954) وعمّقت في نفسه شعوره القومي كأميركي لاتيني فكان أن أخذت حياته بعدها اتجاهاً جديداً تماماً وغير متوقع.

ولكننا لا نغالي إذا قلنا إن غيڤارا تميّز، منذ المراحل المبكرة من تكوينه السياسي والفكري، بنزعة أميركية . لاتينية تجسدت بقناعته بوحدة شعوب القارة اللاتينية القائمة على وحدة مصالحها المشتركة إضافة إلى عوامل التاريخ والجغرافيا واللغة

والثقافة المشتركة. كما تجلت بتأثره بأفكار ماركسيي تلك القارة وتجاربها الثورية.

كما تجلت هذه النزعة في شعور قومي مرهف لا شية فيه. فخلال رحلته في بيرو وفي جمع ضم الأصدقاء الذين التقوا بمناسبة عيد ميلاده الرابع والعشرين، وقف غيڤارا قائلاً لأصدقائه: "إن تجزئة أميركا اللاتينية إلى قوميات وهمية وغير مؤكدة، لهي تجزئة اصطناعية تماماً". مؤكداً "أننا نشكل عرقاً مختلطاً واحداً، يمتد من المكسيك إلى مضيق ميغالون... وفي محاولة لتخليص نفسي من ثقل أية طائفية هزيلة، فها أنا اشرب نخب بيرو وأمريكا المتحدة".

لقد نادى غيڤارا بوحدة شعوب القارة اللاتينية ونشر الثورة في بلدانها لأنه كان على قناعة تامة بأن تحقيق مصالح شعوب تلك القارة يتطلب وحدتها لأنها تواجه عدواً مشتركاً: "إن لم يكن هناك أساس للوحدة، فإن العدو المشترك يجب أن يشكل هذا الأساس".

بالإضافة، كان غيڤارا يسعى إلى التقليل من الاعتماد على الاتحاد السوفييتي اقتصادياً وسياسياً، حيث أدرك مبكراً أن كوبا بحاجة إلى شركاء في أميركا اللاتينية يعينوها على الصمود في وجه التحدي الإمبريالي المستمر. وقد تعزز هذا الاعتقاد لدى غيڤارا بعد زياراته للاتحاد السوفييتي وبعد أن أيقن أن السوڤييت ونمطهم في الإنتاج وبناء الاشتراكية لم يتمكنوا من خلق المجتمع الاشتراكي.

من هنا، فان فهم غيفارا لا يستوي دون هذا البعد الأميركي . اللاتيني في فكره ودون الولاء للوطن والالتزام بالهوية القومية اللذين يتكاملان مع أمميته. فثورة غيفارا من أجل شعوب أميركا اللاتينية لا تنفصم، في الجوهر، عن ثورته من أجل شعوب الكونغو ولا عن دفاعه المستميت عن ثورة الشعب الفيتنامي.

صحيح أن أميركا اللاتينية كانت البيئة الطبيعية والموقع الرئيسي لفعل غيفارا وإرثه وتأثيراته الفكرية والثورية، ولا شك أن محاربة الظلم والاستغلال والنضال من أجل العدالة الاجتماعية في تلك القارة كانت القضية المركزية في فكر غيفارا ونضاله، وهو ما يؤكد خصوصية أميركا اللاتينية في فكره واستراتيجيته النضالية، إلاّ أن هذا لا ينفي أن تكون أفكار غيفارا وتأثيراته قد عمّت الكرة الأرضية ووصلت قلوب وعقول كافة الشعوب المظلومة.

كانت هذه هي روح الثورة الأممية ضد الإمبريالية والرأسمالية التي آمن بها غيفارا وثابر على ترديدها وكان بطلها لسنوات لاحقة، وهي ثورة متناغمة مع ومنطلقة من الوفاء للوطن والالتزام بالهوية والانتماء القوميين. أما اختلافه مع بعض القوى الثورية والماركسية فقد تمحور حول وسائل النضال وكيفية تحقيق الأهداف.

كان غيفارا يرى أنه ليس من الممكن فهم تطلعات الجماهير لتوحيد أمريكا اللاتينية خارج سياق محاربة الرأسمالية، لأن الطبقة الرأسمالية الحاكمة في هذه الدول كانت مرتبطة (مصلحياً) بالمصالح الاقتصادية والمادية للإمبريالية التي هي عدوة شعوبهم

وحريتها ومستقبلها. ومن هنا عارضت هذه الإمبريالية محاولات توحيد القارة وتآمرت عليها من أجل أن تبقيها مجزأة فتسهل الهيمنة على كل دولة على حدة. لذا فإن إقامة أي شكل من أشكال الوحدة أو التنسيق والتكامل الاقتصادي والاجتماعي بين بلدان أمريكا اللاتينية هو خطوة نحو توحيد القارة لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق التحرر من الرأسمالية والإمبريالية من جهة، وبناء الاشتراكية من جهة أخرى.

في السياق

الماركسية في أميركا اللاتينية

من المؤكد أن تشي غيڤارا قد تأثر بفكر خوسى كارلوس مارياتيغي كبير ماركسيي القارة اللاتينية، الذي تمرد على الماركسية الأرثوذوكسية في تلك القارة وأسس لمفاهيم ثورية في تلك البلدان يجدر بنا أن نلخصها ولو بسطور قليلة:

□ رأى مارياتيغي أن تطور النمط الرأسمالي في أميركا اللاتينية يختلف عن النمط الأوروبي الكلاسيكي لأسباب عدة أهمها أن الرأسمالية في أميركا اللاتينية لم تمح العلاقات الاجتماعية في الإنتاج والتي كانت سائدة في ما قبل . الرأسمالية، بل، على النقيض من ذلك، سمحت بهيمنة رأس المال الإمبريالي الاحتكاري على اقتصاد البلاد والذي جنى أرباحاً هائلة من جرّاء الإبقاء على هذه العلاقات على ما كانت عليه.

□ لم ير مارياتيغي إمكانية إنجاز التنمية أو قيام رأس مال وطني في أميركا اللاتينية لأن البرجوازية في تلك البلدان كانت عاجزة وغير راغبة في القيام بأي دور تقدمي كما فعلت نظيرتها الأوروبية. (وهنا يكمن تشابه كبير مع الحالة العربية ودور برجوازيتها). وعليه، رأى مارياتيغي أن الثورة الاشتراكية لا تستطيع أن تنتظر اكتمال النمو الرأسمالي في بلدان أميركا اللاتينية.

□ كان مارياتيغي من أوائل الماركسيين الذين تلمسوا خصوصيات القارة اللاتينية في الجوانب التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وعلى هذه الأرضية رفض محاكاة أو استنساخ التجارب الأخرى، بل طالب ببناء اشتراكية تنبثق من الواقع اللاتيني وخصوصياته أسماها "اشتراكية هندية – أميركية" قاصدا اشتراكية الشعوب الأصلانية في القارة اللاتينية التي تتماهى مع واقع هذه الشعوب وخصوصياتها. وفي هذا الصدد يقول مارياتيغي (عام 1928): "لا نريد، بكل تأكيد، أن تكون الاشتراكية في الأميركتين، نسخة أو استنساخا لأحد. فلابد لها أن تكون فعلاً بطولياً. علينا أن نخلق الاشتراكية هندية . أميركية[91] من خلال واقعنا ذاته وبلغتنا إياها".

□ كما كان مارياتيغي من الندرة التي التفتت إلى دور الفلاحين والقدرات الثورية الكامنة فيهم. وعلى خلاف الأفكار السائدة في عصره حول الفلاحين الهنود الأصلانيين في أميركا اللاتينية، فقد رأى أنه من الممكن لهم أن يشكلوا بذرة للتحول

[91] يقصد الهنود الأميركيين أي الشعوب الهندية الأصلانية في أميركا اللاتينية ـ م. ع.

الاجتماعي، لذا نراه يتحدى المفاهيم التي نظرت إلى "مسألة السكان الأصلانيين" على أنها مسألة إثنية أو ثقافية. وفي هذا التوجه ذاته، حاجج مارياتيغي أن جذور المسألة تكمن عميقاً في إشكالية امتلاك الأرض والسيطرة عليها.

□ استخلاصاً لعبر التاريخ وتجارب شعوب القارة اللاتينية، وبفضل مشاهداته لمعاناة هذه الشعوب والتي عايشها خلال رحلاته في بلدان تلك القارة ولم تبرحه منذ ذلك الحين، تلمس غيڤارا رفض هذه الشعوب للاستكانة والخضوع لمخططات الإمبريالي اليانكي في الهيمنة على مقدرات وثروات تلك الشعوب. ومن هنا رأى غيڤارا أن تاريخ القارة اللاتينية ليس سوى تاريخ انتفاضات وثورات مستمرة ضد الهيمنة الأجنبية والشركات الأميركية وأدواتها المحليين من طغمات العسكريتاريا والأنظمة العميلة للسيد الإمبريالي في الولايات المتحدة. وفي هذا كله، كان يرى صمود هذه الشعوب انتصاراً لإرادة الحياة وثقافة المقاومة في رفض محاولات التدجين والاستسلام للهيمنة الإمبريالية والاستغلال الرأسمالي واستدخالها إلى وعيها وثقافتها.

□ وفي تحليله للأوضاع السياسية والاجتماعية في أميركا اللاتينية، رأى غيڤارا أن واحداً من أهم أسباب تعثر التجارب الثورية ومحاولات التغيير في تلك القارة يكمن في فشل الحركات الثورية وقياداتها، بما فيها الأحزاب الشيوعية (وغيرها من التيارات اليسارية والاشتراكية والتروتسكية) والتي ربطت قرارها بالقيادة السوفييتية وتبنت خط موسكو السياسي والاقتصادي المستورد

والغريب عن واقع الشعوب والظروف المحلية في بلدان أميركا اللاتينية.

□ لقد تبلور هذا الحس النقدي للأحزاب الشيوعية اللاتينية وتبعيتها للاتحاد السوفييتي بوضوح عند غيفارا قبل أن ينخرط في الثورة الكوبية .غير أن تجربته في هذه الثورة أكدت منطلقاته واستنتاجاته. ففي هذا السياق، نظر غيفارا إلى تجربة الهجوم على ثكنة المونكادا[92] عام 1953 وفي التجربة والأوضاع التي تلتها، لحظ غيفارا ضعف الحزب الشيوعي الكوبي وقيادته (الحزب الاشتراكي الشعبي) وكيف كان الشيوعيون الكوبيون في حالة من "شبه التقاعد "خلال تلك السنوات. وكان الحزب، كغيره من الأحزاب الشيوعية في أميركا اللاتينية مع بعض الاستثناءات، قد فقد الكثير من مصداقيته ودعمه الجماهيري.

***

في هذا المقام، يحسن بنا التذكير بأن إرث غيفارا ما زال حاضراً ومنتصراً في النضال الثوري عبر أميركا اللاتينية بعد عقود من استشهاده. وقد تجلى هذا في العديد من تأثيرات إرثه وصدى أفكاره في أميركا اللاتينية ودورها في نهوض حركات ثورية عديدة في تلك القارة، عبر العقود التي تلت استشهاده، مما يدلل على أن أفكاره لا تزال حاضرة بقوة في صفوف القوى الاجتماعية والسياسية في أميركا اللاتينية والحركات الساعية إلى المشروع التحرري والاشتراكي.

---

[92] راجع "ثبت المصطلحات".

فعلي سبيل المثال، وكما رأى غيڤارا ومن قبله ماركسيو أميركا اللاتينية، أرادت الثورة البوليفارية في فنزويلا أن تتبنى الاشتراكية، اشتراكية القرن الحادي والعشرين، بوحي من مبادرتها وتجربتها وخصوصياتها.

وفي مخططات التعاون والتكامل القائمة مثل ألبا *ALBA* البديل البوليفاري لأميركا اللاتينية والكاريبي، (الذي يقوم على أساس التعاضد والتكامل ومحاولات توحيد بلدان أميركا الجنوبية والتنسيق بينها، مشروع وحدة أميركا الجنوبية *UNASUR* وصولاً إلى تأسيس "منظومة دول أمريكا اللاتينية والكاريبي" *CELAC* التي تضم كافة بلدان القارة وتستثني الولايات المتحدة الأميركية وكندا من عضويتها، كبديل عن" منظمة الدول الأميركية "رديفة جامعة الدول العربية سيئة الصيت .ومن بين هذه التطورات وصول قوى يسارية إلى السلطة من خلال الانتخابات والصراعات المسلحة في العديد من بلدان تلك القارة، وانتخاب زعماء سياسيين معروفين بميولهم لأفكار تشي غيڤارا ودعمهم لها. نذكر على سبيل المثال الراحل أوغو تشافير (فنزويلا)، سلفادرو أييندى (تشيلى)، إيفو موراليس (بوليفيا) ورفائيل كوريا (الإكوادور). وليس المقصود هنا، أن كل هؤلاء الزعماء ماركسيون أو ثوريون، ولكن يمكننا الجزم بأن المشترك الذي يجمع بينهم هو القناعة الراسخة بالنضال من أجل مصالح شعوبهم وتنميتها والقضاء على الفقر والجوع والتخلف، والتمسك بسيادة بلادهم ورفض محاولات الإخضاع والهيمنة الإمبريالية الأميركية والتي كانت حتى ماضٍ قريب الأمر المعتاد والمألوف بل والمقبول في تلك القارة .كما أنه ليس المقصود أن

الإمبريالية الأميركية وسياساتها الإمبراطورية التي تسلطت على تلك القارة لقرنين من الزمن، قد أصبحت "أكثر تفهماً" لمصالح تلك الشعوب أو أنها تصالحت معها، أو أن نضال هذه الشعوب قد أصبح سهلاً أو أكثر سهولة، بل على العكس من ذلك فإن نضال هذه الشعوب في سبيل التغيير الثوري يزداد صعوبة وتعقيداً، إذ أن عدوها لا يتمثل في الإمبريالية الأميركية وحدها، بل في العملاء المحليين والأوليغاركيات الحاكمة. إلا أنه من المؤكد، أن شعوب القارة اللاتينية، تماماً كما حالة شعوبنا في البلدان العربية، لم تعد تقبل بحكام مثل بينوشي في تشيلي أو حسني مبارك ومحمد مرسي في مصر.

القسم الرابع

تشي غيڤارا ونقد السوڤييت

الفصل الثالث والعشرون

تشي غيڤارا والسوڤييت: في خلفية العلاقة

لعله من العسير، من المنظور التاريخي، تقييم تجربة غيڤارا ورؤيته في بناء الاشتراكية في كوبا وفي العالم، وتجربة كوبا في هذا المضمار أو ما أسموه في حينه "الدرب الكوبي"، دون فهم طبيعة الاتحاد السوڤييتي وتأثيراتها السلبية على علاقاته وتحالفاته مع حركات التحرر الوطنية في أميركا اللاتينية والعالم الثالث بشكل عام.

الآن، وبعد طول انتظار ظهر في السنوات الأخيرة العديد من كتابات غيڤارا التي خطها بين عامي 1962 و1965 والتي تضيء جوانب ومحطات كثيرة في تلك الحقبة من التاريخ. ونستطيع بفضل هذه الكتابات أن نلقي بعض الضوء على تطورات تلك الحقبة من أوائل ستينيات القرن الماضي، لنرى طبيعة العلاقة التي حكمت تشي غيڤارا بالسوڤييت، ولنفهم على ضوء ما كشفته هذه الكتابات أسباب ودوافع التوتر الذي اتسمت به هذه العلاقة وما آلت إليه من عواقب، سواء بعد استشهاد غيڤارا أو "استشهاد" الاشتراكية في الاتحاد السوڤييتي ومجمل المنظومة الاشتراكية.

لذلك، حظيت هذه الكتابات باهتمام المراقبين والمحليين لا لكونها تقدم تفسيراً لتطورات مهمة في تلك الحقبة وحسب، بل لأن

كثيرين اعتبروها من أهم مساهمات غيڤارا والثورة الكوبية في الماركسية، فكراً سياسةً واقتصاداً، وفي معالجة إشكاليات مرحلة التحول الاشتراكي.

بدايات العلاقة

كان اسم إرنستو غيڤارا كمناضل في الثورة الكوبية قد وصل في عام 1957 إلى مسامع ألكسندر اليكسييف الذي كان يعمل آنذاك موظفاً للمخابرات السوفيتية ومتخصصا بشؤون أميركا اللاتينية في السفارة السوفيتية في العاصمة الأرجنتينية بوينس آيرس، وقد تمّ ذلك من خلال لقاءاته مع عناصر ثورية من طلاب جامعة بوينس آيرس.

عقب انتصار الثورة الكوبية وتصفية حكم الديكتاتور باتيستا، أرسلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوڤييتي مبعوثها ألكسندر أليكسييف إلى كوبا في يناير 1959، للتحري واستطلاع إمكانية إقامة علاقات مع النظام الكوبي الجديد. وكان قرار اللجنة المركزية يتضمن تعليمات لمبعوثها بأن يكون غيڤارا "نقطة الاتصال الأولى".

إلا أن أليكسييف لم يكن قد غادر موسكو بعد في مهمته الجديدة في هافانا، حين وصل وفد من الحزب الاشتراكي الشعبي الكوبي (*Partido Socialista Popular – PSP*) في زيارة رسمية للحزب الشيوعي السوڤييتي. وقد أكد الشيوعيون الكوبيون في هذه

الزيارة على دعم حزبهم الكامل للثورة الكوبية الظافرة بزعامة فيدل كاسترو، كما قام وفد نقابي عمالي وصحافي كوبي بزيارة موسكو في يناير 1959 غير أن المعلومات التي كُشف النقاب عنها في الأعوام اللاحقة تشير إلى أن الكرملين كان على اتصال مستمر بقيادة الحزب الاشتراكي الشعبي المنفيين خارج كوبا خلال فترة الثورة الكوبية.[93]

السوفييت والثورة الكوبية

تشير الدلائل إلى أن الاهتمام السوفييتي بالثورة الكوبية كان قد سبق انتصارها وتسلم ثوارها السلطة بعد الإطاحة بنظام الديكتاتور باتيستا في مطلع يناير 1959. وفيما يلي بعض المؤشرات على ذلك:

. الاتصالات بين الشيوعيين الكوبيين من جهة، وفيدل وراؤول كاسترو وتشي غيفارا من جهة أخرى، خلال مرحلة الثورة وتمركز هؤلاء القادة في الأدغال الكوبية.

. سبقت ذلك الاتصالات المبكرة بين قادة الثورة الكوبية الثلاثة من جهة، والمسؤولين السوفييت من جهة أخرى، قبل انطلاقة الثورة الكوبية أي خلال إقامتهم بالمكسيك في مرحلة الإعداد لتلك الثورة.

[93] Anderson ،Che Guevara: A Revolutionary Life, pp. 412- 414.

. كان القادة السوفييت على معرفة بأن راؤول كاسترو وتشي غيفارا كانا ذوي ميول وتوجهات ماركسية.[94]

. الاعتراف السوفييتي العاجل بالحكومة الثورية الجديدة.

. وصول وفد رفيع المستوى من قيادة الحزب الاشتراكي الشعبي إلى موسكو، كما أشرت أعلاه.

بعد انتصار الثورة في كوبا، توطدت العلاقات الكوبية - السوفييتية، ويرجح الكثيرون من المحليين أن غيفارا كان مهندس هذه العلاقات وأن الاتصالات والمفاوضات السرية المبكرة بين كوبا والاتحاد السوفييتي بدأت في مصر وربما بوساطة مصرية عبر السفارة السوفيتية في القاهرة، وأن بداية العلاقة (الرسمية) مع الاتحاد السوفييتي في أكتوبر 1959 كانت بعد عودة الوفد الكوبي من زيارة للاتحاد السوفييتي، وتعيين غيفارا رئيساً لدائرة التصنيع داخل المعهد الوطني للإصلاح الزراعي.

البوادر المبكرة للخلاف بين غيفارا والسوفييت

بالرغم من التوتر الذي اتسمت به علاقة غيفارا بالاتحاد السوفييتي وما شابها من خلافات في محطات متعددة، فإنه يظل من العسير تحديد تاريخ زمني دقيق لبدايات الخلاف بينهما.

---

[94] Ibid. , pp. 414- 415.

كان غيڤارا في البداية كثير التفاؤل في العلاقة مع السوڤييت (1961 - 1962)، إلا أن عاملين أساسيين أثرا على تجربته هذه:

الأول، زياراته للاتحاد السوڤييتي والدول الاشتراكية الأخرى ومشاهداته التي كشفت له إخفاقات النمط السوڤييتي (والمنظومة الاشتراكية في أوروبا الشرقية) في الإنتاج وبناء الاشتراكية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية في تلك المجتمعات.

والثاني، وعي غيڤارا المبكر لمخاطر محاكاة النمط السوڤييتي في بناء الاشتراكي في كوبا. فبعد انتصار الثورة في كوبا، تصدت القيادة الثورية لمهام التنمية الاقتصادية والاجتماعية وكان من أولويات هذه المرحلة الإيفاء بالحاجات الأساسية للشعب الكوبي. وقد انخرط غيڤارا، منذ بداية عملية التحول الاشتراكي في كوبا، عبر مهامه السياسية والحزبية والحكومية منذ انتصار الثورة إلى حين مغادرتها متوجهاً إلى الكونغو في العام 1965، انخرط في التصدي لبناء الاشتراكية وتحدياتها. ولقد عبّر عن هذه التجربة أجلى تعبير في خطابه الشهير في الجزائر عام 1965.

أخذ غيڤارا يتلمس، من خلال ممارسته العملية وعلى نحو مبكر، مخاطر النمط السوڤييتي في الإدارة الاقتصادية واستنساخه في البناء الاشتراكي في كوبا وغيرها من البلدان النامية وبلدان المنظومة الاشتراكية في أوروبا الشرقية، بنفس القدر الذي أدرك فيه مخاطر ذلك النموذج على مستقبل الاشتراكية في الاتحاد السوڤييتي ذاته والعالم بأسره، ورأى أن الاقتصاديين الماركسيين كانوا متجهين نحو هزائم خطيرة. ووفق رأيه تلت دوغمائية الحقبة

الستالينية المتشددة، براغماتية غير متماسكة في كافة نواحي الحياة في تلك الجمهوريات الاشتراكية. ولم يكتف غيڤارا بتشخيصه للحالة السوڤييتية بل أطلق إنذاره المبكر آنذاك بوهن بعض العناصر الأساسية في الاقتصاد السوڤييتي مما أدى في حينه إلى ركوده ثم انهياره التام بعد عدة عقود.

ولكن، هنا تجدر الإشارة إلى ملاحظتين هامتين:

- الأولى، أن غيڤارا كان يقدّر دور الاتحاد السوڤييتي في دعم كوبا في كافة المجالات، وهو ما فعله في العديد من تصريحاته وخاصة خطابه خلال زيارته لموسكو في 7 نوفمبر 1964. كما كان يدرك أن إبرام الاتفاقيات التجارية والاقتصادية مع السوڤييت كان يعني كسر السيطرة الأميركية على الاقتصاد الكوبي التي دامت عقوداً طويلة وحالت دون تنمية ذلك البلد وأبقت على شعبه رهينة للفقر والظلم والاستغلال.

- والثانية، أن نقد غيڤارا للنمط السوڤييتي جاء في سياق محاولته لصياغة نهج جديد في بناء الاشتراكية لم يتوان عن شرحه في مساهماته العديدة خلال ما عُرِفَ ب "الجدل الكبير" الذي شهد الكثير من النقاشات الحادة حول معضلات التنمية وحلولها في كوبا. وقد تمثل هذا الجدل في استقطابٍ حادٍ بين تيارين متناقضين من مسائل البناء الاشتراكي:

1) تيار مؤيدي النموذج السوڤييتي الذين دعوا إلى "اشتراكية السوق" المتبعة في الاقتصاد السوڤييتي؛

2) وتيار غيڤارا الذي تصدى بحزم ووضوح لمحاكاة النموذج السوڤييتي ورأى فيه نمطاً يذهب باتجاه التواشج مع مكوناتٍ رأسمالية . الحوافز المادية، دور المدراء...الخ . وينحدر بالتالي إلى التخلي عن التخطيط المركزي الذي تبناه غيڤارا ودافع عنه مستنداً إلى فهمه للماركسية وأسسها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والى فهمه للواقع القائم وضرورة تغييره.

محطات هامة في الخلاف مع السوڤييت

بالطبع لم يكن لمواقف غيڤارا النقدية والجريئة، أن تمر مرّ الكرام أمام أعين القيادة السوڤييتية التي كانت ترى ذاتها آنذاك لا كقوة عظمى وحسب، بل وكداعمة رئيسية لشعوب العالم الثالث وحركات التحرر الوطنية فيه. ولا شك أن غيڤارا كان يدرك أن الأمور مع السوڤييت لن تمر دون تداعيات أو تعقيدات. ولا نجافي الحقيقة، إن قلنا أنه كان لموقف الاتحاد السوڤييتي الناقم على غيڤارا والمعترض على سياساته وأفكاره أثراً كبيراً وحاسماً على مسيرة الثورة في كوبا وأميركا اللاتينية والعالم بأسره.

■ يفسر العديد من المختصين بسيرة غيڤارا أن في هذا ما يفسر، أو يشكّل أحد الأسباب الرئيسية، لتخلي قيادة الحزب الشيوعي البوليفي الذي كان يأتمر بأمره القيادة السوفيتية، عن

تقديم الدعم لغيڤارا ورفاقه من المقاتلين في الأدغال البوليفية والذي أدى في نهاية المطاف، إضافة إلى أسباب أخرى، إلى عزله غيڤارا ورفاقه واستشهاده.[95]

■ يذكر بعض المحللين واقعة النقاش الذي دام لمدة يومين بين فيدل كاسترو وتشي غيڤارا لدى عودة الأخير إلى هافانا في 15 مارس 1965 بعد جولة دامت ثلاثة أشهر ألقى خلالها خطابه الشهير في الجزائر فبراير 1965 وهو الخطاب الذي انتقد فيه الاتحاد السوڤييتي نقدا شديداً.[96]

■ لم يُخفِ غيڤارا امتعاضه في أعقاب أزمة الصواريخ والموقف السوڤييتي منها، (خلال الأسبوع الواقع بين 22 و28 أكتوبر 1962) عندما قرر الرئيس السوڤييتي نيكيتا خروشتشيف سحب الصواريخ السوفيتية من كوبا منصاعاً لتهديد الرئيس الأميركي جون كندي دون التشاور مع أو حتى إشعار فيدل كاسترو بهذا القرار.

■ خلال سنوات "الجدل الكبير" لم يتورع غيڤارا عن الإفصاح والوقوف بوضوح وحزم ضد المفاهيم الأرثودكسية السوڤييتية المتخشبة وغيرها من مواقف المنظومة الاشتراكية في أوروبا الشرقية.

■ لا شك أيضا في أن هذه الخلافات قد طفت على السطح، خلال الندوات الأسبوعية التي أشرف عليها العلماء السوڤييت

---

[95] Besancenot ،and Lowy, Che Guevara: His Revolutionary Legacy, p. 21.
[96] Ibid., p. 24.

الذين أوفدوا إلى كوبا بغرض "التثقيف الشيوعي"، والنقاشات الساخنة التي كان يثيرها غيڤارا في تلك الأمسيات.

■ كما أن بوادر خلاف غيڤارا مع الاتحاد السوڤييتي وسياساته تجلت حين تألق الأول كأكبر الممثلين والمتكلمين باسم الشعوب الفقيرة في العالم الثالث[97]، معلناً مناهضته للإمبريالية أينما حطت قدماه ضارباً بعرض الحائط سياسات ورغبات الكتلة الشرقية في الكثير من التصريحات والمواقف والخطابات التي أطلقها غيڤارا على مدى علاقته مع السوڤييت، منذ أن رحب به السوڤييت في الساحة الحمراء في موسكو يوم 7 نوفمبر 1960 وحتى أوائل عام 1965. وقد أثار العديد من هذه الخطابات والتصريحات حفيظة القيادة السوڤييتية.

■ يعتقد بعض المحللين أن السوڤييت هم مَنْ كانوا وراء اختفاء غيڤارا عن الساحة العالمية أو عدم قيامه بأية مهمة كوبية رسمية بعد خطابه الشهير في الجزائر (فبراير 1965) في مؤتمر التضامن لشعوب آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية والذي كان الظهور العلني الأخير لغيڤارا على المشهد العالمي.[98]

■ كان من أهم عِبَر تلك المرحلة أن غيڤارا أخذ يرى تدريجياً عقم التجربة السوڤييتية وأوهامها حول الماركسية وبناء الاشتراكية .

---

[97] تقول بعض المصادر أن الزعيم السوڤييتي أليكسي كوسيجين لم يكن يحب غيڤارا، ولكن امتعاضه ازداد حين علم أن غيڤارا حظي بحفاوة من القيادة الصينية في أوائل عام 1965 فاقت حفاوة الصين بزيارة كوسيجين ذاته.

[98] Besancenot ،and Lowy, Che Guevara: His Revolutionary Legacy, p. 113.

وقد عبّر عن هذا في رسالته (1965) إلى صديقه أرماندو هارت *Armando Hart*، أحد قادة الثورة الكوبية ووزير الثقافة الكوبي آنذاك، انتقد فيها الاتحاد السوڤييتي والماركسية" السوڤييتية"، كما انتقد "المحاكاة الأيديولوجية" التي تجلت في كوبا من خلال نشر "الكُتيبات السوفييتية" للتثقيف بالماركسية، والأدق أن نقول تلقينها للجماهير الكوبية. وكانت كوبا في تلك الفترة تبنت إرشادات "الدليل السوڤييتي في الاقتصاد السياسي" في نمط إنتاجها وسياساتها الاقتصادية. غير أن غيڤارا لم يكن وحيداً في موقفه هذا، بل شاطره الرأي العديد من الساسة والمفكرين والقادة الحزبيين الكوبيين . هذه الكُتيبات السوفييتية، قال غيڤارا، "ضارة لأنها لا تترك لك فرصة التفكير: فقد قام الحزب بذلك نيابة عنك، وما عليك بعد ذلك إلاّ أن تهضمه (أي التفكير)". ودعا بالمقابل إلى نشر أمهات الأدبيات الماركسية الأصلية من أعمال ماركس وإنجلز ولينين وستالين وماو تسي تونغ وغيرهم من مفكري وقادة الحركة الشيوعية العالمية.[99]

كل هذا دفع غيڤارا إلى البحث عن نموذجٍ آخر، دربٍ آخر لبناء الاشتراكية وعن نموذجٍ أكثر راديكالية وأكثر مساواةً وتضامناً بين الناس.

---

[99] Che Guevara, *Letter to Armando Hart Dávalos* published in *Contracorrient*, Havana, September 1997, No. 9.

القلق السوفييتي من غيفارا

أخذ السوفييت ينظرون إلى مواقف غيفارا بعين الريبة ورأوا أنه منحاز لماو تسي تونغ وربما يقوم ب"مهمة صينية". وبعد زيارة غيفارا لروسيا والصين، تعاظم القلق الذي اعترى "الدائرة الأيديولوجية" في الكرملين حيال المؤشرات العديدة التي أخذت تتنامى لديها مشيرة إلى أن "ولاء" غيفارا كان لبكين وليس لموسكو، مما حدى بالقادة السوفييت إلى إرسال مبعوث سوفييتي إلى هافانا بغية "جس النبض" الكوبي حيال هذه المسألة. هكذا أصبح غيفارا، بعد أن كان "مهندس" العلاقات السوفييتية . الكوبية، شخصية يحوم حولها القلق والشكوك والتساؤلات. وتفيد الدوائر المقربة من غيفارا، من معاونين وأصدقاء، أن الكرملين كان قد أوكل مهمة التجسس على غيفارا إلى مترجم روسي من خلال عمله ك"مسؤول ثقافي" في السفارة السوفييتية في هافانا. وقد ازدادت مخاوف السوفييت من مواقف غيفارا، فضاعفوا جهودهم في رصد مواقفه وتحركاته منذ أواخر عام 1962 وعلى وجه الخصوص في أعقاب أزمة الصواريخ الكوبية والموقف السوفييتي منها.[100]

نسوق في هذا السياق مثالين هامين:

□ تناقض غيفارا مع موقف فيدل كاسترو في دعم سياسة التعايش السلمي التي انتهجها الاتحاد السوفييتي تجاه الغرب

[100] Anderson, Che Guevara: A Revolutionary Life, p. 580.

الرأسمالي، وجاءت مواقفه (غيڤارا) واضحة أعرب عنها في العديد من تصريحاته على الملأ. يجدر بنا هنا، أن نذكر البيان المشترك الذي صدر بعد زيارة كاسترو إلى موسكو في ربيع 1963 حيث استقبل كاسترو استقبال الأبطال، وأعرب هذا البيان عن (1) قبول كوبا في المنظومة الاشتراكية، (2) الالتزام السوڤييتي بالدفاع عن حرية كوبا واستقلالها، (3) بالمقابل أكد كاسترو مساندة بلاده "للوحدة الاشتراكية" و (4) ودعم كوبا لسياسة التعايش السلمي التي انتهجها الاتحاد السوڤييتي تجاه الغرب الرأسمالي. وقد عبّر أحد المسؤولين السوڤييت عن هذا التوتر حيث قال: "كنا نكره مواقف تشي. لقد أصبح مثالاً للمغامرين الذي قد يتسبب في مواجهة بين الاتحاد السوڤييتي والولايات المتحدة".[101]

□ أزمة الصواريخ الكوبية: كان موقف غيڤارا واضحاً خلال تلك الأزمنة إذ رأى أن يتوجب على السوڤييت أن يطلقوا صواريخهم. ولم يتوان عن قول ذلك للسوڤييت أنفسهم. هكذا كان الشعور الشعبي العام الذي ساد كوبا في تلك الآونة والذي عبّر عنه كاسترو في الدوائر الخاصة، أما غيڤارا فقد صرّح به علناً وكان يعني ما يقول. لقد كان موقف غيڤارا مرآة للشعور الشعبي الكوبي فجاءت كلماته صدى لصوت الشعب. أما السوڤييت فقد رأوا فيها توافقاً مع النقد الصيني لهم بأنهم (أي السوڤييت) قد "استسلموا" لواشنطن. هكذا، رأت العيون السوڤييتية في غيفارا "شخصية خطيرة"، بالرغم من أن الكثيرين من الروس كانوا يكنون له المحبة

[101] Ibid., pp. 580-581.

والمودة لأنه أعاد إلى أذهانهم ذكرى "الثورة الروسية والثوار البلاشفة"، حسب قول أحد المسؤولين السوڤييت.[102]

ماذا قال ميتوتسوف؟

لم يكن لهذا كله أن يثني غيڤارا عن عزمه وإصراره على مبادئه ومواقفه في تلك الحقبة العسيرة. وتكتسب مواقف غيڤارا في هذه الحقبة أهمية خاصة في سياق الأوضاع التي كانت تمرّ بها كوبا كثورة ناشئة والتطورات العالمية التي كانت تتسارع من حولها. ولعل من أهم ما اتسمت به تلك الحقبة تمثل في:

1) إصرار الشيوعيين الكوبيين، القدماء منهم والجدد،[103] على التعجيل في سعيهم لإحكام القبضة على زمام السلطة والحكومة والحزب في البلاد.

2) تلكأ كوبا في اتخاذ موقف من النزاع الصيني - السوڤييتي.

3) تصاعد النشاط الثوري المسلح في أميركا اللاتينية من مجموعات كانت تتلقى الدعم والتمويل والتدريب من كوبا.

4) الانقسامات العديدة داخل صفوف الأحزاب الشيوعية في أميركا اللاتينية والحركة الشيوعية العالمية بشكل عام.

---

[102] Ibid., p. 580.

[103] مما شكل ما يشبه "اللوبي السوڤييتي" في هافانا وهو الأمر الذي دفع فيدل كاسترو عام 1962 إلى عملية تنظيف في صفوف الحزب والدولة الكوبية.

5) في خضم هذه التعقيدات الجمة توجب على النظام الثوري الناشئ في كوبا، تحديد موقف حازم منها.

ومن هنا أيضا تعاظم اهتمام القيادة السوڤييتية بموقف كوبا الأيديولوجي، مما حدى بهم إلى تتبع مواقف غيڤارا بقلق وريبة. وحسب قول ميتوتسوف *Metutsov*، المسؤول عن "دائرة العلاقات مع الدول الاشتراكية غير الأوروبية" في الحزب الشيوعي السوڤييتي، فإن المسألة التي اعتلت سلم أولويات المكتب السياسي للحزب آنذاك تمثلت ب"توضيح المواقف النظرية والأيديولوجية للقادة الكوبيين".[104]

سافر ميتوتسوف إلى هافانا في نهاية عام 1963 ضمن وفد سوڤييتي برئاسة نيكولاي بودغورني، وقد أشار في لقاء معه تم بعد سنوات عديدة من تلك الرحلة مسترجعاً الموقف السوڤييتي آنذاك، أشار إلى أن السوڤييت لم يكونوا معنيين بفيدل كاسترو أو أخيه راؤول، فهما لم يكونا المسألة التي تعني القيادة السوڤييتية، "... كنا نعرف أن فيدل من حيث الجوهر ديمقراطي برجوازي ليبرالي، وأن أخاه راؤول كان أكثر قرباً من الشيوعيين وأنه كان في الحزب. الآن، فيما يتعلق بتشي، لقد بدا لي أنه الأكثر تهيُّئاً في القيادة السياسية [الكوبية] من الناحية النظرية".[105]

104 Anderson, Che Guevara: A Revolutionary Life, pp. 583-4.

105 Ibid., p. 584

التقى ميتوتسوف غيفارا عدة مرات ودارت بينهما محادثات كثيراً ما كانت تستغرق ساعات طويلة، وقد لخص ميتوتسوف تقييمه لغيفارا في العبارة التالية: "لقد كان غيفارا من حيث قناعاته الأيديولوجية والنظرية كماركسي أقرب منّا منه إلى الصينيين... وقد طلب مني [تشي] أن أتذكر ذلك وأن أخبر الرفاق بأنه صديقٌ وفيٌ للاتحاد السوفييتي والحزب اللينيني". ثم أردف قائلا: "من حيث المظهر الخارجي للأمور، يستطيع المرء أن يقول: نعم، لقد كان تشي غيفارا ملوثاً بالماوية بسبب شعاره الماوي بأن البندقية تستطيع أن تخلق السلطة[106] وكان بالإمكان بكل تأكيد اعتباره تروتسكياً بسبب ذهابه إلى أميركا اللاتينية ليحفز الحركة الثورية... غير أنني، وفي كل الأحوال، أعتقد أن هذه كلها علامات خارجية، سطحية، أما في جوهر الأمور فان أكثر ما كان عمقاً في غيفارا هو طموحه لمساعدة الإنسان على أساس الماركسية . اللينينية".[107]

[106] ربما في إشارة إلى شعار السلطة تنبع من فوهة البندقية (م.ع.).
[107] Anderson, Che Guevara: A Revolutionary Life, pp. 583-5.

الفصل الرابع والعشرون

مدخل لنقد غيڤارا للاقتصاد السوفييتي

مخطوطة غيڤارا "ملاحظات نقدية في الاقتصاد السياسي"

غادر غيڤارا كوبا في أبريل 1965 على رأس حملة عسكرية كوبية إلى الكونغو. إلا أن هذه الحملة باءت بالفشل، فترك الكونغو إلى تنزانيا ومنها إلى تشيكوسلوفاكيا حيث قضى عدة شهور بين عامي 1965 و 1966في إقامة سرية.

عكف غيڤارا في غضون تلك الآونة على تقييم تجربته وخبرته في البناء الاشتراكي بعد أن خاض تجربتي "الجدل الكبير" وعمله كوزير للصناعة، مستنداً إلى القناعات الراسخة التي تراكمت لديه وأفضت به إلى تحليل نظري شامل وتصور لنظام إدارة اقتصادية يصلح لكوبا والبلدان النامية في العالم الثالث. أنجز غيڤارا خلال إقامته تلك مخطوطة دوّن فيها ملاحظاته وقدّم فيها تحليلاً شاملاً لرؤيته الاقتصادية في مرحلة التحول الاشتراكي وضمنها أفكاره في الاقتصاد السياسي.

كان غيڤارا قد صاغ العديد من هذه الأفكار والمفاهيم بناءً على خبراته هذه. وتعتبر ملاحظات غيڤارا هذه، في نظر العديد من

المحللين، أهم مساهماته النظرية في بناء الاشتراكية. وقد قدّم في هذه المخطوطة أيضاً نقداً قاسياً للنمط السوفييتي في الإدارة الاقتصادية ول"الدليل السوفييتي في الاقتصاد السياسي"[108]، وأثار العديد من الشكوك والتساؤلات حول الأسس والمفاهيم التي قام عليها التفسير السوفييتي للاشتراكية والبناء الاشتراكي. وهو "الدليل" الذي يشرح ويعبّر عن المفاهيم والمواقف الرسمية السوفييتية منذ الحقبة الستالينية وصولاً إلى خروتشيف. وقد ظلت محتويات مخطوطة غيفارا هذه حكراً على القلة من القادة والساسة والمؤرخين والأكاديميين الكوبيين إلى حين نشرها بالإسبانية في هافانا عام 2006 تحت عنوان "ملاحظات نقدية في الاقتصاد السياسي".[109]

يبدو أن غيفارا، عندما شرع في كتابة هذه المخطوطة، كان يحمل في ذهنة مشروعاً أكثر طموحاً: تأليف كتاب يشرح فيه أطروحاته في الاقتصاد السياسي. وقد تصور أن يبدأ هذا الكتاب بعرض لمسيرة ماركس وإنجلز وشرح فكرهما، (وقد أكمل هذا الجزء)، ثم الانتقال بعد ذلك إلى أنماط الإنتاج في حقبة ما قبل الرأسمالية والرأسمالية الإمبريالية، منتهياً إلى معالجة مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية ومعضلات البناء الاشتراكي.

---

[108] نستخدم في هذه الدراسة مجازاً "الدليل السوفييتي" للإشارة إلى "الدليل السوفييتي في الاقتصاد السياسي" *The Soviet Manual of Political Economy*.

[109] نشرت للمرة الأولى بالإسبانية عام 2006 في كتاب صدر عن مركز غيفارا للدراسات في هافانا ـ كوبا بعنوان: *Apuntos Criticos a la La Economica Politica*

***

حملت أليدا *Aleida* زوجة غيڤارا هذه المخطوطة معها لدى عودتها إلى كوبا من زيارة سرية إلى العاصمة التشيكوسلوفاكية براغ حيث قضت بعض الوقت مع زوجها بعد عودته من الكونغو. وكان غيڤارا قد أوصاها بإيداع المخطوطة لدى صديقه ومساعده الأول في وزارة الصناعة أورلاندو بوريغو[110]. وقد احتوت الحقيبة التي حملتها أليدا، بالإضافة إلى هذه المخطوطة، وثيقتين هامتين تضمنتا ثمرة عمل غيڤارا خلال الأشهر المنصرمة:

1) نسخة من "الدليل السوڤييتي في الاقتصاد السياسي"، وقد ملأها غيڤارا بالهوامش والملاحظات التي دونها بغية مناقشتها ونقدها.

2) دراسة شملت الخطوط العامة لما سُمي " التمويل عن طريق الميزانية" الذي طبّقه غيڤارا في وزارة الصناعة طيلة فترة

---

110 خلال الإعداد لحملته الثورية في بوليفيا، طلب بوريغو *Borrego*، والذي كان آنذاك صديقاً مقرباً ووزيراً للسكر في الحكومة الكوبية قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، طلب من تشي غيڤارا أن ينضم إلى مجموعة المقاتلين الذين سيصحبون غيڤارا إلى أدغال بوليفيا للشروع بالثورة هناك. إلا أن غيڤارا رفض طلبه مفضلاً أن يبقى بوريغو في كوبا. ويبدو من استعراض تلك الفترة من حياة غيڤارا أنه، بالرغم من نزوعه إلى النضال الأممي والذي كان شرطه الرئيسي عندما التحق بالثوار الكوبيين في صيف 1955 لدى لقائه بالزعيم الكوبي فيدل كاسترو وأخيه راؤول واللذان اتخذا من هضاب المكسيك قاعدة للتدريب والإعداد لانطلاقة الثورة، يبدو أن التنمية الاشتراكية في كوبا كانت هاجسه الأساس. إلا أن غيڤارا كان يدرك بان الوقت لن يأذن له بإكمال هذا المشروع فأراد أن يضع البنية الأساسية له على أمل أن يتابع صديقة بوريغو هذه المهمة، ومن هنا طلب منه أن يبقى في كوبا وألا يصحبه إلى بوليفيا.

عمله فيها والذي كان يرى فيه بديلاً عن النموذج السوفييتي في الإدارة الاقتصادية.

ومما يجدر ذكره أن غيفارا لم يكتب هذه الملاحظات كنص أو ككتاب معدٍ للنشر، بل كانت أقرب إلى ملاحظات كان قد دونها في معرض رده على فقرات أو أجزاء معينة من "الدليل السوفييتي". فجاءت على شكل ملاحظات وهوامش تذكيرية كتبها لنفسه حول الجوانب التي يريد أن يستفيض في دراستها ومناقشتها. وعليه فليس من الأمانة العلمية تقديم هذه التعليقات والملاحظات على أنها نقد شامل بقدر ما هي في الحقيقة مسودة أولية لمشروع بحث أكبر.

القيادة الكوبية ومخطوطة غيفارا

أشار أديسون فيلاسكيس ***Edison Velasquez***، أحد مساعدي غيفارا والمقربين منه، أن بوريغو سلّم هذه المخطوطة إلى فيدل كاسترو. إلاّ أن كاسترو كان على إلمام بمواقف غيفارا من الاتحاد السوفييتي ونقده لسياساته والتي ضمنها رسالة سلّمها غيفارا إلى الزعيم الكوبي قبل مغادرته للجزيرة الكوبية في أبريل 1965، شرح فيها همومه وخلافاته مع الاقتصاد السياسي السوفييتي.[111]

[111] ليس المقصود هنا رسالة الوداع الشهيرة التي كتبها تشي لفيدل كاسترو والتي كشف الأخير النقاب عنها بعد استشهاد غيفارا في بوليفيا.

ويقول فيلاسكيس في مقابلة يوم 21 يناير 2006: "كاسترو ليس غبياً. لقد كان قريباً جداً من تشي. وهكذا أخذ كاسترو يستعد لمواجهة الأحداث. لم يكن بوسعه أن يقول رأيه علناً لأننا كنا نستلم كل شيء من الروس، ولكنه خزّن [أي كاسترو] احتياطاً مالياً تحسباً لرحيل السوفييت، ولولا ذلك لما كنا قادرين على البقاء بعد الانهيار السوفييتي".[112]

***

تعتبر "ملاحظات نقدية في الاقتصاد السياسي"، من أهم ما كتبه غيفارا في نقد الاقتصاد السياسي والنموذج السوفييتيين، ومن أهم مساهماته في النظرية الاشتراكية بالرغم من أنها ظلت حبيسة وبعيدة عن متناول الأيدي لأربعة عقود، وحجبت فرصة التعرف على غيفارا كمفكر اقتصادي ماركسي.

سنتناول في الفصول القادمة واحداً من أهم أبعاد فكر تشي غيفارا: الاقتصاد السياسي ونقده للاقتصاد السوفييتي، بما توفر من كتابات مع الأخذ بالاعتبار أن بعضها قد يروج للبروباغندا أو ربما كُتب بعيون متحيزة لهذا الخط السياسي أو ذاك.

يبقى تقييم أطروحات غيفارا في الاقتصاد السياسي لأصحاب التخصص، وفي جزءٍ كبيرٍ منها، برسم التاريخ. إلا انه لا يساورنا الشك في أن مخطوطته هذه التي نشرت بعد أربعين عاماً، وغيرها مما لم ير النور بعد، كانت ستشكل تحدياً كبيراً لمكانة

[112] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 256.

ومصداقية "الدليل السوفييتي". وربما لمكانة ومرجعية الاتحاد السوفييتي كمنارة للاشتراكية وكقائد للعالم الاشتراكي في تلك الآونة، لأثارت أطروحات غيفارا الكثير من الجدل وفتحت آفاق الحوار الأممي، الذي كان يتوق إليه، حول بديل للاقتصاد السياسي في مرحلة التحول الاشتراكي في الدول الاشتراكية والعديد من الثورات الناشئة التي سلكت الدرب ذاته.

لماذا كتب غيفارا نقده ل"الدليل السوفييتي في الاقتصاد السياسي"؟

لحظ غيفارا أن المنابع النظرية للفكر الماركسي قد نضبت بعد أعمال ماركس وإنجلز ولينين، ولم يتبق إلا بعض الأعمال المعزولة ككتابات ستالين وماو تسي تونغ والتي حافظت على القوة الإبداعية للماركسية. وفي هذا السياق، كان ستالين، في الفترة الأخيرة من حياته، قد أمر بإعداد كتيب أطلق عليه فيما بعد اسم "دليل الاقتصاد السياسي السوفييتي *The Soviet Manual of Political Economy* ، يعالج مواضيع الاقتصاد السياسي ويضعها في متناول الجماهير. وقد أُجريت على هذا "الدليل" تغييرات كثيرة في السنوات اللاحقة وفقاً للتطورات الاقتصادية والسياسية التي شهدها الاتحاد السوفييتي في عقد الخمسينيات من القرن الماضي وخصوصاً بعد وفاة ستالين (1953) والمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي (1956) وتولى خروشتشيف زمام القيادة في الاتحاد السوفييتي، وكان من شأن هذه التطورات أن أدت، مع نهاية ذلك العقد، إلى تغييرات جذرية في الخطاب الاقتصادي

السوفييتي انعكست في العديد من الكتابات والأدبيات والأطروحات التي رافقها جدل كبير.

كان غيفارا يرى أن التكيفات التي تضمنها هذا "الدليل" شكّلت تغيرات فرضتها البراغماتية والتي جاءت في الوقت ذاته نتيجة الافتقار إلى التحليل العلمي. لقد أيقظت الهزة الكبيرة التي أحدثها المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي، ذلك البلد من "الكسل" الذي ألم باقتصاده في مرحلة التحول الاشتراكي، إلا أن هذه الهزة لم تدفع الاقتصاد السوفييتي إلى الأمام لعده أسباب أهمها، وفق ما رآه غيفارا، "استنفاد احتمالات التنمية التي كان نتيجة للنظام الاقتصادي الهجين، وبسبب ضغوط من البنية الفوقية"، لذلك "اتخذ القادة السوفييت خطوات إلى الوراء أكملت التنظيم الصناعي الجديد. وقد حلّ القمع محل الكسل إلا أن كليهما حافظا على الطبيعة الدوغمائية".

وهنا يكمن الهم الرئيسي والهاجس الدائم لدى غيفارا: إن الافتقار إلى التحليل النظري يعني أنه لا يتسنى تحليل العملية الدياليكتيكية الجارية، وبالتالي فإنه يستعصي حل التناقضات، أو بالأحرى يمكن حلها ولكن على شكل تقديم التنازلات لصالح قانون القيمة والآليات الرأسمالية التي تهدد بعودة النمط الرأسمالي للإنتاج.

من المعروف أن غيفارا كان المهندس الأول للعلاقات الكوبية . السوفييتية وهو ما ينبغي فهمه على أنه تعبير طبيعي وأمين لالتزامه بالفكر الماركسي ودفاعه عن كوبا وثورتها ومصالحها في

سياق التحديات التي واجهتها في السنوات الأولى بعد انتصارها وشكّلت تهديداً كبيراً لوجودها واستمرارها. إلاّ أن غيڤارا أخذ يكوّن التحفظات إزاء الاقتصاد السوڤييتي من خلال قراءاته وأحاديثه مع الخبراء السوڤييت ومطالعته للكُتيبات السوڤييتية التي كانت تدافع عن السياسات الاقتصادية السوڤييتية، وكذلك من نقاشاته مع مؤيدي الاتحاد السوڤييتي في كوبا، إضافة إلى لقاءاته مع الماركسيين الغربيين الذين عبّروا عن نقدهم وامتعاضهم من سياسات الاتحاد السوڤييتي نذكر منهم بول سويزي، وليو هبرمان وبول باران وغيرهم.[113] وكان ما شاهده غيڤارا في زياراته ليوغسلافيا والاتحاد السوڤييتي والبلدان الاشتراكية الأخرى قد أثار في نفسه الكثير من التساؤلات بل والشكوك وأطفأ فيه جذوة الأمل والحماسة. فقد هاله ما لحظه في زيارته للاتحاد السوڤييتي من التزام العامل السوڤييتي بعمله وتفانيه في الأداء والإنتاج، في حين كان يعاني من تدني كبير في مستوى المعيشة، ناهيك عن المسافة الطويلة التي كانت تفصل بين القادة السوڤييت من جهة، والعمال والجماهير والشعوب السوڤييتية من جهة أخرى.

زار غيڤارا يوغسلافيا (1959)، قبل زيارته للاتحاد السوڤييتي، وخلال زيارته هذه أخذ يساوره القلق بسبب التناقضات الذي حفل بها نمط الإنتاج في ذلك البلد وتولدت لديه قناعة بان الارتكان إلى الروافع الرأسمالية في الإنتاج (مثل الربح

---

[113] Paul Sweezy, Leo Huberman and Paul Baran.

والحوافز المادية وغيرها) التي كان قد أدخلها في الاقتصاد السوڤييتي البروفيسور إفزي ليبرمان من جامعة موسكو)، دون الالتفات إلى ضرورة تغيير وعي الجماهير وقيم الناس وأفكارهم ومواقفهم، سيؤدي إلى إعادة إنتاج وعي رأسمالي وعلاقات اجتماعية رأسمالية.

خلال عامي 1963 . 1964 وطيلة فترة عمله كوزير للصناعية، انخرط غيڤارا في جدل مع الكثيرين الذين أبدوا تأييدهم للنمط السوڤييتي في الإدارة الاقتصادية والذي دعا، من حيث الجوهر، إلى تعزيز الاستقلالية الاقتصادية للشركات والسماح "للسوق" أن تفعل مفعولها. كما أنه اصطدم بالكثير من العقبات من خلال عمله في تلك الوزارة، وهي التجربة التي فرضت عليه البحث عن نمط بديل لإدارة الاقتصاد الكوبي ومواجهة تحديات التنمية في مرحلة التحول الاشتراكي. وقد عبّر غيڤارا عن وجهات نظره من خلال العديد من الوسائل والمنابر: تواصله مع الزعيم الكوبي فيدل كاسترو، أحاديثه ومناقشاته مع رفاقه ومساعديه، مساهماته في "الجدل الكبير" بما يزيد عن ثلاث عشر مقالة، مشاركته ومناقشاته في المحاضرات الأسبوعية التي كان يقيمها العلماء السوڤييت في هافانا، وكذلك عبر مقالاته وكتاباته وخطاباته المتعددة، وخصوصاً خطابه الأخير في الجزائر في فبراير 1965.

خلص غيڤارا، من خبراته وتجربته مع الدول الاشتراكية بقطبيها الرئيسيين، الصين الشعبية والاتحاد السوڤييتي، والتفاوض معهما حول وسائل الدعم الاقتصادي والعسكري،

خلص إلى أن سياسات هذه الدول الاشتراكية تفتقر إلى الأممية. وقد تحلى بالشجاعة في إعلان رأيه هذا على الملأ في خطابه الشهير في الجزائر (فبراير 1965) حيث أنب الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية لفرض شروط التبادل التجاري مع الدول الفقيرة في سوق هيمنت عليها الإمبريالية معيباً عليهما أنهما لم تقدما دعماً غير مشروط للدول الفقيرة، بما فيه الدعم العسكري، لنضال الشعوب التحرري في الكونغو وفيتنام على وجه الخصوص.[114]

***

شكّل نقد غيفارا "للدليل" السوفييتي الخطوة الأولى في مساهمته في صياغة نظرية حول الانتقال إلى الاشتراكية والبحث عن مشاكل وإشكاليات التحول والبناء الاشتراكي وحلول للمشاكل المطروحة.

في هذا السياق، بادر غيفارا بدراسة أصلية للاقتصاد السياسي الماركسي والرجوع إلى أمهات الفكر الماركسي بغية تطبيقها على مرحلة التحول الاشتراكي بذهنية منفتحة وعقل ناقد وروح حرة منطلقاً من أنه: "ليس من الممكن تدمير الآراء بضربها . هذا هو بالتحديد ما يقتل التنمية برمتها، التنمية الحرة للذكاء". ولهذا السبب بالذات كان غيفارا يحض رفاقه دوماً على المزيد من العمل والمساهمة والتفكير والعودة إلى دراسة الأدبيات الماركسية الكلاسيكية من أجل القضاء على النهج الآلي والدوغمائي الذي

---

[114] Besancenot, and Lowy, Che Guevara: His Revolutionary Legacy, p. 113.

حاولت "الماركسية السوڤييتية" تلقينه من خلال الأدبيات السوڤييتية، وعلى وجه الخصوص "دليل الاقتصاد السياسي السوڤييتي" الذي رفعته القيادة السوڤييتية إلى مقام "الإنجيل" بدلاً من العودة إلى واعتماد "رأس المال" لماركس، على حد قول غيڤارا.

شكّلَ كتاب "رأس المال" لماركس الركيزة النظرية الرئيسية لمشروع غيڤارا وتحليلاته وأفكار التي كان قد طرحها بها من خلال "الجدل الكبير" في كوبا ومهامه كوزير للصناعة. قد تمحورت هذه الأطروحات حول قانون القيمة ومفعوله في ظل الاشتراكية، دور النَقْد، التمويل، النظام المصرفي في الاشتراكية واستخدام الحوافز المادية والمعنوية ونقد ما جاء في "الدليل السوڤييتي" حول هذه المسائل. مضيفاً إلى ذلك تجربته ومشيراً إلى نواقص النظرية السوفيتية داعياً إلى المزيد من الدراسة والتحليل للعديد من جوانب الاقتصاد السياسي والتنمية الاشتراكية.

يقول غيڤارا في "ملاحظاته النقدية": "لدى الشروع في هذه الدراسة النقدية، وجدنا الكثير من المفاهيم التي تتناقض وطريقة تفكيرنا، فقررنا البدء بهذه المجازفة . كتاب يعبر عن وجهات نظرنا . بأكبر قدر ممكن من الصرامة العلمية والأمانة القصوى. وتظل هذه الأخيرة أساسية إذا اعتبرنا أن دراسة النظرية الماركسية والحقائق الجديدة، تضعنا في موقع انتقاد الاتحاد السوڤييتي، وهو (أي الموقف النقدي) الذي أصبح الشاغل لكثيرين من الانتهازيين الذين يهاجمون من أقصى اليسار لصالح الرجعية. إننا مصممون على ألاّ

نخفي أي أراء لأسباب عملية، أي أننا في الآن ذاته، سنخلص إلى نتائج ستساعدنا، بفضل دقة منطقها ومنظورها الواسع، في حل المشاكل ولن تطرح أسئلة دون حلول".[115]

وفي تقييمه لمسؤولية لينين في هذا المضمار، قال: "من خلال ممارستنا وأبحاثنا النظرية اكتشفنا الفرد الذي يستحق كل اللوم، باسمه الكامل: فلاديمير إيليتش لينين. إلى هذا الحد بلغت جرأتنا. إلا أن أولئك الذين يتحلون بالصبر للاستمرار حتى الفصول الأخيرة لهذا العمل، فإنهم سوف يثمنون الاحترام والإعجاب اللذين نكنهما لهذا الشخص "المذنب" والدوافع الثورية لتلك الأفعال التي من شأن نتائجها اليوم أن تصدم مؤلفها...".

وتجدر الإشارة إلى حقيقة أن أفكاره النظرية قد تطورت في سياق واقع محدد وهو واقع الثورة والمجتمع في كوبا الذي كان يسعى للتحول إلى الاشتراكية، وأن هذه الأفكار جاءت ثمرة ممارساته اليومية وتجربته كوزير للصناعة. ومع أن نقده كان جذرياً وقاسياً في بعض الأحيان، إلا انه كان نقداً يسارياً بنّاءً.

لِمَنْ كتب غيڤارا؟

توخى غيڤارا من كتابة ملاحظاته النقدية، ومن كتابه الذي لم يُنجز، أن يعالج قضايا العصر بروح جديدة تتناسب مع واقعه وتطوراته، وكان ينوي توجيه كتابه للبلدان النامية والمجتمعات الثورية في العالم الثالث كي تستفيد منه في تنميتها الاقتصادية في

115 Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 240.

مرحلة التحول الاشتراكي. وقد دوّن، في سياق الإعداد لهذا العمل، الكثير من الملاحظات حول "الدليل السوفييتي" الذي كان مستخدماً في تلك الآونة كدليل اقتصادي في كوبا.

استشعر غيفارا أن الكثيرين سيجدون في كتابه إساءة لمشاعرهم، فيما سيجد فيه آخرون حملة مسعورة في "معاداة الشيوعية" مغلّفة بالحجج النظرية. إلا أن أملاً كبيراً كان يحدوه في أن يلقي فيه كثيرون حفنة أفكار جديدة تستند إلى تحليل علمي وماركسي ناقد ومنفتح. من أجل هؤلاء كتب غيفارا، فوجه ملاحظاته إلى الطلاب الكوبيين الذين كانوا يعانون جرّاء عملية تلقن "الحقائق الخالدة" من المنشورات والأدبيات السوفييتية، قائلاً: "إلى اولئك الذين ينظرون إلينا بعين الريبة بسبب الاحترام والولاء اللذين يشعرون بهما حيال البلدان الاشتراكية، فإننا نوجه لهم تحذيراً واحداً: التأكيد الذي جاء به ماركس في الصفحات الأولى من "رأس المال"، حول عجز العِلم البرجوازي على النقد فيلجأ إلى الذرائع بدل ذلك، هذا العجز ينطبق اليوم على نحو مشين على علم الاقتصاد الماركسي. يمثل هذا الكتاب محاولة للعودة إلى الدرب الصحيح، وبغض النظر عن قيمته العلمية فإننا نفخر بأننا حاولنا القيام بذلك في بلدٍ نامٍ صغير. ستواجه الإنسانية العديد من الصدمات قبل تحريرها النهائي، ولكنها لن تصل إلى هذا، وهو ما نحن مقتنعون به بالكامل، بدون تغيير جذري في إستراتيجية القوى الاشتراكية الرئيسية".[116]

---

[116] Ibid., p. 241.

ليس في هذا القول ما يحتاج إلى مزيد من التوضيح، فهو نقد صريح "للقوى الاشتراكية الرئيسية" وهو في الوقت ذاته تحديد دقيق لمهام هذه القوى، ولا يخفى أنه بذلك كان يقصد الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية (وكافة بلدان المنظومة الاشتراكية)، مطالباً إياهم بالتصدي للمسؤوليات التاريخية إزاء "تحرير الإنسانية".

خلاصة القول أن غيفارا كان يطمح، في النهاية، أن يقنع الدول الاشتراكية الأخرى بالعدول عن النمط السوفييتي في التنمية والحد من التوجه نحو "اشتراكية السوق". كان يرى أن هذه الدول تسير في طريق مجهول، وكثيراً ما كان يشبّه هذه البلدان "بالطائرة التي ضلت سبيلها وبدل أن تعمل على العودة إلى دربها الصحيح، تابعت رحلتها في الطريق المجهول". كان غيفارا يأمل بأن نقده، الذي يستند إلى التجربة العملية، سيقنع الدول الاشتراكية بتصحيح هذه الأخطاء. إلا أن ما كان يثير حنقه هو غياب أي منبر للجدل الأممي حول الاقتصاد السياسي في مرحلة التحول الاشتراكي.

بقي أن نقول في ختام هذا الفصل إن ما استشرفه غيفارا في منتصف ستينيات القرن الماضي قد تأكدت صحته: فقد انهار الاتحاد السوفييتي، وهو ما أدركه غيفارا وبنهج علمي في تحليل الاقتصاد السياسي السوفييتي وحذر من أن الانهيار قادم لا محالة إذا لم تتغير السياسات. هكذا عادت الرأسمالية إلى الاتحاد السوفييتي وإلى كافة البلدان الاشتراكية في أوروبا الشرقية.

الفصل الخامس والعشرون

روسيا وكوبا: حالتان مختلفتان

سنقسّم عرضنا لأهم ما جاء في نقد غيڤارا للاتحاد السوفييتي إلى المحاور الرئيسية التالية:

1) روسيا وكوبا: نمطان مختلفان في الإدارة الاقتصادية

2) الخلاف حول "السياسة الاقتصادية الجديدة"

3) جوهر الخلاف: قانون القيمة

4) التعاونيات الجماعية (الكولخوزات) في الاتحاد السوڤييتي

5) العلاقات الطبقية والصراع الطبقي

6) الاشتراكية

7) الرأسمالية والإمبريالية

8) العلاقات الدولية

ولا يخفى أن كلاً من هذه المحاور يفتح على فضاءات رحبة من القضايا والإشكاليات التي تمس التجارب الاشتراكية في القرن

العشرين كما تمس راهن الإنسانية والاشتراكية ومستقبلهما. وسوف أقدم في الفصول اللاحقة إضاءات على هذه المحاور وما يرتبط بها من أطروحات غيڤارا ومساهماته.

***

وقف غيڤارا مبكراً ضد محاكاة التجربة السوڤييتية في نمط الإنتاج وفي بناء الاشتراكية في كوبا وفقاً للنموذج السوڤييتي. وقد أصبح هذا النقد أكثر وضوحاً ونضوجاً منذ عام 1965، إذ لم يقتصر على النقد وحسب، بل أخذ غيڤارا يطرق السبيل للبحث عن نمط بديل للبناء الاشتراكي، نمط أكثر جذرية يقوم على المساواة والأخوية والتضامن بين الناس، أي أكثر إنسانية وتناغماً مع الأخلاقية الشيوعية لأنها (هذه الأخلاقية) كانت، من منظور غيڤارا، ذات قيمة جوهرية وأساسية إضافة إلى دلالاتها الفلسفية البحتة. إذ كان يرى أنها تتجلى في الحرية والتحرر من كافة أشكال الظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، المساواة، التضامن بين الأفراد كما بين الشعوب والديمقراطية الثورية والأممية.

الحالة الروسية

لعل الأهم في تحليل غيڤارا لتلك الحقبة من تاريخ الاشتراكية السوڤييتية، وهو ما أصبح ركيزة أساسية في فكره وأطروحاته، هو إقراره بالفوارق الكبيرة بين روسيا القيصرية لحظة انتصار الثورة البولشفية (1917) من جهة، وحالة التشكيلة

الاجتماعية . الاقتصادية (والتاريخية) في كوبا لحظة انتصار ثورتها (1959)، من جهة أخرى.

يشير غيڤارا، في توضيحه لملابسات تلك الحقبة في الاقتصاد السوڤييتي، إلى أن الثورة الاشتراكية البلشفية جاءت إلى روسيا القيصرية والتي تميز اقتصادها بالتخلف وتمركز عملية الإنتاج فيها حول مصانع أو وحدات صناعية معزولة وافتقار الدولة إلى نظام إدارة مركزي، إضافة إلى تدني المهارات الإدارية والمستوى التكنولوجي. وهو أمر كان لينين قد لاحظه مبكراً وطالب بالاستفادة من القدرات الإدارية والرقابية للرأسمالية. ما يعني أن النظام السوڤييتي كان قائماً على رأسمالية متخلفة سادت في روسيا القيصرية وهو ما لا يجوز مقارنته بالمستوى التكنولوجي والمهارات الإدارية التي كانت مستخدمة في الشركات الرأسمالية الأميركية العاملة في كوبا والمهيمنة على اقتصادها قبل انتصار الثورة.

إلا أن الاشتراكية بطبيعتها، كنظام اجتماعي . اقتصادي لا تسمح بإمكانية التطور الاقتصادي عبر المزاحمة الرأسمالية، وعليه وجد السوڤييت أنفسهم آنذاك أمام إشكالية مستعصية: فلا هم كانوا قد أزالوا المصنفات الرأسمالية ***capitalist categories*** ،[117] ولا أقاموا بدلها مقولات جديدة ذات طبيعة أرقى، بل انصرفت جهودهم نحو زيادة الإنتاج معتمدة على الفرد وقدرته في رفع

[117] وتجدر الإشارة إلى أن التمسك بهذه المقولات يفتح على الخلل الثقافي، خلل الخطاب تحديداً، والذي ترسخ في الأدبيات الاقتصادية ومن ثم العقيدية السوڤييتية، وهو ما كان أحد أسباب التي دعت ماو تسى تونغ للتمسك بالثورة الثقافية.

الإنتاجية، ومن هنا كانت أهمية الحوافز المادية كمحرك رئيسي لرفع الإنتاجية في الاقتصاد السوفييتي.

وفي هذا الصدد، يقول غيفارا: "كانت المصلحة المادية للفرد ذراعاً رأسمالية بامتياز، أما اليوم [يقصد مرحلة الشروع في بناء الاشتراكية في الجمهورية السوفييتية الجديدة . م.ع.] فقد ارتقت إلى رافعة للتطور، غير أنها تظل محدودة لأن المجتمع الاشتراكي السوفييتي الناشئ لا يسمح بالاستغلال. وفي ظل مثل هذه الظروف فان الإنسان لا يطوّر قدراته الإنتاجية الهائلة ولا يطوّر ذاته كبانٍ واعٍ للمجتمع الجديد".

وفي وصفة لتداعيات هذه السياسات على الاقتصادي السوفييتي واقتصادات بلدان أوروبا الشرقية، كتب غيفارا:

"لقد تم زرع هذه الأخطاء، المعذورة في الاتحاد السوفييتي الذي كان صاحب المبادرة الأولى في التجربة [الاشتراكية]، في مجتمعات أكثر تطوراً أو مختلفة، مما أدى إلى نهاية سيئة وأثار ردود فعل في دول أخرى. كانت يوغسلافيا الأولى التي تمردت، ثم بولندا وقد لحقت بها الآن على نحو مشابه كل من ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا.... ماذا يحدث الآن؟ لقد انقلب هؤلاء على النظام [يقصد السوفييتي . م.ع.]، إلا أن أحداً لم يتمعن في جذور المشكلة، فوجدوا أسبابها في البيروقراطية والمركزية المفرطة لجهاز الدولة... أما الوحدات الإنتاجية الأكثر فعالية فهي تطالب باستقلالها. يشبه

هذا على وجه صارخ نضال الرأسماليين ضد الدولة البرجوازية التي تضبط نشاطات معينة".[118]

التخلف التكنولوجي

رصد غيڤارا التطور الاقتصادي السوڤييتي خلال العقود التي تلت الثورة البولشفية، ولاحظ أن التكنولوجيا السوڤييتية كانت، في أغلب القطاعات الاقتصادية، ضعيفة النجاعة، متدنية الإنتاجية، راكدة مقارنة بالتكنولوجيا الأميركية لأن الآليات التي استخدمها السوڤييت في إلغاء السوق الرأسمالية كانت قديمة ومتخلفة تقنياً مما أدى إلى خلل تكنولوجي وإنتاجية متدنية.

بعد انتصار الثورة وتحقيق الإنجازات الثورية الأولى في ظل الروح الثورية الملتهبة، تحتاج المجتمعات إلى الاستمرار في التقدم الذي قد يصبح بطيئاً أو أقل سرعة، ولهذا السبب يتراجع التقدم التكنولوجي ولا تعود التكنولوجيا هي القوة الدافعة للمجتمع. وهذا، وفق ما طرحه غيڤارا، ما حصل في الاتحاد السوڤييتي من ركود تكنولوجي وإبقاء على التكنولوجيا القديمة وعدم تطوير تكنولوجيا جديدة في أغلب القطاعات الاقتصادية، على عكس التطورات التكنولوجية والاختراعات الجديدة في الولايات المتحدة.

[118] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, see Chapter 9: Critique of the Soviet manual of Political Economy, pp. 233-256.

كما لحظ غيڤارا أن الإنتاج العسكري في ظل الرأسمالية يظلّ مرتبطاً بالإنتاج المدني ما يضمن انتقال التطورات التكنولوجية الكبيرة من المجال العسكري إلى المدني، مما يؤدي إلى تقدم كبير في إنتاج السلع والبضائع الاستهلاكية ما يوفر للمواطنين احتياجاتهم الأساسية ويحسّن مستوى معيشتهم. وهذا ما لم يحدث في الاتحاد السوڤييتي. بل على الخلاف منه، يرى غيڤارا، أن القطاع العسكري السوڤييتي شهد نجاحاً كبيراً وتناغم مع أولويات المجتمع والدفاع عنه، غيره أن الإنتاج العسكري السوفييتي ظلّ منفصلاً عن الإنتاج المدني.

ففي غياب المزاحمة الرأسمالية كحافز رأسمالي لتحقيق الربح اللامحدود، وعجز الخطاب السوڤييتي عن تكريس بديل/ نقيض اشتراكي لها، تخلف المستوى التكنولوجي عن لعب دور الرافعة للتنمية الاقتصادية السوڤييتية، في النطاق المدني خاصة، مع استثناءٍ واحد ومهم لم يفت غيڤارا أن يلتقطه، وهو مجال الدفاع العسكري حيث لا يُؤخذ معيار الربح في مجال التسليح بعين الاعتبار، ذلك التسلح الذي تحول إلى سباق تسلح مع المركز الرأسمالي.[119] إلا أن السوڤييت، رغم العناية التي أولوها للإنتاج العسكري ورغم الموارد الكبيرة التي استثمروها فيه، افتقروا، على خلاف الرأسمالية الغربية، إلى التطوير المتوازي بين القطاع العسكري والإنتاج المدني. وعليه، فقد أخفقوا في تحقيق ما اتسمت به البلدان الرأسمالية التي استفادت من إدخال بعض إنجازات

[119] راجع سمارة، المرجع السابق، "الاتحاد السوڤييتي من الثورة إلى الانهيار، وروسيا إلى النهوض الرأسمالي الدولاني".

ومكتسبات التكنولوجيا العسكرية إلى قطاع الإنتاج المدني مما أدى إلى تحسين كبير في نوعية السلع الاستهلاكية ورفع مستوى المعيشة.

الحالة الكوبية

اتسم الاقتصاد الكوبي، عشية انتصار الثورة الكوبية (يناير 1959)، بالهيمنة الإمبريالية الأميركية، هيمنة الاحتكارات الرأسمالية الأميركية، على كافة القطاعات الاقتصادية الرئيسية في كوبا. فقد بسطت الولايات المتحدة سيطرتها على هذه الجزيرة ومقدراتها فور هزيمة وجلاء المحتل الإسباني عنها واستمرت هذه الهيمنة الأميركية طيلة العقود التي سبقت الثورة الكوبية - العقود الستة الأولى من القرن العشرين.[120]

هذه الهيمنة الإمبريالية هي مصدر الخصائص التي ميّزت الحالة الكوبية عشية انتصار الثورة وبدون إدراكها فإنه يستعصي فهم سياق الثورة الكوبية ونشأتها وأهدافها. بكلمات أخرى، فإن غيڤارا قارن بين الظروف الاقتصادية والجغرافية في كوبا مع تلك التي واجهتها البلدان الاشتراكية القائمة فعلياً في الاتحاد السوڤييتي وأوروبا الشرقية. ومن هنا أيضاً كانت تحديات وإشكاليات التنمية في ذلك البلد مختلفة عن تلك التي وسمت الحالة الروسية كما أسلفت. وقد واكبت هذه التحديات والتعقيدات مختلف المراحل

[120] استطاع الشعب الكوبي أن يهزم المحتل الإسباني ويجبره على الجلاء عن أراضيه عام 1898 وأن يحوز على استقلاله (ولو الشكلي) عام 1902 بعد نضالات استمرت عدة عقود من القرن التاسع عشر.

المتباينة التي مرّت بها التجربة الكوبية مما جعل منها تجربة ذات سمات مميزة ومختلفة عن التجربة السوفييتية، كما لاحظ غيفارا مبكراً.

يمكننا أن نقسم مسيرة العلاقات الكوبية - السوفييتية إلى ثلاث مراحل:

1) مرحلة ما بين انتصار الثورة الكوبية إلى حين التحالف مع السوفييت.

2) مرحلة ما بين إعلان كوبا لتبنيها للاشتراكية (أبريل 1961) واندماجها في المعسكر الاشتراكي إلى حين انهيار هذا المعسكر (ابتداءً من عام 1989).

3) مرحلة ما بعد الانهيار السوفييتي إلى يومنا هذا.

ومع أن غيفارا لم يشهد سوى المرحلة الأولى وجزءً يسيراً من المرحلة الثانية، إلاّ أن مطالعة ما استشرفه تكتسب راهنية مدهشة للمراحل التي تلت وتنبأ بقراءته لها بدقة علمية متناهية. وقد جاءت الأحداث لتؤكد صدق رؤيته: انهيار التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي، من ناحية، فيما كوبا لا تزال حتى يومنا هذا تناضل بصمود مذهل للحفاظ على سيادتها الوطنية وإنجازات البناء الاشتراكي في ظل حصار إمبريالي غاشم فرضته الإمبريالية الأميركية على مدى خمسة عقود، وفي سياق الأزمة المالية/ الاقتصادية الراهنة للنظام الرأسمالي والعالمي.

الفصل السادس والعشرون

الخلاف حول "السياسة الاقتصادية الجديدة" (نيب)

كان غيفارا معنياً بدراسة جيدة للاقتصاد السياسي في مرحلة التحول الاشتراكي ومن هنا رأى ضرورة تقييم ونقد التجربة السوفييتية ونمط إنتاجها، وكان يدعو رفاقه إلى المزيد من العمل والمساهمة والتفكير الخلاّق "ودراسة الأدبيات الماركسية الكلاسيكية" من أجل القضاء على النهج الآلي (الميكانيكي) والدوغمائي حيال الاتحاد السوفييتي والتي حوّلت "الدليل السوفييتي" إلى "الإنجيل" بدلاً من كتاب كارل ماركس "رأس المال".

وفي هذا الصدد يوضح غيفارا أن "النظرية تفشل لأنهم نسوا [يقصد السوفييت.. م ع] أن ماركس كان موجوداً وكذلك المرحلة السابقة بأكملها واستندوا إلى لينين وحده، بل لا بد من القول على جزءٍ واحدٍ من لينين منذ عام 1920 وما تلاه أي السنوات القليلة الأخيرة من حياته لأن لينين عاش سنوات عديدة ودرس الشيء الكثير".[121]

[121] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 235.

المقصود هنا بالسنوات التي تلت عام 1920 هو بالطبع فترة "السياسة الاقتصادية الجديدة" - نيب[122] التي تم العمل بها في الاتحاد السوفييتي كحل عملي لمشاكل محددة والتي (أي السياسة الجديدة) حددها لينين بوضوح على أنها اشتملت على تنازلات كبيرة للآليات الرأسمالية وخطوة إلى الوراء على طريق البناء الاشتراكي.

كتب غيفارا قبل مغادرته كوبا في ابريل 1965 رسالة[123] إلى كاسترو شرح فيها همومه وخلافاته مع الاقتصاد السياسي السوفييتي. وفيما يلي موجز لما جاء في هذه الرسالة:

. بدأ غيفارا رسالته بالإشارة إلى كتاب "نقد جوتا" لماركس حيث وصف الأخير الاشتراكية بأنها المرحلة التي يتم فيها طمس مجموعة من المصنفات أو الفئات السلعية لأن المجتمع، الذي اكتمل تطوره، قد انتقل الآن إلى مرحلة جديدة.

. تلي ذلك أن قدم لينين نظريته حول التطور غير التكافؤ وإمكانية كسر الحلقة الضعيفة في السلسلة الإمبريالية.

إلا أن الدفاع عن نظرية لينين (وتبريرها) عن طريق الثورة البلشفية في الاتحاد السوفييتي فرض مرحلة جديدة: مرحلة

---

[122] ما يسموه بالروسية *Ekonomicheskaya Politika Novaya*، وبالإنكليزية *New Economic Policy (NEP)*

[123] Che Guevara, “ Apuntes Criticos a la Economia politica, Centro de Studios Che Guevara and Ocean Prees, La Habana: Editorial de Ciencias Sociales, 2006, Cited in Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 237.

التحول إلى الاشتراكية. وفي حين ادّعى السوفييت والتشيكيون أنهم قد اجتازوا هذه المرحلة، إلا أن غيفارا رأى أن هذا الادعاء، موضوعياً، زائف بسبب استمرار وجود الملكية الخاصة في كلا البلدين. ويكمن الخطأ، على ما رأى غيفارا، في أن الاقتصاد السياسي الجديد لم يكن قد اكتمل بل أن هذه العملية لم تكتمل دراستها بعد. وعليه، فقد تم تقديم ما توصل إليه الاتحاد السوفييتي على أنه "القوانين المفترضة" للمجتمع الاشتراكي.

وعليه، يمكننا القول بأن نقد غيفارا (وحججه) قد ارتكز على أن مجمل النظام القانوني . الاقتصادي الذي قام عليه الاتحاد السوفييتي كما نعرفه يجد جذوره في السياسة الاقتصادية الجديدة وعلاقات رأسمالية . ما . قبل . الاحتكارية التي خلّفتها هذه السياسة. وقد شرح غيفارا إن اقتصاد روسيا القيصرية تمحور حول مصانع أو وحدات صناعية معزولة في حين افتقرت الدولة إلى نظام إدارة مركزي (إضافة إلى تدني المهارات الإدارية)، أن روسيا، بعبارة أخرى، افتقرت إلى جهاز مركزي كبير. أما الاشتراكية، فهي من جانبها تحد من إمكانية التطور الاقتصادي من خلال المزاحمة الرأسمالية، لأن السوفييت لم يزيلوا المصنفات أو الفئات ولا أقاموا بدلا منها مصنفات جديدة ذات طبيعة أرقى: "لقد كانت المصلحة المادية للفرد ذراعاً رأسمالياً بامتياز، أما اليوم فقد ارتقت إلى رافعة للتطور، إلا أنها محدودة بفضل مجتمع لا يسمح بالاستغلال. وفي ظل مثل هذه الظروف فإن الإنسان لا يطور قدراته الإنتاجية الهائلة ولا يطور ذاته كبانٍ واعٍ للمجتمع الجديد". وقد تركزت

الجهود الساعية إلى زيادة الإنتاج على الفرد ومن هنا كانت أهمية الحوافز المادية كمحرك رئيسي.[124]

"السياسة الاقتصادية الجديدة" (نيب)

هل كانت السبب الجذري؟ وهل كانت هذه ضرورية؟

ذهب غيڤارا في نقده للسياسات الاقتصادية السوڤييتية إلى أن جذور النظام الاقتصادي الذي قام عليه الاتحاد السوڤييتي كما نعرفه تكمن في "السياسة الاقتصادية الجديدة" (نيب) التي تبناها في عشرينيات القرن الماضي، وعلاقات رأسمالية . ما قبل الاحتكارية التي خلّفتها هذه السياسة.. وقد أوصل هذا المنطق النقدي غيڤارا إلى استنتاجات جريئة وخطيرة بكل المقاييس وخصوصاً في سياق المرحلة التي أتت فيها. يقول غيڤارا:

"... تقول فرضيتنا إن التغيرات التي أتت بها السياسة الاقتصادية الجديدة (نيب) (NEP) قد أشبعت الحياة في الاتحاد السوڤييتي وتركت، منذ ذلك الحين، آثاراً دائمة على تلك المرحلة برمتها. كانت النتائج مثبطة للعزيمة: البنية الفوقية الرأسمالية تؤثر بشكل متزايد على علاقات الإنتاج، أما الصراعات التي أثارتها

---

[124] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 237.

السياسة الاقتصادية الهجينة، فيتم حلها اليوم لصالح البنية الفوقية، إنها عودة الرأسمالية".[125]

يستند "الدليل السوفييتي" إلى أطروحة لينين القائلة بأنه من الممكن في ظروف تاريخية معينة لبلد متخلف وتحت قيادة الطبقة العاملة أن يتم التطور "بطريقة لا رأسمالية" من المنظور الاقتصادي والاجتماعي وتستطيع هذه البلدان المتخلفة أن تلج تدريجياً إلى الاشتراكية دون المرور بمرحلة التنمية الاقتصادية حيث تفسح الثورة الديمقراطية . البرجوازية الطريق للثورة الاشتراكية. إلا أن غيفارا أبدى شكوكه في أن لينين استخدم مفردة "طريق لا رأسمالي" مؤكداً أنه على المدى البعيد ليس هناك طريق ثالث: فهو إما الرأسمالية أو الاشتراكية.

لم يتجاهل غيفارا الظروف التي أدت إلى تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة في الدولة السوفييتية الناشئة وأنظمة الإدارة الاقتصادية التي نتجت عنها، بل كان مدركاً للظروف الفظيعة التي مرّت بها روسيا القيصرية (من مجاعة وتدمير جرّاء الحرب الإمبريالية الأولى وما تلى انتصار الثورة البلشفية (1917) من حرب أهلية دموية وغزو إمبريالي)، وهي الظروف التي لم تبقِ من القدرة الإنتاجية لروسيا شيئاً وأرغمت لينين على اتخاذ إجراءات أدت إلى السياسة الاقتصادية الجديدة (نيب) وأنظمة الإدارة الاقتصادية التي نتجت عن ذلك والتي جعلت من هذا كله ضرورياً. في هذه

---

[125] Ibid., p. 240.

الظروف تم توليد (إعادة توليد) العلاقات الرأسمالية للإنتاج، وهي المرحلة التي أسماها لينين "رأسمالية الدولة"، في حين رأى غيفارا انه من الأدق تسميتها "رأسمالية ما قبل الاحتكارية" من منظور تصنيف العلاقات الاقتصادية.[126]

فسّر غيفارا لجوء لينين إلى نظام اقتصادي هجين بأنه جاء نتيجة ظروف عصيبة وغير اعتيادية وفي لحظة حرجة في تاريخ الاتحاد السوفييتي الذي كان قد خرج لتوه من حرب أهلية طويلة ومكلفة، مما دفع لينين إلى الخروج عن مفاهيمه النظرية واعتماد نظام هجين يجمع العناصر الاشتراكية والرأسمالية في آن واحد. وهكذا بدأت عملية طويلة تجلت في العديد من التغييرات اللاحقة في بنية الإدارة الاقتصادية في ذلك البلد. غير أن لينين عاد في الفترة الأخيرة من حياته وانتقد الأرباح والدفعات (المكافآت) النقدية التي يتم تبادلها بين الشركات ووحدات الإنتاج في المجتمع الاشتراكي. وقد استخلص غيفارا من هذا، وإن كان يقر بأنه استخلاص ذاتي، أنه لو قُدر للينين أن يبقى على قيد الحياة ليقود العملية التي تزعمها وأحكم الإمساك بزمامها، لكان قد غيّر العلاقات التي أسست لها السياسة الاقتصادية الجديدة.

---

126 للاستفاضة، راجع معالجة د. عادل سمارة للحالة السوفيتية في تلك الحقبة في دراسته: "الاتحاد السوفييتي من الثورة إلى الإنهيار، وروسيا إلى النهوض الرأسمالي الدولاني"، مجلة "كنعان" الفصلية، العدد 135، ص 50 - 83. يستطيع القارئ مطالعة هذه الدراسة في موقع "كنعان" على الرابط التالي: http://kanaanonline.org/studies/?p=3

إلا أنه، بالرغم من إدراك غيڤارا لهذه الضرورات والاحترام الكبير الذي كان يكنه للينين، رأى غيڤارا أنه كان ينبغي فهم هذه الإجراءات على أنها تنازلات في وجه المشاكل والتحديات والتعامل المباشر معها وإيجاد حلول لها، لا أن تشكّل نموذجاً للتحول الاشتراكي. وعليه، فالمشكلة كما رآها غيڤارا، تكمن في "النظام الهجين" المتبع آنذاك في الاتحاد السوڤييتي والذي ظهر مع السياسة الاقتصادية الجديدة (نيب)، وأنه كان يجب العدول عن هذه السياسات بعد وفاة لينين. أما ما حدث فقد كان عكس ذلك، إذ تفشى هذا النظام وتم اعتماده في الاتحاد السوڤييتي، ولاحقاً في البلدان الاشتراكية في أوروبا الشرقية.

استناداً إلى هذا الفهم النقدي، أقام غيڤارا تحليله للنمط السوڤييتي في الإدارة الاقتصادية ومستقبل الاشتراكية في ذلك البلد. وبفضل ما اكتسبه من خبرات في الممارسة اليومية كوزير للصناعة في كوبا، وصل غيڤارا إلى قناعة بأن الاشتراكية ستهزم في الاتحاد السوڤييتي وأن هذا البلد في طريقه للعودة إلى الرأسمالية.

الخطة والحوافز المادية والمعنوية

كان السوڤييت يرون أن الحوافز المادية تقرر نجاح الخطة الاقتصادية. وفي هذا رأى غيڤارا جموداً وموقفاً معادياً للماركسية، إذ رأى أنه من حق الجماهير أن تشارك في صنع قرارها فهي التي تقرر مقدار ما يذهب من إنتاجها إلى التراكم من جهة، وإلى

الاستهلاك من جهة أخرى، ويتم هذا عن طريق استخدام التقنيات الاقتصادية بالإضافة إلى وعي الجماهير. هذا هو، حسب غيفارا، ما يضمن تحقيق الخطة.[127]

ناقشنا في فصل " غيفارا في جدل الحوافز المادية والمعنوية" وجهة نظر غيفارا في دور هذه الحوافز في الاقتصاد والعملية الإنتاجية وتطوير الوعي، وسوف نتناول في النقاط الرئيسية التالية أبعاد نقده لاستخدام الاتحاد السوفييتي لهذه الحوافز وتطبيقها في مجالات الإنتاج.

□ كرر غيفارا نقده لنظام "التمويل الذاتي" الذي كان معتمداً في الإدارة الاقتصادية السوفييتية والذي كان غيفارا قد تناوله علناً وفي العديد من مقالاته المنشورة خلال "الجدل الكبير" لأنه يستخدم طرائق رأسمالية كروافع اقتصادية للتنمية (مثل الحوافز المادية، الربح، الاستدانة، الفائدة، القروض المصرفية، تبادل السلع، المزاحمة، الضبط المالي واعتماد قانون القيمة ومفعوله). وقال، وربما متهكما ما مفاده إن كل رواسب الرأسمالية تستخدم إلى حدها الأقصى من أجل محوها (الرأسمالية).

---

[127] يقترب تشي غيفارا في هذا من نمط التسيير الذاتي الذي أخذت يوغسلافيا تسعى إليه من أوائل الخمسينيات من القرن الماضي وبعد القطيعة بين تيتو وستالين والنزوع إلى الابتعاد عن النمط السوفييتي في التنمية الصناعية والاقتصادية والبحث عن بديل في البناء الاشتراكي. وكانت يوغسلافيا من أوائل الدول التي زارها غيفارا (ضمن جولة في مايو ـ يونيو 1959) وأبدى آنذاك اهتماماً خاصاً بتوجهها نحو مشاركة العمال في عملية الإنتاج وإدارة الوحدات الإنتاجية والتخطيط الاقتصادي.

□ دافع "الدليل السوفييتي" عن استخدام النقود والاستدانة لضمانة الاستثمار من أجل تنفيذ الخطة الإنتاجية، كما استخدم السوفييت آليات الاستدانة (القروض) والربح والتراكم للتغلب على النزعات المضادة للتخطيط، وذلك عن طريق الحوافز المادية. أما غيفارا فقد طالب بعكس هذه العملية. فعلى الجماهير بدايةً أن تشارك في رسم الخطة، أما بعد إقرارها فينبغي العمل بكل صراحة على تنفيذها وبالآلية الممكنة باستخدام عملية الضبط والرقابة بالتكنولوجيا. من هذا كله، خلص غيفارا إلى أن "الدليل السوفييتي" لا يفهم الخطة ولا يتعامل معها كقرار اقتصادي للجماهير الواعية بدورها.

□ اعتقد غيفارا أن استخدام الطريق الرأسمالية والتخلي عن الحوافز المعنوية والتثقيف الشيوعي قد خلق نظاماً هجيناً في المعسكر الاشتراكي حيث اصطدمت البنية الفوقية مع البنية الاشتراكية وأعاقت التنمية الاشتراكية والانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية. كما أن استنزاف الموارد في الكلفة العسكرية الضرورية للدفاع ضد العدوان الإمبريالية، كان عائقاً إضافياً للتحول الاشتراكي.

□ يقول "الدليل السوفييتي" أن الحوافز المادية تُستخدم للجمع بين المصالح الفردية وحاجات المجتمع، ولكنه (أي الدليل) لا يذكر الحوافز المعنوية (الأخلاقية). أما غيفارا فقد قارن نهج "الدليل السوفييتي" إلى ما يحدث للعامل في ظل الرأسمالية حيث تتفاوت مصلحته في عمله بقدر ما يتفاوت أجره، مكرراً قناعته بان

الإنسان في ظل الاشتراكية لا يعمل من أجل ذاته بل من أجل المجتمع الذي هو جزء منه، كما أنه يعمل لأن العمل واجب اجتماعي فنراه يردد "الواجب الاجتماعي للفرد، لا معدته، هو الذي يحدد مسلكه في الإنتاج. وهنا تكمن مهمة التثقيف".

أما الرواتب والأجور فقد نظر إليها غيفارا على أنها اعتراف المجتمع بان الأفراد قد أكملوا واجبهم الاجتماعي، في حين لم ير "الدليل السوفييتي" مشكلة في أن تتفاوت الرواتب في القطاعات الاقتصادية المختلفة، وهو ما اعتبره غيفارا مناقضاً لقانون التوزيع وفق العمل المنجز، مضيفاً أن هذا كله إنما هو نتيجة لفشل الحوافز المادية بل هو هزيمة الاشتراكية.

وعليه، وجد غيفارا أن الخطأ يكمن في الأخذ بالحوافز المادية بمعناها الرأسمالي ثم خصيها بعد ذلك. أما التحدي، في رأيه، فيكمن في استخدام الحوافز المعنوية من خلال التثقيف كي يتم ربط العمال بمشروع البناء الاشتراكي واستخدام العقوبات (الغَرَامات) الاقتصادية في حالة عدم تحقيق الإنتاج، وكذلك استخدام المكافئات المادية والمعنوية لتحقيق المزيد من الإنتاج ورفع المهارات التقنية (عن طريق التدريب الفني والتعليم الأكاديمي).

المشاركة الجماهيرية في التخطيط الاقتصادي

مَّنْ يقوم بالتخطيط الاقتصادي؟ أي أين تقع مسؤولية هذا التخطيط وما هو دور الجماهير فيها؟

يدّعي "الدليل السوڤييتي" في معرض مناقشته مفهوم الخطة، أن الجماهير تتنافس من أجل تجاوز خطط التنمية. أما غيڤارا فقد خالف هذا الرأي، وذهب إلى أن هذا لم يتحقق لا في الاتحاد السوڤييتي ولا في كوبا ولا في أي بلدٍ آخر. بل ذهب إلى ما هو أبعد: إن معالجة التخطيط ككيان آلي يغفل حقيقة أن التخطيط هو المرحلة الأولى من نضال الإنسان من أجل السيطرة والتحكم بشؤونه. وقد أوجز غيڤارا رؤيته هذه في قوله: "نستطيع القول إن فكرة التخطيط هي حالة روحية ذات شرطين هما ملكية وسائل الإنتاج والوعي بالقدرة على توجيه الأمور".

وقد حاول غيڤارا الإجابة على هذا السؤال خلال سنوات "الجدل الكبير" في كوبا، ثم اكتملت رؤيته في كتاباته اللاحقة وبعد عودته من الكونغو. وتشير هذه الكتابات بوضوح إلى أن القرارات الاقتصادية يجب أن تكون بيد الشعب (الجماهير) وهو أحد مبادئ الديمقراطية الاشتراكية. ويقول ما مفاده: أنه يجب على الجماهير أن تشارك في صنع الخطة أما التنفيذ فيكون بالطبع بأيدي الفنيين.

كان غيڤارا يرى أن النظام الاقتصادي في الاتحاد السوڤييتي قد جعل من العوامل الاقتصادية (أي عوامل الربح والخسارة) هي التي تقرر كل شيء، وأن هذا قد حلّ محل مفهوم الخطة الذي يضمن للجماهير (الواعية لدورها) حق اتخاذ القرارات الاقتصادية. أما غيڤارا فكان يصر على أن الجماهير هي صاحبة الحق في التحكم بمصيرها، وهي صاحبة القرار في كيفية صرف

أموالها وكم ستصرف منها وكم ستدّخر، وأن الخطة الاقتصادية يجب أن تقوم على هذا الأساس وبناءً على هذه المعطيات، فالشعب والجماهير الواعية هي الضمانة النهائية.

لا يدّعي أحد أننا قد وصلنا إلى حسم هذه الإشكالية: إشكالية الانفصام بين القرارات الاقتصادية (التي تتخذها الجماهير) وتنفيذها (التكنوقراط)، وقد بقيت هذه الإشكالية موضوع جدل في أوساط التخطيط الاقتصادي الاشتراكي، وهو انفصام آلي لم يتم حسمه، ولكن الفضل يعود إلى غيفارا في إثارة هذه المسألة وطرح إضاءات مبكرة حول الاقتراب من التخطيط الاشتراكي كما رآه، وإن لم تتوفر له الفرصة لاكتمال رؤيته.

الاتحاد السوفييتي: انتصار الاشتراكية أم هزيمتها؟

"إذا فشلنا في الدفاع عن القضية، فعلينا تغيير المدافعين وليس القضية"

غسّان كنفاني

□ يقول "الدليل السوفييتي" بصراحة ووضوح أن السياسة الاقتصادية الجديدة (نيب) هي التي ضمنت انتصار الاقتصاد الاشتراكي على الرأسمالية في الاتحاد السوفييتي. أما رد غيفارا فكان أن هذه السياسة كانت واحدة من أكبر الخطوات إلى الوراء في الاتحاد السوفييتي. وقد قارنها لينين في حينه بمعاهدة السلام برست . ليتوفسك[128] والتي كانت قراراً صعباً جداً. وإذا كان لنا أن نحكم من خلال الشكوك التي أثارها لينين والتي أضحت جلية في نهاية حياته، فإنه يمكننا القول أنه لو قدر للينين أن يبقى على قيد الحياة لكان قد صحح من آثارها المغرقة في رجعيتها. إلا أن خلفاء لينين لم يروا الخطر الذي بقي "كحصان طروادة" في الاشتراكية، أي الحوافز المادية المباشرة كرافعة اقتصادية.

□ ادعى "الدليل السوفييتي" أنه ليس هناك خطر من عودة الرأسمالية إلى الاتحاد السوفييتي وأن الاشتراكية قد انتصرت

---

[128] دفعت ضرورة الحفاظ على بقاء الجمهورية السوفييتية الناشئة، دفعت لينين إلى توقيع معاهدة بريست ليتوفسك سنة 1918 (التي وُقعت بين الاتحاد السوفييتي وألمانيا وقوى المركز في الحرب العالمية الأولى) بالرغم من أنها كانت في الكثير من جوانبها لصالح الإمبريالية الألمانية.

بالكامل وبكل تأكيد. وقد وصف غيڤارا هذا الادعاء بأنه "مثير للجدل"، وأن التطورات التي شهدها آنذاك في الاتحاد السوڤييتي تشبه تلك التي مرت بها يوغسلافيا عندما اختارت الدرب الذي سيودي بها تدريجياً إلى الرأسمالية. وتابع قوله أن المستقبل سوف يخبرنا إذا ما كان هذا مجرد مصادفة أو تعبير عن تيار رجعي معين. كل هذا، حد قول غيڤارا، كان جزءًا من المفاهيم الخاطئة في الرغبة في بناء الاشتراكية مع بعض العناصر الرأسمالية بدون تغيير معاني تلك العناصر. كانت نتيجة ذلك نظاماً هجيناً يوصلنا في النهاية إلى طريق مسدود أو إلى مخرج لا نستطيع تقديره سيفرض بدوره تنازلات جديدة لصالح الروافع الاقتصادية، والذي يمثل، بعبارة أخرى، تراجعاً.

□ جاء في "الدليل السوڤييتي" أن الاتحاد السوڤييتي قد دخل مرحلة الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية، أما غيڤارا فقد اعتبر هذا الاستنتاج مخالفاً للنظرية الماركسية والمنطق العصري لسببين رئيسيين:

1) في ظل الظروف الراهنة وتطورات السوق العالمية، فإن الشيوعية ستقوم على قاعدة الاستغلال وعدم الاكتراث بالشعوب التي يتم التبادل التجاري معها.

2) إن تخصيص الموارد الهائلة في حقل الدفاع العسكري لن يسمح للتطور الكامل نحو الشيوعية.

"الدليل السوڤييتي" ونقد ستالين

□ انتقد "الدليل السوڤييتي" فرضية ستالين بأن توزيع السلعة في ظل الاشتراكية يمثل كسراً في تنمية القوى المنتجة مما يؤدي في النهاية إلى الحاجة لتبادل السلع المباشر بين الصناعة والزراعة. ويتابع "الدليل" قوله بأن ستالين فشل في تثمين، بالقدر الكامل، "مفعول قانون القيمة في مجال الإنتاج وخاصة فيما يتعلق بوسائل الإنتاج".

وبالرغم من مسؤولية ستالين في زرع الروافع الرأسمالية، فان غيڤارا اعتبره "أقل رجعية" من مؤلفي هذا "الدليل": "في الأخطاء المفترضة التي ارتكبها ستالين يكمن الفرق بين الموقف الثوري والآخر المرتد. لقد رأى [ستالين] الخطر في العلاقات السلعية وحاول تجاوز هذه المرحلة بتدمير أولئك الذين قاوموه. أما القيادة الجديدة فقد، علي النقيض من ذلك، استسلمت لدوافع البنية الفوقية وعززت النشاط التجاري منظرةً بأن الاستخدام التام لهذه الدوافع الاقتصادية سيؤدي بهم إلى الشيوعية". أما حول الأصوات القليلة التي عارضت هذا النهج الجديد في الاتحاد السوفييتي آنذاك، وأسباب ندرتها ووهنها، فقد قال غيڤارا إنها إنما تدل على "جريمة ستالين التاريخية": "التقليل من قدر التثقيف الشيوعي وتأسيسه (ستالين) لثقافة منفلتة في السلطة".[129]

[129] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 249.

الفصل السابع والعشرون

جوهر الخلاف: قانون القيمة

تمحورت مكامن الخلاف بين النظامين حول قانون القيمة وتحديداً حول المسائل الرئيسة التالية:

. الظروف التي تفسر وتبرر العمل بهذا القانون؛

. المجالات التي يسرى فيها مفعوله؛

. إلى أي مدى يقوم هذا القانون "بضبط" الإنتاج؛

. علاقة قانون القيمة بالخطة الاقتصادية العامة؛

. وأخيراً، وربما الأهم، هل المطلوب هو العمل بهذا القانون، أو العمل على نسفه.

□ يتم العمل بقانون القيمة وتطبيقه في السوق الحرة، فهو من مخلفات التشكيلة الرأسمالية. وعليه، يقتضي التطور الطبيعي باتجاه الاشتراكية، غياب/ تغييب السوق الحرة حيث يعمل قانون القيمة، والذي يعمل أساساً لأن هناك سوقاً. أي أن العمل على تغييب قانون القيمة، هو المآل الطبيعي إلى حين يتم تقويضه. لذلك، رأى غيڤارا أن العمل بهذا القانون يكون مؤقتا، أو هكذا يُفترض في المرحلة الانتقالية أي الاشتراكية، على أن تكون خطة الفكر والإنتاج باتجاه تقويضه. وقد رأى غيڤارا أنه في مرحلة البناء الاشتراكي لا يتم العمل بقانون القيمة وتطبيقه بحرية بسبب غياب

السوق الحرة وبسبب الحاجة لتأمين منتوجات معينة للسكان بسعر محدد حيث تكون الأرباح فيه متساوية في كافة الوحدات الإنتاجية. بهذا فقد قانون القيمة تأثيره "التنويري" على الإنتاج والذي يسري في ظل الرأسمالية.

□ في مثل هذه الأوضاع، يصبح قانون القيمة المعيار الأكبر للفعالية بحيث يتم تكييف الاقتصاد حسب فعالية القطاعات المختلفة. فتكون النتيجة إغلاق المصانع مما تسبب في هجرة العمال اليوغسلاف والبولنديين، على سبيل المثال، إلى بلدان أوروبا الغربية، "عبيداً" ترسلهم الدول الاشتراكية كي يصبحوا قرباناً للتطور التكنولوجي لبلدان السوق الأوروبية المشتركة (كما كانت تُسمى آنذاك).

كان الاقتصاديون السوفييت قد خلصوا، في نهاية خمسينيات ومطلع ستينيات القرن الماضي، إلى أنه يمكن العمل بقانون القيمة والذي يستمر سريان مفعوله في ظل الاشتراكية ليقوم بمهمة "ضبط" الإنتاج حيث أن المنتوجات في الاقتصاد الاشتراكي تظل سلعاً طيلة المرحلة الاشتراكية إلى حين الوصول إلى الشيوعية.

أما غيفارا فرأى أن قانون القيمة لا يصلح كضابط للإنتاج في قطاعات الاقتصاد الاشتراكي، بل أكد على ضرورة تحليل "كلفة الإنتاج". لأنه ليس من الضروري أن تتوافق كلفة الإنتاج مع السعر في القطاع الاشتراكي، وأشار إلى أن تحديد سعر السلعة في القطاع الاشتراكي كمحدد لحركة العمل وتنقله داخل القطاعات والوحدات

المختلفة للإنتاج وصناعات الدولة، لا يجب بالضرورة أن يتوافق أو أن يساوي كلفة الإنتاج، مذكراً بانه لو أن تبادل العمل بين القطاعات المختلفة للاقتصاد الاشتراكي كان محكوماً أو مضبوطاً بالتبادل على أساس القيمة المتساوية (أو على أساس الربحية)، فإن المؤسسات ذات الربح المتدني أو تلك غير المربحة، لن تتمكن من البقاء وان العديد من نواحي الإنتاج في الاقتصاد الاشتراكي سوف تنهار. ورأى أنه إذا تم تطبيق قانون القيمة كضابط لتبادل العمل بين المؤسسات المنتجة في القطاع الاشتراكي، دون تدخل بشري اشتراكي بغية التحكم بهذا القانون وتوجيهه بوعي طبقا لخطة مركزية والحد من انفلاته الطبيعي الذي مآله تكريس الرأسمالية، لأضحى من المستحيل التغلب على الفوارق بين قطاعات الاقتصاد وهي السمة المميزة للرأسمالية.[130]

مع حلول عام 1964 وصل "الجدل الكبير" في كوبا ذروته ومن ثمّ إلى نهايته. فقد أصبح غيڤارا أكثر وضوحاً وتألقاً في أفكاره ومفاهيمه واتسعت الهوة بين نهجه والنهج النقيض، نهج "اشتراكية السوق": دربان في التنمية الاقتصادية والاجتماعية لا يلتقيان. وقد أعطى غيڤارا في تلك السنوات عصارة ذهنه وجل جهده الفكري والجسدي، ولم تستطع القوى المعارضة أن تنال من عزمه أو تحرفه عن الطريق الذي اختاره.

---

[130] من هنا شدد غيڤارا على ضرورة التخطيط المركزي، ما أسماه "نظام التمويل بالميزانية" أو عن طريق الميزانية، ووقف ضد فصل المشاريع عن بعضها مقودة بحافز الربح.

كان على القيادة الكوبية أن تضع حداً لهذا الجدل المحتدم، ولا يُستبعد أن يكون السوفييت قد لعبوا دورهم ومارسوا ضغوطهم، وكيف لا وهم الذين قدّموا لذلك البلد دعماً اقتصادياً كبيراً! ولا شك في أن مثل هذه الفرضيات التي تعزز دور السوفييت في الحد من دور غيفارا وتأثيره في كوبا وخارجها، وهو ما يلحظه المرء في مطالعة المصادر والمواقع الاشتراكية والماركسية، لا شك أنها تجذب اهتمام الكثيرين في صفوف الحركات الاشتراكية والتروتسكية في الغرب الرأسمالي وتدغدغ نزعاتهم وعواطفهم، إلا أن الأمر يظل في حكم التاريخ إلى حين تنقشع الغيوم وتتكشف حقائق جديدة. وفي كل الأحوال، فإن الدخول في الجدل حول الدور السوفييتي في المسيرة الثورية اللاحقة لتشي غيفارا، على أهميته، لا يساهم في فهم إرث غيفارا الثوري وفكره الاقتصادي في مرحلة التحول الاشتراكي.

خلاصة القول، إن غيفارا كان قد توصل من خلال دراسته للاقتصاد السوفييتي إلى قناعة راسخة بأن النمط السوفييتي في التخطيط والاقتصاد السياسي (القائم على نظام "التمويل الذاتي")، نمط لا يصلح لمشروع التنمية في كوبا. وبهذا المعنى، فإنه لا يجوز فهم نهج غيفارا (في "التمويل عن طريق الميزانية" وغيره من جوانب فكره الاقتصادي) في فضاءه المطلق، بل لابد من فهمه في سياق البناء الاشتراكي في كوبا وحرصه على بلورة أفكاره وبدائله قبل أن يستفحل النمط السوفييتي في مشروع التنمية في ذلك البلد، ومن أجل استدراك آثاره السلبية والضارة على غرار ما حصل في بلدان أوروبا الشرقية.

الفصل الثامن والعشرون

الإدارة الاقتصادية في الاتحاد السوڤييتي وكوبا: نمطان مختلفان

بالإضافة إلى التباين بين الخصوصيات والسمات العامة للتطور الاقتصادي في كل من كوبا والاتحاد السوڤييتي، كان هناك أيضاً اختلاف في نظام الإدارة الاقتصادية في هذين البلدين.

ففي حين اعتمد غيڤارا نظام "التمويل عن طريق الميزانية" في كوبا، استخدم السوڤييت نظاماً مختلفا يُدعى نظام "التمويل الذاتي". وسوف نعرض لاحقاً الفروق الجوهرية بين هذين النظامين. أما الآن فنكتفي بالقول بأنه في ظل "التمويل عن طريق الميزانية"، يكون تمويل الوحدات الإنتاجية مركزياً، وهو ما يؤكد خيار دور الدولة لا خيار مدير الشركة أو الوحدة الإنتاجية. أما وفق نظام "التمويل الذاتي" الذي اعتمده السوڤييت، فتُعتبر كل وحدة إنتاجية كياناً ذا هوية قانونية مستقلة وتكون مسؤولة عن تمويل ذاتها.[131]

اعتبر غيڤارا "التمويل عن طريق الميزانية" ركيزة أساسية لفكره الاقتصادي حيث رأى فيه حلاً لإشكاليات وتحديات مرحلة

---

[131] وهذا ما سمح للمدراء في الاتحاد السوڤييتي بلعب دور على مستوى المشروع وليس على مستوى اقتصاد الدولة ككل، وبالطبع ولد الحوافز المادية، ولاحقا النومنكلاتورا.

التحول الاشتراكي، وبديلاً عن نظام التمويل السوفييتي، "نظام التمويل الذاتي"، الذي ساد بعد وفاة ستالين ثم تم استنساخه ومحاكاته في البلدان الاشتراكية في أوروبا الشرقية.

يذهب البعض إلى أن غيفارا اخترع "نظام التمويل عن طريق الميزانية" تجاوباً مع نزعته الطوباوية لمرحلة التحول الاشتراكي، إلا أنه في الحقيقة رأى عكس ذلك ووجد في تطبيق هذا النظام ضمانة للإيفاء بالاحتياجات الأساسية والعاجلة للشعب الكوبي بعد انتصار الثورة وفي مواجهة التحديات الاقتصادية الجمة والحصار الإمبريالي الأميركي الخانق.[132]

لقد كان غيفارا مقتنعاً بأن نظام التمويل السوفييتي لا يصلح لمشروع التنمية في كوبا، وضمن هذا التحديد، فإنه لا يجوز فهم نهج غيفارا (ونظامه في التمويل عن طريق الميزانية وغيره من أفكاره الافتصادية) في فضاءه المطلق، بل في سياق البناء الاشتراكي في كوبا والحالات المشابهة في العالم الثالث، وحرصه على بلورة أفكاره وبدائله قبل أن يستفحل النمط السوفييتي في مشروع التنمية في ذلك البلد واستدراكاً لآثاره السلبية والضارة على غرار ما حصل في بلدان أوروبا الشرقية.

---

[132] عُين غيفارا يوم 7 اكتوبر 1959، أي بعد عشرة أشهر من انتصار الثورة الكوبية، مديراً "البرنامج التصنيع" في "المعهد الوطني للإصلاح الزراعي"، ثم تحولت دائرته هذه في أواخر فبراير 1961 إلى "وزارة الصناعة" وعين وزيراً لها.

أهم الفروق بين النظامين

وجد غيڤارا، كما أسلفنا، في "نظام التمويل الذاتي" الذي كان متبعاً في الاتحاد السوڤييتي مخاطر كبيرة فعارض تطبيقه في كوبا، وقدم "التمويل عن طريق الميزانية" أي من مصادر ميزانية الدولة، كبديل سعى إلى تطبيقه في الاقتصاد الكوبي حيث تقوم بالإنتاج وحدات إنتاجية (أو مؤسسات أو شركات) منتظمة في قطاعات مختلفة حسب التخصص الصناعي، يكون تمويلها مركزياً وكذلك ضبط وظيفتها وأدائها، أي كجزءٍ من تخطيط مركزي حقيقي.[133]

فيما يلي عرض موجز لأهم الفروق في البنية النظرية والتنظيمية بين هذين النظامين، هذا بالإضافة إلى الفروق التي تتجلى في مجالات النَقْد والمصارف وأسعار السلع.

1) تمويل الوحدات الإنتاجية

□ <u>نظام التمويل عن طريق الميزانية:</u> تقوم بالإنتاج وحدات إنتاجية (أو مؤسسات أو شركات) منتظمة في مؤسسات حسب التخصص الصناعي، تمويلها مركزي وكذلك ضبط وظيفتها وأدائها، وهو ما يؤكد خيار دور الدولة لا خيار مدير الشركة أو الوحدة الإنتاجية.

---

[133] راجع "ثبت المصطلحات".

□ نظام التمويل الذاتي: كل وحدة إنتاجية هي كيان ذو هوية قانونية مستقلة وهي المسؤولة عن تمويل ذاتها.

2) الحوافز المادية والمعنوية

□ نظام التمويل عن طريق الميزانية:

. الحوافز المادية، الجماعية والفردية (للعامل كفرد أو لمجموعة عمال في وحدة إنتاجية معينة)، هي في الجوهر تنازل ضروري، لابد منه بحكم الضرورة وفي مرحلة معينة، إلا أنها تقتصر على طريقة دفع الأجرة أو دفع المكافأة فقط ولا تشكل رافعة أساسية للإنتاج أو رفع الإنتاجية.

. التدريب والتأهيل المهني القسري شرط للترقية في العمل إلى وظائف أو مواقع عمل أرقى.

. الحوافز المعنوية: تلعب دوراً تقدمياً وأكثر أهمية، إضافة إلى كونها حوافز لتنمية الوعي الاشتراكي من خلال آليات العمل الطوعي، ومن هنا كان إصرار تشي غيفارا على خلق الإنسان الاشتراكي.

□ نظام التمويل الذاتي:

. تعتبر المصلحة المادية الذاتية للفرد هي الرافعة الأساسية لزيادة الإنتاجية وتنمية القوى المنتجة كشرط لخلق الوعي الاشتراكي.

. الحوافز المادية تتحقق من خلال دفع العلاوات (المكافآت المالية) إذا ما أنتج العامل ما يفوق المعدل المتوقع وكذلك كمكافأة للعمال المتفوقين.

3) قانون القيمة

□ <u>نظام التمويل بالميزانية</u>: في مرحلة التحول الاشتراكي يظل قانون القيمة موجوداً بشكل جزئي بسبب رواسب "مجتمع السلع" الرأسمالي، إلا أنه يتم في الوقت ذاته العمل على نسفه عن طريق الخطة الاقتصادية والتي تشكل النقيض الدياليكتيكي له (*anti-thesis*) وعن طريق العلاقات الاجتماعية الجديدة.

. ليس هناك مقولات سلعية (تبادلات سلعية) في التبادل القائم بين المؤسسات والشركات.

. العامل الأساسي في تقويم أداء المؤسسة هو تخفيض الكلفة، كلفة الإنتاج، وليس الربح أو زيادة الربح.

□ <u>نظام التمويل الذاتي</u>: التخلف (التقني والثقافي) هو ما يفسر وجود واستمرار واستخدام قانون القيمة في مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية.

. لابد من أخذ هذا القانون بالاعتبار في تقييم الخطة الاقتصادية.

. العلاقات السلعية تبقى بين كافة الوحدات الإنتاجية والمؤسسات والشركات.

. الربحية المالية هي المفتاح لتقويم الإنتاج وتحفيزه.

الفصل التاسع والعشرون

بين ملكية الأرض وملكية وسائل الإنتاج

نقد المزارع التعاونية السوفيتية (الكولخوزات)

ظهرت المزارع التعاونية . الكولخوزات في الاتحاد السوفييتي في أواخر عشرينيات القرن الماضي، وكان من أهم مميزاتها:

1) بأن أعضاء المزرعة التعاونية يحصلون على جزءٍ من منتوجها وأرباحها حسب "عدد الأيام" التي يقضونها في العمل والإنتاج.

2) وبأنه يحق لكل عضو أن يملك مساحة معينة من الأراضي وبعض المواشي ملكية خاصة.

وفي نقده لنظام الكولخوزات، أبدى غيفارا بعض الملاحظات المهمة والتي تغوص إلى جوهر النظام الاقتصادي السوفييتي:

□ رأى غيفارا أن نظام الكولخوز هو إحدى سمات النظام الاقتصادي السوفييتي وليس من خصوصيات النظام الاشتراكي وبالتالي لا يجوز تعميم هذه التجربة خارج السياق السوفييتي. وقد أعرب عن تذمره من أن "الدليل السوفييتي" كثيراً ما كان يخلط بين فكرة الاشتراكية من ناحية، وما كان يحدث في الاتحاد السوفييتي، من الناحية الأخرى.

□ كان غيفارا يرى أن التحدي الأكبر في التحول الاشتراكي يتمثل على وجه الدقة في الإشكالية التالية: كيف تتحول الملكية الجمعية (لمجموعة من الأفراد) إلى ملكية اجتماعية؟ هذا هو لب المشكلة كما رآها والتي لم تتصد لها بلدان الاشتراكية المحققة. وبدون حل هذا التناقض، وفق ما ارتأى، فإن التناقضات الطبقية سوق تبقى وسوف تعيق الانتقال إلى الشيوعية، إلى المجتمع اللاطبقي.

يستشهد "الدليل السوفييتي" بقول لينين إن نظام المزارع التعاونية في ظل الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج وفي ظل انتصار البروليتاريا على البرجوازية هو نظام اشتراكي.

أما غيفارا فقد اعتبر ذلك أحد أكبر أخطاء الاشتراكية للأسباب التالية:

1) قد تشكل ملكية "الجماعات المنتجة" لوسائل الإنتاج تقدماً أو خطوة إلى الأمام إذا ما قورنت بأشكال الملكية الرأسمالية، أما بالمعايير الاشتراكية فإنها تمثل ردة إلى الوراء لأنها تضع هذه الجماعات المنتجة والمالكة لوسائل الإنتاج في تضاد مع ملكية المجتمع لهذه الوسائل.

2) إن ملكية الأرض في الاتحاد السوفييتي ملكية اجتماعية، إلا أن وسائل الإنتاج الأخرى التي يملكها المزارعون الكولخوزيون ليست ملكية اجتماعية.، ناهيك عن اقتنائهم لممتلكات صغيرة أخرى توفر لهم الاحتياجات الغذائية الأساسية وتعمق الفجوة بين المجتمع من

جانب، والكولخوزيين من جانب آخر، على الأقل من الناحية الأيديولوجية أن لم تكن من الناحية المالية (النَقْدية).

لذا اقترح غيفارا أن تعتبر هذه المزارع شكلاً لمرحلة "ما قبل الاشتراكية" أي الفترة الأولى والمبكرة للتحول الاشتراكي مكرراً إصراره على أن "الملكية التعاونية" ليست شكلاً اشتراكياً.

□ وحيث أن هذه التعاونيات ليست شكلاً من أشكال الملكية الاشتراكية، كما رأى غيفارا، فقد اعتقد أنها تمثل بنية فوقية بما فيها من نمط علاقات الملكية والروافع الاقتصادية الرأسمالية. كما ذهب إلى أن هذا الشكل من التعاونيات يخلق تناقضات في علاقات الإنتاج لأنه يسمح بنظام ملكية يصطدم بالضرورة مع النظام القائم ومع تنظيم الكولخوز ذاته، إذ ينحو المُزارع للتقليل من العمل الجماعي كي يزيد، بالمقابل، من العمل لحسابه الخاص ومنفعته وإنتاجه الشخصي.

□ رأى غيفارا أن نظام الملكية في التعاونيات ونظام الكولخوز سوف يخلقان بنية فوقية رأسمالية تصطدم بملكية الدولة وبالعلاقات الاجتماعية الاشتراكية، وسوف تفرض المزيد من منطقها على المجتمع بأسره. وفي حين كان هذا النظام أكثر تقدماً من أشكال الملكية الرأسمالية إلا أنه سيعيق تطوير الأنماط الاشتراكية.

□ يدَّعي "الدليل السوفييتي" أن علاقات الإنتاج لشكل التعاونيات الكولخوزية يستجيب بالكامل لحاجات ولمستوى تطور قوى الإنتاج

الراهنة في الريف، وأنهم لم يستنفدوا إمكانياتهم بل إنه بمقدورهم أن يخدموا لوقت طويل خلال مرحلة تنمية قوى الإنتاج في القطاع الزراعي.

إلا أن غيفارا كان يعتقد أن المواجهة بين هذا الشكل الجماعي لملكية وسائل الإنتاج من جهة، والملكية الاجتماعية لتلك لوسائل من جهة أخرى، أمر لا مفر منه، محذراً من أنه عندما يحدث هذا الصدام، والذي ربما يحدث في المستقبل غير البعيد، فإنه سيكون للبنية الفوقية القدرة على المطالبة بالمزيد من "الحرية" أي أنها سوف تفرض شروطاً تؤدي إلى عودة الأشكال الرأسمالية.

□ لم ير غيفارا ضرورة للفوارق في الأجور التي كان يتلقاها هؤلاء المزارعون حسب حجم إنتاجهم.

□ يصف "الدليل السوفييتي" الطبقة العاملة وفلاحي الكولخوز على أنهما "طبقتان" في المجتمع الاشتراكي تتمتعان بعلاقات ودية، ولكن لكل منهما موقع مختلف في الإنتاج الاجتماعي. أما غيفارا فقد كانت له وجهة نظر مغايرة في هذا الصدد، إذ يقول: "إذا كان فلاحو الكولخوز يُعتبرون طبقة مستقلة بذاتها، فإن ذلك عائد إلى نمط الملكية التي يتمتعون بها، تلك الملكية التي لا يجوز اعتبارها سمة للاشتراكية، بل هي في الحقيقة مميزة للمجتمع السوفييتي".[134]

---

[134] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 245.

□ فنّد غيڤارا ادعاء "الدليل السوڤييتي" بأن نظام الكولخوز قد أظهر تفوقه على نظام الزراعة الرأسمالي، مذكراً أن الإنتاجية الرأسمالية في أميركا الشمالية تفوق الإنتاجية السوڤييتية على نحو غير معتاد وذلك بسبب الاستثمار في الزراعة هناك، معيداً إلى الأذهان أن الاتحاد السوڤييتي اضطر في عام 1963، بسبب تدني الإنتاج السوڤييتي المحلي، إلى شراء القمح من الولايات المتحدة بأسعار السوق العالمية. وأن ادعاء السوڤييت بتفوق مزارعهم ليس سوى "نكتة أو محاولة للتغطية على الحقيقة ببضعة كلمات".

الفصل الثلاثون

العلاقات الطبقية والصراع الطبقي

> **تذمر غيڤارا من فشل السوڤييت في التمييز بين الرأسمالية ما قبل الاحتكارية من جهة، وتلك الاحتكارية من جهة أخرى، والذي أدى إلى فهم خاطئ للتناقضات الطبقية بين الطبقة العاملة والبرجوازية. وكان غيڤارا قد نبه إلى وجهة النظر الصينية التي تقول أن تناقضاً جديداً قد ظهر بين الشعوب المضطهَدة والأخرى المضطهِدة وهذا هو الذي ينبغي أن يحدد إستراتيجية القوى التقدمية.**

وعلى خلاف ما جاء في "الدليل السوڤييتي" حول الصراع الطبقي، نقد غيڤارا الأطروحات التي وردت فيه لافتاً النظر إلى ترسيخ بعض المفاهيم الهامة نذكر بعضها فيما يلي:

1) لقد حولت الاستثمارات الأجنبية الطبقة العاملة في البلدان التابعة (الشعوب المضطهَدة) إلى منتفع نسبي مقارنة بطبقة الفلاحين التي لا يأبه أحد لحالتها المتردية.[135]

2) على الرغم من أن البرجوازية الوطنية لعبت تاريخياً دوراً تقدمياً في نضالات التحرر الوطني، إلاّ أن الرأسماليين الوطنيين اليوم

[135] كثيراً ما يُشار إلى هذه الظاهرة ب"رشوة" الطبقة العاملة.

يقيمون تحالفاً مع الإمبريالية خاصة في بلدان أفريقيا وأميركا اللاتينية.[136]

3) إن الثورة في الصين وفيتنام وكوبا لم تقم بقيادة البروليتاريا المتحالفة مع الفلاحين. وفي الحالة الكوبية، كانت الحركة المتعددة الطبقات هي التي تجذرت لاحقاً بعد الاستيلاء على السلطة.

4) لا تشارك الطبقة العاملة في الدول المتطورة حركات التحرر الوطني في العالم في نضالها ضد الإمبريالية ولا تساندها أو تتحد معها في كفاح مشترك، فقد أصبح العمال في البلدان المتطورة متواطئين مع الإمبرياليين الذين يلقون إليهم ببعض الفتات من استغلالهم للشعوب والنهب الإمبريالي لمواردها. أما البؤساء الحقيقيون في أغلب البلدان النامية فهم الفلاحون الذين فقدوا أراضيهم. هؤلاء هم القوة الحقيقية للثورة.[137]

5) هناك القليل من الأدلة على أن الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية استطاعت إزالة التفاوتات بين المدينة والريف. فالهدف، وفق ما ذهب إليه غيفارا، ينبغي أن يكون انصهار المدينة والريف لا التحالف بينهما، لأن الاشتراكية ليست ديكتاتورية متعددة الطبقات

---

[136] وجدير بنا هنا أن نضيف الأنظمة الكومبرادورية العربية أيضاً.

[137] انظر آثار العولمة الرأسمالية على أوضاع الفلاحين في بلدان العالم الثالث كما في المكسيك على سبيل المثال وغيرها العديد من بلدان أميركا اللاتينية وخصوصاً بعد إبرام الاتفاقيات الاقتصادية النيوليبرالية واتفاقيات التجارة الحرة والمناطق الصناعية الحرة مع الغرب الرأسمالي على غرار اتفاقية نافتا *NAFTA* وما شابه.

بل هي دكتاتورية البروليتاريا إعداداً ووصولاً إلى محو الطبقات وإقامة المجتمع الشيوعي اللاطبقي.

6) تزداد الطبقة العاملة في البلدان الإمبريالية قوةً من حيث تماسكها وتنظيمها، ولكن ليس من حيث وعيها. فقد خَلقت الإمبريالية شرخاً في موقف العمال في البلدان الرأسمالية: تنظيم قوي ووعي متنامي بالاستغلال الطبقي على المستوى المحلي فقط، ولكن دون أممية بروليتارية على الصعيد الخارجي، الصعيد الدولي. وهو ما يفسر، لماذا لم يعد هؤلاء (بروليتاريا البلدان الإمبريالية) الطليعة الثورية.

7) لقد شاعت الانتهازية في أجزاء كبيرة من الطبقة العاملة في البلدان الإمبريالية فيما يتعلق بعلاقتهم مع الدول التابعة، لذا نستطيع، حسب غيڤارا، أن نصف بعض الفئات من جماهير العمال في الدول القوية والغنية بالأرستقراطية العمالية مقارنة بعمال البلدان الضعيفة.

النقابات العمالية

ادعى "الدليل السوڤييتي" أن النقابات العمالية في ظل الاشتراكية منظمات جماهيرية (شعبية) مهمة لها الحق في مراقبة أداء الدولة لإكمال مهمتها وحماية القوانين. أما غيڤارا فقد ردّ بأن النقابات، بالطريقة التي يتم تنظيمها لا معنى لها، وبأنها جاءت نتيجة وضع خاص في الاتحاد السوڤييتي في لحظة تاريخية معينة ثم

تم استنساخها لاحقاً في البلدان الاشتراكية الأخرى. وذهب غيڤارا إلى أنه في مجتمع استولت فيه البروليتاريا على السلطة، فإن هذا الذراع للصراع الطبقي، أي النقابات، يجب أن يزول أي أن تحل هذه النقابات نفسها، لأن بقاءها أو الإبقاء عليها يتسبب في مشكلتين:

1) بقرطة الحركة العمالية

2) تعميق الفوارق بين العمال، حيث أن المعونات الاجتماعية تتباين بناءً على ثروة كل نقابة والتي تقوم هي الأخرى على الفوارق التي لا تزال قائمة بين أجور العمال.[138]

الصراع الطبقي والعنف

ادعى "الدليل السوڤييتي" أن ديكتاتورية البروليتاريا ليست بالضرورة "حرباً طبقيةً عنيفة". وفي رده، على هذا الادعاء، اتهم غيڤارا هذه الأطروحة بالانتهازية:

1) لأن ديكتاتورية البروليتاريا في رأي غيڤارا هي نظام عنف ضد البرجوازية. ومن الواضح أن حدة الصراع تعتمد على مقدار مقاومة المستغلِين، إلا أن الصراع ليس بأي حال من الأحوال "أرجوانياً"، ولو كان كذلك لتم ابتلاعه.

138 من هذا المنطلق نلحظ أن غرامشي أيد السوڤييتيات لا النقابات.

2) الاشتراكية، في فهم غيڤارا وإطار تحليله، هي دكتاتورية البروليتاريا، بينما الشيوعية هي محو الطبقات الاجتماعية، وقد دفع به هذا التحديد إلى الاستهزاء بالذرائعية التي تحدث بها "الدليل السوڤييتي" والتي حاولت التقليل من أهمية العنف المتأصل في الصراع الطبقي.

□ في حين تحدث "الدليل السوڤييتي" عن التأديب الأخوي والواعي للعامل (فرض النظام)، وجد غيڤارا أن هذا التأديب والنظام كان مفروضاً بالقوة في المجتمع الطبقي، بما فيه المجتمع الاشتراكي، باستخدام أساليب قسرية مقترنةً بالتثقيف إلى أن تصبح عملية التأديب عملية عقوبة تلقائية. ولكي يكونوا متناغمين مع أنفسهم، يقول غيڤارا قاصداً السوڤييت، فقد وضعوا الحوافز المادية كعامل تأديبي، وهي في الحقيقة كذلك، بالرغم من أنها تناقض التثقيف الشيوعي وفق الأسلوب الذي تطبق به حالياً.

□ خلص "الدليل السوڤييتي" إلى أن الدولة، في ظل الشيوعية، ستظل ضرورة كي تدافع عن الاتحاد السوڤييتي ودول المعسكر الاشتراكي الأخرى من العدوان الإمبريالي، وهي مقولة رفضها غيڤارا بحسم: "أولاً، هل يمكن للشيوعية أن تقوم في بلدٍ واحدٍ فحسب؟ ثانياً، إذا كان من الضروري أن تقوم الدولة بالدفاع عن البلد، فإن هذا سيكمل مهمة ديكتاتورية البروليتاريا، أم أنها شيء آخر أو تغيّر في النظرية. إن مثل هذه القضايا لا يمكن طرحها (ولا حلها) في فقرة منفردة لأي "دليل" مهما كان. هناك العديد من الأطروحات في هذا "الدليل السوڤييتي" والتي تظهر على "شكل

معادلة الثالوث المقدس، لا يتيسر فهمها، إلا أن الإيمان بها سيقدم الحل".[139]

□ في حين ركّز غيڤارا في تحليله للعلاقات الطبقية على آثار الإمبريالية على الشعوب المضطَهِدة (بالكسرة) ومجتمعاتها، والشعوب المضطهَدة (بالفتحة)، والعلاقة بين الشعوب المضطَهدة والمضطِهدة، فإن "الدليل السوڤييتي"، بصيغته الميكانيكية للماركسية الأرثوذوكسية، تجاهل هذا النهج بالكامل.

---

[139] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 253.

الفصل الحادي والثلاثون

قضايا البناء الاشتراكي

بدأ غيڤارا رحلته في البناء الاشتراكي في كوبا متأثراً بالنمط السوڤييتي، وكان، كما يعتقد الكثيرون، مهندس العلاقات الكوبية . السوفيتية في مطلع ستينيات القرن الماضي. إلاّ أنه سرعان ما أدرك، وخصوصاً بعد زياراته للاتحاد السوڤييتي[140]،

أن النمط السوڤييتي في البناء الاشتراكي لا يمكن أن يوصلنا إلى شاطئ الاشتراكية، فاتخذ، منذ ذلك الحين، مواقف ناقدة وصريحة حياله. وقد شكلت هذه المواقف التي لم تعرف المهادنة، في العديد من الحالات، إحراجاً للقيادة الكوبية.

شرع غيڤارا في رسم معالم الدرب الجديد خلال "الجدل الكبير" في كوبا (بين عامي 1963 و 1964) منطلقاً من ملاحظاته ومشاهداته النقدية للنمط الاقتصادي (الإنتاجي) السوڤييتي وطرق تمويله، حيث عبّر عن اختلافه مع هذا النمط ودعا بالمقابل إلى نظام التخطيط المركزي الذي يستند، وفق رؤيته، إلى القواعد والأحكام الاجتماعية والسياسية والأخلاقية السليمة للبناء الاشتراكي والإيفاء بحاجات الشعب الأساسية.

---

[140] زار غيڤارا الاتحاد السوفييتي للمرة الأولى في 21 أكتوبر 1960 وكانت زيارته الثانية في 27 أغسطس 1962، والثالثة (الأخيرة) 4-9 نوفمبر 1964.

سنضيء في هذا الفصل على بعض الجوانب النقدية للنمط السوفييتي في الإنتاج والاقتصاد والبناء الاشتراكي كما رآه غيڤارا.[141]

□ استيراد النمط السوفييتي: كان غيڤارا يرى أن استيراد نمط البناء الاشتراكي من دول أوروبا الشرقية يحمل مخاطر عديدة أهمها البيروقراطية وغياب العدالة الاجتماعية وتعميق الفجوة بين فئات المجتمع وتشكيل طبقة منتفعة من التكنوقراط والبيروقراط الذين احتكروا لأنفسهم العديد من الامتيازات. كما أنه لاحظ أن البناء الاشتراكي في أنظمة الاشتراكية القائمة فعلاً (المنظومة الاشتراكية آنذاك) قد اتخذ مساراً منفصلاً عن القيم الثورية وهو ما تجلى في حالة الركود التي سادت المجتمعات الاشتراكية آنذاك والتي كانت نتيجة مباشرة لأخطاء كثيرة في التخطيط والسياسات التي أبعدت ما بين الجماهير وسلطة الدولة. فقد قامت الدولة في تلك المجتمعات بتهميش الجماهير وقلّصت مشاركتها في صنع القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما نتيجة ذلك فهي معروفة للجميع، إذ فقدت الجماهير كل أمل بالمستقبل الموعود وتخلت عن مبادئ الاشتراكية والماركسية والتي هي في صميمها وجوهرها مبادئ إنسانية وأممية.[142]

لهذه الأسباب، أخذ تشي غيڤارا في السنوات الأخيرة من حياته بالابتعاد قدر المستطاع عن النمط السوڤييتي، وخلّف الكثير

[141] للاستفاضة راجع فصل "الخلاف حول "السياسة الاقتصادية الجديدة".

[142] Che Guevara Reader: Writings on Politics & revolution, p. 226.

من الأعمال الناقدة لهذا النمط. وقد سبق وذكرنا أن أهم هذه الأعمال وأكثرها راديكالية هو ما كتبه غيڤارا في نقده لـ"دليل الاقتصاد السياسي السوڤييتي" *Manual of Soviet Political Economy* الصادر عن أكاديمية العلوم السوفيتية والذي حمله الخبراء السوڤييت إلى كوبا كدليل في بناء الاقتصاد الكوبي. وحسب ما يقوله كارلوس تابلادا *Carlos Tablada* فإن غيڤارا وصف الخطط الاقتصادية السوفييتية بأنها طرائق "ميكانيكية" و"غير ماركسية". "لابد للجماهير أن تدير بشكل مباشر مصيرها وأن تقرر أية حصة من الإنتاج ستخصص من أجل التراكم وأي منها يذهب للاستهلاك. ويتوجب على التقنيات الاقتصادية أن تدار ضمن حدود هذه المعطيات ولابد لوعي الجماهير أن يضمن تنفيذها".

□ الاشتراكية بدون قيم أخلاقية: على النقيض من السياسيات الاقتصادية السوفييتية التي تعظ "بتنمية قوى الإنتاج" والتي نادى بها ستالين وخرشتشيف ومَنْ خلفهما من القادة السوڤييت، فإن غيڤارا لم يكن يرى انفصاماً بين بناء الاشتراكية والقيم الأخلاقية إذ قال: "لست معنياً بالاشتراكية الاقتصادية الخالية من الأخلاق الشيوعية. نحن نكافح الفقر وفي الوقت ذاته نكافح الاغتراب أيضاً... إذا تم فك الارتباط بين الشيوعية والوعي، فإنها تصبح [أي الشيوعية] مجرد وسيلة للتوزيع ولكنها لن تكون أخلاقية ثورية".[143]

[143] Michael Löwy, "Neither imitation nor copy".

□ النظام الاقتصادي الهجين والتطور "اللا رأسمالي": لقد عالجنا سابقاً هذه الأطروحات السوفييتية المنسوبة إلى لينين التي تقول بأنه من الممكن في ظروف تاريخية معينة لبلد متخلف وتحت قيادة الطبقة العاملة أن يتم التطور، من المنظور الاقتصادي والاجتماعي، "بطريقة لا رأسمالية". وتستطيع هذه البلدان المتخلفة أن تلج تدريجياً إلى الاشتراكية دون المرور بمرحلة التنمية الرأسمالية، إذ تفسح الثورة الديمقراطية . البرجوازية الطريق للثورة الاشتراكية. غير أن غيڤارا انتقد هذه الأطروحات وأبدى شكوكه في استخدام لينين لمصطلح "طريق لا رأسمالي" مؤكداً أنه ليس هناك طريق ثالث: فالخيار هو إما الرأسمالية أو الاشتراكية.

□ ولوج الاتحاد السوڤييتي إلى الشيوعية: أشرنا في مكان آخر من هذا الكتاب أن السوڤييت والتشيكيين ادّعوا أنهم قد اجتازوا مرحلة التحول الاشتراكي ودخلوا مرحلة الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية. أما غيڤارا فقد اعتبر هذا الادعاء زائفاً حيث ما زالت الملكية الخاصة موجودة في كلا البلدين.

□ الوصول السلمي إلى الاشتراكية: بشّر "الدليل السوڤييتي" أنه من الممكن الوصول إلى الاشتراكية سلمياً ومن خلال الطريق البرلماني، أما غيڤارا فعارض ذلك ودحض إمكانية حدوثه بل تحدى السوڤييت إثبات ما يدعونه.

□ التنمية الاشتراكية: فيما يخص التنمية الاشتراكية للاقتصاد أكد "الدليل السوڤييتي" أن القانون الاقتصادي الأساسي في الاشتراكية هو: أن الإنتاج يكون لتحسين الحياة المادية

للعمال ومستواهم الثقافي، ويتم الوصول إلى ذلك عن طريق التوسع السريع والمتواصل للصناعة والتطبيق الكامل للتكنولوجيا المتقدمة. كما أكد "الدليل السوفييتي" أن التنمية متناغمة مع الموارد الاقتصادية، وقد وافق غيفارا على صحة المقولة ولكنه وجدها غامضة، إذ أنها لا تحدد معنى التنمية المتناغمة.

وحول دور الإنتاج في تحسين حياة العمال، فقد كان غيفارا يرى أن هذا الطرح هو أضعف نقطة في الاقتصاد السياسي الاشتراكي وقد يصلح لأن يكون حديثاً أو شعاراً أخلاقياً في برنامج سياسي لحكومة بروليتارية، إلا أنه لا يتسم بأي طبيعة اقتصادية. ولو كان لنا أن نفترض وجود قانون اقتصادي أساسي لكان التخطيط هو ذلك القانون بعينه، داعياً إلى فهم التخطيط على أنه "الفرصة الأولى المتاحة للإنسان للسيطرة على القوى الاقتصادية"، مما يعني أن القانون الاقتصادي الأساسي، حد قوله، هو ذلك القانون القادر على تفسير وإدارة القوانين الاقتصادية لتلك الفترة.

□ القوانين الاقتصادية في الاشتراكية: روّج السوفييت لعدد من "القوانين الاقتصادية الاشتراكية" والتي خالفهم غيفارا فيها الرأي. فعلى سبيل المثال يزعم "الدليل السوفييتي" بأن الإنتاج متواصل دون تقطع لأن الإنتاج حر من الأزمات ولا يتأثر بها. أما غيفارا فرأى أن هذا فهم مثالي، ودليل ذلك المشاكل التي واجهتها بلدان أوروبا الشرقية وأزمة القمح في عام 1963، وذهب إلى أن الإنتاج يمكن أن يتقطع ويتعطل بشكل خطير وقد كانت هناك

أزمات وفترات ركود في الإنتاج حتى وإن كانت أسبابها ناجمة عن أخطاء.[144]

أمّا الادعاء الآخر الذي روّج له السوڤييت فهو زوال التناقض التناحري بين التراكم والاستهلاك، وهو ما ردّ عليه غيڤارا بوضوح بأن هذا التناقض قد يكون تناحرياً، إلا أنه يظل تناقضاً مهماً ويجب أخذه بعين الاعتبار في الخطة الاقتصادية السنوية.

□ رفع إنتاجية العامل: يطالب النمط السوفييتي في الإنتاج العامل بالسعي إلى رفع إنتاجيته بشكل مستمر. أما غيڤارا فقد لمس في ذلك إساءة كبيرة لأنه ذات الميل الذي ما فتئ يدفع بالرأسمالية منذ قرون. ورأى أن السعي إلى زيادة الإنتاجية عن طريق الحوافز الفردية يعني السقوط إلى ما هو أدنى من الرأسماليين وهو ما يضاعف استغلال العامل، ورأى أن الحل لمسألة رفع الإنتاجية يكمن في التكنولوجيا، فهي التي توفر القفزات الكبيرة في النوعية فيما يتعلق بالإنتاجية.

□ التراكم الاشتراكي: ادّعى "الدليل السوڤييتي" أن التراكم الاشتراكي يتطلب استثماراً منتظماً لجزءٍ من الدخل القومي في ميزانية الإنتاج. وفي هذا وجد غيڤارا قانوناً رأسمالياً أيضاً ولكنه يأخذ، هذه المرة، زيًّا مختلفاً. فالوصول إلى الشيوعية لا يمكن أن

---

[144] يعود هذا الفهم السوڤييتي إلى ما زعمه ستالين من أن الطلب يكون أقل من العرض في مرحلة بناء الاشتراكية نظرا لضعف القوة الشرائية، ثم جاء خروشتشيف ليثبت بطلان ذلك.

يتحقق عن طريق وضع أهداف تتمثل في تأمين "الخبز والبصل" (يقصد توفير الاحتياجات الأساسية للسكان)، بل أن ما يوصلنا إلى الشيوعية هو مستوى ثابت من تنمية القوى المنتجة ومستوى متطور من وعي الجماهير ووضع ملكية وسائل الإنتاج في أيدي المجتمع.

□ التوزيع وأجور العمال: فيما يتعلق بالتوزيع (دفع الأجور)، فقد اكتفى السوڤييت بدفع أجور العمال حسب مقدار عملهم (أي بمقدار إنتاجهم). وقد وصف غيڤارا هذه الأطروحة بأنها غامضة وغير دقيقة فيما يتعلق بالواقع الراهن وطرح أسئلة مثل: ما هو مقدار العمل الذي يستثمره جنرال، على سبيل المثال، أو مدرّس أو وزير أو عامل؟

لقد آمن لينين في كتابه "الدولة والثورة" بالفكرة الماركسية التي تسعى إلى تحقيق المساواة في الرواتب بين العمل اليدوي والمكتبي، إلا أن ذلك للأسف لم يتحقق. أما غيڤارا فقد ساهم بين عامي 1962 . 1964، في مشروع صياغة وإقرار جداول للرواتب في كوبا، تضمنت بالطبع فروقاً في الرواتب والأجور، إلا أن هذه الجداول كانت تتجه نحو تناغم الأجور والتعويضات والمكافآت ما يعتبر خطوة أساسية في نسف مفعول قانون القيمة وسلعنة قوة العمل.

كان غيڤارا يرى أن الرواتب تشكّل اعتراف المجتمع بأن الأفراد قد أكملوا واجبهم الاجتماعي، أما "الدليل السوڤييتي" فلم يرى مشكلة في أن تتفاوت الرواتب في قطاعات اقتصادية معينة

حيث يتقاضى بعض العمال أجوراً أعلى، وهو ما اعتبره ڤيڤارا مناقضاً لقانون التوزيع وفق العمل المنجز، مستخلصاً أن هذا كله ليس سوى نتيجة لفشل الحوافز المادية. إنه، حسب قوله، "هزيمة الاشتراكية".

الفصل الثاني والثلاثون

الموقف السوفييتي من الرأسمالية

نستعرض في هذا الفصل أهم نقاط الخلاف بين غيفارا والاتحاد السوفييتي فيما يتعلق برؤية الأخير للعلاقة مع الرأسمالية والتي روّج لها في "الدليل السوفييتي".

الخوف من نقد الرأسمالية

رغم هيمنة الرأسمالية كنظام عالمي على مقدرات الشعوب ومستقبلها، ورغم مرور خمسة قرون على نشأة هذا النظام، فإن غيفارا رأى أنه، من المنظور التاريخي، لا تتوفر لهذا النظام شروط الديمومة. بل لم يخامره الشك بأنه إلى زوال. لذا دعا إلى تحدي الرأسمالية دون هوادة، وإلى محاربتها ونقدها نقداً جذرياً ومستمراً وأكد أنه في هذا يكمن الشرط الضروري لتحرير العمال والطبقات الشعبية والفلاحين والفقراء والشعوب المهمَشة والمضطَهَدة الذين يشكلون اكثر من 80 % من البشرية. ومن هنا أيضاً رفض غيفارا بعناد كافة أشكال المهادنة والتواطؤ و"التعايش السلمي" وغير السلمي مع النظام الرأسمالي وطالب بنقده وتحديه ومقاومته بكافة الأشكال. فالماركسية عنده هي إثراء الإنسانية ومدها بأدوات النقد

والتحدي دون خوف أو تردد. وهكذا رأى أن الماركسية لا تحيا من دون التفكير النقدي، الماركسية الخلاّقة، لذا نراه يدعو إلى إزالة الخوف أو التردد وشجع كافة أشكال التفاعل والمساهمة في كافة الميادين وعدم الانصياع لمسلمات الدوغما الماركسية. ولهذا كله، كان الصدام بين غيفارا والسياسة السوفييتية حتمياً.

رشو الطبقة العاملة في المجتمعات الرأسمالية

ينتقد غيفارا "الدليل السوفييتي" لأنه تبنى فهماً ماركسياً كلاسيكياً للصراع الطبقي في المجتمعات الرأسمالية أي للعلاقات الطبقية بين البرجوازية والطبقة العاملة، دون اعتبار تأثيرات الإمبريالية. وفي هذا الصدد، تركز اهتمام غيفارا في تأثيرات الإمبريالية على الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتقدمة مشيراً إلى أن جزءًا كبيراً من هؤلاء العمال يحظون بمستوى معيشة عالٍ على حساب الفقراء من الشعوب المستغَلة. ولم يكن غيفارا في قوله هذا يقصد "الأرستقراطية العمالية" فحسب، بل الطبقة العاملة برمتها في البلدان الإمبريالية، تلك الطبقة التي تنتفع من الاستغلال الإمبريالي ونهب موارد وثروات الشعوب المضطَهدة والمستعمَرة، ومن التقدم التكنولوجي للرأسمالية الاحتكارية.

وفي حين أشار "الدليل السوفييتي" إلى أن الرأسماليين يهاجمون مستوى المعيشة للطبقة العاملة والتي تنهض بالتالي للمقاومة، فان غيفارا أقام الحجة على أن الإمبريالية الحديثة في

البلدان الرأسمالية "تميل إلى أن تتقاسم مع العمال بعض الفتات الناتجة عن استغلالها للشعوب الأخرى. ومن الناحية الثانية، فإن الميل نحو زيادة الإنتاج يتطلب زيادة في الاستهلاك والتي يتسنى تحقيقها على نحو مستمر فقط حين تصبح البضائع الجديدة جزءًا أساسيا من حياة العامل، وعليه فإنهم [العمال] جزء من تشكيلة قيمة قوة العمل (بضائع مثل المذياع والتلفاز والسينما والأجهزة المنزلية... الخ)."[145]

أجور العمال

أعار غيفارا مسألة أجور العمال أهمية كبيرة مذكِّراً بتحليل ماركس بأن هذه الأجور تتجه نحو التدني والذي رأى فيه غيفارا موضوعاً خلافياً: "يبدو لي أنه لابد من دراسة ذلك في أجزاء ثلاثة: نزوع الرأسمالية نحو تخفيض الأجور، الحاجة لرفع بيع المنتوجات والتي تتجه نحو زيادة قيمة قوة العمل، والإمبريالية كنظام عالمي ينزع نحو إفقار البلدان وفي الوقت ذاته إلقاء بعض الفتات للطبقة العاملة [في البلدان الرأسمالية . م.ع.]".[146] وتفسر هذه الظاهرة

[145] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 241.
[146] Ibid., p. 242.

الأخيرة، حسب غيڤارا، لماذا توقفت جماهير العمال في البلدان الرأسمالية عن كونها طليعة الثورة العالمية.[147]

في رده على "الدليل السوڤييتي"، لم يغفل غيڤارا أن الرأسمالية تزيد من كثافة العمل دون رفع الأجور، مشيراً إلى ميل الرأسمالية الاحتكارية نحو الإنتاج الآلي (المؤتمت *automated*) حيث تتحكم الآلات، بدل العامل، بوتيرة الإنتاج وحيث تكون تباينات خفيفة عن المعدل الطبيعي للعمل لأن وسائل وتكنولوجيا الإنتاج الحديث تتطلب من الإنسان جهداً جسمانياً أقل.

الأزمات الاقتصادية في النظام الرأسمالي

ادعى "الدليل السوڤييتي" أن الأزمات الرأسمالية تبين أن تطور القوى المنتجة في الرأسمالية قد تجاوز العلاقات البرجوازية في الإنتاج والتي (أي العلاقات) تعيق المزيد من تطور القوى المنتجة.

هنا يتساءل غيڤارا: كيف يتسنى النظر إلى تاريخ الأزمات بالعودة إلى الوراء مائتي عام وتقديم مثل هذا العرض والتفسير؟ مضيفاً أن هناك "أزمة نمو" تقود إلى التركيز الاحتكاري لرؤوس

---

[147] تجدر هنا ملاحظة أن الرأسمالية بطبيعتها ذات مصلحة في دفع أجور ضئيلة، رأسمالية الأجر الأدنى. وتتجلى هذه في الأزمات الاقتصادية كما هي اليوم ولا سيما في الولايات المتحدة. وهذه بالطبع ظاهرة تتناقض مع الكينزية والفوردية اللتين كانتا وراء ازدهار فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

الأموال. والمشكلة عنده تكمن في أن ماركس لم يدرس معنى الأزمة دراسة كاملة، إذ لم يتسن له ذلك ضمن الحقبة التاريخية . السياسية التي عاشها، أما السوفييت فقد استمروا باستخدام ذات التعميمات التي جاء بها ماركس.

هل حقاً أن "الرأسمالية في مرحلة الاحتضار"؟

حذر غيفارا من وصف لينين للإمبريالية على أنها "الرأسمالية في مرحلة الاحتضار" وليست مجرد رأسمالية احتكارية وطفيلية، ورأى أنه ربما الأدق أن نستخدم مفردة "رأسمالية ناضجة" للتعبير عن أنها وصلت إلى توقف قدرتها على المزيد من التطور. وقال موضحاً:"...قد لا يكون الرجل في منتصف عمره قابلاً للمزيد من التغيرات الفيزيولوجية، إلا أن هذا لا يعني أنه يحتضر. يصل النظام الرأسمالي في مرحلة الإمبريالية إلى نضوجه الكامل، مع أنه بالرغم من ذلك لم يستنفد كافة إمكانياته في اللحظة الراهنة وما زال يتمتع بحيوية كبيرة".[148] لذا لعل من الأدق الحديث عن العولمة كطور أعلى . حتى اللحظة - للرأسمالية، أي أن هذه لم تتوقف عند الإمبريالية.

---

[148] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 242-243.

الإنتاج العسكري واستخدام العنف في محاربة الرأسمالية

لقد قدر غيفارا تقديراً دقيقاً القوة الإنتاجية والعسكرية والسياسية الهائلة للرأسمالية. وهو واقع لا يمكن تجاهله في طموحنا وتوجهنا صوب التحول الاشتراكي. وقوة العالم الرأسمالي هذه هي التي تحدد سياق النضال من أجل الاشتراكية. وقد صلّب هذا الإدراك عند غيفارا من اعتقاده بأن الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية عملية لابد أن تكون واعية ومفروضة بالعنف.

الفصل الثالث والثلاثون

السوفييت والعلاقات مع الدول الاشتراكية

في حين كان من المفترض أن تتميز الدولة الاشتراكية، من حيث تنظيم العلاقات الاقتصادية، بالتخطيط الاقتصادي والدعم المتبادل بين بلدان المعسكر الاشتراكي، وجد غيفارا أن هذه الأطروحة صحيحة نظرياً، إلا أن الشوفينية قد حلت في الواقع محل الأممية، (شوفينية القوى الكبرى والصغرى) أو بالخضوع للاتحاد السوفييتي، والحفاظ على الفوارق بين دول أوروبا الشرقية، وفي مثل هذه المواقف، رأى غيفارا تنكراً لأحلام شيوعيي العالم.

ادّعى "الدليل السوفييتي" أن التنمية الاقتصادية في الدول الاشتراكية تعزز العلاقات بين هذه البلدان في اتجاه مضاد للرأسمالية. إلا أن غيفارا ردّ بأنه حتى في ظل الاشتراكية يمكننا، من الناحية النظرية، إثارة مشكلة التنمية غير المتكافئة. فقد فرضت الممارسة العملية مشكلة التناقضات المستفحلة وغير القابلة للحل والتي اتخذت في بعض الأحيان طبيعة أيديولوجية ولكنها كانت دائماً ذات أرضية مادية واقتصادية. وقد تسببت هذه التناقضات في المواقف التي اتخذها كل من الاتحاد السوفييتي والصين ورومانيا

وكوبا حيال المشاكل التي يبدو أنها في الظاهر غير مرتبطة بالاقتصاد. وهنا قدّم غيڤارا أمثلة من الصراعات التي كانت قائمة بين الاتحاد السوڤييتي والصين للتدليل على خطأ الادعاءات التي جاء بها "الدليل السوڤييتي"، مضيفاً إلى "أن هناك العديد من المشاكل الأخرى التي لم تطفو على السطح إما لأسباب تكتيكية أو بسبب الخوف".[149]

"المساواة" بين الدول الاشتراكية

كان غيڤارا يرى أن مثال الكوميكون - مجلس الدعم الاقتصادي المتبادل *Council for Mutual Economic Assistance (CMEA)* - الذي كان قائماً آنذاك بين الاتحاد السوڤييتي والبلدان الاشتراكية الأخرى، يعري كذبة أن الدعم الاشتراكي المتبادل قائم بين دول متساوية لأن أساس سعر السلع المتبادلة تجارياً بين هذه البلدان كان يستند إلى أسعار السوق العالمية والتي كانت مشوهة بالتبادل غير المتكافئ، وهو ما وفر المزيد من الأرباح والإثراء للدول المتقدمة صناعياً في حين كان كارثة على البلدان التي تصدر المواد الخام.

انطلاقاً من هذا، طالب غيڤارا بنظام يقوم على المساواة في علاقات التبادل التجاري بين الدول الاشتراكية: "فمن الضروري

---

[149] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 255.

خلق مؤشرات إنتاجية تفرض على البلد الأكثر تطوراً أن يبيع السلع بسعر أرخص وأن يشتريها بسعر أعلى من الدول [الاشتراكية] الأقل تطوراً"، لأن هذا من شأنه أن يساوي من وتيرة النمو بين البلدان المتقدمة والأخرى المتخلفة. فمثل هذا التضامن الأممي الذي لا يسعى إلى مصلحة أنانية أو آنية، هو التعبير الأسمى عن الوعي الاشتراكي". وفي إحدى زياراته لمصر، صرح غيڤارا لصحيفة مصرية في القاهرة أن كوبا الثورية اقترفت أخطاءً كبيرة في تطوير اقتصادها وذلك بسبب النصائح الخاطئة التي تلقوها من السوڤييت وحلفائهم.[150]

القروض بين الدول الاشتراكية

عارض غيڤارا بشدة فرض الفوائد على القروض التي تقدمها الدول الاشتراكية لبلدان اشتراكية أخرى، بنفس القدر الذي عارض فيه فرض الفوائد على القروض التي تحصل عليها الشركات داخل كوبا ذاتها، بل اعتبره عملاً غير أخلاقي بغض النظر عن قيمة الفائدة.

ولم يتردد غيڤارا في التعبير عن رأيه بأن القروض التي قدمها السوڤييت لدول العالم الثالث كانت تجني فائدة وتعود بالربح على السوڤييت، تماماً كما يحصل في ظل النظام الرأسمالي. ولهذا

[150] Ryan, Henry Butterfield, The Fall of Che Guevara, Oxford University Press, New York, 1998, p. 27.

حاول، عندما تولى إدارة البنك المركزي ولاحقاً كوزير للصناعة، الحد من أرباح البنوك من القروض التي يقدمونها للشركات مما وفر للصناعات الناشئة القدر الأكبر من السيولة المالية.[151]

بالإضافة، رأى غيفارا أن البلدان الاشتراكية عجزت عن توفير الدعم للبلدان النامية بل أبرمت اتفاقيات مع هذه البلدان على أساس قانون القيمة (يقصد الأرباح وفرض الفائدة على هذه القروض). إلا أنه لم ينكر، رغم نقده هذا، أن الاتحاد السوفييتي والصين قد تبعتا دوماً وعلى نحو ثابت سياسة الأممية البروليتارية معترفاً ومثمناً الدعم الذي لقيته كوبا من هذين البلدين الاشتراكيين.

أممية العلاقات بين الدول الاشتراكية

خلص غيفارا، من تجربته مع الدول الاشتراكية بقطبيها الرئيسيين، الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي، والتفاوض معهما حول وسائل الدعم الاقتصادي والعسكري، خلص إلى أن سياسات هذه الدول الاشتراكية تفتقر إلى الأممية. فقد انتقدهم لفرض شروط للتبادل التجاري مع الدول الفقيرة في سوق هيمنت عليها الإمبريالية، معيباً عليهم أنهم لم يقدموا الدعم غير المشروط، بما

[151] Besancenot, and Lowy, Che Guevara: His Revolutionary Legacy, p. 25.

فيه الدعم العسكري، للدول الفقيرة ولنضالها وخاصة في الكونغو وفيتنام.[152]

وفي وضوح قلّ نظيره، يشرح غيڤارا رؤيته للعلاقة الأممية التي ينبغي أن تقوم بين الدول اشتراكية وشعوب العالم الثالث الساعية إلى التحرر والاستقلال والتنمية: " لقد قلنا إنه في كل مرة يحقق بلد ما التحرير، فإن هذا يكون هزيمة للنظام الإمبريالي العالمي. ولكنه علينا أن نتفق أن الحسم لا يتحقق بمجرد إعلان الاستقلال، أو تحقيق نصر عسكري لثورة ما. إنما يتحقق الحسم حين يتم القضاء على الهيمنة الاقتصادية العالمية على الشعوب. وعليه، فإنه من المصلحة الحيوية للدول الاشتراكية أن يتم إنجاز حسم حقيقي، وإنه من واجبنا الأممي، ذلك الواجب الذي تمليه علينا الأيديولوجيا التي ترشدنا، أن نقدم جهودنا كي يتم تحقيق هذا التحرير في أسرع وقتٍ ممكن، وعلى أعمق نحوٍ ممكنٍ أيضاً."

ويتابع في هذا الصدد رؤيته لضرورة والحاحية هذه العلاقة وهذا الدعم: "من هذا كله، ينبغي علينا أن نتوصل إلى الاستنتاج التالي: إنه يتوجب على الدول الاشتراكية الآن أن تساعد الدول (يقصد دول العالم الثالث) في دفع كلفة تنميتها وهي على درب التحرير... فالاشتراكية لا يمكن أن تتحقق إلاّ إذا كان هناك تغيير في وعي الإنسان، ذلك الوعي الذي يقوم على موقف أخوي جديد تجاه الإنسانية على مستوى الفرد في المجتمعات التي تقوم ببناء الاشتراكية أو تلك التي أتمت بناءها، من ناحية، كما تقوم، من

[152] Ibid., p. 113.

الناحية الثانية، على مستوى عالمي في العلاقة تجاه كافة الشعوب التي تعاني من القمع الإمبريالي."[153]

[153] Che Guevara Reader: Writings on Politics & revolution, p. 341.

الفصل الرابع والثلاثون

غيڤارا والنزاع الصيني - السوڤييتي

على الرغم من غياب العلاقات الدبلوماسية والرسمية بين كوبا والصين الشعبية فور انتصار الثورة الكوبية، فإن العلاقات بين البلدين تعود إلى الأيام الأولى لاستلام الثورة السلطة في كوبا، وذلك عبر العلاقة بين الحزب الشيوعي الصيني والحزب الاشتراكي الشعبي (الكوبي) *Partido Socialista Popular (PSP)* (والذي تطور لاحقاً إلى الحزب الشيوعي الكوبي) خلال الفترة الممتدة منذ عام 1959 إلى أواخر عام 1960 ولاحقاً في تنامي العلاقة بين حكومتي البلدين.

في الثاني من أيلول (سبتمبر) 1960 حَسَمت الحكومة الثورية الكوبية موقفها من مسألة تمثيل الشعب الصيني بعد أن أعلن كاسترو قطع العلاقات مع تايون وإقامتها مع الصين الشعبية.

غير أن العلاقات بين كوبا والصين الشعبية لم تدم طويلاً قبل أن تصل إلى قطيعة تامة. وقد تميزت تلك العلاقات خلال هذه السنوات القليلة بتوترات عديدة لم تقتصر على تفاقم العلاقات بين كوبا والصين وتجاذبات كبيرة في مراوحة كوبا في حسم خيارها في النزاع الصيني - السوفييتي، بل اتسمت أيضاً بحقبة ساخنة من

الحرب الباردة بين الإمبريالية الأميركية والاتحاد السوفييتي، كادت تودي بكارثة نووية كانت كوبا ساحتها الرئيسية. خلال تلك الفترة لعب غيفارا دوراً مركزياً في تشييد علاقة كوبا مع الصين الشعبية وظل خلالها في مركز النزاع الصيني - السوفييتي وكل ما جلبه هذا النزاع من تحديات وتداعيات ثقيلة على القيادة الكوبية والحزب الشيوعي الكوبي، وليس بقدرٍ أقل، ما تركه من بصمات عميقة على الدرب الكوبي في بناء الاشتراكية وإدارة الاقتصاد ومعالجة القضايا الاجتماعية.

الحذر في الموقف الصيني

حرصت الصين الشعبية، حتى قبل أن يعلن فيدل كاسترو التزام بلاده بالاشتراكية يوم 16 نيسان (ابريل) 1962، على دعم الثورة الكوبية وتعزيز دربها في التحول الاشتراكي، وقدمت لكوبا الدعم السخي رغم ما كان يعانيه الشعب الصيني آنذاك من عوز في حقبة "القفزة الكبرى إلى الأمام"[154]. وبالرغم من إدراك المسؤولين الصينيين أن اعتماد الاقتصاد الكوبي على إنتاج السكر وعائداته كان السبب الرئيسي للعلاقة مع موسكو، إلاّ أن القيادة

---

[154] امتدت مرحلة "القفزة الكبرى إلى الأمام" في الصين الشعبية بين عامي 1958 و1961، ومثلت حملة اقتصادية واجتماعية شنّها الحزب الشيوعي الصيني بزعامة ماو تسى تونغ هدفت إلى تحويل الصين من الاقتصاد الزراعي إلى المجتمع الاشتراكي من خلال التصنيع السريع والجماعي. وقد عاني المجتمع الصيني خلال هذه الفترة من صعوبات اقتصادية واجتماعية جمة.

الصينية كانت تأمل أن تبقى كوبا، على الأقل، حيادية في النزاع الصيني - السوفييتي.

اتخذت القيادة الصينية (ممثلة بزعيميها ماو تسي تونغ وشوان لاي)، خلال الأعوام المبكرة من الثورة الكوبية، موقفاً حذراً في علاقاتها مع كوبا لأسباب عديدة أهمها:

1) احتمال الغزو الأميركي لكوبا والإطاحة بالنظام الثوري الجديد.

2) كان الصينيون يتلمسون منذ بداية عام 1959 أن الثورة الكوبية ستنتهج الدرب الاشتراكي، ولكنهم كانوا يتوجسون من تلكؤ كاسترو من الإعلان عن التزامه بالنهج الاشتراكي حتى نيسان 1962 أي بعد سنة من الغزو الأميركي لكوبا في "خليج الخنازير".

3) رغبة القيادة الصينية في التريث ومراقبة تطور العلاقة بين كوبا وتايوان للتأكد من اتخاذ الأولى اجرءات عملية نحو قطع العلاقات مع الأخيرة.

4) بالإضافة إلى هذا كله، لم تكن القيادة الصينية على يقين إلى ما ستؤول إليه طبيعة النظام الحاكم في كوبا، ومَنْ هي القوة السياسية التي ستتصدر المشهد الكوبي: هل هي حركة 26 يوليو - قائدة الثورة الكوبية تحت زعامة فيدل وراؤول كاسترو وتشي غيفارا) والتي عُرفت آنذاك باسم الكاسترويين، أم الحزب الاشتراكي الشعبي *PSP* حزب الشيوعيين الكوبيين؟[155]

---

[155] حو ل نشأة الحزب الشيوعي الكوبي وعلاقته بحركة 26 يوليو، راجع "ثبت المصطلحات".

غير أن هذا الحذر الصيني لم يكن ليعيق الصين الشعبية في دعمها للثورة الكوبية وتعزيز مسيرتها نحو انتهاج الاشتراكية حتى قبل إقامة العلاقات الدبلوماسية بين كوبا والصين الشعبية. ولم يقتصر الدعم الصيني على المعونات الاقتصادية، بل شمل أيضاً:

1) رعاية الصين الشعبية للحكومة الثورية الناشئة في كوبا ومساندتها في مواجهة المخاطر والتهديدات الإمبريالية الأميركية وتفهم الظروف العصيبة التي كانت كوبا تمر بها بعد انتصار ثورتها.

2) تذكير القيادة الكوبية وتحذيرها من خطر التهديد والتدخل الأميركيين من أجل الانقضاض على الثورة في كوبا.

3) حث القيادة الكوبية على التحلي بالصبر وحماية نفسها والحذر في المضي قدماً في طريق الثورة.

غيفارا في مثلث العلاقات الكوبية - السوفيتية - الصينية

على نحو مشابه لدوره في بناء وهندسة العلاقات الكوبية - السوفييتية، كان تشي غيفارا أول من عمل على إقامة العلاقات الكوبية مع الصين الشعبية، وكان يبدي تعاطفاً مع المسؤولين الصينيين خلال زياراتهم لكوبا.

في نوفمبر 1960، ترأس غيفارا، بصفته الرسمية كممثل للحكومة الكوبية وكمسؤول عن دائرتي الصناعية والمالية، أول وفد اقتصادي كوبي يزور الصين الشعبية حيث التقى الزعيمين الصينيين ماو تسي تونغ وشوان لاي وغيرهما من المسؤولين الصينيين. وقد تم في تلك الزيارة توقيع اتفاقية تضمن لكوبا قرضاً

صينياً طويل المدى وبدون فوائد بقيمة 60 مليون دولاراً يتم تسديده على خمس سنوات (1961 – 1965). كما حصل غيفارا في زيارته هذه على تعهد صيني بشراء مليون طن من السكر الكوبي مقابل الأرز الصيني وهو ما كانت كوبا بأمس الحاجة إليه. واللافت أن الصين، في سعيها لمنافسة الاتحاد السوفييتي آنذاك، وعدت بأن تشتري السكر بنفس السعر الذي تم تثبيته بين كوبا والاتحاد السوفييتي.

***

شهد النصف الأول من عقد ستينيات القرن الماضي علاقة حميمة وتقارباً كبيراً بين كوبا والصين، غير أن هذا لم يدم طويلاً. فقد وجدت كوبا نفسها، خلال تلك الفترة واقعة بين موسكو وبكين. لذا حاولت أن تبقي على علاقات جيدة ومتوازنة بين القوتين الشيوعيتين الرئيسيتين آنذاك، آملة أن تتمكن من تجاوز هذا الانقسام الأيديولوجي. وقد عبر تشي غيفارا عن موقف كوبا آنذاك في تصريح له في أغسطس 1963:

"إن النزاع بين الصين والاتحاد السوفيتي هو، بالنسبة لنا، تطور حزين، ولكن لأن هذا الخلاف حقيقة واقعة، فنحن نخبر الناس حول هذا الموضوع، كما أن الحزب يقوم بمناقشته. موقف حزبنا هو تجنب تحليل مَنْ هو على حق ومَنْ هو غير ذلك. لدينا موقفنا، وكما يقولون في الأفلام الأمريكية، وأي تشابه يفترض أن

كوبا أقرب إلى هذا الطرف أو ذاك، فهو من قبيل الصدفة البحتة".[156]

هكذا عبّر غيڤارا عن موقف الحكومة الثورية الكوبية، مع أنه كان خلال تلك الحقبة المتوترة من الحرب الباردة أكثر قرباً من القيادة الصينية من تلك السوفييتية. وهنا تجدر الملاحظة، أن غيڤارا، على خلاف كاسترو الذي اتخذ موقفاً علنياً مؤيداً للاتحاد السوفييتي، كان (أي غيڤارا) ينتقد الأخير وبالعلن أيضاً.

انعكست تطورات النزاع الصيني - السوفييتي على توتر العلاقات بين كوبا والصين. ففي يناير 1965، فيما كان غيڤارا يقوم بزيارة لعدد من البلدان الأفريقية (للإعداد لحرب العصابات التي قادها لاحقاً في الكونغو)، قطع رحلته في أفريقيا بطلب من كاسترو وتوجهه إلى الصين في زيارة دامت أسبوعاً (2-9 فبراير 1965) في محاولة لرأب الصدع وتهدئة الأجواء في النزاع الصيني - السوفييتي وإقناع القيادة الصينية بتقديم بعض التنازلات من أجل حل الخلاف مع الاتحاد السوفييتي.

التقى غيڤارا، خلال زيارته هذه، بـ شوان لاي وغيره من القادة الصينيين، غير أن ماو رفض لقاءه، وأنهى غيڤارا زيارته للصين دون أن تتكلل بالنجاح وعاد إلى أفريقيا دون حصوله على

---

[156] Yinghong Cheng, Sino-Cuban Relations during the Early Years of the Castro Regime, 1959–1966, Journal of Cold War Studies, Vol. 9, No. 3, Summer 2007, pp. 78–114, 2007, by the President and Fellows of Harvard College and the Massachusetts Institute of Technology, p. 89.

تنازلات من القيادة الصينية لرأب الصدع بينهم وبين السوڤييت. ولا شك أنها كانت لحظات عصيبة بالنسبة لغيڤارا وهو الذي كان مقرباً من القيادة الصينية ويُعتبر الشخصية المؤيدة للصين في القيادة الكوبية، ولعل هذا ما كان السبب في اختيار كاسترو له للتوجه إلى الصين في تلك المهمة.

فشلت زيارة غيڤارا للصين، فعاد إلى الجزائر ومنها إلى تنزانيا التي كانت توفر الملجأ الآمن لمقاتلي الكونغو ولغيڤارا ذاته في حملته في الكونغو. كان غيڤارا يعلم أن حملته في الكونغو لن تُكلل بالنجاح بدون الدعم الصيني (وخاصة توفير السلاح) وكذلك دعم الاتحاد السوفييتي. ولكن أغلب الأسلحة كانت تأتي من الصين عبر تنزانيا التي تميزت بعلاقات جيدة مع الصين الشعبية. وعليه، فإن معاداة الصين كانت تعني قطع الدعم الصيني والإمداد بالأسلحة لحملة غيڤارا في الكونغو.

خلال تلك الزيارة للصين الشعبية، وفي لقائه مع غيڤارا، فاتحه شوان لاي بالمخاوف الصينية من الموقف السوفييتي، وأكّد قناعة القيادة الصينية بأن السوڤييت ليسوا راغبين في تقديم أي تنازلات تجاه الصين، بل أن موسكو تنوي "الإطاحة بالرفيق ماو تسي تونغ".[157]

---

[157] تجدر ملاحظة أن شوان لاي كان قد زار الاتحاد السوفييتي في نوفمبر 1964 على رأس وفدٍ صيني للمشاركة في الاحتفالات السنوية للثورة البلشفية، وعاد بالانطباع بأن السوڤييت ينوون الإطاحة بماو تسي تونغ بسبب تصريح وزير الدفاع السوفييتي مالينفسكي يُقال أنه صرح به وهو على الأرجح "نصف مخمور" وفق ما جاء في ص 105 من ورقة

ولا شك أن هذه التطورات وإيفاد غيڤارا إلى الصين من أجل هذه الغاية وما لقيه من عدم الاهتمام الصيني بهذه المبادرة، تركت آثارها على محاولات كاسترو للتوسط في النزاع الصيني - السوفييتي.[158]

كان هذا هو السياق الذي سبق خطاب غيڤارا الشهير في الندوة الاقتصادية الثانية لمنظمة التضامن الأفرو - آسيوي (الجزائر، 24 فبراير 1965)، ذلك الخطاب الذي انتقد فيه الاتحاد السوفييتي بأشد الكلمات دون ذكره بالاسم حيث شنّ على السوڤييت هجوماً قاسياً لأنهم اشترطوا تحقيق الربح في تقديم مساعداتهم الاقتصادية للدول النامية (ما أسموه المنفعة المتبادلة)، منتقداً إياهم بأن مَنْ يسعى لمثل هذه المصالح في دعم البلدان النامية إنما يدافع عن "قانون القيمة" ويكون متواطئاً في الاستغلال الرأسمالي.[159]

في رسالته إلى مجلة الترايكونتيننتال، تابع غيڤارا نقده لكلٍ من الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية، وكتب: "عندما نقوم بتحليل أوضاع الشعب الفيتنامي وحيداً، فإنه يغلب علينا الألم في هذه اللحظة غير المنطقية للبشرية. إن الإمبريالية الأميركية هي المذنبة في عدوانها - فجرائمها هائلة وتغطي العالم كله. نحن نعرف كل ذلك، أيها السادة! ولكن هذا الذنب ينطبق أيضا على أولئك

Cheng, Sino-Cuban Relations during the Early Years.

158 المرجع السابق ص 104.

159 Che Guevara Reader: Writings on Politics & Revolution, p. 340-349.

الذين، عندما حان وقت اتخاذ الموقف، ترددوا في جعل فيتنام جزءًا من العالم الاشتراكي لا يجوز انتهاك حرمته. بالطبع، فإن هذا يحمل مخاطر حرب على نطاق عالمي، ولكنه أيضا يفرض على الإمبريالية اتخاذ القرار. كذلك، فإن هذا الذنب ينطبق أيضا على اولئك الذين يصرون على حرب الإساءة ونصب الفخاخ التي بدأت منذ بعض الوقت من قبل ممثلين لأعظم قوتين في المعسكر الاشتراكي".[160] في إشارة واضحة إلى الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي.

***

في الفترة الواقعة بين يونيو 1964 - مارس 1965، التقى غيڤارا بالسفير الصيني في كوبا وانغ يوبنغ ***Wang Youping*** سبع مرات وفي آخر لقاء لهما بتاريخ 26 مارس 1965، أخبر غيڤارا ضيفه بأنه سيغادر هافانا إلى مقاطعة أورينتى ***Oriente*** في جنوب الجزيرة الكوبية للعمل في معسكر صيفي، وهو ما اتضح لاحقاً أنه كان غطاءًا لاختفاء غيڤارا عن الأنظار في حملته في الكونغو. وفي اللقاء ذاته، عبر غيڤارا للسفير الصيني عن إعجابه بالصين. وفي تعليقه على هذا اللقاء، قال السفير الصيني أنه شعر أن غيڤارا كان يريد أن يودعه دون أن يثير شكوك القادة الكوبية الآخرين. لقد كان غيڤارا، حسب قول السفير الصيني "القائد الكوبي الأكثر تأييداً للصين والأكثر عداءً للسوڤييت"، كما أكد المسؤول الصيني أن

[160] Che Guevara: Message to the Tricontinental: Create One, two, many Vietnams, in Che Guevara Reader: Writings on Politics & Revolution, pp.350-362.

غيفارا لم يكن يتطرق للنزاع الصيني - السوفييتي لا في لقاءاته مع السفير ولا حتى في لقاءاته الخاصة. ويشير، بالإضافة، إلى أن غيفارا حاذر الكشف عن وجهة نظره الشخصية في هذه المسألة أمام المسؤولين الصينيين كي لا يفسر هؤلاء كلماته وكأنها تمثل معارضة أو انشقاقاً داخل الحزب الشيوعي الكوبي.[161]

ويذكر يوبنغ أن القيادة الكوبية أصبحت تضيق ذرعاً بالبروباغندا الصينية وتوزيع المواد والنشرات الإعلامية الصينية في كوبا، وأنها (القيادة الكوبية) اتهمت الصين، في لقاء لها مع مسؤول السفارة الصينية في هافانا، "بزرع بذور الخلاف بين الكوبيين"، وأن الصينيين يتصرفون "على نحو أسوأ من الإمبرياليين الأميركيين" مما شكّل إهانة للمسؤول الصيني.[162]

رغم هذا التصعيد وتوتر العلاقات بين كوبا والصين، ظلّت تعليمات القيادة الصينية إلى مسؤوليها بعدم الرد على أي من هذه الاتهامات طالما أنها (الاتهامات) لم تكن في العلن ولم تذكر اسم الصين صراحة.

كاسترو بين الاتحاد السوفييتي والصين

[161] Wang Youping: My career as Ambassador in Seven Countries, pp 91-92, cited in the essay of Yinghong Cheng, Sino-Cuban Relations during the Early Years of the Castro Regime, 1959–1966, pp.106-107.
[162] *Ibid., p. 108.*

قام كاسترو بزيارة لموسكو عام 1963، زيارة حملت دلالتين هامتين:

1) طول الزيارة التي امتدت من 17 أبريل إلى 6 يونيو؛

2) اختيار موسكو للقيام بزيارتها قبل بكين.

يعتبر كثير من المحللين هذه الزيارة مؤشراً على رجحان كفة موسكو، وهو ما أكده كاسترو في حديث تلفزيوني طويل تلى عودته من تلك الزيارة حيث امتدح كل ما شاهده خلالها. وليس هناك من شك أن بكين تلقفت هذه الإشارات آنذاك وفهمتها جيداً. وبعد تسعة أشهر من هذه الزيارة، زار كاسترو موسكو مرة ثانية في يناير 1964. وقد أدان البيان الكوبي - السوفيتي الذي صدر في ختام هذه الزيارة "النشاطات الانقسامية بين الشيوعيين". ومع أن الصين، بقيادة ماو تسي تونغ وشوان لاي، كانت تتفهم الصعوبات التي تواجهها كوبا وحاجتها للعون الاقتصادي السوفييتي، وبالرغم من أنها فعلت قصارى جهدها لدعم كوبا، إلاّ أنه لم يكن في مقدور الصين تقديم الدعم الاقتصادي والعسكري الذي يقدمه السوڤييت.

نقطة التحول والقطيعة بين بكين وهافانا

ظل كاسترو مراوحاً في موقفه من النزاع الصيني - السوفييتي بين عامي 1961 - 1965، ومن هنا ربما يصح قول أحد المراقبين، أنه "فيما كانت معدة كاسترو في موسكو، فإن قلبه كان

في بكين". وفيما يتعلق ب"الجدل الكبير" والنزاع الصيني - السوفييتي، لزم كاسترو الصمت بين عامي 1962- 1964 ولم ينخرط فيه علناً. ولعل أحد الأسباب التي حدت به إلى اتخاذ هذا الموقف هو رغبته ومحاولته أن يبقى خارج النزاع الصيني - السوفييتي. هذا في ظاهر الأمور، غير أن الكثير من المحللين يقدّرون أن موقف كاسترو كان أقرب إلى النهج الصيني منه إلى السوفييتي.

ازداد التوتر بين الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي ومعه ازدادت الضغوط على كوبا، إذ لم يتورع الطرفان، الصيني والسوفييتي، عن استخدامها في معركتهما البروباغندية وتوزيع المواد الإعلامية المعادية للطرف الآخر، ولم يعد الحياد ممكناً مع تصاعد التوتر بين البلدين، فكان على كوبا وغيرها من دول المعسكر الاشتراكي، أن تختار بين البلدين المتنازعين. غير أن ما زاد من تعقيد الموقف الكوبي هو أن الخلاف الأيديولوجي احتد بين صفوف القيادة الكوبية نفسها ليعكس الأبعاد والآفاق السياسية والاقتصادية والأيديولوجية للنزاع الصيني - السوفييتي كما حصل في فترة"الجدل الكبير" في كوبا وخصوصاً فيما يتعلق بالحوافز المادية والمعنوية ودورها في حقبة البناء الاشتراكي، حيث اصطف غيڤارا ومؤيدوه مع التوجه الماوي الذي ركّز على تكوين الوعي الشعبي وتضحية الشعب في بناء الاشتراكية متمثلة في العمل الطوعي مؤكداً (أي تيار غيڤارا) على أن تخطيط الدولة والتمويل

المركزي والمساواة في الأجور هي شروط أساسية وضرورية في النظام الشيوعي.[163]

دفعت التطورات التي حصلت بين أكتوبر 1964 وفبراير 1965 كاسترو إلى الاقتراب من الحضن السوفييتي، إضافة إلى أن تغلغل الصين في الأحزاب والمنظمات الشيوعية في بلدان أميركا اللاتينية ساهم أيضاً في تفاقم التوتر في العلاقات الكوبية - الصينية. ومع اقتراب نهاية عام 1965، أخذت التغطية الإعلامية للتطورات السياسية والاقتصادية في كوبا والصين تخفت، مقابل ازدياد التقارب بين موسكو وهافانا.

في الخامس عشر من أكتوبر 1964 تمت إزاحة نيكيتا خروشتشيف ليحل ليونيد برجنيف مكانه في قمة القيادة السوفييتية. استشعر كاسترو أن هذا التغيير في قمة السلطة السوفييتية، قد يؤدي إلى تحسن سريع في العلاقات الصينية - السوفييتية، إذ أن خروشتشيف، في تقدير كاسترو وفق الكثير من المحللين، كان مسؤولاً عن تدهور هذه العلاقات.

بالطبع، لابد في هذا السياق من الإشارة إلى أن موقف الاتحاد السوفييتي من سحب الصواريخ السوفيتية من كوبا خلال أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962 في صفقة بين خروشتشيف

---

163 ناقشنا في أكثر من مكان في هذا الكتاب موقف غيڤارا من الحوافز المادية والمعنوية على ضوء التجربتين والرؤيتين السوفيتية والصينية من هذه الحوافز ودورها في مرحلة التحول الاشتراكي.

والرئيس الأميركي كنيدي دون استشارة كاسترو والقيادة الكوبية، هذا الموقف أدّى إلى شعورٍ عميق بالإهانة والاستياء لدى الكوبيين، إذ كان كاسترو يعتبر خروشتشيف المسؤول الأول والمباشر عن إهانة الكرامة الكوبية وتجاهل قيادة كوبا في تلك الأزمة. غير أن كاسترو، على خلاف غيفارا، التزم البراغماتية في التعامل مع السوفييت بسبب حاجة كوبا الماسة للدعم الاقتصادي السوفييتي.

مجمل القول، أن إزاحة خروشتشيف كانت في تقدير كاسترو اللحظة المواتية للتوسط بين موسكو وبكين وربما وضع حدٍ للنزاع الصيني - السوفييتي. وعلى الرغم من أن الصينيين لم يبدوا اهتماماً بمبادرة كاسترو، غير أنه (كاسترو) استمر في مساعيه منادياً بإنهاء هذا النزاع بغض النظر عن طبيعته وأسبابه، وهو ما تسبب في امتعاض القيادة الصينية. ويرى بعض المحللين أن مواقف كاسترو العلنية لم تكن في معزل عن مسألتين كانت القيادة الصينية ترصدهما باهتمام:

(1) أن كاسترو كان يغمز من العناصر المؤيدة للصين داخل القيادة الكوبية مثل غيفارا وغيره؛

(2) والثانية هي أن القيادة الصينية لحظت تحسس كاسترو وخشيته من ولوج الصين إلى حظيرة أميركا اللاتينية التي كان كاسترو يرى ذاته كزعيم موحِد لها وجامع لكافة الشيوعيين في أميركا اللاتينية. وكانت القوى والمنظمات السياسية والحزبية المؤيدة للصين في عدد من دول أميركا اللاتينية (مثل برازيل، تشيلى، بيرو،

بوليفيا، مكسيكو، أوروغواي وباراغواي)، قد شهدت تنامياً مع إطلاله عام 1965.

كلُ هذا تزامنَ مع قرار كاسترو الحاسم في إنهاء الجدل الداخلي في كوبا حول دور الحوافز المادية والمعنوية في الاقتصاد الكوبي مؤكداً أن مهمة الثورة ليست في التحاجج الفلسفي، ومؤكداً حرصه على وحدة الحزب وتماسك قيادته وصفوفه وخشيته من حدوث انقسامات داخله ودرءًا لأي انعكاسات وتأثيرات للنزاع الصيني - السوفييتي على السياسات الداخلية للحزب الشيوعي الكوبي.

في هذا المشهد المحتقن بالتوتر وتصاعد تصريحات فيدل وراؤول كاسترو الناقدة للصين الشعبية، وجد غيڤارا نفسه في وضع لا يُحسد عليه وتحت وطأة ضغوط كبيرة بسبب مواقفه القريبة من الصين، كما يقول السفير الصيني في كوبا آنذاك وانغ يوبينغ.

القشة التي قصمت ظهر البعير

بعد مرور شهر من زيارة غيڤارا المذكورة للصين الشعبية (فبراير 1965)، وصلت الأزمة بين البلدين ذروتها في 13 مارس 1966 حين ألقى كاسترو خطاباً أمام جمهور غفير من الكوبيين في جامعة هافانا، انتقد فيه الصين الشعبية واعتبر تخفيض واردات الأرز الصيني لكوبا "عدواناً اقتصادياً" واصفاً أسلوب الصين في توزيع

البروباغندا الإعلامية الصينية بأنه "يشابه أسلوب سفارة اليانكي [يقصد الولايات المتحدة]"، وصولاً إلى الهجوم الشخصي على ماو تسي تونغ واتهامه بأنه "خرِف أحمق" *senile idiot*.

كان انهيار المفاوضات السنوية حول الاتفاقيات الاقتصادية بين البلدين في عام 1966 (والتي استمرت خمسين يوماً دون تحقيق نتائج تُذكر) القشة التي قصمت ظهر البعير في العلاقات الكوبية - الصينية. وبمناسبة الاحتفال السنوي بعيد الثورة الكوبية، أعلن كاسترو لشعبه (2 يناير 1966) أن مخزون الأرز سوف ينخفض إلى النصف بسبب نكث الصين بوعودها بتوفير الأرز لكوبا، متهماً الصين بأنها التحقت بالإمبريالية الأميركية في تشديد الحصار الاقتصادي على كوبا. وفي اليوم التالي (3 يناير 1966)، تابع الزعيم الكوبي انتقاداته للصين في كلمته في افتتاح مؤتمر الترايكونتيننتال (مؤتمر منظمة أسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية) في هافانا، كما شهدت الأسابيع اللاحقة استمراراً لحملة الانتقادات هذه.

وعلى الرغم من أن الصين لم تباري الانتقادات الكوبية (فيدل وراؤول كاسترو) ولم ترد عليها مباشرة، إلاّ أن كل هذه التطورات أدّت إلى تفاقم التوترات بين كوبا والصين الشعبية وصولاً إلى انهيار العلاقات الكوبية - الصينية والقطيعة التامة بين البلدين من عام 1966 حتى عام 1990.

خاتمة

تركت الصين الشعبية آثارا عميقة على الانقسامات الأيديولوجية والسياسية داخل الحزب الشيوعي الكوبي. ومع أن كاسترو نفى (بعد اختفاء غيڤارا) وجود مثل هذه الانقسامات والنزاعات، من باب الحفاظ على وحدة الحزب ومنع أي انشقاقات في داخله، إلاّ أن العديد من المؤرخين يظنون أن قيادة الحزب الشيوعي الكوبي كانت منقسمة أيديولوجياً وإستراتيجياً خصوصاً فيما يتعلق (1) بالموقف من الاتحاد السوفييتي و(2) من تصريحات غيڤارا المؤيدة للصين والمعادية للسوڤييت، ويرجحون أن تزامن التصاعد والتوتر في انتقادات كاسترو للصين من جهة، واختفاء غيڤارا عن المشهد السياسي الكوبي في أوائل 1965 من جهة أخرى، لم يكن محض صدفة.

الفصل الخامس والثلاثون

غيڤارا وأكذوبة التعايش السلمي

> أخذ خروشتشيف في خمسينيات القرن الماضي، في أعقاب المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي الذي انعقد عام 1956، أخذ بتعزيز مفهوم رجعي مرتد مفاده أن التوازن بين قوى الاشتراكية وقوى الرأسمالية قد تبدل لصالح الأولى، مستنتجاً ومبشراً بأن انتصار الاشتراكية ممكن وقادم من خلال التعايش السلمي بين النظامين المتناحرين،

بل ذهب إلى ما هو أبعد معتقداً أن تنمية القدرات الذرية التدميرية من شأنه أن يردع الرأسمالية والإمبريالية وقد يكون الدرب الوحيد والممكن أمام الاتحاد السوڤييتي.

أمّا ماو تسي تونغ فقد التقط هذا التناقض، وأخذ منذ عام 1961 وعبر أوائل ستينيات القرن الماضي بدراسة وتحليل التطورات الجارية في الاتحاد السوڤييتي آنذاك.[164] وقد قامت الرؤية الماوية على تحليل مفاده أن تغييراً عميقاً في السلطة ومواقع القوى العليا في القيادة السوڤييتية قد حصل منذ أن تسلم خروشتشيف السلطة عام 1956. ورأى ماو أن دعاة الطريق الرأسمالي داخل

---

[164] راجع فصل "تشي غيڤارا والنزاع الصيني - السوڤييتي".

الحزب الشيوعي السوڤييتي قد تمكنوا من استعادة الرأسمالية في الاتحاد السوفييتي، وعليه أصبح ذلك البلد الذي كان بلداً اشتراكياً لعقود سابقة، أصبح وفق تحليل ماو قوة اشتراكية - إمبريالية أي اشتراكية بالاسم والعنوان وإمبريالية في الجوهر. لذلك، حذر ماو من خطر "إخراج النمر عبر الباب الأمامي بينما يدخل الذئب من الباب الخلفي"، ومن الاعتماد على هذه القوة الإمبريالية الجديدة، (يقصد الاتحاد السوڤييتي)، خطير للغاية بالنسبة لجماهير الشعب، حيث يمثل الحكام الجدد في ذلك البلد برجوازية جديدة تقف جذرياً ضد التحرير.

التعايش السلمي مع الإمبريالية: وَهْم

انتقد غيڤارا السياسة الخارجية السوفييتية على كافة المستويات وخاصة مقولتي الاتحاد السوفييتي في التعايش السلمي والمباراة الاقتصادية مع الدول الرأسمالية المتقدمة، واعتبرهما من أخطر الأطروحات السوڤييتية. ومع أنه رأى أنه من الممكن قبولها كاحتمال في ظروفٍ غير عادية، إلا أنه لا يمكن لها أن تصبح الدافع الرئيسي للسياسة، خصوصاً في ذلك الوقت حين كانت الإمبريالية الأميركية تشن أبشع حروبها وأكثرها دموية في فيتنام، وحين كانت جماهير العالم وشعوبه تقف وقفة واحدة مع نضال الشعب الفيتنامي. فبطولة الشعب الفيتنامي، وفق غيڤارا، هي القادرة على فرض الحل، أما سياسة الاسترخاء، فسوف تعزز العدوان اليانكي على فيتنام.

غيفارا بين المواجهة الشاملة والتواطؤ مع الإمبريالية

فنّد غيفارا أطروحة التعايش السلمي وتأثيراتها على العلاقة بين الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية من جهة، وبلدان العالم الثالث من جهة ثانية، وانتقد بقسوة عدم تقديم الدعم الفعّال لفيتنام وحركات التحرر العالمية. وفي حديثٍ له مع سام راسل مراسل صحيفة "العامل اليومي" الاشتراكية البريطانية قال غيفارا "علينا ألاّ نقيم التعايش السلمي في هذا الصراع حتى الموت بين نظامين، يجب علينا أن نكسب النصر النهائي، كما يجب علينا السير في طريق التحرير حتى لو كلفنا الملايين من ضحايا (القنبلة) الذرية". وفي خطابه أمام الأمم المتحدة في 11 ديسمبر 1964، قال غيفارا إن "الحضارة الغربية تخفي وراء واجهتها صورة غامضة من الضباع وابن آوى". وفي الخطاب ذاته خالف وجهة نظر السوفياتية من التعايش السلمي مؤكداً أن الماركسيين آمنوا دوماً بأن التعايش السلمي بين الأمم لا يشمل التعايش بين المستغِلين والمستغَلين، بين الظالمين والمظلومين.[165]

في خطابه في الجزائر (فبراير1967)، اتهم غيفارا الاتحاد السوڤييتي "بالتواطؤ الضمني مع الإمبريالية". وفي حين كان هذا التصريح صفعة للسوڤييت، إلا أنه شكل أيضاً خروجاً على البروتوكولات التي سادت العلاقات بين دول المعسكر الاشتراكي

---

[165] Che Guevara Reader: Writings on Politics & Revolution, p. 330. For reading the full text of that speech see pp. 325-339.

خاصة إذا أخذنا بالاعتبار طبيعة وخصوصية العلاقات السوفييتية . الكوبية والدور الذي كان السوفييت يعوّلون على كوبا القيام به في أميركا اللاتينية والعالم. وقد كان لانتقاداته هذه والتي شمل بها كلاً من الاتحاد السوفييتي والصين، وقعاً قوياً في المعسكر الاشتراكي. ولكن بالرغم من هذه الانتقادات ومطالبته للاتحاد السوفييتي والصين بتقديم المزيد من الدعم لبلدان العالم الثالث وحركاته التحررية، أكد غيفارا باستمرار، كما أسلفنا، على سخاء هذين البلدين تجاه كوبا والعالم الثالث.

يرى الكثير من المحللين والمؤرخين، أن غيفارا دفع ثمن مواقفه هذه في نهايته المأساوية لاحقاً في بوليفيا من جرّاء نقد هذه الأحزاب، والمقصود بالطبع الاتحاد السوفييتي على رأسهم. فقد أثارت تصريحاته، حفيظة القيادة السوفيتية وساهمت بالتأكيد في تحديد الموقف السوفييتي تجاهه مما تجلى لاحقاً في موقف الحزب الشيوعي البوليفي (الذي كان يأتمر بتعليمات موسكو) وتقاعس/ رفض الأخير تقديم العون والإمدادت لغيفارا أثناء معاركه في أدغال بوليفيا حيث استشهد.

"مباراة" الرأسمالية

وفيما ادّعى "الدليل السوفييتي" بأن التعايش السلمي والمباراة الاقتصادية يقوّي المعسكر الاشتراكي في صراعه مع العالم الرأسمالي، ويجر الدول التابعة للحاق بالدرب الاشتراكي من خلال

العلاقات الأخوية، والدعم الاقتصادي والتبادل التجاري النزيه، أنكر غيڤارا وجود أي براهين تثبت صحة هذا الادعاء. وعلى النقيض من ذلك، أكد غيڤارا أن التصالح أو التعايش مع الإمبريالية وهم، ولن تسمح به الرأسمالية ذاتها لأنه لا يتوافق مع مصالحها. وهنا يكمن أصل المسألة.

فيما يتعلق بالأبعاد الاقتصادية - المباراة الاقتصادية في ظل التعايش السلمي - فقد اتفق غيڤارا مع أطروحات "الدليل السوڤييتي" بأن الشيوعية تفترض وجود الوفرة والرخاء، إلا أنه عارض القول بأن الشيوعية تتميز بالضرورة بإنتاجية تفوق الإنتاجية الرأسمالية، ولم يرَ ضرورة لمثل هذه المقارنة المتزمتة مع الرأسمالية للأسباب التالية:

1) لأن السباق المتواصل مع التقدم الرأسمالي يجعل المقارنة بين النظامين (الرأسمالي والاشتراكي) مقارنة آلية تجعل من الشيوعية تغييراً كمياً ومتقلباً باستمرار في مجاراته ومنافسته للرأسمالية.

2) ولأن مثل هذه المقارنة هي موقف انهزامي حيال الرأسمالية من شأنها تدمير روح الجماهير ومعنوياتها.

3) وأخيراً، لأن السباق مع الرأسمالية طموح سطحي وخطير وأحادي الجانب حيث أنه لا يمكن الائتمان للرأسمالية.

كل هذا يعيد إلى الأذهان موقف غيڤارا الناقد للبلدان الاشتراكية التي عجزت عن توفير الدعم للبلدان النامية بل أقاموا اتفاقياتهم مع هذه الأخيرة على أساس قانون القيمة (يقصد فرض

الفائدة على هذه القروض). بالنسبة لغيڤارا، فان التحدي الذي كانت تواجهه الاشتراكية لا يتمثل في الفوز في السباق مع الرأسمالية أو منافستها، بل في حل التناقض القائم بسبب الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والعمل على ضمانة التثقيف الشيوعي.

السوڤييت والتضامن الأممي

نادى غيڤارا، كما هو معروف، بالتضامن الأممي وبنظام يقوم على المساواة في علاقات التبادل التجاري بين الدول الاشتراكية ودول العالم الثالث لأن هذا، في رأيه، يعادل النمو بين البلدان المتقدمة والأخرى النامية (التي كانت تُسمى غير النامية *undeveloped countries*) ويساهم في تنمية هذه الأخيرة. وقد التزمت كوبا بهذا المبدأ حيث بدأت منذ أوائل سبعينيات القرن المنصرم بمثل هذه الممارسات وهو ما ميّز الثورة الكوبية، التي أخذت منذ ذلك الحين تقدم كافة أشكال الدعم العسكري والتعليمي والطبي للدول الفقيرة في كافة أنحاء العالم من أنغولا إلى فنزويلا ونيكاراغوا وغيرهما من بلدان أميركا اللاتينية.

الفصل السادس والثلاثون

ملاحظات ختامية

نقد غيفارا للماركسية السوفييتية

انتقد كثيرون، في كوبا وخارجها، أطروحات غيفارا في نقد الاتحاد السوفييتي واعتبروا أنها جاءت "مثالية" وخارج سياق المرحلة التي ناضل فيها. وهو نقد ربما كان غيفارا قد اعتاد عليه خلال حياته القصيرة، إلا أنه مازال يتردد حتى يومنا هذا رغم الكوارث التي منيت بها الشعوب والإنسانية من جرّاء وحشية الإمبريالية والرأسمالية وما حلّ بالمعسكر الاشتراكي من دمار وانهيار، وبالرغم من الكثير من الوقائع والمؤشرات التي تؤكد دقة ما ذهب إليه غيفارا في تقييمه ونقده للسياسات السوفييتية.

وكي نضع الأمور في نصابها الصحيح، قد يكون من المفيد أن نسترجع تلك الحقبة التي ناضل فيها غيفارا ومنحها جُلّ جهده، حقبة النصف الأول من ستينيات القرن الماضي، التي حفلت بأوضاع دولية ومحلية ساخنة نذكر أهمها:

. شهد المعسكر الاشتراكي النزاع الصيني . السوڤييتي وتداعياته، وإلى حدّ كبير اتسمت به. كما عاش العالم سخونة وتوتر الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي في ظل توحش الإمبريالية الأميركية في سعيها نحو الهيمنة على العالم وحربها في فيتنام، يقابلها التواطؤ السوڤييتي الذي تمثل آنذاك بسياسات أسموها "التعايش السلمي".

. على مستوى العالم الثالث شهدت المرحلة صعود حركات التحرر الوطنية وانتصاراتها المتلاحقة في أسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، كان انتصار الثورة الجزائرية أشهر علائمها.

. كما شهدت الساحة الدولية تبلور وتعاظم دور حركة عدم الانحياز من حيث تنامي الفكرة وحضورها في العلاقات الدولية.

. أما الداخل السوڤييتي، فقد عاش أوضاعاً استثنائية شملت إصلاحات اقتصادية جذرية بعد وصول نيكيتا خروشتشيف إلى مواقع القرار في ذلك البلد، وانقضاضه على المرحلة الستالينية وتوجهه نحو مهادنة المعسكر الرأسمالي . الإمبريالي عبر سياسات التعايش السلمي.

- في خضم هذه الأحداث العارمة جاءت الثورة الكوبية لتعلن، بعد انتصارها بعامين، تبنيها للدرب الاشتراكي وسط حصار إمبريالي أميركي غاشم وخانق هدد أمن البلد وسيادته وشعبه ومستقبل ثورته.

***

في هذا السياق، إذاً، خاض غيڤارا معاركه الفكرية والثورية. وفيما يتعلق بأوجه خلافه مع النمط السوڤييتي والأوروبي الشرقي، كما فصّلنا في الفصول السابقة، فقد تمحورت حول الجوانب الاقتصادية والإنتاجية، وتجلياتها الاجتماعية والإنسانية، التالية:

. دور قانون القيمة، واعتباره قانوناً مؤقتاً للتنمية الاقتصادية في مرحلة التحول الاشتراكي والعمل على نسفه؛

- نظام التمويل في مرحلة البناء الاشتراكي؛

. اعتبار السلعة أساس النظام الإنتاجي؛

. وسائل التحفيز (الحوافز المادية والمعنوية) والتوزيع؛

- غياب التربية الشيوعية؛

. نقده للامتيازات التي حظي بها مدراء الشركات والمصانع؛

. نقده اعتماد معايير السوق في العلاقات الاقتصادية بين الدول الاشتراكية.

ولابد هنا من التنويه إلى أن فهم غيڤارا ونقده لسياسات الاتحاد السوڤييتي ونمط إنتاجه لا يستقيم خارج سياق مشروع غيڤارا الأشمل: السعي وراء ماركسية وشيوعية جديدة وصولاً إلى إنسان جديد بل إنسانية جديدة. لذا كان من الضروري أن أقدّم في نهاية هذا القسم بعض الملاحظات الختامية، والتي تشكّل، في جوهرها، استكمالاً للسمات الرئيسية لفكر تشي غيڤارا ومساهماته

في الماركسية. وقد تعيننا قراءة غيفارا من خلال هذه السمات على إزاله الشوائب التي علقت بمواقفه وتوظيفاتها المتعددة في تلك الحقبة والتي عمدت إلى تجيير تلك المواقف في خدمة مصالح أطراف معنية (كما رأينا في النزاع الصيني . السوفييتي، على سبيل المثال)، أو لتسويق المصالح السوفييتية وتبرير سياساتها في مهادنة المعسكر الرأسمالي . الإمبريالي و"التعايش السلمي". كما تعيننا على تبيان الدوافع وراء الاتهامات التي ألصقها به خصومه، سوفييت وجهات أخرى في الحركة الشيوعية العالمية والتي تراوحت بين اتهامه "بالماوية" حيناً، و"التروتسكية" حيناً آخر، والمغامرة والتهور والانتحارية أحيانا كثيرة، ناهيك عن اتهامات أعدائه الرئيسيين في معسكر الإمبريالية والغرب الرأسمالي.

1) أهم ما ميّز نقد غيفارا للاتحاد السوفييتي أنه كان نقداً ماركسياً أصيلاً ينبع من فهمه لمبادئ الماركسية ورؤيته في بناء الاشتراكية والشيوعية. ولعل ما يُضفي على نقده أهمية خاصة، أن غيفارا كان خلاّقا في فكره وممارسته منطلقاً من فهمه للواقع الكوبي (وواقع شعوب العالم الثالث) وقراءة مادية للظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية لذلك البلد دون إغفال الأوضاع الإقليمية والدولية العصيبة في تلك الحقبة.

انتقد غيفارا السوفييت، التجربة والنمط، ورفض أن يكون الاتحاد السوفييتي مرجعيةً وحيدة للماركسية والاقتصاد السياسي في مرحلة التحول الاشتراكي، كما رفض أي نمط آخر، ودعا إلى الخروج من مأزق المحاكاة. وهو ما تشير إليه كافة مواقفه أطروحاته

وممارساته حتى لحظة استشهاده. فقد ناضل من أجل الحفاظ على الاستقلالية الفكرية والتنموية للتجربة الكوبية، بل وتجارب كافة الشعوب، وحقهم بالمبادرة والاجتهاد في بناء الاشتراكية، أي حقهم في صياغة تجربتهم دون تبعية صنمية للنمط السوفييتي.

لهذه الأسباب نلحظ أن غيفارا نأى بنفسه، في سنواته الأخيرة، عن النموذج السوفييتي وابتعد عنه بقدر الإمكان رافضاً محاكاة واستنساخ "الاشتراكية المحققة" في أوروبا الشرقية.

2) تجلّت سمته الثانية في أنه لم يتوقف عند النقد، بل تعداه إلى طرح بديل أصيل للبناء الاشتراكي ينطلق من خصوصيات كوبا والتشكيلة الاقتصادية والاجتماعية وطور النمو الاقتصادي الذي كانت تمر به آنذاك. وكان غيفارا يرى أن هذا البديل يكفل التنمية الاشتراكية في كوبا، وأنه مختلف ومتميز عن النمط السوفييتي والأوروبي الشرقي. ومن هنا سعى لاستكشافه وتحليله وتطبيقه. وبقدر ما عني بالمسألة الفكرية والاقتصادية، فإنه كان منهمكاً في توفير وضمانة الاحتياجات الأساسية للسكان وتحقيق مطالبهم ومحاربة الإمبريالية الجاثمة على صدورهم.

على هذه الأسس رأى غيفارا بناء التحول الاشتراكي على أسس ماركسية صحيحة تضمن بناء "الإنسان الجديد" والمجتمع الاشتراكي وصولاً إلى الشيوعية. وفي هذا الإطار تبرز أهمية البديل الذي يطرحه غيفارا والتي تكمن في أنه سلّط الضوء على أصالة مشروعه في البناء الاشتراكي في بلده وفي البلدان النامية في مرحلة

شهدت انتصار حركات التحرر في العالم الثالث وشروعها في بناء مجتمعاتها الجديدة.

3) أمّا السمة الثالثة التي ميّزت غيڤارا عن الكثيرين ممن انتقدوا الاتحاد السوڤييتي وسياساته في تلك الآونة أو بعد انهياره، فتكمن في أنه عمد إلى الغوص في تحليل الأسباب الجذرية التي أدت، في نهاية الأمر، إلى انهيار التجربة الاشتراكية برمتها في الاتحاد السوڤييتي وأوروبا الشرقية.[166]

4) لا نغالي إذا قلنا إن نقد غيڤارا للنمط والسياسات السوڤييتية اتسم في كثير من الأحيان بالقسوة، إلاّ أنه تميز وانفرد، في سياق تلك الحقبة، بالراديكالية والوضوح والأمانة العلمية والثورية. كما أن غيڤارا لم يفعل ذلك بدوافع ذاتية أو استجابة لنزوات شخصية، بل للأسباب التالية:

أ) لأنه كان ثائراً شيوعياً وماركسياً ذا ديناميكية نادرة وذهنية منفتحة ورافضة للجمود العقائدي وكافة القوالب الفكرية المتزمتة والمتخشبة. ولأن فكره كان في حركة مستمرة، أصبحت المسلمات لديه، كافة المسلمات وفي كل الأوقات، موضع شك وتساؤل وتمحيص. لذا رفض غيڤارا أن يسقط في الصنمية للسوڤييت أو لآية إيديولوجية مغلقة، كما رفض الدوغما في الماركسية كما في السياسة والمجتمع، وقد وقف ضد النظريات

---

[166] من الملفت للنظر أن تحليل غيڤارا للحالة السوفييتية أخذ يستعيد بعض الاهتمام لدى الكوبيين، رسمياً وشعبياً، في منتصف الثمانينيات للقرن الماضي عند وصول جوربيتشيف إلى السلطة في الاتحاد السوڤييتي واستشعار الكوبيين بأن الانهيار قادم وعليهم أخذ الحيطة واستدراك الموقف للحفاظ على ذاتهم وإنجازاتهم.

المتجمدة والميول البيروقراطية، وحرص أن يظلّ خارجها في ممارسة مسؤولياته الحكومية والحزبية. كما أنه أصرّ بعناد على أن سبل التنمية والنهوض بالمجتمع والبحث عن الحلول لمشاكله يجب أن تنطلق أساساً من واقعه وخصوصياته وأن يلبي احتياجات شعبه، لا أن يحاكي نظاماً آخراً وُلد في سياقٍ آخر. كان غيڤارا ينظر إلى الماركسية ككائن حي في سيرورة مستمرة وحثيثة نحو التطور والتقدم والانعتاق من الظلم والاستغلال، لذا رفض أن يعتبرها دوغما ستاتيكية أو عقيدة متحجرة، كما رفض أن يتوقع منها أو أن يطالبها بتقديم الحلول لكل المشاكل في المجتمع والفكر. فحراك المجتمع، كما رآه، في دينامية مستمرة ويتمخض دوماً عن مشاكل وتحديات جديدة لم تواجهها البشرية من قبل، وهذه بدورها تستدعي حلولاً جديدة ومختلفة.

ب) ولأنه رأى مخاطر النمط السوڤييتي على الاتحاد السوفييتي ومجمل التجربة الاشتراكية في العالم في تلك الحقبة واستشرف مبكراً خطورة انهياره وعودة الرأسمالية إلى ذلك البلد.

ج) ولأنه كان أممياً رافضاً لمواقف السوڤييت المتواطئة مع الإمبريالية الرأسمالية واللامبالية بنضال شعوب الأرض وفقراء العالم.

5) وكما أسلفنا سابقاً، جاء هذا النقد في وقتٍ لم يكن على بال الكثيرين، وتأسيساً على هذا النقد توقع غيڤارا انهيار نمط الإنتاج السوڤييتي والدولة السوڤييتية وتجربتها الاشتراكية. ولم تأتِ هذه الرؤية مبكرة فقط في السياق التاريخي للدولة السوفييتية

وتعاظم قوتها الاقتصادية والسياسية والإستراتيجية[167]، أو سياق العلاقات السوفييتية - الكوبية بل، ولعله الأهم، جاءت مبكرة في مرحلة التحول الاشتراكي في كوبا وبحثْ هذا البلد عن سبل التنمية. ففي خضم "الجدل الكبير" تلمس غيڤارا مخاطر محاكاة النمط السوڤييتي[168]، وعبّر علناً عن معارضته لتطبيق هذا النمط في كوبا وعن قلقه وتنبؤه بفشله.

6) أما الاعتبار الأهم في نقد غيڤارا للاتحاد السوفييتي فيأخذ بنا إلى الصورة الأشمل، وهو أن غيڤارا، في نقده للنمط السوڤييتي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبناء المجتمع الاشتراكي والشيوعي، تجاوز النقد الاقتصادي إلى فضاء التنمية الاجتماعية والإنسانية لكوبا وللبشرية جمعاء:

أ) وهو ما يؤكد أن غيڤارا كان يمتلك حدساً نقدياً قوياً، وأن مواقفه كانت تنبع من رؤيته الشمولية للاشتراكية والشيوعية ولمستقبل الإنسانية. وربما هنا يكمن بيت القصيد: فالإنسان، لدى غيڤارا، هو موضوع الثورة الأساسي، هو جوهرها وغايتها. إلا أن هذا الإنسان ذاته هو أيضاً وسيلة تلك الثورة وفاعلها الرئيسي. من هذا المنظور يتسنى لنا أن نفهم موقف غيڤارا: فقد رأى أن نظاماً

---

[167] عبّر غيڤارا عن رؤيته ونقده لنمط الإنتاج السوڤييتي قبل أكثر من عقدين على وصول ميخائيل جورباتشيف إلى سدة الحكم في الاتحاد السوڤييتي وما تلى ذلك من سياسات بريسترويكا *Perestroika* وغلاسنوست *Glasnost* وتدهور الأوضاع وصولاً إلى الانهيار الكامل للدولة السوفيتية والمعسكر الاشتراكي في أوروبا الشرقية.

[168] أعلنت كوبا على لسان زعيمها فيدل كاسترو اختيارها للاشتراكية في بناء مستقبلها في خطابه يوم 16 ابريل 1962، اليوم التالي للغزو الإمبريالي الأميركي لكوبا.

اشتراكياً لا يتيح المرونة والتنوع للتعامل والتطبيق في بيئات مختلفة، ويفتقر إلى القدرة على التعامل مع خصوصيات متباينة، ولا يقدم قيماً جديدة "لإنسان" ومجتمع جديدين، ويهدر طاقته وموارده في محاولة محاكاة ومباراة نقيضة الرأسمالي بل يطمح إلى السباق مع المراكز الرأسمالية... هكذا نظام لا مستقبل له.

ب) وبهذا المعنى، كان نقده للسوڤييت ضرورةً للتأسيس للمجتمع والقيم والأخلاقية الاشتراكية. بعبارة أخرى كان ضرورةً لخلق "الإنسان الجديد" والسعي نحو شيوعية جديدة ومختلفة، إضافة إلى أخلاقية شيوعية جديدة، إذ رأى غيڤارا أنه سيتعذر خلق هذا الإنسان ضمن البنى والمفاهيم والعلاقات الإنتاجية والطبقية السائدة في ظل النمط السوفييتي.

خلاصة القول أن غيڤارا رأى الطريق إلى "الإنسان الجديد" والمجتمع الجديد من خلال شيوعية جديدة ومختلفة لا تتأسس على أرضية النمط السوڤييتي ومحاكاته في كوبا أو في أي مكانٍ آخر. كما كان يرى أن نمط الإنتاج الذي يتخلى عن الحوافز المعنوية والتثقيف الشيوعي، سيؤدي إلى البنية الفوقية الرأسمالية مع البنية الاشتراكية وأعاقت التنمية الاشتراكية.

غيڤارا بين النقد والحذر

لقد اتخذ غيڤارا مواقفه علناً ولم يبقها طيَّ الكتمان، وذلك ضمن ظروف عصيبة كانت تمر بها كوبا والعالم في تلك الحقبة،

ولم توقفه هذه الصعوبات عن الالتزام بموقفه بعناد بسبب المخاطر التي رآها قادمة إذا ما تبنت كوبا النمط السوفييتي وإذا ما ساد هذا الأخير كنهج في تطبيق الاشتراكية في كوبا وغيرها من البلدان الاشتراكية، وهو ما حصل فعلاً. ولذلك تميز موقفه بالحرص والحذر. فعلى الرغم من أن غيفارا حظي، خلال توليه مناصبه الحكومية بحرية تامة (وخصوصاً وزارة الصناعة) ووضع أفكاره موضع التنفيذ والاختبار على حد قول كاسترو، إلا أنه لم يغفل مقتضيات السياسة الواقعية حيال العلاقات بين كوبا والاتحاد السوفييتي. وفي حين انتقد غيفارا النظام السوفييتي في الإدارة الاقتصادية (نظام التمويل الذاتي)، إلا أنه، خلال توليه مناصبه الحكومية، لم يفصح علناً عن قناعاته بأن ذلك النظام، يحمل بذور الانهيار ويهدد بعودة الرأسمالية إلى الدول الاشتراكية. كان غيفارا يدرك أنه لا يستطيع التصريح بأفكاره في تلك الآونة بحكم كونه أحد كبار قادة الثورة الكوبية ووزيراً للصناعة و"مهندساً" لنظام التمويل بالميزانية" وبحكم المكانة الدبلوماسية والثورية والأممية التي حظي بها آنذاك كممثل لكوبا في العالم، مما كان يعني أن ما يقوله قد يُفسر أو يُفهم على أنه الموقف الرسمي للحكومة الكوبية. وعليه، تابع غيفارا تحليلاته وبحثه عن الحلول، ولكنه ظلّ حذراً في نقده العلني للسوفييت كي لا يعرض للخطر العلاقات الأخوية بين كوبا والاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الأخرى والدعم الاقتصادي والسياسي الكبير الذي كانت تتلقاه كوبا من تلك البلدان.

في هذا السياق يستقيم فهم نقد غيفارا للاقتصاد السياسي السوفييتي، على صراحته وقسوته، فهماً موضوعياً وأمينا ويتم تجليسه من باب ولائه والتزامه بالمشروع الاشتراكي والشيوعي. وبالرغم من كل ما قيل عن موقف غيفارا من الاتحاد السوفييتي، فقد كان يكنّ لهذا الأخير احتراماً كبيراً ويقدّر الدعم الذي كان يقدمه لكوبا. ومن هذا المنطلق فإن نقده ينبغي أن يُفهم على أنه إيجابي وبنّاء وصادق لأنه كان مقتنعاً بأن تقديم نقدٍ شاملٍ للنموذج السوفييتي سوف يُظهر، بما لا يقبل الجدل، المخاطر الكامنة في هذا النظام والإسراع إلى تفاديها.

نقد غيفارا للسوفييت: راهنية ودلالات

هل يجوز القول بأن غيفارا "تنبأ" بانهيار الاتحاد السوفييتي؟

لقد أدرك غيفارا أن النمط الاقتصادي الذي اتبعه السوفييت كاد يودي بهم بعيداً عن المفاهيم الماركسية في بناء الاشتراكية فلم يدخر وسعاً ولا توانى عن التصريح برأيه والدفاع عنه. اليوم وبعد عقود من أطروحات غيفارا، يمكننا القول إن هذا "التكهن" كان نتاجاً لقراءة علمية ورؤية نافذة مبكرة في تحليل الاقتصاد السياسي السوفييتي. والآن، بعد ما يزيد عن ربع قرن من

انهيار الاتحاد السوڤييتي والأنظمة الاشتراكية في أوروبا الشرقية[169]، يكتسب نقد غيڤارا للنمط السوڤييتي وسياسات أنظمة "الاشتراكية المحققة" الذي كتبه قبل خمسة عقود، أهمية خاصة لا من الناحية السياسية والتاريخية فحسب، بل من منظور رؤيته المبكرة لأسباب هذا الانهيار ومساهمته في صياغة بديل للبناء الاشتراكي في كوبا وبلدان العالم الثالث. فبالرغم من أن هذا النقد ظل مطموساً لأربعين عاماً، إلا أنه لم يصبح مشهداً من التاريخ أسدل عليه الستار، بل ما زلنا نعيش راهنيته وحدة تناقضاته، وما زلنا ندفع ثمن انهيار القطب الاشتراكي وتداعياته التي ألقت بظلالها الثقيلة على الإنسانية والاشتراكية فكرةً ومشروعاً وحلماً.

صحيح أن القضايا المطروحة عبّرت عن الصراعات والتناقضات التي كانت محتدمة خلال ستينيات القرن الماضي، إلا أنها ما زالت ماثلة أمامنا، بطبيعتها وحدتها وتداعياتها، وربما بدرجة أفظع في تجليات التناقض الأزلي بين الرأسمالية والإنسانية. من هنا، تكتسب دراسة أفكارا غيڤارا هذه الأهمية والراهنية لأنها في الجوهر والأساس معركة من أجل الحفاظ على الوعي الإنساني والوطني والاشتراكي. هي "معارك الأفكار"، وهي الركيزة الأساسية لأي مشروع مناهض للإمبريالية والرأسمالية.

لنا أن نختلف مع غيڤارا أو أن نشاطره الرأي، إلا أن نقده لـ"الدليل السوڤييتي" شكّل، يقيناً، الخطوة الأولى لمساهمته في

---

[169] رسمياً يمكننا القول إن الاتحاد السوفياتي" سقط يوم 1991/12/26، غير أن بدايات انهياره أصبحت واضحة منذ 1985 حين بدأ شق من الحزب الشيوعي السوفياتي (يمثله غورباتشيف) في تفكيكه من الداخل.

صياغة نظرية حول الانتقال إلى الاشتراكية والبحث عن حلول لمشاكل وإشكاليات البناء الاشتراكي وكسر الجمود العقائدي والتبعية للنمط السوفييتي اللذين هيمنا على تلك الحقبة.

القسم الخامس

نقد تشي غيڤارا

الفصل السابع والثلاثون

مقدمة: نقد "النقد"

خلافاً للانطباع العام بين الأجيال الشابة، فإن الذين يعارضون غيفارا وينتقدونه ويقدحون به لا يقلون ضراوةً عن أولئك الذين يناصرونه. كما أن غيفارا لم يحظ بالافتتان والأسطورية والتمجيد فحسب، بل تعرض وما زال حتى يومنا هذا، لحملات عديدة من النقد والتجريح والتدمير التي انهالت عليه من كافة قوى اليسار واليمين.

وفي حين تنطلق القلة من منطلق ثوري وتعتمد الموضوعية في تقييم غيفارا وفكره وإرثه، فإن كثرة من هذه الانتقادات والتي تملأ فضاء الإنترنت ووسائل البروباغندا الليبرالية الغربية، تتسم بدوافع سياسية وخطاب يميني رجعي. ولعل ما لا يقل خطورة أن الكثيرين من مؤيديه لم يقرؤوا فكره وتجربته وطروحاته إلا بعيون الرومانسية والأيقونية اللتين أحاطتا بهذا الثائر والمفكر، أو بالقدر الذي يروج له الإعلام الغربي، بشقيه الرأسمالي أو الذي يدّعي أنه تقدمي . يساري . اشتراكي.

سأقدم في الفصول القادمة نماذج وصوراً لما ذكرته من نقدٍ إيجابي أو محاولات رخيصة في التشويه والتدمير، ولكن قبل ذلك سأبدي بعض الملاحظات العامة حول "تقييم" غيفارا وفكره:

■ لا ضير في نقد الفكر الثوري بل هو ضرورة لديمومته وحراكه في تاريخ الشعوب، طالما قام النقد على أرضية مقاومة ومحاربة الإمبريالية. وكذلك هو الأمر في ضرورة تقييم التجارب الثورية بسلبياتها وإيجابياتها لاستخلاص العبر والدروس. وعليه، فإن تقييم الغيفارية يجب أن يقوم على ضوء المعطيات الخاصة لكل حالة، لا على محاولات التدمير والتشويه والتزييف.

■ لم يدّعِ غيڤارا يوماً أن ما خلّفه يشكّل فكراً أو نظرية متكاملة تملك الإجابات على كل الأسئلة، بل على العكس، كثيراً ما أشار طيلة مسيرته إلى أن الثورة والتغيير سيرورة مستمرة، تجارب نتعلم منها كي نتطور ونتقدم على أساس عِبَرها وخلاصة استنتاجاتنا.

إلاّ أن عدم اكتمال النظرية، لأي من الأسباب، لا ينتقص من قدرة المفكر أو الثائر، بل يُضفي عليه تميزاً خاصاً: فهو يقدم الفكر بإشكالياته، ويرسم ما توصل إليه من دروب وحلول وبدائل، تاركاً الأمر بعد ذلك بيد المناضلين والجماهير. وفي هذا يجسد غيڤارا تناغمه الأسطوري بين النظرية والممارسة.

■ تجدر الملاحظة أن الكثير من الانتقادات التي تعرض لها غيڤارا في فكره وممارسته، تسودها العوامل والدوافع الشخصية والسيكولوجية لتشي غيڤارا الفرد، وتتجاهل العوامل والظروف الخارجية والاجتماعية والاقتصادية ومجمل السياق العام في أميركا اللاتينية وأفريقيا والعالم الثالث. ولا داعي هنا للاستفاضة في التبريرات والنوايا الطيبة لهذه الانتقادات، فالنوايا الطيبة هذه أمر لم تتصف به العديد من الحركات السياسية بما فيها اليسارية

والماركسية عبر القرن الماضي، بل أن مراكز المخابرات الغربية ووسائل الإعلام والكثير من الأموال، نجحت في اختراق هذه الحركات وحقنها بسموم الدعاية الرأسمالية المغرضة والرجعية.

■ رأى كثيرون أن غيڤارا في نقده للاتحاد السوڤييتي كان رومانسياً ومتهوراً، فيما ذهب بعضهم إلى وصفه بـ"الانتحاري"، في حين وجد آخرون أنه غير مرتبط بالواقع رغم نواياه الطيبة. إلا أن أفكار غيڤارا، كما أفعاله ومسلكيته وخياراته، كانت في حقيقة الأمر ناتجة عن وعي حاد ومرهف للأوضاع القائمة آنذاك في كوبا والاتحاد السوڤييتي والدول الاشتراكية وبلدان العالم الثالث؛ وفهم دقيق للواقع الدولي وصراعات القوى الكبرى خصوصاً في حرب فيتنام. كانت قرارته مستنيره بوعي سياسي ثاقب وانسجام قلّ مثاله بين الأقوال والأفعال، فاستحق بجدارة الاسم الذي أطلق عيه "مفكراً بالأفعال".

■ ينطلق الكثير من الانتقادات الموجة لغيڤارا من مصادر اليمين الرجعي والآلة الإعلامية الرأسمالية في الغرب، غير أن "اليسار"، وخاصة المأجور منه لرأس المال وأوساطه الأكاديمية والإعلامية، لم يتوان عن الإدلاء بدلوه. وإلاّ فلمَ الإصرار، وبعد هذه السنوات الطويلة، على محاكمة تشي غيڤارا وفكره وممارسته على أنه "تجربة أسطورة" أو مقاتل مغامر، أو ثوري حالم، وتجنب تقييم إرثه وفكره في السياق التاريخي والاجتماعي كتجربة من تجارب الشعوب ومساهَمة في التغيير الثوري الهادف إلى إنسانيةٍ جديدة؟ ألم يكن غيڤارا، كما هو الأمر مع كاسترو ولينين وغيرهما، نتاجاً للحقبة التي

عاشوها ولسياق الظروف الاجتماعية والتاريخية التي أحاطت بهم؟ فالاختلافات حول إستراتيجيات غيڤارا في الكفاح والانتقادات التي وُجهت لها الإستراتيجيات، ليست مجرد شأن من الماضي، بل تحمل راهنية وأهمية ودلالات كبيرة.

لو أخذنا، على سبيل المثال، فشل تجربة غيڤارا في بوليفيا، فإننا نلحظ التقليل من دور الاتحاد السوڤييتي وتبعية الحزب الشيوعي البوليفي لإملاءاته وسياساته مثل العديد من الأحزاب الشيوعية في أميركا اللاتينية آنذاك. لماذا التقليل من هذا الدور في فشل التجربة البوليفية، مقابل المغالاة باتهام غيڤارا والقيادة الكوبية بعدم الإعداد السياسي والجماهيري الكفيل بتوفير المساندة للحملة في بوليفيا (1966 . 1967)، وتحميل غيڤارا المسؤولية الكاملة عن فشله في بناء قاعدة/ حركة جماهيرية تدعم الثورة في أدغال بوليفيا، على صحة هذا القول، مما أدّى إلى عزلته ورفاقه وتصفية العملية الثورية بأسرها؟

■ لا يجوز للنقد أن يقتصر على تعداد الأخطاء والإخفاقات فيما يتم تجاهل الإنجازات التي حققتها الثورة والتجربة الكوبية على كافة المستويات، المحلية والإقليمية والأممية. فلماذا النظر إلى الفشل في بوليفيا، مثلاً، دون الإقرار بالإنجازات في كوبا؟

كما أن التركيز على فشل الثوّار وإخفاقاتهم يحرمهم مما يستحقونه من تقدير لإصرارهم على متابعة المسيرة ومواصلة النضال تحت أقسى الظروف، ولصمودهم على مواقفهم دون خنوع أو تنازل أو خيانة، كما تشهد مسيرة غيڤارا.

يقرّ حتى أعداء غيڤارا أنفسهم بأن جهوده الدبلوماسية والاقتصادية في كوبا كانت من بين مساهماته الرئيسية لذلك البلد وشعبه، ويشيرون إلى أنها لم تلقَ الاهتمام الكافي حيث طغت صفات وسمعة غيڤارا كقائد عسكري في حرب الغوّار على إنجازات الرجل وإرثه. أليس التركيز على البعد العسكري المسلح من فكر غيڤارا ونضاله، والدفع بهذا التحليل إلى فشل حملتي الكونغو وبوليفيا تمهيداً وفرشاً سياسياً وثقافياً لتشوية فكره وتغييبه؟

يقول خورخي كاستينييدا *Castaneda Jorge*"اليساري" السابق المرتد، أن كلاً من كاسترو غيڤارا قد فشلا ولم يعد هناك في عالم اليوم من يريد أن يقترب من فكرهما ويؤكد أنه "ليس هناك غيفاريون اليوم، كما أنه ليس هناك مَنْ هو معنيٌّ بالاشتراكية". في حين يزعم أكاديمي أميركي، من حضن الأكاديمية الرأسمالية الناعم، أن غيڤارا قد "فشل في بناء اقتصاد قويٍ متماسك كما فشل في نشر الثورة" وأن السياسات الاقتصادية والسياسية التي تبناها كانت "وبالاً" على العمال الكوبيين.[170]

■ لا يفوت الزائر لكوبا أن يلحظ العديد من الملصقات ويافطات الطرق في كوبا، التي تحمل شعارات التمجيد لغيڤارا مثل: "كلنا تشي" و"كونوا مثل تشي" وغيرها. أما الناقدون فيتوقفون لدى تلك الشعارات ليتناولوها من منظور انتهازي يفوح بالغطرسة والسخف، فيرون فيها عبثاً سياسياً ومدعاة للسخرية وتتفتق عبقريتهم عن

[170] McArthur, Harvey, Cuba Debated at Latin America Scholars Conclave .*The Militant* – Vol/62 .No. 37, 19 October 1998.

حجج أكثر عبثاً وسخافة فيتساءلون عن دور هذه الملصقات: وهل هناك من بوسعه أن يكون مثل غيڤارا؟ ولا يدري المرء إن كان المقصود بالسؤال الارتقاء بمقام الرجل أم السخرية به أم إحباط عزيمة الأجيال الناشئة! إلا أن الأمر، وفي كل الحالات، يشير إلى تشويه رمزية هذه الشعارات ومغزاها الحقيقي والبعيد.

الفصل الثامن والثلاثون

النقد الماوي لغيڤارا

1) كيفية الوصول إلى السلطة

شقت الماوية مساراً مختلفاً وامتلكت رؤية مختلفة في الوصول إلى السلطة عن الدرب الذي اختاره غيڤارا. وتقوم الرؤية الماوية على أن الوصول إلى السلطة بالطرق المختصرة والسريعة لن يصمد أمام التحديات والضغوطات الإمبريالية،

ولن يقودنا إلى مجتمع ثوري. لهذا كله، فإنه من الضروري تجنيد الجماهير وتدريبها على خوض الصراع الطبقي طويل المدى تحت قيادة البروليتاريا.

أما في العالم الثالث، فقد رأت الماوية أن الكفاح المسلح يجب أن يأخذ طريق حرب الشعب طويلة الأمد التي تستند على جماهير الشعب وتحاصر المدن زاحفة من الريف، وهكذا يتم بناء القوة الجديدة داخل القواعد الثورية في تلك المناطق.

2) دور الفلاحين في الثورة

كرّس ماركس حياته مدافعاً عن حقوق ومصالح البروليتاريا ضد الرأسمالية. إلا أنه، وبسبب سياق الحقبة التي عاشها والواقع

الذي عاينه، لم يصرف الجهد ذاته في دراسة أوضاع ودور الفلاحين في هذا النضال. أما لينين، الذي قاد الحزب والثورة في روسيا القيصرية المتخلفة صناعياً، فقد أولى هذه المسألة اهتماماً كبيراً، إلى أن جاء ماو تسي تونغ الذي تميّز بالمساهمات الكبيرة في تحليل وفهم الفلاحين ودورهم في العملية الثورية.

درس ماو دور الفلاحين في الثورة والتقط بدقة العلاقة الوثيقة بينهم وبين الطبقة العاملة، وسوف نوجز في النقاط التالية السمات الرئيسية لهذه العلاقة كما رآها ماو:

1) تكمن جذور هذه العلاقة في الترابط بين النضال الثوري ضد الإقطاع (والعلاقات الإقطاعية وشبه الإقطاعية في الريف) من جهة، والنضال من أجل التحرير الوطني من جهة أخرى، حيث رأى ماو في هذين البعدين من كفاح الشعوب كلاً واحداً لا يمكن الفصل بينهما.

2) من هنا أكدت الماوية على التحالف الطبقي بين العمال والفلاحين.

3) حلل ماو طبقة الفلاحين بعناية فائقة، فوجد في ثناياها فئات مختلفة وتفاوتات اجتماعية واقتصادية أدت، بطبيعة الأمر، إلى تناقضات في المصالح.

4) وبناءً على هذا الفهم، حدد ماو موقفه من هذه الفئات والتناقضات بينها أي "التناقضات ضمن الطبقة الواحدة" فاستطاع أن يمسك بها وأن يضعها في خدمة الثورة.

5) عمل ماو على كسب فقراء الفلاحين إلى صفوف الثورة واعتبرهم عمودَها الفقري (المادة الأساسية)، كما عمل وبشكل متزامن، على كسب تأييد الفئة الوسطى. أما الأغنياء والميسورون من طبقة الفلاحين فقد عمل على تحييدهم إن لم يستطع كسب تأييدهم.

على هذه الأسس أقام الماويون نقدهم للغيفارية ونوجزه على نحو مكثف في النقاط التالية:

1) في حين، أدركت الماوية دور الفلاحين في الثورة، إلاّ أنها انتقدت غيڤارا في أنه قلل من أهمية الفلاحين وما يختزنونه من كامن ثوري وأنه لم يهتم بالثورة الزراعية، وأن الغيفارية صبّت جلّ اهتمامها في "الوصول إلى السلطة وتوسيع قطاع الدولة باسم الشعب" دون الاهتمام بالثورة الزراعية في الريف وجذب البروليتاريا لتصبح الطبقة القائدة. ذهب بعضهم إلى القول بان غيڤارا كان يستخف بتجنيد الفلاحين، وفي كثير من الحالات لم يعتمد عليهم كقوة أساسية في الثورة ولم يعمد إلى تحرير وإطلاق طاقاتهم الكامنة كإستراتيجية أساسية في النضال. ولاموا غيڤارا على إهماله هذه الحقائق ولنظرته إلى الفلاحين على "أنهم عائق" في طريق النضال ويوردون فشله في كسب الفلاحين في بوليفيا كمثال على ذلك.

2) لم تستوعب الغيفارية العلاقة بين العمال والفلاحين، وقللت من أهمية التحالف الطبقي بين هاتين الطبقتين ومن قدرة البروليتاريا على خوض النضال وقيادته.

وفي الحقيقة، أن غيفارا لم يتجاهل دور العمال والفلاحين ولا التحالف بين هاتين الطبقتين، ولكنه رأى، ضمن ظروف معينة، أن الطليعة الثورية تستطيع أن تأخذ المبادرة للانطلاق بالثورة، أي أنه ليس من الضروري الانتظار لاكتمال كافة الظروف الذاتية والموضوعية قبل إطلاق الرصاصة الأولى، لأن هذه الظروف ستكتمل من خلال الممارسة والعملية الثورية ذاتها، كما يتم كسب دعم الجماهير وبناء الحزب الثوري. بعبارة أخرى كان شعار غيفارا، وربما كانت الأولى بين الحركات الماركسية التي بادرت إلى هذا النهج: الفعل الثوري أولاً ثم صياغة النظرية.

ليس صحيحاً أن غيفارا وكاسترو غيّبا دور الطبقة العاملة في المدن خلال الثورة الكوبية بل أيدا الإضراب العام في البلاد في ابريل 1958. كما أنهما لم يرفضا فكرة الحزب والتعامل مع الأحزاب الأخرى في كوبا. لكن الخلاف كان في غياب الأرضية والأهداف السياسية ووسائل النضال ومسائل التوقيت والإعداد وغيرها للإضراب في المدن والأوساط العمالية والطلابية. وليس انتصار الثورة في كوبا سوى ثمرة العمل الجماهيري وإيمان القيادة به.

3) نقد إستراتيجية البؤر الثورية

اشتد النقد لهذه الإستراتيجية بعد مصرع غيفارا وفشل حملته في بوليفيا. ويظل نقد التيارات الماوية لهذه الإستراتيجية (وغيرها من مفاهيم الكفاح المسلح والعلاقة مع الفلاحين

والجماهير) الأكثر جدية وأهمية بالرغم من أنه لم يخل من الدوافع الشخصية والحزبية، وفيما يلي الخطوط العريضة لهذا النقد:

1) لم تستوعب الغيفارية، في نظر بعض التيارات، أن نسبة كبيرة من هؤلاء الفلاحين كانوا من الهنود الأصلانيين الذين لا يثقون أصلاً بالثوار حيث كانوا ينظرون اليهم بريبة وخشية كدخلاء مثلما كانوا ينظرون إلى الرجل الأبيض.

2) فيما يتعلق بالقواعد الارتكازية، وجد الناقدون أن تشي غيڤارا وفيدل كاسترو ركزا على الوظيفة العسكرية لهذه القواعد وأغفلا الجانب السياسي والتثقيفي في العمل الجماهير.

3) وحول العلاقة بين البؤر الثورية والحزب، اتهموا الغيفارية بالتقليل من الصعوبات والعقبات التي تواجهه إستراتيجية حرب العصابات في بلدان أميركا اللاتينية والعالم الثالث والمغالاة في دور التجربة الكوبية واحتمالات تكرارها ونجاحها في تلك البلدان.

4) دور الفلاحين: لا تستطيع الشعوب المضطهدة أن تقضي على الإمبريالية بشكل تام في الأغلبية الساحقة من بلدان العالم الثالث، كما تؤكد الماوية، دون تجنيد الفلاحين، كما أنه لا يمكن "لوحدات العصابات الصغيرة" أن تحل محل الحزب الثوري ذي القاعدة الجماهيرية العريضة والذي يحظى بمساندة العمال والفلاحين.

أما رد الغيفارية على مثل هذه الانتقادات فقد تمحور حول النقاط التالية:

1) لم يزعم تشي غيڤارا ولا فيدل كاسترو أن إستراتيجية "البؤر الثورية" هي الخيار الوحيد للشعوب، بل وجدا أنها الوسيلة الأنجع لنضال الشعوب المقهورة في أميركا اللاتينية والعالم الثالث في ظل ظروف موضوعية وذاتية محددة، وبالذات في الحالة الكوبية، وضمن سياقها التاريخي والاجتماعي.

لقد أثبتت تجربة المقاومة اللبنانية في مقارعتها للعدوان الصهيوني على فعالية حرب العصابات وعلى أنها قادرة على إحراز النصر وتحرير الأراضي المحتلة. وسوف يحمل لنا المستقبل دراسات وتحليلات للإنجازات العسكرية التي حققها الجيش العربي السوري والقوات الحليفة منذ عام 2011 ودور حرب العصابات وحرب الشوارع والمدن.

2) كما رأت الغيفارية في هذه الإستراتيجية، البديل المرشح لإنجاز أهداف الثورة في التحرير ثم التنمية الاقتصادية وبناء الاشتراكية والقضاء على الهيمنة الإمبريالية والأجنبية (تحرير الشعوب من نير الاستغلال والفقر وقمع الأنظمة العميلة الحاكمة وسيدها الإمبريالي اليانكي).

3) اعتمد النمط الماوي في حرب الشعب طويلة المدى بشكل أساسي على مشاركة طبقة الفلاحين وإقامة مناطق (قواعد) ارتكازية ينطلق منها الكفاح المسلح، في حين رأى غيڤارا أن مفاهيم حرب الشعب في التجربة الصينية لا تصلح للتطبيق في بلدان أميركا اللاتينية لاختلاف الظروف الموضوعية في تلك القارة وبشكل أساسي لأن الريف هناك كان أكثر تطوراً من الريف الصيني، إضافة

إلى أن الفلاحين (بما فيهم الهنود الأصلانيون) يتميزون بالسلبية وليسوا مؤهلين لخوض الثورة.

4) افترقت نظرية غيڤارا عن عقيدة ماو في حرب الشعب. ففي حين اعتمد ماو على دعم ومساندة الفلاحين منذ البداية من أجل تحقيق النصر، فإن نظرية غيڤارا كانت تقوم على أن الدعم الشعبي يأتي ويتنامى ويتراكم خلال مرحلة الكفاح، وهذا يعني أنه بمقدور مجموعة صغيرة من الثوّار (الفوكو – البؤرة) أن تبادر بحرب الغوّار ثم تخلق الظروف من أجل كسب الدعم الشعبي للثورة في الوقت ذاته.

5) ترفض نظرية الفوكو التركيز الماركسي الأورثوذكسي على الطبقة العاملة، وترى الحاجة لأخذ الظروف الموضوعية بالحسبان قبل انطلاق الثورة وهو ما أطلق عليه تشي غيڤارا اسم الطليعية أو الطلائعية ***vanguardism***.

4) علاقة العسكري بالسياسي والفصل بينهما

نادت الغيفارية بأن تكون قيادة الثورة في الريف حيث يحتدم الكفاح المسلح وحيث يكون الالتحام التام معه وكي يتسنى للقيادة والكوادر الإفلات من قمع النظام الحاكم. أما الوحدة السياسية فستولد في أتون المعركة. وكذلك الأمر فيما يتعلق بقضايا الإستراتيجية والتكتيك التي تتم صياغتها واستخلاصها من خلال الاشتباك العسكري المباشر مع العدو.

أما الماوية فقد رأت، على خلاف ذلك، أن هذا الخط ينذر بتناقضات عديدة تستفحل بين المدينة والريف، وبين الحزب والجيش، وبين أشكال النضال البرلمانية والسياسية والأخرى العسكرية. فقد ربط ماو تسي تونغ، ربطاً دياليكتيكياً ومحكماً، بين أشكال النضال (ومنها العسكرية) من جهة، وعملية التثقيف السياسي وتجنيد وتنظيم الجماهير العريضة من جهة أخرى. وأقام هذه العلاقات على أساس مفاهيمه في التناقض الرئيسي والثانوي والإمساك بالعلاقة الدياليكتيكية بينهما (على سبيل المثال العلاقة بين العمل السياسي والعسكري، توزيع القوى العسكرية أو تجميعها وتركيزها...الخ).[171]

وتجدر بنا هنا الإشارة إلى أن العلاقة بين السياسي والعسكري كانت في صميم الخلاف بين غيڤارا وقيادة الحزب الشيوعي البوليفي منذ أن التقى غيڤارا السكرتير العام لذلك الحزب ماريو مونخو بعد وصول الأول إلى بوليفيا. وقد تمحور الخلاف على المسألة التالية: مَن يملك القرار السياسي: الحزب الشيوعي البوليفي أم القيادة العسكرية الميدانية لحرب الغوّار أي غيڤارا ومجموعته المقاتلة؟ وبالطبع، تمسك غيڤارا بصلاحية المقاتلين الغوّار وقيادتهم العسكرية في صنع القرار.

لقد نجح كاسترو في فرض القيادة الميدانية في الحالة الكوبية، أمّا في الحالية البوليفية فلم يتمكن كاسترو ولا غيڤارا من فرض صناعة القرار على قيادة الحزب الشيوعي البوليفي. مما

[171] ماو تسي تونغ، "في التناقض"، دار النشر باللغات الأجنبية، بكين، 1968.

تسبب في الصدام بين غيڤارا وتلك القيادة وتعميق الخلاف بين الثوار وقيادة الحزب وشكّل، بدوره، عائقاً كبيراً في تمويل وإمدادات القوات الثورية في بوليفيا.

5) الحزب والجيش

وهذا أيضاً كان موضع خلاف مع الخط الماوي، إذ منحت الغيفارية الأولوية للكفاح المسلح، أما ماو فقد نادى بتزامن أشكال النضال السياسي والبرلماني مع الكفاح المسلح، أي الجمع بين كافة أشكال النضال في آن واحد.

أكد لينين وماو على الدور القيادي والمركزي للحزب الماركسي . اللينيني في إدارة النضال، مما يضمن الدور المستقل للبروليتاريا وقدرتها، من خلال الحزب، على قيادة الكفاح الثوري.[172] وعليه اتهم الماويون غيڤارا بالمبالغة في أهمية الطلائعية العسكرية ومنح الثوار المسلحين دوراً مبالغاً فيه في حين قلل من دور الأبعاد السياسية للنضال وأهمية التدريب والتثقيف السياسي والأيديولوجي للكادر العسكري. وذهب البعض إلى حد القول بأن الثورة الكوبية كانت

---

[172] كان ماو تسى تونغ أول من صاغ عقيدة عسكرية ماركسية شاملة وعمل من داخل الحزب الشيوعي الصيني في عشرينيات القرن الماضي لتثبيت خط الكفاح المسلح والذي أقرة الحزب عام 1935 وعبر عنه بالشعار الماوي المعروف: "البندقية هي السلاح الرئيسي في النضال وفي هذه الحالة يصبح الخط العسكري هو التعبير المكثف للخط السياسي".

ثورة لقلة من رجال العصابات ولم تعنى بالجماهير (خصوصاً الطبقة العاملة) ودورها في الثورة.

في المقابل، أصرت الغيفارية على استقلالية القرار السياسي للقوات المسلحة، ولم تر تناقضاً بين مركزية الحزب واستقلالية قيادة حرب العصابات.[173]

يكمن تفسير هذه الإشكالية، في تقديرنا، في أن الغيفارية جاءت في سياق أوضاع أميركا اللاتينية لترد على القوى السياسية هناك، وخاصة الأحزاب الشيوعية التي أمضت دهراً طويلا مستغلةً شعار الكفاح المسلح في مناوراتها السياسية والبرلمانية ولم تأخذه على محمل الجد واعتبرته أمراً مؤجلاً ووسيلةً ثانويةً في النضال.

6) الماوية وأممية غيڤارا

أثار التعايش السلمي بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي و"الإمبريالية السوفيتية" حفيظة ماو تسي تونغ ونقده اللاذع للاتحاد السوڤييتي، إذ اعتقد الزعيم الصيني أن حرب الشعب طويلة المدى هي العامل الحاسم في الانتصار على الرأسمالية

---

[173] في هذا السياق نذكر أن أميلكار كابرال المناضل الإفريقي (1924 – 1973) التقى مع وجهة نظر غيڤارا بان الكفاح المسلح شرط لإحراز أي إنجاز إلا أنه لم يكن يؤيد قدوم المقاتلين من كوبا إلى القارة الأفريقية اعتقاداً منه بانه على كل شعب أن يخوض نضاله بنفسه، ولكنه كان يرغب في أن ترسل كوبا المدرسين والأطباء والممرضات والفنيين لمساعدة الفلاحين في بلاده. وفي هذا يقول كابرال:"كي تولد الأمة، لا بد أن تموت القبيلة". راجع .Alvarez De Toledo, The Story of Che Guevera, p. 306

والإمبريالية وليست الأسلحة المدمرة والمتطورة. وقد جاءت تجربة الحرب الفيتنامية لاحقاً لتؤكد وجهة نظر ماو.

رأى ماو، وبحكم تجربته الثورية الطويلة أن الضمانة الوحيدة للثورة وللقضاء على الرأسمالية ودحر الإمبريالية والاحتلال الأجنبي تكمن في تراكم الدعم الشعبي للثورة عبر حرب الشعب طويلة المدى التي يبادر بها رجال العصابات من قواعدهم الارتكازية. أما كاسترو وغيڤارا فقد وسعا، كما اعتقد الكثيرون من الماويين، من دور هذه القواعد في العملية الثورية ونسبوا لها القدرة على خلق الشروط اللازمة للثورة في أميركا اللاتينية.

ويصبح الأمر أكثر جلاءً في التهم التي كالتها بعض التيارات الماوية لتشي غيڤارا والقيادة الكوبية بأن دعوتهم للثورة الأممية وللحركات الثورية في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية لم تنبع من موقف أممي في النضال ضد الإمبريالية، بل كان حسب ادعائهم، موقفاً خاضعاً "للمصلحة الوطنية الكوبية". "تتمثل الأممية الغيفارية، في نهاية المطاف، حسب ما قاله بعض الماويين، في مداعبة الطموحات الثورية للشعوب المضطَهدة فقط من أجل استخدامها كذخيرة للجانب السوڤييتي في النزاع الدولي بين القطبين". وفي حين سرقت دعوة غيڤارا للتضامن مع الثورة الفيتنامية وإلى خلق "فيتنامات متعددة" لبث الجماهير والثوار في كافة أصقاع العالم وأضحت، منذ ذلك اليوم، أنشودة لتضامن الشعوب ضد الإمبريالية الأميركية، وجد الماويون مأخذهم على تشي في أنه لم يذكر (ولم يتذكر) أن الصين كانت تدعم فيتنام دعماً

مباشراً وعلنياً. وربما التفسير الحقيقي لمثل هذه المآخذ يقبع في مكان آخر: في علاقة كوبا بالاتحاد السوڤييتي آنذاك وتداعيات النزاع الصيني - السوفييتي على هذه العلاقة.

هكذا فهم الماويون أممية ڠيڤارا، بين "المصلحة الوطنية الكوبية" و"ذخيرة للسوڤييت في النزاع بين القطبين". ولا شك بأن الموقف السياسي، أياً كان، لا يخلو من الحسابات والمصالح المحلية والدولية، وليست مواقف ڠيڤارا والقيادة الكوبية استثناءً. إلا أنه يجوز لنا أن نتساءل: أين صحة هذا القول بعد عقود من استشهاد ڠيڤارا والانهيار السوڤييتي؟ ويتصاعد نقد بعض التيارات الماوية إلى حد إنكار الغيفارية كخيار مقاومة للشعوب المضطهدة: "أن الغيفارية ليست، ولم تكن يوماً، أسلوباً مختلفاً لحرب الشعب: إنها إستراتيجية معارضة لحرب الشعب، وأكثر من ذلك إنها معارضة للثورة الضرورية للأمم المضطهدة".[174]

7) رفض المحاكاة في تجارب الشعوب

لقد حاربت الماوية أيضاً، كما حارب ڠيڤارا، استنساخ التجارب ومحاكاتها. وقد أشار ماو، أن درب الكفاح الذي اختارته الصين استند إلى التجربة الصينية وخبراتها وظروفها وحذر ثوّار العالم من محاكاة النموذج الصيني وطالبهم بتحديد اختياراتهم

---

[174] Lenny, Guevara, Debray, and Armed Revisionism, p.103.

وابتكار أساليبهم الإستراتيجية وفق ظروفهم وخصوصياتهم. ولا شك أن الدرب الماوي وخيار حرب الشعب طويلة الأمد يشكّل حتى يومنا هذا حلاً عاجلاً للشعوب المقهورة.

8) الماوية والسوڤييت

انتقدت القيادة الماوية في الصين الاتحاد السوفييتي وحلفاءه من الدول الاشتراكية وأشارت إلى أنه (الاتحاد السوڤييتي) عاد إلى الرأسمالية مع حلول ستينيات القرن الماضي. غير أن غيڤارا كان مصراً على أنه يجب على الاتحاد السوڤييتي أن يكون حليفاً للثورات الشعبية وحركات التحرر الوطنية.[175]

[175] للاستفاضة أنظر فصل "تشي غيڤارا والنزاع الصيني - السوفييتي".

الفصل التاسع والثلاثون

غيڤارا والتروتسكيون

غيڤارا والانقسامات داخل الحركة الشيوعية العالمية

كثيراً ما أعرب غيڤارا عن تذمره من شرذمة الحركة الشيوعية العالمية وزرع الشقاق بين صفوفها، في مناخ تحولت فيه التفسيرات المتباينة والمتنافسة إلى نزاعات وخلافات عنيفة.

لقد كانت مرحلة سياسية حرجة وحساسة تلك التي عاشتها كوبا وناضل في ظلها تشي غيڤارا. فقد استعر الخلاف الصيني . السوڤييتي في أوائل ستينيات القرن المنصرم، وكانت له أصداء كبيرة في صفوف الحركة والأحزاب الشيوعية العالمية، بما فيها بالطبع تلك الأحزاب في أميركا اللاتينية، إضافة إلى الخلافات والانقسامات التي كانت محتدمة بين التروتسكيين والستالينيين.

في هذه المناخات، سعت كوبا بعد انتصار ثورتها إلى اختبار سبل التنمية والبناء الاشتراكي وشجعت الجدل حول مقارنة التجارب الاشتراكية وانتقاء الأفضل لظروفها وخصوصياتها. وقد ساهم غيڤارا في "الجدل الكبير" وأغنى هذا الحوار بالعديد من أطروحاته النظرية والعملية وثمار تجربته وخبراته أثناء إدارته لوزارة

الصناعة الكوبية التي تولى مهامها آنذاك، وثمار دراسته ومعايشته للتجارب الاشتراكية الأخرى في الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية وبلدان أوروبا الشرقية.

غني عن القول إن أطروحات غيڤارا الناقدة للاتحاد السوفييتي لاقت حنق القيادة السوفييتية وأثارت قلقها، ولا شك أنها (القيادة السوفييتية) مارست الكثير من الضغوط على القيادة الكوبية للحد من نقد غيڤارا وإسكات صوته الذي أخذ يعلو في كافة الأصعدة الإقليمية والدولية. أما قوى التحرر في العالم الثالث والقوى الثورية والتقدمية في العالم، فقد رحبت بأفكار غيڤارا ومواقفه وجرأته ووضعته في مقام الثائر الأممي الممثل لمصالح الشعوب المقهورة.

لم يلقَ تحليل غيڤارا النقدي في حينه قبولاً لدى الكثيرين في الأوساط خارج كوبا والاتحاد السوفييتي وصفوف الحركة الشيوعية العالمية،، بل كثيراً ما تسبب بالمهاترات وكيل الاتهامات له، تارةً بأنه مرتد وتارةً أخرى بأنه وماوي أو تروتسكي. وهو ما نظر إليه غيڤارا بريبة ورأى فيه ما يضر بالعلاقات الأخوية بين الدول الاشتراكية ومحاولة لإيقاف الجدل وفرض الرقابة عليه ورفض الآراء المتباينة. وفي توضيح موقفه شدد غيڤارا على ضرورة مناقشة الأمور الهامة وتفادي المهاترات، ومن أجل إزالة أي التباس قد يلحق بموقفه يقول غيڤارا: "لم نعد نناقش نظام التمويل الذاتي [مع السوڤييت]. والأهم أنني أمثل الحكومة في أسفاري وأن ألتزم بصرامة في التعبير عن رأي الحكومة. لذا فعليهم أن يسمّوا

الحكومة [الكوبية] بالتروتسكية، والذي هو ضرب من المستحيل".[176]

غيڤارا والترتسكيون

لعدة عوامل، أهمها نقد غيڤارا للاتحاد السوفييتي وسياساته، حاول بعض التروتسكيين المقاربة بينه وبين ليو تروتسكي، والمقارنة بين نقد غيڤارا للاتحاد السوفييتي من جهة، ونقد تروتسكي من جهة أخرى. وفي محاولة منه بأن ينأى بنفسه عن التروتسكية والابتعاد عن التروتسكيين يقول غيڤارا:

"هناك بعض الأمور المفيدة التي من الممكن أن نستقيها من أفكار تروتسكي. أعتقد أن الأمور الأساسية التي استند إليها تروتسكي كانت خاطئة وأن مسلكيته في الفترة اللاحقة كانت خاطئة. أما في النهاية فقد كانت غامضة. لم يقدم الترتسكيون شيئاً إلى الحركة الثورية في أي مكان، أما في البلد الذي فعلوا فيه أكثر ما فعلوا، أي البيرو، فإنهم قد فشلوا في نهاية الأمر لأن أساليبهم كانت سيئة. أقام الرفيق هوجو بلانكو[177]، والذي هو على المستوى

[176] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 235.

[177] قاد حركة نقابية للفلاحين وانتفاضة للسكان الأصلانيين في إحدى مقاطعات البيرو، ولكن محاولته باءت بالفشل وتم إلقاء القبض عليه عام 1963.

الشخصي رجل ذو تضحيات كبيرة، موقفه على مجموعة من الأفكار الخاطئة وسوف يفشل بالضرورة".[178]

بالإضافة، أقرّ غيفارا أنه "في كثير من الجوانب قد عبّر عن آراء أقرب إلى الطرف الصيني مثل مسائل حرب العصابات والحرب الشعبية وفي تطوير هذه الأمور، والعمل الطوعي والوقوف ضد الحوافز المادية كروافع في [البناء الاقتصادي الاشتراكي] وغيرها من الأمور التي أتى بها الصينيون أيضاً".[179]

يقول غيفارا في الرسالة التي بعث بها إلى صديقه أرماندو هارت، والتي أتينا على ذكرها سابقاً، ما مفاده: إذا ما استثنينا الأدبيات السوفييتية، ليس هناك في كوبا مادة منشورة تبعث المرء على التفكير، فالحزب (يقصد الشيوعي السوفييتي) يقدم لك تلك المادة وما عليك إلا أن تهضمها. سيكون من الضروري نشر الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز ولينين وستالين وغيرهم من كبار الماركسيين. هكذا يتسنى لنا أن نعري "التحريفيين" (إذا أردت يمكنك هنا إضافة خروشتشيوف)، وتحليلهم بشكل جيد وأكثر عمقا من الآخرين بما فيهم صديقك تروتسكي الذي كان موجوداً وعلى ما يبدو أنه كتب شيئاً".

178 Che Guevara, “Reuniones Bimestrales”, December 1964, p. 566. Cited in Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 235.

179 Ibid., p. 235.

لم تسعف غيڤارا محاولاته بأن ينأى بنفسه عن التروتسكيين وغيرهم. وبالرغم من معارضته الشديدة لمحاكاة أي حزبٍ أو أي نظام سياسيٍ أو اقتصادي آخر، أو إلصاق اسمه بهذا التيار أو ذاك، وأن يظل "شيوعياً مستقلاً". فقد تعاضدت عوامل عدة توحي للكثيرين بالمقاربة والمقارنة بين غيڤارا وليو تروتسكي رغم الخلافات الأيديولجية بين الاثنين، ومن أهم هذه العوامل:

- نقد غيڤارا للماركسية الدوغمائية التي نظّرت لها الأدبيات السوفييتية، كما رأينا في أكثر من موقع في هذا الكتاب، ما ساهم في الإيحاء بقرب غيڤارا من تروتسكي؛

- موقفه الناقد والرافض لتبعية الأحزاب الشيوعية وخاصة في أميركا اللاتينية لتعليمات موسكو، ومعارضته لسياسات تلك الأحزاب وانصياعها لتعليمات الكومنترن؛

- كراهيته المتأصلة للإدارات والقيادات البيروقراطية لتلك الأحزاب؛

- انتقاده للينين واعتباره مسؤولاً عن إدخال بعض أشكال المزاحمة الرأسمالية في الاتحاد السوفييتي خلال الـ"نيب"؛

- إيمان غيڤارا بالثورة الدائمة ونضاله من أجل نشر الثورة في أميركا اللاتينية بعد انتصارها في كوبا.

صحيح أن غيڤارا، حين كان وزيراً للصناعة، أقام علاقات طيبة مع التروتسكيين ووفر لهم الحماية حين دعت الحاجة إلى ذلك، لأنه نظر إليهم كثوار وحلفاء (وإن اختلف معهم في بعض

الأمور)، ولأنهم أيدوا سلطة (دولة) الحزب الواحد الذي تأسس في كوبا بعد انتصار الثورة وإن كان بينهم من انتقد شكل هذا الحكم.

هذا هو، إذاً، جزء من الكم الضئيل الذي نعرفه عن علاقة غيڤارا بالتروتسكيين خلال توليه مسؤولياته الحكومية والحزبية في كوبا وموقفه من أطروحات ليو تروتسكي ومجمل الحركة التروتسكية في كوبا والعالم. بالرغم أننا ما زلنا بحاجة إلى المزيد من الأبحاث لدراسة، غير أنه من المعروف أن غيڤارا دافع عن حرية التروتسكيين الكوبيين في التحرك والتعبير عن وجهة نظرهم، واعتبرهم جزءًا من القوى الماركسية التي أيدت الثورة الكوبية، كما أنه ساهم في إطلاق سراح بعضهم من السجن في كوبا. وربما يكون هذا أحد أسباب افتتان بعض التروتسكيين بغيڤارا الذي آمن حقاً ومارس الثورة الدائمة.

الانتقادات التروتسكية

تقف عدة عوامل خلف نقد التروتسكيين لغيڤارا أهمها أن تحليل غيڤارا ونقده للسياسات السوفييتية و"للدليل الاقتصادي السوفييتي" كان، من وجهة نظرهم، قاصراً لأنه لم "يفهم الستالينية"، ولأنه لم يدرك أن الاتحاد السوفييتي قوة إمبريالية وفق التحليل التروتسكي وليس مجرد قوة متواطئة مع الإمبريالية العالمية وقابلة للتعايش السلمي مع المعسكر الرأسمالي.

في أدبيات المنظمات التروتسكية ومواقعها التي تملأ دنيا السياسة وخاصة فضاء الشبكة العنكبوتية يعثر المرء على الكثير من النقد والتحليل لمواقف وأطروحات تشي غيفارا. ومن أهم الانتقادات التروتسكية لغيفارا تلك التي تتمحور حول (1) "ماركسية" غيفارا، و(2) علاقة غيفارا مع الاتحاد السوفييتي بما ذلك نقده لنمط الإنتاج السوفييتي والسياسات الاقتصادية والعلاقات الدولية للاتحاد السوفييتي في تلك الحقبة، و(3) دور الطبقة العاملة.[180]

حول "ماركسية تشي غيفارا":

غيفارا لم يفهم الستالينية

يأخذ الكثيرون من التروتسكيين على غيفارا أنه، وعلى الرغم من سعة معرفته ومداركه السياسية والنظرية، فإن تمكنه من النظرية الماركسية كان "وحيد الجانب وغير مكتمل". كما يدّعي بعض الماركسيين، خاصة بين صفوف التيارات التروتسكية، أن غيفارا لم يفهم الستالينية (يقصدون بالطبع أنه لم يفهمها كما يفهمونها هم، أو كما يريدونه أن يفهمها)، وهو ادعاء ينطوي على وهم لا يكف الترتسكيون عن ترديده وهو أنهم وحدهم ولا أحد غيرهم يفهم الستالينية أو في مقدوره أن ينتقدها.

---

180 يسلط ميشيل لوي في كتاباته عن غيفارا الضوء على العديد من الانتقادات التي تعرض لها الأخير في نقده للسياسات السوفييتية.

نقد غيڤارا للاتحاد السوفييتي

النقطة الأساسية في نقد التروتسكيين لغيڤارا أنه أحال، من وجهة نظرهم، أسباب المأزق الذي وصل إليه الاتحاد السوڤييتي في ستينيات القرن الماضي إلى السياسة الاقتصادية الجديدة "نيب" وهي السياسات والخطط الاقتصادية التي طرحها لينين في التخطيط الاقتصادي للاتحاد السوڤييتي ورأى فيها ضرورة لإنقاذ البلاد بعد انتصار الثورة البولشفية والحرب الأهلية التي غرقت فيها البلاد 1917-1922. وقد ألمح غيڤارا أكثر من مرّة، مع أنه أكد أن هذا انطباع ذاتي بالمطلق، إلى أنه لو قُدر للينين أن يبقى حيّاً لأصلح أخطاء هذه السياسات الاقتصادية.[181]

كان غيڤارا مقتنعاً بأن الـ"نيب" هي المسؤولة عن الاتجاه الموالي للرأسمالية في الاتحاد السوڤييتي وأنها تضمنت بعض العناصر الرأسمالية التي أدت إلى ظهور الميول الكارثية وإلى عودة الرأسمالية التي شهدناها في الاتحاد السوڤييتي عام 1963.

التقليل من دور الطبقة العاملة

تدّعي بعض الأدبيات التروتسكية أن اشتراكية غيڤارا كانت خاطئة لأنها قللت من دور الطبقة العاملة في التغيير الاجتماعي وفي مرحلة التحول الاشتراكي. أما أسباب هذه المواقف، حسب الأدبيات

[181] Yaffe, Che Guevara: The Economics of Revolution, p. 236.

التروتسكية، فتعود في جزءٍ منها إلى خلفيته الطبقية كونه من الطبقة الأرجنتينية الوسطى، وفي جزءٍ آخر لأنه لم يكن منخرطاً أو منتسباً لأيٍ من أحزاب أو منظمات الحركة العمالية. ويضيفون إلى هذه الأسباب أن غيفارا كان متأثراً بأفكار التيارات القومية في أميركا اللاتينية في القرن التاسع عشر مثل سيمون بوليفار وقادة الثورات والانتفاضات الفلاحية في المكسيك 1910 - 1918، إيميليانو ساباتا *Zapata Emiliano*وبانتشو فييّا *Pancho Villa*. وقد تطورت هذه الأفكار والتيارات القومية والثورات التي قادتها، في مرحلة كانت فيها الطبقة العاملة والحركة العمالية في بلدان أميركا اللاتينية ما زالت في طفولتها. لذلك فان غيفارا لم يلتقط الدور المركزي الذي لعبته الطبقة العاملة في الثورة البلشفية لعام 1917، بل أكدّ على أولوية وصدارة دور الفلاحين في إستراتيجية حرب العصابات.

ويسوق التروتسكيون مثال عمال المناجم في بوليفيا وأن غيفارا، على الرغم من القوة الهائلة التي اتصف بها هؤلاء العمال، لم يستوعب حقا الدور الكامن للطبقة العاملة في الثورة الاشتراكية، وحتى في دول مثل بوليفيا حيث يشكلون أقلية من السكان. لقد كان لهذا الضعف عند غيفارا، بالإضافة إلى عوامل أخرى، تأثيراً مباشراً على الأفكار التي كونها في وقت لاحق.

الفصل الأربعون

غيفارا بين التشهير والتشويه

لا نبالغ إذا قلنا أن نقد غيفارا خلال حياته وبعد استشهاده كان، وما زال، يأتي من كل حدبٍ وصوب، من أعدائه كما أولئك الذين يدّعون مناصرته.[182] وإذا كان المرء يتوقع أن يأتي نقد غيفارا وتشويه فكره وتدمير إرثه، هو الأمر الطبيعي من قبل أعدائه - الإمبريالية والرأسمالية الغربية والأميركية خاصة ومنظريها ومروجي خطابها وإعلامها –

إلاّ أن التشويه والتحريف اللذين لحقا بغيفارا لم يتوقفا عند هؤلاء. فقد ساهم في ما يُسمى "نقد غيفارا" وما تضمنه من تحريف وتشويه، يساريون وماركسيون من شتى الألوان. ولعل "نقد" هؤلاء هو الأخطر والأكثر تدميراً لأنه آتٍ من جهات يسارية واشتراكية وشيوعية، أو هي تدّعي ذلك على الأقل، ولأنه يساهم في تشويه فكره ومصداقية نضاله وحتى استشهاده، كما أن آثار هذا التزييف

---

182 للاطلاع على عينة من هذه التهم راجع كتاب:

Llosa, Alvaro Vargas, The Che Guevara Myth and the Future of Liberty, The Independent Institute, Oakland, USA, 2006.

والتشويه تكون أكثر وقعاً على وعي الأجيال الناشئة التي كانت محور اهتمام غيفارا وأمله في الغد الجديد و"الإنسان الجديد".

ولعل أطروحة غيفارا في حرب العصابات أنصع مثال على ما نقول. فقد اختزل بعض هذا "النقد" في حالات عديدة، مساهمات غيفارا الفكرية والسياسية والماركسية والثورية والفلسفية والأخلاقية إلى "مغامرات فاشلة في حرب الغوّار"، ولكنهم تجاهلوا وتناسوا نجاح الكفاح المسلح الثوري في كوبا والانتصار على واحدة من أعتى ديكتاتوريات الكاريبي وأميركا اللاتينية، والمدعومة من قبل الإمبريالية الأميركية. بالإضافة، وهنا يجوز لنا التساؤل: هل كان هذا الشكل من النضال وما كتبه غيفارا في حرب العصابات هو كل ما أنجزه الرجل في حياته وكل ما تَبقى من إرثه؟

لقد أغفل الكثيرون في معرض نقدهم لغيفارا وتجريحه، عن عمد، السياق التي جاءت فيه أطروحات غيفارا.

أما الذين يلومون ممارسات غيفارا بعد انتصار الثورة الكوبية فهم كُثر وخصوصاً سياساته الاقتصادية وفشل حملتي إشعال الكفاح المسلح في الكونغو وبوليفيا، ويرون أنها أساءت إليه ونسفت فكره كمقاتل وثائر. ولسنا هنا في معرض الدفاع عن هذه السياسات وحصتها من الصحة والخطأ، ولكن هؤلاء ينسون أو يتناسون ما قدمه غيفارا لكوبا وشعبها ما جعل منه، بعد سبع سنوات من مغادرته بلده الأرجنتين شاباً، ثائراً أممياً ورفعه إلى مصاف قادة الدول الكبرى مثل الاتحاد السوفيتي والصين ومصر ويوغسلافيا وغيرها.

الإشاعات: آلية التشهير

ما زال إرث غيڤارا حاضراً وبقوة في الواقع القائم، كما في رمزية القدوة الثورية والنضالية. إلاّ أن هذا لا ينطبق في الكثير من الحالات على الغرب الرأسمالي وأبواق دعايته وإعلامه والتي تعتمد المصادر الأميركية وخاصة سي آي إيه أو وزارة الخارجية وغيرها. حتى مَنْ يدّعي منهم الإنصاف والموضوعية والمصداقية، سرعان ما يسقط في سخف الادعاءات وخبثها. لنأخذ، على سبيل المثال، ما يقوله هنري رين في كتابه "سقوط تشي غيڤارا"[183] "... ومع ذلك، فقد حاولت في هذا الكتاب أن أسرد القصة دون انحياز لمجموعتين من البشر، تتمتع كل منها بقناعات قوية ومتناقضة، تحاول حلّ الخلافات فيما بينها، وللأسف، بطريقة بدائية ما زالت (أي الطريقة) عادة البشرية".[184]

فهل من حجة أكثر سخفاً وهراءً من اعتبار النضال الذي خاضه تشي غيڤارا ضد الإمبريالية الأميركية وضد الهيمنة الأجنبية وضحى بحياته في سبيله، صراعاً بين "مجموعتين ذات قناعات قوية ومتناقضة"! هل الأمر حقاً مجرد قناعات كما يوحي لنا الكاتب، أم هو صراع بين مصالح أُزهقت في سبيلها أرواح الملايين من البشر

---

[183] Ryan, The Fall of Che Guevara.

يعرّف الكاتب نفسه بـ "المؤرخ المحترف" والذي حظي كتابه بنشره من مؤسسة University Press Oxford، التي تعتبر عريقة في المعايير الأكاديمية والبحثية الأميركية والغربية.

[184] Ryan, The Fall of Che Guevara, p. vii.

عبر خمسة قرون من عمر الرأسمالية، وشُنت من أجلها حروب لا تحصى، حروب كونية وإقليمية ومحلية وأهلية؟

بعد هذه المقدمة، يسطر الكاتب كتاباً كاملاً ليبرهن على أن:

- غيفارا كان "عميلاً" لسياسات كاسترو منذ أن التقى به عام 1955 حتى استشهاده.

- وأن حكومة الولايات المتحدة لم تقتل تشي غيفارا ولم تأمر بقتله، رغم أنها كانت "منخرطة بعمق" في تصفية مجموعة غيفارا من المقاتلين الثوّار.

***

سنأتي في هذا الفصل على العديد من التهم التي ألصقت بغيفارا ومسيرته ونضاله. وهي تهم تصلنا من مصادر مختلفه تجمعها غايةٌ واحدة: تشوية الثائر وتدمير فكره وحرمان الأجيال الناشئة من إرثه الثوري. غير أن هذه التهم، والتي تبدو وكأنها موضوعية وعلمية وعلى اختلاف مصادرها، تتسم بأنها تسوق لنا وقائع وأقوال وأفعال تنسب إلى غيفارا ولكنها مأخوذة خارج سياق الكفاح الثوري ومن منظور معاداة الشعوب وكفاحهم وثوراتهم، وتتعامى بالمطلق عن القتل الإمبريالي اليومي، الخفي والمعلن، والاستبداد والقمع والسجن والتعذيب المتستر بأكذوبة الديمقراطية الأميركية والغربية.

من تلك القائمة الطويلة من التهم والإشاعات التي ألصقت بغيفارا، نقدم فيما يلي بعضاً منها في المحاور التالية:

(1) الخلاف بين غيفارا وكاسترو وسوف نفرد الفصل التالي لمناقشة العلاقة بين الرجلين.

(2) غيفارا: دكتاتور مستبد

(3) غيفارا "الانتحاري"

(4) غيفارا... سفّاح دموي

(5) هزائم غيفارا وفشله

(6) خطر غيفارا على السلام العالمي

غيفارا: دكتاتور مستبد

■ شهوة السلطة وحب العظمة

أضافت البروباغندا الرأسمالية والإمبريالية تشي غيفارا إلى قائمة "الطغاة أمثال ستالين وماو"، وعلى الرغم من الاختلاف بين هؤلاء "الطغاة"، فان ما يجمعهم، وفق هذه البروباغندا، هو شهوة السلطة المطلقة والاستبداد، وهذا المشترك يفوق بكثير كافة الفروقات الأخرى بينهم.

تتحدث الدعاية الإمبريالية عن شهوة تشي غيفارا للسلطة، وعن حبه للعظمة ورغبته في الاستيلاء على ممتلكات الناس وحياتهم وإلغاء إرادتهم الحرة والسطو على البنوك واستخدام الثورة ل"ترخيص" سرقة ممتلكات الآخرين. غير أنهم لا يوافونا

بتفسير للتناقض الواضح، ألا وهو أن هذه الشهوة تناقض كل ما آمن به غيفارا وناضل من أجله، كما أنها لا تجيب على السؤال البسيط التالي: إذا كان الرجل متسلطاً، فلماذا تخلى عن كل مناصبه في الحزب والحكومة الكوبية ليذهب ويناضل إلى أماكن تستعصي فيها ظروف العيش وإمكانية البقاء مثل الكونغو وأدغال بوليفيا.

■ الديكتاتورية

يتهمون غيفارا بأنه كان في الجوهر دكتاتورياً مثل باتيستا، ويرددون دون كلل مقولتهم حول "قلعة الاستبداد" في كوبا: " كان تشي غيفارا هو العقل المدبر وفيدل كاسترو هو القلب، أما راؤول كاسترو فكان القبضة".

غير أنه تجدر الملاحظة أن التشهير بغيفارا ليس الغاية الوحيدة من مثل هذه الكتابات، بل إن غاية هذا الخطاب أبعد من ذلك ومفادها أن الاشتراكية نظام استبدادي دكتاتوري يغلف ذاته بالدفاع عن حريات وحقوق الفقراء والعمال والفلاحين. وأنها (الاشتراكية) تستخدم الخداع الأيديولوجي والسياسي انطلاقاً من أن عبودية العقل هي الخطوة الأولى نحو القمع والاستبدادي والعبودية والقبول بها.

وقد عمل هذا الخطاب بهدوء وخبثٍ على إيصال هذه الفكرة، التي طالما تسلحت بها الرأسمالية والإمبريالية والفاشية في معاركها مع الاشتراكية طيلة القرن العشرين. وبعد هذا الفرش

الأيديولوجي يسترسل الخطاب في معزوفته المقززة بأن الرأسمالية، هي "نبراس الديمقراطية والحرية و..."، وهي التي تعري الأكاذيب التي يقوم عليها القمع والذرائع التي تأسس لمنطق وعقلانية تسلط الدولة وتبرر قمعها (المقصود هنا هو الأنظمة الاشتراكية السابقة).

غيڤارا "الانتحاري"

■ هل كان غيڤارا "انتحارياً"؟

لا شك أن تشي غيڤارا كان يتوقع رحيله المبكر، كما أنه كان يدرك أن رسالته لن تتحقق بين ليلة وضحاياها، بل تتطلب تحولاً عميقاً وجذرياً في المجتمع يحتاج إلى أمدٍ طويل. وقد أكدّ على ذلك مرّات لا تحصى في كتاباته وخطاباته. لذا، نراه يركز دوماً على مخاطبة جيل الشباب لأنه الجديرة بحمل رسالته ورؤيته.[185]

يسوق بعض ناقدي غيڤارا وغيرهم من المتخصصين والمتفرغين للتشهير به، يسوقون مثالي حملتي غيڤارا العسكريتين في الكونغو وبوليفيا وفشلهما الذي أودى بحياته ورفاقه كدليل على هذا النزوع نحو الانتحارية والاستخفاف بالحياة وقيمتها، بل للادعاء بان غيڤارا كان يسعى إلى الموت وأنه "يريد أن يموت".

---

[185] تذكر التقارير أن جمال عبد الناصر كان يبدي امتعاضه من حديث غيڤارا المتكرر عن الموت خلال زيارة الأخير لمصر.

لعل هذه التهمة من أسخف التهم التي كثيراً ما يحاولون تقديمها على شكل "النقد الموضوعي". وليس هناك أبعد عن الحقيقة من القول بانه سعى إلى الموت حين انخرط في الثورة الكوبية، ولاحقاً في الكفاح الذي خاضه في الكونغو وبوليفيا. وفي هذا تغييب متعمد لحقيقة المناضل الثوري الذي يريد من خلال نضاله وقدوته وتفانيه أن يكشف للجماهير أسلوب النضال والفعل الذي عليها أن تقتدي بها في نضالها العنيد ضد أعدائها، إذا أرادت حقاً أن تحقق النصر والقضاء على الاستغلال والقمع والاضطهاد والظلم. وفي سبيل هذه الغاية، والتي هي غاية الثورة، ومع إدراكه التام للمخاطر التي تحيق بالعملية الثورية، قَبل غيفارا أن يعرض حياته للخطر وأن يناضل حتى الموت. ولعل هذا ما أراد غيفارا أن يقوله في شعاره المعروف والذي اعتاد على تكراره في ختام خطاباته وكتاباته:"الوطن أو الموت" ***Patria o muerte***.

بالإضافة إلى ذلك، تجدر الإشارة إلى أن المقولات التي وصفت تشي غيفارا بالمغامر والانتحاري، وخاصة حملته في أدغال بوليفيا التي أودت بحياته، تجافي الحقيقة وتُغفل الظروف الموضوعية التي أدت إلى عزلته في أدغال بوليفيا وإعاقة وصول الإمدادات الموعودة ودور الحزب الحزب الشيوعي البوليفي وتعليمات القيادة السوفيتية وغيرها من ملابسات تلك المرحلة. كما أن هذه المقولات تتنكر لحقيقة أن غيفارا، الذي كان قبل كل شيء، ثورياً ماركسياً وإستراتيجياً عسكرياً مؤمناً بقدرة الجماهير ودور ومسؤولية الفرد في صناعة الحدث، كان يدرك بعمق دور الظروف والتطورات الموضوعية وسياقها التاريخي والاجتماعي.

وسواء أخطأ غيڤارا في حملتيه في الكونغو وبوليفيا أم لا، فان السؤال الأهم يبقى: لماذا قرر غيڤارا، بعد أن شغل مناصب حكومية وحزبية رفيعة في كوبا، العودة إلى البندقية وخوض الكفاح المسلح؟ وهو سؤال لا يراه العقل الإمبريالي ولا عتاة منظريه ولا يخطر لهم على بال.

■ **شجاعة... مغامرة... أم عقلنة الخوف؟**

تصور الدعاية المغرضة "وبطوليات" هوليود السينمائية غيڤارا على أنه مغامر وتلصق به صفات الاستهتار والمجازفة. والحقيقة أن شجاعة غيڤارا لم تدفعه للإقدام على الأخطار غير المحسوبة بل تحلت مسلكيته بالثورية والتأني والتعقل والشعور العميق بالمسؤولية حيال سلامته وسلامة رفاقه. إذ لم تكن الشجاعة لدى غيڤارا غايةً بحد ذاتها، بل وسيلة نضال من أجل القضية والثورة. لذا، سعى بحرص شديد، ومن منظور الاعتبارات الإستراتيجية والسياسية، إلى التحكم بالخطر بالمقدار الذي يستطيع أن يتعاطى معه، فكان غيڤارا يعقلن الخوف ليتغلب عليه ويتجاوزه كي يتغلب على المخاطر المحيقة به.[186]

---

[186] لعل الحيثيات التي أحاطت بالساعات الأخيرة من حياته والتي أصبحت في متناول الجميع مثالاً على ذلك. لقد أدرك تشي آنذاك انه لا سبيل للنجاة فواجه الموت برباطة جأش لا تتأتى إلا لرجال من أمثاله. فعندما دخل الجندي المخمور المكلف بإطلاق النار على تشي الغرفة حيث جلس الأخير على الأرض، نظر غيڤارا إلى الجندي الذي ترتعد فرائصه بهدوء وسكينة ورأى يديه المرتجفتين الممسكتين على المسدس، فارتد إلى الحائط خلفه وصرخ به أن يطلق الرصاصة.

هكذا، على سبيل المثال، كان غيڤارا جسوراً غير آبه بالمخاطر حين قرر العمل والإقامة في مستشفى البرص في أدغال البرازيل مع صديقه البرتو جرانادو *Alberto Granado* الذي رافقه في رحلته عام 1953 والتي أصبحت موضوع الفيلم الشهير "يوميات الدراجة النارية". إلا أن غيڤارا لم يمتط هذه المشقات بدافع المجازفة والمغامرة بل التزاماً ووقوفاً مع الفقراء والمرضى ورغبة في التعرف على أوضاعهم وظروفهم المعيشية. كذلك لم يكن غيڤارا مغامراً حين قرر الانضمام إلى قوات الثورة الكوبية، وحين صمد مع طلائعها طيلة سبع أيام عسيرة وسط الأعاصير التي عصفت في 2 ديسمبر 1956 على ظهر الياخت جرانما الذي نقل الثوار من الساحل المكسيكي إلى شواطئ كوبا. وما أن وصلوا إلى جبال سييرا مايسترا *Maestra Sierra* في جنوب شرقي كوبا حيث كانت قوات الديكتاتور الكوبي باتيستا بانتظارهم في كمين أودى بحياة جُل المقاتلين ولم يُبقى إلاّ على اثني عشر رجلًا من أصل واحد وثمانين كان غيڤارا بينهم.

إلا أن هذا كله لم يشفع لغيڤارا، بل استمر التحامل عليه خلال حياته وبعد مقتله، فأحاط بسيرته ومواقفه الكثير من التزوير المغرض سواء خلال مرحلة الثورة في كوبا أو بعد مغادرتها.

لم يكن غيڤارا عابثاً يركض وراء وهمٍ أو معركةٍ دون كيشوتية، كما يدّعي الإعلام الرأسمالي، بل كان صانعاً لمشروع ثورة تبدأ في كوبا وتمتد لتطال الإنسانية بأسرها، كما كان قارئاً متفحصاً للتاريخ وحراك الشعوب وقوانين الصراع وديالكتيكية

التناقضات الاجتماعية والطبقية. أما عندما يحين وقت المواجهة مع العدو فقد كان تشي يدرك أن المقتل يكمن في الخوف والتردد، فنراه ينفض هذه الأوهام ويلقي بكل ثقله في المعركة.[187]

■ صنمية غيڤارا

The Cult of Che Guevara

يرتدي الكثيرون من الجيل الشاب في كافة أصقاع المعمورة قميص تشي غيڤارا وبعضهم لا يعرف من هو صاحب الصورة أو يعرفون القليل عنه. ولسنا هنا في صدد نقاش رمزية هذه القمصان أو الدفاع عن جهل الناس بمن يعلقون على صدورهم، ولكن الدعاية الإمبريالية تستخدم هذه الظاهرة في تكريس كذبة "صنمية" غيڤارا من أجل القدح به، فأتباع الصنمية لا يعرفون الحياة الحقيقية والفعلية لصنمهم ولا يعرفون أبسط الحقائق الموضوعية والتاريخية عنهم.

كثيراً ما تُوجه إلى غيڤارا تهمة سلعنة ذاته وترويج الثورة ك"سلعة رأسمالية" وكأنه هو المسؤول عن هذا حتى بعد استشهاده. ولا يخفى أن المتاجرة بغيڤارا وأيقونته واستخدام اسمه ورمزه هذه صناعة رأسمالية بامتياز وأن التجار الرأسماليين هم الذين ينتفعون من ذلك ويجنون الأرباح.

غيڤارا... سفّاح دموي

[187] يُروى عن كاسترو انه كثيراً ما كان يخشى على سلامة غيڤارا ويحرص على حمايته من الأذى والحد من الضرر الذي قد يلحق به.

■ تصفية الآخرين والاستيلاء على ممتلكاتهم

أي استخدام القوة والسلطة في حملات البطش بالأبرياء تصفيتهم (يقصدون الخونة والعملاء) والاستيلاء على ممتلكات الآخرين (يقصدون تأميم الأراضي والشركات والبنوك... الخ)، على أرضية تبريرات أخلاقية أو إيديولوجية للتغطية على دوافعهم الحقيقية.

كل هذا يأتي بالطبع في سياق اتهام كافة الأنظمة الاشتراكية باستخدام عنف وهيمنة الدولة في إعادة توزيع الثروات أي أنهم بعد أن يقيموا بنية اقتصادية إنتاجية يعمدون إلى أساليب سياسية لتحقيق مصالحهم وثرواتهم وخلق طبقة طفيلية منتفعة.

فالخطاب الإمبريالي لا يرى مسؤولية الاستغلال الإمبريالي الرأسمالي، بل يعزو مشاكل الفقر والعوز والقمع إلى الشعوب والأنظمة في أميركا اللاتينية، ولا يرى قيمة الإصلاح الزراعي سوى "نزع" الأراضي من أيدي الأغنياء ومنحها للبيروقراطية في الحزب الحاكم.

أما في حالة غيڤارا، فإن السؤال يظل عنيداً ينتظر الإجابة: كيف ينطبق هذا على غيڤارا الذي ضحى بكل شيء؟

■ دموية غيڤارا والعنف الثوري

تستشهد الدعاية الإمبريالية بأقوال تشي غيڤارا - التي كتبها في مراحل مختلفة من حياته وفي سياق محاربة العدو سواء على

مستوى العدو المحلي في كوبا أو العدو الإمبريالي خلال مرحلة تصفية العملاء والخونة التي تلت انتصار الثورة الكوبية - لتكرس مقولة أن غيفارا سفاح دموي وقاتل للأبرياء. هكذا ينقلب حديث غيفارا عن "العنف الثوري" والأخلاقي ليصبح عند كتبة مأجورين لرأس المال قتلاً للأبرياء وعنفاً متعطشاً للدماء. وهكذا أيضاً يتمّ تأويل وتحريف أطروحات غيفارا في مقالته الشهيرة في مجلة "الترايكونتيننتال" وقوله ما معناه أن الكراهية عنصر من عناصر النضال وأنها تدفع الإنسان إلى ما وراء قدراته البشرية إلى القتال. أما في نظر الإمبرياليين فإن الإنسان حينها يصبح "آلة قتل".

يُتهم غيفارا بأنه كان قاسي القلب، وقد كان في الحقيقة قاسياً وصارماً مع أعداء الثورة والخونة والعملاء، ولكنه كان أيضا قاسياً على نفسه قبل غيره، وربما هذا هو عين الإنصاف.

ولعل ما يجدر ذكره في هذا الصدد، وهو ما عُرف عن غيفارا كطبيب أثناء الثورة الكوبية، أنه أولى أسرى العدو من عسكر الديكتاتور باتيستا عناية خاصة، وكان، كما يعرف الكثيرون من الكوبيين، مَنْ شجّع العديد من جنود النظام الكوبي إلى إلقاء السلاح وتسليم أنفسهم للثورة واعداً إياهم بالحفاظ على حياتهم والمعاملة حسنة. وفي هذا الصدد يقول الجنرال نيكولاي ليونوف، المتقاعد من خدمة الاستخبارات الخارجية الروسية، أنه التقى غيفارا لأول مرة عام 1956 في المكسيك قبل انطلاقة الثورة الكوبية ووصفه بأنه "شخصية قوية". ثم أضاف قائلاً إن مَنْ كان يعرف غيفارا لا يمكنه أن يصدق أنه كان قاسياً.

■ الإعدامات والمحاكم الثورية بعد الثورة الكوبية

يطول مسلسل "جرائم غيفارا" الذي تروج لها البروباغندا الإمبريالية الغربية وربما يصل ذروته إلى تعيين غيفارا مسؤولاً عن المحاكم الثورية التي قامت بعد انتصار الثورة الكوبية. وهنا تتخبط الكتابات وتتناقض الإحصائيات ومصادرها في عدد مَن أصدر غيفارا حكم الإعدام فيهم، ومَنْ يدري كم من هذه المصادر وهمية ومُخَتلقة!

- تقول بعض المصادر إن عدد مَنْ أصدر غيفارا حكم الإعدام بحقهم بلغ 200 أو أقل؛[188]

- ثم يرتفع هذا الرقم ليصل إلى 700، حسب قول اليساري المرتد خورخى كاستنييدا؛

- أما مصادر أخرى فتذكر أن هذا الرقم يصل إلى 2000 شخصاً أي عشرة أضعاف الرقم الذي بدأنا به.

وفي توثيق مسؤولية غيفارا عن "قتل المئات بل الآلاف"، يأتي إلينا الخطاب الإمبريالي وما صرح به فيليكس رودريجس *Felix Rodriguez*، عميل المخابرات المركزية الأميركية. يقول رودريجس أنه سأل تشي غيفارا بعد أن سقط الأخير أسيراً في أدغال بوليفيا عن "الـ 2000 شخص أو ما يقارب" الذين كان مسؤولاً عن

---

[188] بلغ عدد الذين نُفذ فيهم حكم الإعدام 200 أو أقل. راجع

Alvarez De Toledo, The Story of Che Guevera, p. 230.

إعدامهم، فأجابه غيفارا بانهم "كانوا عملاء الـ سي آي إيه" دون أن يتطرق إلى الأرقام، فما كان من عميل السي آي إيه رودريجس إلا أن استخدم هذه الحكاية لتؤكد أن الذين تم إعدامهم في تلك المحاكم الثورية قد بلغ الألفين.[189]

تجدر الإشارة إلى أن الكثير من المصادر التي تستند إليها هذه الإشاعات، هي مصادر مخابراتية غربية إمبريالية مثل وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية وغيرها.

نسوق هذه الاتهامات لتنوير القارئ بأكاذيب وأساليب البروباغندا الإمبريالية، ولسنا في صدد الرد عليها فأفعال غيفارا في مرحلة ما بعد انتصار الثورة الكوبية وبناء الاشتراكية، ثم انطلاقه نحو الكونغو وبوليفيا لنشر الثورة الأممية، هذه الأفعال تنطق بحقيقة الرجل وتفند الأكاذيب والافتراءات.

في مقابل البروباغندا الإمبريالية، يؤكد جون أندرسون، وهو في تقديري صاحب أفضل سيرة حياة لتشي غيفارا[190]، أنه لم يعثر على أي مصدر موثوق يشير إلى حالة واحدة نفذ فيها غيفارا حكم الإعدام بشخص بريء. ويضيف أن أحكام الإعدام التي نُفذت بأوامر من غيفارا كان بحق مَنْ اقترفوا جرائم عقابها الإعدام في ظروف الحرب أو بعد انتهائها مثل أفعال الخيانة والاغتصاب والقتل والتعذيب وغيرها. يقول أندرسون: "أنا لا أتفق مع أولئك

---

[189] Llosa, The Che Guevara Myth, p. 14.

[190] Jon Anderson, Che Guevara: A Revolutionary Life.

الذين يقولون أن تشي كان وحشاً مخيفاً بسبب الثورات والمحاكمات. لم أرَ أي دليل ولست على بينة من أن أبناء اولئك الذين تم إعدامهم قد طالبوا بالعدالة لذويهم. لقد كان هناك الكثير من التعذيب وفرق الموت في ظل حكم باتيستا. هؤلاء، على وجه العموم، هم الذين لقوا مصرعهم. ولكن هل أقام الثوار تلك المحاكمات بطريقة متطرفة؟ نعم، فلم يكن ينبغى لهم أن يفعلوا ذلك بتلك السرعة ولا باستخدام في النيابة العامة مَنْ لهم من العمر تسعة عشر سنة في محاكمات نعتقد اليوم أنها كانت هزلية وعلنية. هذا لم يكن عملاً حصيفاً".[191]

هزائم غيفارا وفشله

يمثل "فشل غيفارا" وهزيمته حجر الأساس في الدعاية الإمبريالية المعادية لغيفارا. وقائمة "الهزائم" التي مُني بها، وفق تلك الدعاية، طويلة وتشير إلى فشله الذريع في "كل" محاولاته الثورية.

فيما يلي، أسرد للقارئ جزءًا يسيراً من تلك "الهزائم":

- لم يفعل غيفارا إلا القليل في تدمير الرأسمالية غير أنه نجح في أن يصبح سلعة رأسمالية: قمصان وفناجين قهوة وميداليات مفاتيح وغيرها. هكذا تتكلم البروباغندا.

[191] Cihan and Bailes, An Interview with Jon Lee Anderson.

● التشكيك بالقدرات القتالية والإستراتيجية لتشي غيڤارا في حرب الغوّار والانتصارات التي حققها في مدينة سانتا كلارا في أواسط الجزيرة الكوبية، والذي يعتبر نصراً إستراتيجياً ومحطة مفصلية في مسيرة الثورة الكوبية. وتقول هذه البروباغندا إن هذا الانتصار كان كذبة وإن هناك العديد من الشهادات التي تثبت، على سبيل المثال، أن سائق القطار الذي تم الاستيلاء عليه والذي كان محملاً بالعتاد والأسلحة التي أرسلها الدكتاتور باتيستا لمحاربة الثوّار، هذا السائق كان مرشيًا وأنه استسلم مسبقاً وقبل الهجوم على القطار.

يا للعجب، ألا يتفتق هذا التفسير عن عبقرية إمبريالية فذّة؟ فالعقل الإمبريالي لا يتورع عن أي تفسير ويذهب إلى أبعد المسافات والاحتمالات، لأنه لا يرى سوى انتصارات الإمبريالية، أما انتصارات الشعوب وثوراتها فيغيبها وينظر إليها بازدراء واحتقار.

● فشل وسحق كل المحاولات الثورية في نيكاراغوا وجمهورية الدومينيكان وباغا وهايتي والتي عمل تشي على تنظيمها وتدريبها ودعمها بعد انتصار الثورة الكوبية.

● فشل محاولة الثورة في الأرجنتين عام 1964

● فشل حملة الكونغو عام 1965

● لوم غيڤارا وتحميله مسؤولية ما حصل في الكونغو وجرائم لورنت كابيلا. كيف يكون تشي مسؤولا عن كل ذلك، وليس الاستعمار وأدواته؟

● الفشل الأخير في بوليفيا 1966-1967

- فالسبب الرئيسي في هذا الفشل، وفق الرواية الإمبريالية، هو تمسك غيڤارا بالسلطة واحتكار اتخاذ القرارات السياسية والعسكرية.

- أما شكوى غيڤارا من أن الفلاحين في بوليفيا لم يتعاونوا معه، فينظرون إليها وكأنها فشل غيڤارا نفسه ويضيفونها إلى مسلسل هزائمه.

- ثم يأتون إلى تخلي السوڤييت والحزب الشيوعي البوليفي وزعيمه ماريو مونخي عن تقديم الدعم اللوجستي والتموين في أدغال بوليفيا. وهذا في رأيهم لا يمكن أن يكون سوى دليل إضافي على عناد غيڤارا وتعنته واحتكاره للقرار.

- في نهاية الأمر، يخلصون إلى أن بوليفيا كانت "مغامرة هاوي حرب".

● "لقد كان تشي شجاعاً ولكنه لم يكن جنرال جياب"، يقول مروجو الدعاية الرأسمالية، "ليضفي على نفسه مسحة الثورية ودعم النضال الفيتنامي" والذي خاض أشرس المعارك ضد أميركا وأكبر هزائمها على الإطلاق.

● نظرية البؤرة كانت "غبية" لأن المحاولات فشلت باستثناء نيكاراغوا في أميركا اللاتينية "حيث أن "70 بالمائة من سكان أميركا

اللاتينية غادروا مزارعهم في الأرياف وارتحلوا إلى المدن في العقود الأربعة الأخيرة".

ويتناسى أصحاب "نظرية الغباء" هذه أن السبب في اقتلاع هؤلاء المزارعين من حقولهم ومصادر عيشهم التي اقتاتوا منها لقرونٍ طويلة، هو السياسة الاقتصادية الإمبريالية التي دمرت الريف والمزارع ولفظت هؤلاء الـ 70% إلى المدن الصناعية حيث لاقوا مصيرهم في الجوع والبطالة والاستغلال على أرصفة المدن الكبرى في تلك القارة (انظر، على سبيل المثال، تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المكسيك خلال العقود الأخيرة ولكن بشكل خاص وعلى نحو حاد بعد عقد اتفاقية نافتا *NAFTA* بين دول أميركا الشمالية (الولايات المتحدة وكندا والمكسيك) في الأول من يناير 1994).[192]

***

تقوم جهات وقوى متعددة من كافة أطياف اليمين واليسار بالحكم بالفشل على حملتي غيفارا في الكونغو وبوليفيا بشكل خاص، وعلى تجربة غيفارا برمتها، فكراً ونضالاً ومشروعاً وإرثاً، ويدّعي كثيرون ويكررون إن محاولات غيفارا والقيادة الكوبية في نشر الثورة كان تقديراً خاطئاً. ويدفعنا هذا إلى طرح عدة أسئلة:

ما الذي كان يضمن انتصار الثورة الكوبية حين انطلقت، وأي ضمانة لصمودها واستمراريتها وإمكانية نشرها في أميركا

[192] Llosa, The Che Guevara Myth, p. 20.

اللاتينية؟ وبالمنطق ذاته، هل هناك من ضامن لنجاح أي تجربة ثورية؟

أليس من حق الثوّار، بعد نجاح تجربتهم أن يسعوا لنشر الثورة؟ أليس هذا ما يمليه عليهم واجبهم الثوري؟

لماذا لا، وقد نجحوا في ثورتهم وبنوا قاعدة ثورية لمساندة الشعوب الأخرى وحركاتها الثورية؟

لماذا، إذن، الحكم مسبقاً على أن التجارب الثورية لا تتكرر ولا يمكن نشرها؟ وهل من الإنصاف الحكم من بعيد على هذه التجارب التاريخية؟

ألا تسعى هذه التجارب في نهاية المطاف إلى ثورة على الظلم والاستبداد وتحقيق الحرية والعدالة والتنمية الاجتماعية؟

وفي هذا كله، تحاول هذه البروباغندا أن تخفي فزع الولايات المتحدة من نجاح الثورة الكوبية التي استنفرت الإمبريالية الأميركية، فأخذت هذه الأخيرة ترصد أي حركة ثورية في أميركا اللاتينية والكاريبي وتتصدى لها بكل ما أوتيت به من وسائل التآمر والبطش والقمع. ويجب ألاّ يفوتنا هنا أن التجارب الثورية لم تكن مستوردة بكل كانت بطبيعتها تجارب أصيلة وعضوية نابعة من مصالح الجماهير وطموحاتها.

لا شك أن هناك أخطاء وقعت في بوليفيا. وهناك مَن يعتقد أن غيفارا أخطأ في توقيت انطلاق العملية العسكرية في بوليفيا، غير أن غيفارا لم يخطئ في الاعتقاد بأن بوليفيا يمكن أن تكون ساحة للثورة في القارة الأميركية اللاتينية، وأنه يمكن الإطاحة بالنظام القائم وتغيير الأوضاع هناك، وأنه كان بإمكانه خلق الظروف المناسبة للصمود الثورة واستمرارها لو توفر له الدعم البشري اللازم.

صحيح أنه لم يكن هناك ضمانة لنجاح حملتي الكونغو وبوليفيا، وربما كان احتمال النجاح ضئيلاً، ولكن هل هناك من ضمانة لانتصار أي محاولة ثورية بما فيها الثورة الكوبية؟

غيفارا: خطر على السلام العالمي

■ تهمة الشيوعية

تركز الدعاية الإمبريالية على أن غيفارا كان شيوعياً، بل كان الشيوعي الوحيد حين انضم إلى مجموعة الثوار الكوبيين والتقى فيدل كاسترو كاسترو في المكسيك (1955). وفي الدلائل والقرائن على ذلك، تردد هذه الدعاية أن غيفارا اعترف، حين ألقي القبض عليه في المكسيك عام 1956، بأنه كان شيوعياً وأنه كان يدرس اللغة الروسية ويقيم علاقة مع أحد موظفي السفارة السوفيتية في المكسيك. ولا تكلّ هذه الدعاية عن تكرار أن غيفارا كان وراء

التحالف مع الحزب الشعبي الاشتراكي *PPS* (الحزب الشيوعي الكوبي آنذاك) وأنه كان عاملاً أساسياً في جذب فيدل كاسترو إلى الشيوعية.

ولكن لماذا "تهمة" الشيوعية هذه التي كان غيڤارا يعتز بها، ولم ينكرها أبداً؟

تأخذ هذه "التهمة" أهميتها ومركزيتها في الخطاب الثقافي الليبرالي الرأسمالي لأن الشيوعية ترتبط، في تكوين الذهنية الغربية ونظمها القيمية والثقافة الشعبية السائدة، إن جاز التعبير، بالاستبداد والقتل والقمع، وهي إذن، تهمة معيبة.

■ رفض التعايش السلمي والهجوم على السوڤييت

يقول غيڤارا "إننا كماركسيين نؤمن أن التعايش السلمي بين الشعوب لا يتضمن التعايش بين المستغِلين والمستغَلين".[193]

غير أن الدعاية الإمبريالية ليست معنية بما قاله الرجل وناضل من أجله، لذا نراها تعمد إلى تكرار الأكاذيب والتلفيقات حول العلاقة بين غيڤارا والسوڤييت. وهذه الدعاية لا ترى أن الخلاف بين تشي غيڤارا والاتحاد السوڤييتي والقطيعة التي حصلت بينهما كان بسبب نقد غيڤارا للسياسة السوڤييتية في مسألة التعامل مع الإمبريالية الأميركية والتعايش السلمي معها، ولا بسبب نقده للنمط الاقتصادي السوڤييتي أو معارضة غيڤارا لمحاكاة السوڤييت في البناء الاشتراكي ومن أجل الاستقلال عن النمط

[193] Ibid., p. 19.

السوڤييتي، بل إن جذور هذا الخلاف، حسب هذه الدعاية، تكمن في نزوع غيڤارا لإخضاع الواقع إلى الأيديولوجية الأرثوذكسية العمياء المتعنتة التي تميز بها.

■ أزمة الصواريخ السوڤييتية

من العسير أن تعثر على قراءة لتاريخ أزمة الصواريخ السوڤييتية في كوبا دون أن تلحظ تركيز الدعاية الغربية على دور غيڤارا في هذه الأزمة ومسؤوليته عن تصعيدها. وفي الحقيقة أن موقف غيڤارا من تلك الأزمة كان واضحاً وجريئاً من العدو الإمبريالي الأميركي وجاء في لحظة خطيرة وحرجة ندر تكرارها في تاريخ العلاقات الدولية. كما جاء موقفه متناغماً مع موقفه مما أسموه في تلك الحقبة التعايش السلمي (بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي).

كان غيڤارا قد صرّح في تلك الآونة أنه لو تسنى إبقاء الرؤوس النووية السوفيتية في كوبا أي لو لم يسحبها السوڤييت "لكنا قد استخدمناها كلها ووجهناهم نحو قلب الولايات المتحدة بما فيها مدينة نيويورك ذاتها، من أجل الدفاع عن أنفسنا ضد العدوان".

يميل بعض المحللين إلى تفسير تصريحات غيڤارا هذه بخصوص أزمة الصواريخ السوڤييتية في سياق دلالتها السياسية على أنها تحدٍ للولايات المتحدة، ولا يأخذونها بمعناها الحرفي. أما البروباغندا الرأسمالية فتستخدم هذه التصريحات للتدليل على دموية غيڤارا وخطره على "السلم العالمي"، وترى جريمة الولايات

المتحدة في إلقاء القنابل النووية على هيروشيما وناكازاكي "حقا مطلقا" للإمبريالية في تدمير ما تشاء وحرق ما تشاء دون معارضة أو حتى تحفظ أو تساءل.[194]

---

[194] Llosa, The Che Guevara Myth, p. 18.

الفصل الحادي والأربعون

تشي غيفارا وفيدل كاسترو: هل من خلاف؟

أثيرت، في الفترة الأخيرة من حياة غيفارا، (ولم تتوقف حتى يومنا هذا)، إشاعات عديدة حول الخلافات بينه وبين رفيق دربه الزعيم الكوبي فيدل كاسترو. وتعددت الروايات حول دوافع هذه الخلافات وكان من أهمها نقد غيفارا للاتحاد السوفييتي والسياسات الاقتصادية الداخلية في كوبا ما عُرف آنذاك ب"الجدل الكبير".

وشاعت تفسيرات عديدة مفادها أن هذه الخلافات كانت السبب وراء مغادرة غيفارا للجزيرة الكوبية والتوجه إلى الكونغو وبعدها إلى بوليفيا حيث استشهد.

لا يحتاج المرء إلى جهد كبير للوصول إلى الاستنتاج بأن أحد المصادر الرئيسية لهذه الإشاعات والاتهامات هو العدو الرئيسي والأزلي لتشي غيفارا والثورة الكوبية: الإمبريالية الأميركية. وهناك من المعطيات ما يشير إلى أن أول مَنْ لعب دوراً كبيرا في إثارة هذه الإشاعات كان فيليكس رودريجز، عميل المخابرات المركزية الأميركية (سي آي إيه) من أصل كوبي وقد أتينا على ذكره سابقاً، وكان مكلفاً بالملاحقة الاستخبارية لتحركات غيفارا خلال السنوات التي سبقت

استشهاده، وهو الذي طار على عجل إلى الأدغال البوليفية فور تلقيه خبر وقوع غيفارا في الأسر، مثخنا بالجراح وأعزل من السلاح والذخيرة، للإشراف المباشر على إعدامه. ولابد من الإشارة هنا إلى أن رودريجز هذا كان المشرف الرئيسي على التحقق من هوية غيفارا قبل إعدامه وهو أيضاً مَن أمر بقطع يدي غيفارا للتأكد من بصمات أصابعه ومقارنتها مع أرشيف المخابرات الأميركية. ويدّعي رودريجز أنه تحدث مع غيفارا قبل إعدامه ما أتاح له فرصة تلفيق الكثير من الإشاعات الكاذبة والتي نسبها إلى غيفارا. ولا يزال هذا العميل القاتل حياً يحمل ساعة غيفارا التي سرقها بعد استشهاده متباهياً بالجريمة التي اقترفها.

لعله من السذاجة اختزال آلة الدعاية الرأسمالية الإمبريالية في شخص واحد مهما عظم شأنه ومهما كانت كفاءاته، فكما بيّنا في أكثر من مكان في هذا الكتاب أن غيفارا كان، وما زال بعد عقود من استشهاده، هدفاً رئيسياً للدعاية والإعلام الرأسماليين. ولكن هذا لا ينبغي أن ينفي وجود خلافات واختلافات بين غيفارا وكاسترو وسوف نأتي على عرض بعض نقاط الخلاف بين الرجلين. لا شك أن الرجلين اختلفا في العديد من المواقف. لا أحد ينكر ذلك، غير أن هذا يظل أمراً طبيعياً في السياسة وإدارة شؤون الدولة ومواجهة التحديات الجمة التي توجب على الثورة الكوبية التصدي لها وخاصة في ظل الأوضاع المعقدة التي عاشتها كوبا بعد الثورة وفي خضم الحرب الباردة والصراعات المحتدمة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي آنذاك. ويجب ألاّ نقلل أيضاً من

"المساهمات" العديدة لبعض أطراف اليسار - خاصة الغربي منه - في تغذية هذه الدعاية والإشاعات.

***

لا يجد المرء فيما يشاهده ويلمسه في الشارع الكوبي ومظاهر الحياة العامة، كما في ذاكرة ووجدان الشعب الكوبي حتى يومنا هذا، لا يجد سوى الحضور البارز والمتألق لغيفارا وإرثه وأقواله وصوره وذكراه، سواء في ساحة الثورة في قلب العاصمة هافانا والتي تتزين بهالة تشي غيفارا، وإلى جانبها هالة كاميلو سيينفويغوس الذي لا يقل شأنا ورفعة ومقاماً عند كاسترو الذي ردّد دائما "نريد لأطفالنا أن يكونوا مثل كاميلو ومثل تشي"، أو باليافطات التي يلحظها المرء في الطرقات داخل المدن الكوبية أو في تنقله بينها، والأهم في وعي ووجدان وذاكرة المواطنين الكوبيين من شتى الأجيال والفئات الاجتماعية. وفي كل خطابات وتصريحات كاسترو حول غيفارا ورحيله والعلاقة بين الرجلين، لا يرشح سوى علاقات الود والرفاقية والنضال المشترك والشراكة الوثيقة في مشروع الثورة الكوبية والأممية.

وفي حديثك مع الكوبيين سواء كانوا مواطنين عاديين أو مسؤولين في الحزب والدولة، فإنك لا تعثر على ما يسند الادعاءات التي تبثها وسائل الإعلام الإمبريالية والتي تصور العلاقة بين غيفارا وكاسترو وكأنها انتهت إلى مؤامرة حاكها كاسترو للتخلص من رفيق دربه، بل تلمس القناعة الراسخة بأن ما فعله غيفارا ومحاولته

نشر الثورة في الكونغو وبوليفيا وما صرّح به بعد مغادرته كوبا يمثل مواقف القيادة الكوبية في الحزب والدولة.

تذهب الإشاعات إلى أن جذور الخلاف تكمن في النقد اللاذع الذي أطلقه غيڤارا ضد الاتحاد السوفييتي والذي كان يخرج في بعض الأحيان عن الاعتبارات البروتوكولية والدبلوماسية، ولا شك في أن بعض هذه التصريحات تسببت في إحراج كاسترو والقيادة الكوبية لدى موسكو. وتسترسل هذه الإشاعات إلى مقولة مفادها أن شرخاً عميقاً قد حدث بين الرجلين بسبب النزاع الصيني - السوفييتي حيث وقف غيڤارا مؤيدا للنهج والموقف الصينيين، فيما أخذ كاسترو بتأييد الموقف السوفييتي وإشهار نقد لاذع للصين الشعبية وقيادة ماو تسي تونغ وشوان لاي.

والحقيقة أن أي مراجعة دقيقة لخطابات كاسترو العلنية خلال السنوات الأولى من ستينيات القرن الماضي لا تخلو أيضاً من نقده للسوڤييت مراتٍ عديدة وأهمها خطابه المتلفز بصدد الاتفاق بين خروتشوف وكينيدي حول أزمة الصواريخ النووية السوفييتية في كوبا عام 1962، حيث تم ذلك دون استشارة كوبا مما ألحق بها أضراراً استراتيجية لا تزال تعاني منها وتحديدا: موضوع الحصار الاقتصادي والمالي والتجاري الأمريكي المفروض على كوبا، وموضوع القاعدة البحرية الأمريكية في خليج غوانتانامو المحتل بشكل غير قانوني وعلى الضدّ من الإرادة الكوبية حكومة وشعبا.

أما الحقيقة الثانية المهمة في هذا السياق فهي أن غيڤارا - المعروف بنقده العلني للاتحاد السوفييتي وسياساته الاقتصادية

والاجتماعية الداخلية وبالمثل سياساته الخارجية وعلاقاته بالبلدان الاشتراكية وحركات التحرر في العالم الثالث وسياسة "التعايش السلمي" مع الرأسمالية والإمبريالية الأميركية - كان أيضاً (أي غيفارا) ناقداً لزعيمي الحركة الشيوعية العالمية أي للاتحاد السوفييتي والصين الشعبية وخصوصاً فيما يتعلق بموقفهما من دعم كفاح الشعب الفيتنامي وشعوب العالم الثالث ضد العدوان الإمبريالي اليانكي. ولكن غيفارا لم يدخر وسعاً في الآن ذاته في تثمين وتقدير الدعم الذي قدمه الصينيون والسوفييت لكوبا وشعبها واقتصادها.

■ هل "تخلى" كاسترو عن تشي غيفارا؟

لقد قيل وكتب الكثير حول "تخلي" فيدل كاسترو عن رفيق دربه تشي غيفارا ليدعه يواجه الحصار والوقوع في الأسر فالاغتيال في أدغال بوليفيا. وكعادة الغرب في استثمار اللحظة، كان استشهاد غيفارا لحظة نشوة وانتصار للغرب الرأسمالي الذي كان ضليعاً في مقتله، ولكنها كانت، في الآن ذاته، لحظة لنشر الأكاذيب والإشاعات حول غيفارا ومسيرته النضالية ومحاولة الدس بإشاعات حول "تخلي" كاسترو عن رفيق دربه ومسؤوليته عن مقتله.

زعم فيليكس رودريجيز في سيرته الذاتية أن غيفارا، لدى القبض عليه، كان يشعر بالمرارة حيال تخلي كاسترو عن دعمه

ودعم حملة الكفاح المسلح في أدغال بوليفيا.[195] غير أنه يتوجب على المرء أن يكون غبياً كي يصدق ما يقوله الرجل الذي قضى حياته عميلاً لوكالة المخابرات المركزية الأميركية في التآمر على بلده الأصلي (كوبا) وملاحقة تشي غيڤارا حتى تولى مباشرة مهمة الإشراف على إعدامه. ولا شك أن هناك الكثير من الحمقاء من ضحايا البروباغندا الإعلامية الرأسمالية في الغرب الذين يصدقون كل هذا الكذب والافتراء عن ثائر بقامة تشي غيڤارا. وفي هذا الصدد، يحسن بنا أن نشير إلى العديد من المصادر الموثوقة التي، على عكس ما زعمه رودريجز، تشهد بأن غيڤارا اعتبر رودريجز خائناً وعميلاً إمبريالياً ورفض التحدث إليه.

ماذا يقول كاسترو في العلاقة مع غيڤارا؟

تُرى ماذا يقول فيدل كاسترو حول هذه الإشاعات وحول علاقته بتشي غيڤارا؟

سنترك الإجابة لابنة غيڤارا.

في مقابلة (يناير 2017) مع أليدا غيڤارا مارتش *Aleida Guevara March*، ابنة تشي غيڤارا، وفي ردها على سؤال حول

---

[195] بهذا الصدد راجع مقالة "في ذكرى استشهاد الفدائي الاممي الاول تشي غيڤارا"، للصديق نور الدين عواد (هافانا كوبا، 16 يونيو 2006) الموجود على الرابط التالي: https://kanaanonline.org/issues/12601.pdf

الخلاف بين والدها وفيدل كاسترو، أوضحت أليدا النقاط التالية[196]:

1) عندما التقى غيڤارا بفيدل كاسترو في المكسيك، حيث انضم إلى الثوار الكوبيين، كان هناك تفاهم مشرك بين الاثنين، بأنه عند انتصار الثورة الكوبية، سيكون بمقدور غيڤارا أن يفعل ما يشاء. وأن يغادر كوبا إذا رغب في اختيار درب آخر أو مكان آخر للثورة.

2) بعد توليه مناصب عدة ورفيعة في الحكومة الثورية الكوبية، أدرك غيڤارا بسبب مرض الربو الذي عانى منه منذ طفولته، أنه لم يتبقى له الكثير من الوقت لممارسة الكفاح المسلح وحرب العصابات. لذا شرع بالبحث عن الفرص المتاحة في الأرجنتين، ولكن الظروف لم تكن جاهزة هناك.

3) عندما أظهر كاسترو لغيڤارا طلباً كان قد تسلمه لدعم حركة التحرير في الكونغو حيت كانت الظروف عصيبة بعد اغتيال لومومبا، رحب غيڤارا بالفكرة وتوجه مع فريق من المتطوعين الكوبيين إلى الكونغو. وحال توقف غيڤارا عن الظهور العالمي، بدأ السياسيون ووسائل الإعلام في العالم الرأسمالي بنشر التكهنات والإشاعات حول خلاف بين كاسترو وغيڤارا.

---

[196] Grew Up with Extraordinary Peopl, by Aleida Guevara March interviewed by Ron Augustin, Monthly Review ،Volume 68, Issue ،08 January 2017.

4) تقول أليدا في تلك المقابلة: "لقد طرحتُ هذا الموضوع شخصياً مع فيدل وسألته،" العم، أخبرني عن النزاع الذي يبدو أنه كان مع والدي"، قال ضاحكا وأخذ يحكي لي عن خلاف واحد بينهما عندما كانا في السجن في المكسيك. وكان فيدل قد طلب من الجميع عدم الكشف عن انتماءاتهم السياسية للسلطات المكسيكية . ثم وقال لي: "ماذا فعل والدك؟ إنه لم يقل لهم أنه كان شيوعياً فحسب، بل بدأ أيضا بمناقشة شخصية ستالين مع أحد الحراس، ونتيجة لذلك أفرجوا عنا جميعاً وأبقوا على والدك لكونه شيوعياً موالياً للاتحاد السوفييتي!

وتتابع أليدا سرد وقائع حديثها مع كاسترو: "ماذا فعل فيدل؟ دافع عن والدي ورفض مغادرة السجن بدونه "."ماذا كان بوسعي أن أفعل"، قال لي فيدل: "عندما ذهبت لإخراجه، أدركت أن والدك لا يمكن أن يكذب حول هويته السياسية، حتى لو كان من شأن ذلك أن يكلفه حياته. وليس هناك من حجة يمكن أن تقنعه بالعكس."

5) وحول التطورات التي تلت المحاولة الثورية في الكونغو، تقول أليدا: "استمرت العملية الأفريقية ثمانية أشهر. وتظهر الوثائق التي نشرناها على مدى السنين أن والدي وفيدل كانا على تواصل مستمر خلال تلك الأشهر الصعبة، وأن القوات تلقت كل الدعم الممكن من هافانا. وفي أكتوبر1965 ، كان الحزب الشيوعي الكوبي قد تشكل رسمياً .عندما كان من المقرر الإعلان عن أعضاء لجنته المركزية، كان من المهم توضيح الأمر للشعب الكوبي لماذا لم يكن والدي، وهو

واحد من أهم ركائز الثورة، موجودا. لذلك شعر فيدل بضرورة قراءة رسالة وداع تشي. بعد أن غادر والدي الكونغو، أقام في براغ، ليعد الترتيبات لمشروعه في أمريكا اللاتينية. لم يشأ العودة إلى كوبا لأنه كان قد اتخذ رسمياً أجازة من الشعب الكوبي. في النهاية، عاد والدي سراً إلى كوبا لأن فيدل نجح في إقناعه بأن كوبا يمكن أن تقدم له أفضل الظروف لاستعداداته ومكث عدة شهور في مكان سري في كوبا، حيث أعد هو وآخرون أنفسهم للحملة البوليفية. قد كان فيدل منخرطاً في جميع مراحل هذه الاستعدادات". وتتابع قائلة: "الأمر الذي كثيراً ما يدور الحديث حوله، أنه تم عزل مجموعة تشي في بوليفيا والتخلي عنها... مع الأسف، تدهورت العلاقة مع الحزب الشيوعي البوليفي وتعطلت خطوط الاتصالات مع الوحدات الأخرى. ومع ذلك، فإن يوميات تشي في بوليفيا تبين أنه بقي على اتصال مع "مانيلا" كلمة السر لكوبا لأطول فترة ممكنة. كما تُظهر هذه اليوميات والمقدمة التي كتبها فيدل بوضوح حدود ما كان ممكناً واقعياً".

6) وحول الخلاف بين الرجلين، تقول أليدا في تلك المقابلة: "لقد كان لي نقاش مع فيدل حول هذه المسألة منذ وقت ليس ببعيد، عندما عملنا معاً على كتابة مقدمة لكتاب يوميات والدي في الكونغو وقد وافق فيدل على نشر الرسالة التي أرسلها لوالدي يطلب منه أن يأتي إلى كوبا من أجل التحضير لبوليفيا. وخلال الحديث عن الخلافات المزعومة بين الاثنين، نظر فيدل فجأة إلى وجهي متسائلا: لماذا تضحكين؟ "وكان عليَّ أن أقول له: "العم، يبدو أنك لا تدرك أنك تتحدث عن والدي مستخدماً فعل المضارع كما لو أنه سيدخل من

هذا الباب أي لحظة. وفي لهجة جادة جدا وافق كاسترو وأضاف: "إن والدك حاضر، كما تعلمين".[197]

وفي ختام حديثها حول هذه المسألة، قالت: "لو كان لوالدي خلاف جوهري مع فيدل أو الثورة الكوبية، فكيف يمكن لأي شخص أن يتصور أنه سيترك زوجته وأولاده في أيديهم... كيف يمكن لأي شخص أن يعتقد أنه كان هناك خلاف جدي بين هذين الرجلين؟ لعل هذا هو الأمر الأكثر غباءً الذي أستطيع أن أفكر به".

7) وفي هذه المقابلة، صرّحت ابنة غيفارا أن كاسترو أكدّ لها أن ما قاله غيفارا في نقد الاتحاد السوفييتي وتقصيره في دعم حركات التحرر في تلك الآونة، أكد لها "إن ما قاله والدي في ذلك الخطاب يتفق تماماً مع قناعات القيادة الكوبية في ذلك الوقت، وأنهم لم يخفوا ذلك."

وماذا عن مسؤولية الحزب الشيوعي البوليفي؟

في اختيار بوليفيا كساحة للكفاح المسلح وقاعدة للانطلاق بالثورة في أميركا اللاتينية، تتراوح الاحتمالات بين مَنْ يؤكد أن

---

[197] يقول فيدل كاسترو عن رفاقه الشهداء "ان رفاقي ليسوا بميِّتين ولا منسيِّين، بل احياء اكثر من ايِّ وقت مضى".

كاسترو هو الذي اختار بوليفيا، وأولئك الذين يعتقدون أن غيڤارا نفسه كان وراء ذلك الاختيار . ولكن بغض النظر عن ذلك، فقد بات من المعروف، بعد عقود من الالتباس، أن الحزب الشيوعي البوليفي الموالي لموسكو وزعيمه ماريو مونخي لعب دوراً حاسماً في "سحب البساط من تحت أقدام غيڤارا " حين كان الأخير يقاتل في بوليفيا وربما منذ وصوله إلى ذلك البلد.

لقد أحاط الالتباس بدور هذا الحزب في مصرع غيڤارا وتصفية حملته العسكرية في بوليفيا، وظلّ لسنوات طويلة بعد استشهاد غيڤارا، موضع تخمين وغموض. ويقول جون أندرسون، محاولاً تفسير هذه الظاهرة، إن سبب ذلك الالتباس يعود إلى التطورات التي تلت رحيل غيڤارا: فقد عمد كاسترو إلى مصالحة الحزب الشيوعي البوليفي في محاولة لرأب الصدع الذي أصاب العلاقات الكوبية - السوفييتية. بعبارة أخرى، تم تجاهل المسألة من كافة الأطراف لأسباب سياسية ولم يعد أحد يناقش الموضوع أو يأبه بالبحث به لأن ذلك سيتسبب في إحراج الجميع.

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، لجأ مونخي إلى موسكو وأقام هناك سنين طويلة صامتاً عن الفاجعة الأليمة وهي أنه كان في حقيقة الأمر أحد الأسباب الرئيسية لنسف تجربة غيڤارا في بوليفيا برمتها، ولم يدلِ بأي تصريح لتوضيح هذه المسألة ودوره فيها. وفي هذا الصدد، يقول جون أندرسون الذي حاور مونخي في ثلاثة أو أربعة لقاءات في موسكو، إنه (مونخي) حاول في هذه اللقاءات الدفاع عن نفسه مدعياً أن التاريخ لم ينصفه فيما يتعلق بمصير

غيڤارا واستشهاده في الأدغال البوليفية، مؤكداً أن الكوبيين كانوا قد رسموا إستراتيجية لبوليفيا وأنهم ارتكبوا خطأً حين فرضوا أنفسهم على البوليفيين الذين استشعروا أن موقف كوبا كان "عنصرياً" بمعنى استعلاء اللاتينيين الأوروبي الأصل حيال السكان الهنود الأصلانيين في بوليفيا.[198]

ومن الأمور التي يوضحها أندرسون أن أصدقاء غيڤارا في كوبا حين أدركوا أنه يواجه خطر الموت وأنه سيلقى حتفه إن لم يهبوا لنجدته، قدموا عدة طلبات للقيادة الكوبية بإرسال فريق من المقاتلين لنجدة غيڤارا ورفاقه، إلا أن القيادة الكوبية بعد دراسة هذه الطلبات وجدتها في غاية الخطورة وأن إرسال مقاتلين إلى أدغال بوليفيا لإنقاذ غيڤارا كانت عملية محفوفة بالخطر لأنهم سيقعون بالأسر وستتم تصفيتهم لا محالة.

على خلاف ذلك، يكرر صاموئيل فاربر في كتابه الذي صدر في عام 2016، الادعاء بأن الحكومة الكوبية رفضت توفير الدعم لغيڤارا في أدغال بوليفيا، مشيراً إلى ما ادعاه أودونيل ***Pacho O'Donnell*** أحد كاتبي سيرة حياة غيڤارا ومؤرخيه في كتابه أنه كان هناك خمسون بوليفياً يتلقون التدريب في كوبا وأنه كان من الممكن إرسال هؤلاء المقاتلين لتعزيز قوى الغوّار التي كان يقودها غيڤارا في أدغال بوليفيا . ويذهب الكاتب إلى التأكيد بأن الحكومة الكوبية

---

[198] Cihan Aksan & Jon Bailes, On Che Guevara: An Interview with Jon Lee Anderson ،April 21, 2010 ، http://www.stateofnature.org/?p=5814

كانت على علم بمكان وجود غيڤارا في بوليفيا، مستنتجاً أنه لو تسنى لهؤلاء المقاتلين الالتحاق بقوات غيڤارا في أدغال بوليفيا، لاستطاعوا تشكيل حركة رادفة ودعماً كبيراً له ولقواته[199]. غير أن مثل هذه المعلومات تظل وهمية لا أساس لها، لأن كل قضية الوجود الغيفاري الكوبي في بوليفيا كانت عملية سرية وخطيرة للغاية، والمعلومات الحقيقية والدقيقة لم تكن متوفرة إلا لنزر يسير من القيادة الكوبية. أضف إلى ذلك، أن القرار النهائي للغواريين، في حال الفشل في المهمة، كن يتمثل في مغادرتهم لبوليفيا وفق خطة موضوعة مسبقا، وهناك دليلان على ذلك: الأول عندما سقط غيڤارا جريحا وتعطلت بندقيته وبقي دون ذخيرة، أعطى مسدسه وطلقاته الأخيرة إلى مقاتل رفيق له حاول البقاء إلى جانبه حتى الموت، فرفض وأمره بالخروج من الطوق والنجاة بنفسه؛ والثاني أن من استطاع الخروج من بوليفيا، حسب الخطة المذكورة فعل ووصل إلى مكان آمن، ولا يزال أحدهم حي يرزق في كوبا.

أما الإشاعات التي تدّعي أن كاسترو اتفق مع السوفييت على التخلص من غيڤارا، فليس لها أساساً من الصحة، كما أنها تخلو من أي دليل منطقي أو تفسير عقلاني، وليست سوى امتداداً لنظرية المؤامرة التي يرتاح لها كثيرون والتي تنافي حقيقة وجوهر العلاقة الرفاقية التي جمعت بين كاسترو وغيڤارا رغم بعض الخلافات والاختلاف في وجهات النظر التي اعترت هذه العلاقة في بعض

---

[199] جاء هذا الادعاء في الصفحة 510 من كتاب باكو أودونيل "تشي: حياة من أجل عالم أفضل"*Che: La Vida por Mundo Mejor* . *وقد ورد هذا الاقتباس في*
Farber, The Politics of Che Guevara, p. 139, footnote 92.

المواقف. وعليه، فإن القول بأن كاسترو تخلى عن غيڤارا أو أدار له ظهره في اللحظة الحرجة، فهو رأي غير صحيح. بل على العكس من ذلك، يقول أندرسون: "أعتقد أن كاسترو كان يحدوه الأمل في أن يتمكن غيڤارا من الخروج من مأزق بوليفيا وأن يبقى حياً سالماً".

■ اختلاف في النظرة إلى الذات وإلى الماركسية

كثيرون هم الذين يشيرون إلى اختلاف تشي غيڤارا عن كاسترو في هذا الصدد.

كان كاسترو براغماتياً، وكان فهمه للماركسية خاضعاً لتصوره لذاته ولدوره وموقعه في التاريخ حيث كان يرى نفسه كقائد. ومن هنا استثمر كاسترو الماركسية في تعامله مع السياسة. على سبيل المثال، تبنيه للاشتراكية وإعلان كوبا بلداً اشتراكياً في بداية الغزو الأميركي لكوبا في أبريل 1961، بحيث أن الشعب الكوبي وثورته عندما قاتلوا مرتزقة الإمبريالية في خليج الخنازير، قاتلوا لأول مرة في سبيل الاشتراكية الكوبية التي كانت ولا تزال تختزل الاستقلال والسيادة والكرامة.

أما بالنسبة لغيڤارا، فقد كانت الماركسية والاشتراكية أمراً واحداً، كما أن غيڤارا كان يفصل دوماً بين ذاته وطموحاته الذاتية والسياسية عن قناعاته بالماركسية/ الشيوعية/ الاشتراكية لأنه، ببساطة، لم ينظر إلى ذاته كالرجل الأول أو القائد غير المنازع. ولعل رسالة وداع تشي إلى كاسترو تثبت صراحة هذا الفارق بين الرجلين.

لقد نذر غيڤارا نفسه للثورة. وفي هذا السياق ينبغي ذكر الاتفاق الضمني بينه وبين كاسترو لدى لقاءاتهم المبكرة في مرحلة الإعداد للثورة الكوبية في هضاب المكسيك، (والذي أكدته ابنة غيڤارا في حديثها المذكور أعلاه)، ذلك الاتفاق الذي يقضي بأن يحتفظ غيڤارا بالحرية بعد انتصار الثورة بأن يتابع مسيرته الثورية حتى إذا تطلب الأمر مغادرة كوبا إلى ساحات قتال أخرى.[200]

■ "الجدل الكبير" في كوبا

استمر "الجدل الكبير" في كوبا حول الاقتصاد الكوبي ونقد الاقتصاد السوفييتي ما يقارب العامين، واتخذ أشكالاً متفاوتة في طرح وجهات النظر المختلفة. وقد أفسح كاسترو المجال لهذا الجدل كي يأخذ مداه فيما لزم الصمت إلى أن حانت اللحظة المناسبة لاتخاذ قراره الحاسم بإيقاف الجدل "والتخلي عملياً" عن تصورات ومقترحات غيڤارا لأن كاسترو كان يرى أن كوبا جزيرة معزولة وأنها بحاجة إلى حماية الثورة وإنجازاتها. وقد قيل الكثير في نقد السياسة السوفيتيية من عملية التصنيع في كوبا وإنهم (السوفييت) لم يكونوا معنيين بإطلاق عملية تصنيع الاقتصاد الكوبي، فكان أن

---

[200] راجع رسالة غيڤارا في وداع لكاسترو حين غادر الجزيرة في رحلته الأممية إلى الكونغو (الأول من نيسان/أبريل 1965) "A Letter to Fidel Castro", in Che Guevara Reader: Writings on Politics & revolution, pp. 386-387.

اتجه كاسترو نحو توقيع اتفاقية بيع السكر الكوبي للاتحاد السوفييتي ما أعاق مقترحات غيڤارا في تنمية الصناعة في كوبا.

وتجدر هنا ملاحظة السياق الذي اكتملت خلاله العلاقات المبكرة للتعاون الاقتصادي بين كوبا والاتحاد السوفييتي آنذاك. فإبرام اتفاقية السكر مع السوفييت يعود إلى سببين أساسين: الأول قيام الإمبريالية الأمريكية بإلغاء حصة كوبا في السوق الأمريكية لمنتوج السكر، أي منعها من تسويق السكر في أميركا، بالإضافة إلى الحصار لاحقاً؛ والسبب الثاني هو استناد الاتفاق مع السوفييت إلى التبادل المتكافيء في إطار مجلس التعاضد الاقتصادي الاشتراكي، القائم أساسًا على المقايضة والتكامل. مثلا كان السوفييت يوردون إلى كوبا 7.1 طن من النفط الخام مقابل كل طن سكر.

أما بخصوص التصنيع، فقد شارك السوفييت في كل عملية التصنيع المدني والعسكري في كوبا بالمال والخبرة وصولا إلى محطة توليد الكهرباء بالطاقة النووية التي لم تكتمل بسبب انهيار الاتحاد السوفييتي وتغيّر الأولويات الكوبية.

يوضح هذا المثال الفرق الجوهري بين كاسترو، رجل الدولة، وغيڤارا الأيديولوجي ذي النزعة الصفائية.

■ الثورة الأممية

تؤكد كل المؤشرات والتحليلات على تنوعها واختلافها، أن القيادة الكوبية بزعامة كاسترو لم تكن على علم مسبق بحملات

غيڤارا الأممية وحسب، بل كانت بدون شك موافقة ومشاركة في التخطيط والإعداد لها.

كان كاسترو يدرك أن مساعي غيڤارا في نشر الثورة الأممية تتعارض مع سياسات السوڤييت ورغبتهم، ولكنه دعم غيڤارا وساند مساعيه في الكونغو وبوليفيا وغيرهما من ساحات النضال في أميركا اللاتينية، تاركاً الأمر لمستقبل الأيام، فإذا ما علم السوڤييت بهذه المحاولات فإنهم يكونون أمام الأمر الواقع ولن يكون بوسعهم حين ذاك التدخل والحيول دونها.

■ دور السوڤييت في رحيل غيڤارا

كان رحيل غيڤارا عن كوبا وانخراطه في مواقع القتال نتيجة لعدة عوامل أهمها قناعته الجذرية وإصراره على متابعة الثورة الأممية. غير أن هذا كان، كما ذكرنا، في انسجام مع مواقف القيادة الثورية الكوبية.

لا شك أن الشكاوى السوفييتية لدى القيادة الكوبية من غيڤارا وامتعاضهم من نقده القاسي للسياسات السوفييتية وإهانته للقيادة السوفييتية علناً والقلق من تداعيات مواقفه وتصريحاته، لا شك أن هذا شكّل عاملاً في مغادرته لكوبا. غير أن السؤال يبقى: حتى وإن لم يكن هناك خلافات مع النهج السوفييتي، فهل كان غيڤارا سيبقى في كوبا؟ والإجابة واضحة وهي أن غيڤارا

كان متجهاً بدون تردد نحو الثورة الأممية، وأنه كان يريد أن يشعل مئة فيتنام فى محاربة الإمبريالية الأميركية.

كل المؤشرات تشير إلى أن رحيل غيفارا كان حصيلة تفاهم مع كاسترو، لأنه (غيفارا)، ناهيك عن أنه لم يعد مرتاحاً للعلاقة مع السوفييت ودورهم وسياستهم في كوبا، كان يرغب في أن يتواجد مع رفاقه الذين كانوا يقاتلون ويستشهدون في ساحات القتال التي شارك غيفارا في إشعالها والتخطيط لها. كما أن رحيل غيفارا خفف من ثقل الضغوط التي كان يواجهها كاسترو، بغض النظر عما إذا كاسترو أو القيادة الكوبية ستصرح بذلك علناً أم لا. غير أن النتيجة كانت أن الوقت قد حان لأن يغادر غيفارا كوبا.[201]

[201] Cihan and Bailes, An Interview with Jon Lee Anderson.

الفصل الثاني والأربعون

تشي غيفارا: أيقونة أم ثائر أممي؟

"أكره أن أرى وجه والدي في منفضة السجائر وعلى أزار "الجينز". هذه هي الماركانتالية. هذه هي الانتهازية. هؤلاء لا يبتغون سوى الربح المالي. ولكنني آمل في الوقت ذاته ألا يقوم الشباب باللحاق بالموضة، بل بالبحث عن هذا الرجل في المجتمع الأممي الذي ما فتئ يفقد كل قيمه"

أليدا غيفارا، ابنة تشي غيفارا

لقد بلغت شهرة غيفارا وشعبيته الأممية حدوداً تفوق ما حظي به غيره من ثوّار القرن العشرين وربما ما قبل ذلك. ويعود الفضل في هذا إلى الأجيال الناشئة التي لعبت دوراً مهماً في تخليد غيفارا وإرثه. يتسم افتتان هذه الأجيال بتشي غيفارا في طول الكرة الأرضية وعرضها، بالروح الثورية والمثالية والرومانسية، مما يساهم في إضاءة درب النضال والنفق المظلم الذي طالما تجد هذه الأجيال نفسها حبيسته. صحيح أن الافتتان لا يرسم استراتيجية التغيير الثوري، ولا يحدد مهام المرحلة وبرنامجها النضالي، ولكنه يُبقي جذوة الثورة متقدة في نفوس الجيل الشاب التوّاق إلى الثورة على الواقع القائم وتغييره، وإلى بزوغ فجرٍ جديد وغدٍ أفضل.

أما افتتان الجيل الذي عاصر غيڤارا ونضاله وتابع معاركه وإنجازاته، فهو افتتان ممزوج بالألم لجسامة الخسارة التي منيت بها الإنسانية برحيله المبكر، وما زال هذا الجيل يسائل: ماذا لو ظلّ هذا المناضل حياً بيننا؟

***

جاءت هذه المقدمة للتأكيد على أن هذه المعالجة النقدية لغيڤارا - الأيقونة أو الأدق أيقنة غيڤارا ***iconization***، لا تأتي في إطار التقليل من أهمية تخليد غيڤارا وإبقاء ذكراه حية، بل في سياق استدراك سلبياتها ومخاطرها.

نتوقف في البداية عند بعض الملاحظات التي ربما تشكل المدخل والدافع لهذه الكتابة:

الأولى، هي الخشية من تحويل غيڤارا الثائر المتسق مع ذاته ومبادئه إلى سلعة تُباع وتُشترى في أسواق رأس المال، أو إلى أيقونة ميتافيزيقية، وهو الثائر الماركسي الذي حرص، وكان بين أكثر الماركسيين، نموذجاً للجمع بين النظرية والتطبيق بل غلّب الممارسة الثورية على النظرية ومنحها المقام الأول في صياغة المفاهيم والنظريات.

والثانية، تفادي المغالاة في الأيقونية والتقديس على حساب الفكر الثوري وتغليبها على دراسة وفهم إرث الثوار، دون الانتقاص من ضرورة تخليدهم أو أهمية دورهم في حراك الشعوب وصناعة التاريخ.

الثالثة. هناك مَنْ يرى أنه لا ينبغي القلق من مخاطر أيقنة غيفارا لأن قدوته وأفكاره الثورية كانت أكثر فعالية في تعبئة الملايين من الفقراء وجماهير الطبقات الشعبية والمهّمشة في هذا العالم الظالم من الصور والأيقونات، وإن ذكرى غيفارا ستبقى في قلوب الشعوب والفقراء الذين يكنّون له الوقار وأعمق مشاعر الإجلال. ثم يذكروننا بأن أيقونة غيفارا، على خلاف غيرها، ارتبطت بقدوته النضالية وبهذا المعنى فقد كانت مكلفة للإمبريالية التي تنحو دوماً نحو التقليل من تأثيرات غيفارا وأفكاره وإرثه، وهو ما عبّر عنه إعلامي أميركي بقوله: "قد تكون القمصان رخيصة، أما تشي فقد كان أيقونة مكلفة جداً للإمبريالية".

أيقنة غيفارا: حول تشابك المصادر والعوامل

كيف ولماذا أصبح تشي غيفارا أيقونة؟

وما هي العوامل والظروف (الذاتية والموضوعية) التي تُبقي على أسطورته حيةً في ديمومة مستمرة؟

وإلى أي حدٍ ساهمت، وتساهم، العوامل التجارية والربحية بكافة أشكالها في "تحويل الأسطورة إلى سلعة" بدءًا من صناعات هوليود واستخدام النجوم السينمائية (مثل عمر الشريف) في تمثيل دور غيفارا إلى سيل لا ينتهي من الصور الملصقة على صدور القمصان والقبعات وساعات اليد والملصقات الجدرانية وغيرها.

في الإجابة على هذه الأسئلة تتشابك العوامل الذاتية والموضوعية، ومعها تتشابك المصادر التي تنبع منها عملية الأيقنة هذه.

في هذا الصدد أبدي الملاحظات التالية:

"أسطورة تشي": الأسطورة الثورية، في أبسط تعاريفها، شخص أو شخصية تلتزم برسالة معينة وتكرس حياتها للنضال من أجلها نضالاً لا يعرف المهادنة رغم كل التضحيات حتى لو أدركها الموت في سبيلها فتصبح "أسطورة".

ليس هناك من شك بأن مسيرة غيڤارا والسمات الثورية التي تَحلّى بها، ومظهره وكاريزمته، إضافة إلى مواقفه ومسار حياته الثورية، كل هذه لعبت دوراً مهماً ليس في الحفاظ على الإرث الذي أودعنا إياه فحسب، بل في خلق "تشي الأسطورة" والأيقونة والقدوة.

ديمومة غيڤارا: رغم تعدد العوامل وتشعبها، فإن السبب الرئيس في ديمومة غيڤارا يكمن في أن القضايا التي كرس غيڤارا حياته ونضاله من أجلها ما زالت حية ونابضة في عروق الملايين من شعوب الأرض. بعبارة أخرى، ما زالت التناقضات على شتى مستوياتها الطبقية والاجتماعية والاقتصادية والقومية محتدمة ومتصارعة. ولعل حالتنا العربية مثال على ذلك. ومن هنا، فإن ديمومة غيڤارا تنبع من نضاله ووقوفه ضد كافة أشكال الاستغلال

والفقر والظلم. تلك هي قصة غيفارا ومسيرة المقاومة التي لازمت حياته. وما لم تنتصر الشعوب المظلومة، فسوف تظل صور تشي تعتلى صدور شبابنا، وطالما كان هناك "معذبون في الأرض" فستظل قدوته وقوداً يشحذ همة الجماهير، وكلما أمعن رأس المال في جشعه وهمجيته وحروبه (العسكرية والاقتصادية والثقافية) على الفقراء والملونين من شعوب العالم الثالث، كلما عَلَت صرخة غيفارا في إشعال المقاومة في "فيتنام... وثانية وثالثة."

أممية غيفارا: اتسم غيفارا بأفق ثوري أممي وجعل من العالم بأسره ساحة كفاحه، ولم يعرف نضاله حدوداً للخوف أو التردد، ولم ينحصر في مكان أو سياق جغرافي معين فغدا رمزاً عالمياً لكل المظلومين والفقراء وكل من يناضل من أجل قضية عادلة.

رحيله المبكر: لقد استشهد غيفارا قبل أن يكمل عامه الأربعين، وقضى حياته حتى الرمق الأخير مثالاً للتضحية والالتزام والتفاني، ولم يتوان لحظة عن العطاء.

كاريزما غيفارا: توفرت في غيفارا شخصية الثائر ربما أكثر من أي شخصية ثورية في التاريخ المعاصر. فقد اتسم بصفات يسهل توظفيها في خلق الشخصية الكارزمية والنجومية والأيقونية لا سيما بعد استشهاده. إضافة إلى ما اتسم به طيلة حياته من تناغمٍ بين أقواله وأفعاله، وبين نظريته وممارسته. وقد عثر كثيرون ممن سعوا إلى شخصنة غيفارا وأيقنته، عثروا في صفاته الكارزمية هذه على مادة وفيرة لمنتوجات وسلع يسهل ترويجها في سوق عالمية واسعة.

أيقنة غيفارا كمفارقة: تحفل حياة تشي غيفارا، بمفارقات عديدة يبلغ بعضها حد الغرابة. إلاّ أن المفارقة الملفتة للكثيرين من دارسي سيرة الثائر الأممي تكمن في ظاهرة الأيقونية وما يقارب "التقديس" وهذا القدر من الشهرة الأسطورية التي حظي بها غيفارا في كوبا والقارة اللاتينية وكافة بقاع الأرض على مدى العقود الأخيرة، وافتراق هذه الظاهرة عن طبيعة الرجل:

- الذي كان بسيطاً ومتواضعاً ينزع إلى العمل الهادئ والصامت بعيداً عن الأضواء والكاميرات؛

- والذي كان العمل لديه والتفاني فيه أجلّ القيم الإنسانية، مبدءًا اعتنقه ومارسه طيلة حياته؛

- تتجلى قيمة العمل في مسيرة حياته منذ باشر بحثه عن الثورة مروراً بالتحاقه بالثوار الكوبيين وصولاً إلى أرفع المناصب الحكومية والحزبية في كوبا؛

- وتألق أخيراً بتنازله الصامت عن كل هذه واختفائه عن كافة أشكال الظهور العلني وأنشطة الحياة العامة ليعود بالظهور مجدداً بين الثوار الأفريقيين في الكونغو وأخيرا ثائراً في أدغال بوليفيا حيث لقي مصرعه.

في هذا تتكثف إشكالية المناضل الصامت المتفاني الذي لا يملك سوى إرادته ورفاقه القلة مقابل الشهرة والأيقونة الأسطورية التي تتسم بها صورة تشي غيفارا بالأفلام والصور والرموز والإيحاءات التي أصبحت ظاهرة عالمية.

الأيقنة كإشكالية

تشِمانيا *(Chemania)*: أسطورة أم لعنة؟

ما يعنينا هنا هو قراءة مخاطر أيقنة غيڤارا من منظور أنها قد تنأى بالأجيال الناشئة عن الدراسة الجدية والقراءة النقدية لفكره الثوري. فعندما تصل أيقونته إلى هذا الحد من الانتشار، بل الانفلات، يصبح الفضاء رحباً أمام الثورة المضادة وأعداء الماركسية والاشتراكية، كي يندس أولئك الذين يحاولون تصوير تشي "قديساً" أو "رومانسياً حالماً" أو حتى "فوضوياً". ناهيك عن أولئك الذين صوروه كواحدٍ من رجال العصابات والقَتَلة وقطّاع الطرق، إلى آخر تلك المعزوفة من السخافات المغرضة التي كان غيڤارا في حقيقته وحياته وممارساته وفكره براءةً منها. وربما من هنا نفهم ضرورة الدعوة التي انطلقت منذ بضعة سنوات لتأسيس "جمعية حماية تشي غيڤارا".

على الرغم من مئات المقالات والكتب والمواقع الإلكترونية التي تملأ فضاء الإنترنت، ما زال هناك الكثير في فكر غيڤارا ما يحتاج إلى التوضيح والدراسة. وقد ساهمت أيقنة غيڤارا وكونه رمزاً للثائر في طمس جوهر أفكاره ومواقفه وسياساته.

لقد ساهمت النزعة الأيقونية في العزوف عن دراسة فكر غيڤارا والتي أضحت محصورة في عدد من الكتّاب والباحثين والأكاديميين. هذه النزعة تتفادى الدراسة الجدية وتعمد إلى مداعبة العواطف، كي تحوّل جل الاهتمام بغيڤارا إلى شعارات

ثورية وبرّاقة وسريعة. هذه الحفاوة والافتتان وما يرافقهما من رومانسية سريعاً ما تنطفئ ومعها تنطفئ جذوة النضال العملي والممارسة الثورية وتتحوّل هذه الطاقة المتفجرة إلى مظاهر سطحية وأنماط من المسلكية لا تتجاوز الملبس أو التسريحة وغيرها من القشور. وعلى الرغم من حسن نية أصحابها (أو بعضهم)، فإن نزعة الأيقونية وإن كانت في ظاهرها تلامس التماهي مع الثائر أو الاقتداء به، إلاّ أنها كثيراً ما تنتهي عند الافتتان به ولا تصل إلى الدراسة الجدية لفكره أطروحاته.

***

نحن، إذن، إزاء ثغرة معرفية لدى الأجيال الناشئة بفكر تشي غيفارا وإرثه السياسي والثوري، يقابله افتتان بالصورة والقميص والتقليعة...الخ.

يحق لنا - وسنجد بيننا من يقوم بذلك - أن نلوم الإعلام الغربي، والأميركي على وجه الخصوص، الذي يتمتع بسطوة كبيرة على كافة وسائل الإعلام والثقافة لا في الغرب فحسب، بل وفي المجتمعات العربية والعالمثالثية. ولا نغالي إذا قلنا إن هذا الإعلام يتحكم إلى حدٍ كبير بما نعرفه وما لا نعرفه، أي بما يريدوننا أن نعرفه أو ما يريدون حجبه عن وعينا وإدراكنا.

نعم، يحق لنا أن نلوم مَنْ نشاء، ولكنه ليس من حقنا أن نعفي أنفسنا من المسؤولية الملقاة بالدرجة الأولى على عاتقنا، ولا أن نبرر تقاعسنا الذي طال عقوداً طويلة أخذ التاريخ يئن من ثقل حملها.

***

لقد درجت الشعوب على تخليد ثوّارها. ولا ضير في ذلك من منظور الحفاظ على الدور الذي لعبه هؤلاء في ثورات شعوبهم، وبهدف غرس القيّم الثورية وتعميق الوعي الشعبي بها وتشجيع المواطنين على متابعة المسيرة الثورية والعمل المتفاني في بناء المجتمع الجديد.

هكذا، على سبيل المثال، خلّد الكوبيون ذكرى غيڤارا وإرثه. وما زلنا، حتى يومنا هذا، نرى شوارع كوبا وأحياءها تزدان بالصور واليافطات التي تعبر عن الحضور الدائم لتشي غيڤارا وعن شعارات المقاومة والصمود والتفاني في خدمة الثورة والمجتمع والإنسان الجديد وتعزيز التضامن بين الشعوب. ولعله من المفارقة أنه في كوبا أيضاً يتم استخدام صور غيڤارا على القمصان والقبعات وميداليات المفاتيح وغيرها من التحف السياحية. ولا يخفى أن هذا يعود على الدولة وعلى باعة القطاع الخاص ببعض الدخل وبالعملة الصعبة. غير أنه لا يخفى أيضاً أن الهدف سياسيٌ ودعائيٌ بشكل أساسي. وجدير بالذكر هنا أن بعض الأوساط السياسية والحزبية والأكاديمية الكوبية لا تخفي تخوفها من تحويل غيڤارا الإنسان الثوري، إلى مجرد صورة أو أيقونة خالية من أي مضمون وجوهر ثوريين.

غير أن الإشكالية تكمن في أن أيقنة غيڤارا بلغت حدود التسليع المبتذل لأغراض تجارية وربحية، وبغاية تسطيح فكره

الثوري. بعبارة أخرى، فإن ظاهرة الأيقونية في حالة غيڤارا تسلط الضوء على معضلة أعمق أوجزها بما يلي:

■ الكل يعي أن غاية الغرب الرأسمالي - الإمبريالي أن يُبقي غيڤارا صورةً دون حياة وأيقونيةً جامدة و"تقليعة" يركض خلفها الجيل الناشئ، ما يحول دون وصول فكره الثوري إلى وعي هذا الجيل. وهنا تستخدم البروباغندا الرأسمالية أسلوب الأيقنة التي تستند إلى تسطيح الفكر والثقافة وضحالة المضمون والمعرفة، وبهذا تصبح الأيقونة وسيلة اختراق سريعة وفعّالة وآلية تدمير للوعي الثوري وإعاقة العملية الثورية.

■ لا خلاف على أن هذا المسعى يدر الأرباح من جرّاء سلعنة هذه الأسطورة، ولا غرابة في ذلك، فتلك هي وظيفة رأس المال ولا ينبغي أن تفاجئنا، بل هي في صلب طبيعته.

■ لم يعد مفاجئاً، بل ربما أصبح تقليداً، كما شهدنا على مدى سنواتٍ عديدة، أن يخص الإعلام (الورقي والإلكتروني والمرئي) ذكرى استشهاد غيڤارا بالمقالات والكتابات الموسمية. فيغرق العديد من هذه المقالات في سردية تكرر وقائع أسر تشي وقصة استشهاده. ولا نسوق هذه الملاحظة من باب نقدي، فتخليد الثوار ليس ترفاً، بل هو مهمة تقع على عاتق كافة المخلصين من هذه البشرية. إلا أن ما يلفت نظر المراقب، من موقع النقد الإيجابي والموضوعي، أن جُل هذه الكتابات تراوحت بين تخليد الثائر وتأبيد إرثه من باب المديح والإجلال والافتتان، اقتراباً إلى محاولات "التأليه" والأيقنة. وباستثناء ندرة من الكتابات من بينها العديد من

الكتب البحثية الرصينة، فإنها (الكتابات) لم تتناول غيفارا فكراً وممارسةً، ولم تناقش فكره السياسي ومفاهيمه لاستنباط العبر بغية خلق وتجذير وعي نقدي يسعى إلى التغيير الاجتماعي وهو،الذي شكّل في الجوهر وفي نهاية المطاف، لب فكر وممارسة غيفارا.

■ غير أن السؤال يبقى حول معرفة وإلمام الأجيال الناشئة، في العالم الثالث وخاصة الوطن العربي، بالفكر السياسي والثوري لغيفارا، وما الذي حُفر عنه في ذاكرتها غير الصورة أو القميص أو القبعة؟ وأبعد من ذلك، ما هي مسؤولية المثقف الثوري والأحزاب والتنظيمات السياسية والثورية واليسارية ومثقفيها في الوطن العربي والعالم الثالث بل والعالم بأسره؟ سؤال برسم اليسار العربي (أو ما تبقى منه) ومثقفيه ودورهم في تثقيف الأجيال الناشئة وبناء وعيها وتنشئتها وتحصينها بالفكر الثوري النقدي؟ أم أن "التثقيف" والتعبئة أصبحتا حكراً على منابر التكفيريين والسلفيين وبروباغندا الإعلام الرأسمالي الغربي؟

■ تكتسب هذه الهواجس راهنيتها وأهميتها من الأوضاع الراهنة التي نعيشها في البلدان العربية خاصة خلال الأعوام الأخيرة، أعوام ما سُمي بـ"الربيع العربي"، والتي تستدعي ضرورة ترسيخ فكر المقاومة بكافة أشكالها (الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية)، لا ضد المخططات الإمبريالية في بلادنا وحسب، ولا ضد الأنظمة الرجعية والعميلة لوحدها، بل ضد العملية التربوية بأسرها (الدينية وغير الدينية)، وضد الفكر السلفي والتكفيري والظلامي بكافة مدارسه ومنابره وفضائياته ووسائل إعلامه، هذا

الفكر الذي أخذ بقطاعاتٍ عريضة من أجيالنا الناشئة وهيمن على عقولها.

وفي هذا الصدد، يجدر بنا التوقف عند سمة خاصة تميز بها تشي غيفارا. فعلاوة على كونه شهيداً ثورياً ذا لمسة رومانسية متألقه، دأب غيفارا على الدعوة إلى تكوين "الوعي الجديد" واعتبره ضرورة وشرطا لخلق "الإنسان الجديد". وحيث كان غيفارا قائداً ثورياً ومفكراً في حقبة تاريخية صعبة ومعقدة، فقد تميزت فترة نضاله بالعديد من الإستراتيجيات وطرق النضال المميزة لتلك الحقبة، وهو ما يجدر دراسته والإفادة منه في صياغة برامج النضال العربي التي نحن بأمس الحاجة إليها اليوم. وخلافاً للعديد من الثوّار (بما فيه الماركسيون الكلاسيكيون وماركسيو "اليسار" الجديد)، شكّلت المقاومة وثقافتها وقيمها الركيزة الأساسية لفكر غيفارا وممارسته، فاعتنق العنف الثوري بوضوح لا لبس فيه وبدون استيحاء ولا اعتذار، وأصر على أن الكفاح المسلح حق للشعوب التي تناضل من أجل تحرير أوطانها ونيل الحرية وتحقيق السيادة والاستقلال والتنمية. وهنا بالضبط تتجلى دلالة مقولته التي اعتاد أن يختم بها أحاديثه وخطابته: إما الوطن وإما الموت *Patria o muerte*.

خاتمة

لعل أخطر ما يتعرض له الثائر هو تأليه فكره الثوري وأيقنة صورته لأنها تختزل الفكر الثوري وتُسطحه ولا تسهم في بناء وعي ثوري جذري. ولعل تشي غيڤارا يشكّل النموذج الأنصع لهذه الظاهرة وأكبر ضحاياها منذ اغتياله في أكتوبر 1967.

لذا تصبح مهمة الفكر الثوري هي رفض هذا النهج وتعريته والعودة دوماً إلى مناهل فكر هؤلاء الثوّار وإحياء تراثهم الثوري وإغناء المكتبة العربية بأدبياتهم ووضعها في خدمة العملية التثقيفية والتربوية الثورية من منظور بناء الوعي الثوري وشحذ إرادة المقاومة والصمود لدى الشعوب والجماهير. بكلام آخر، فإن المهمة الملحة تكمن في التثقيف الثوري وخلق الوعي حول غيڤارا المفكر والإنسان والثائر والحيلولة دون أن يتحول إلى صورة وأيقونة مفرغة من مضمونها الثوري والسياسي والإنساني.

القسم السادس

غيڤارا والحالة العربية

الفصل الثالث والأربعون

غيڤارا: مقاربة لنضالات شعوب العالم الثالث

مدخل

قد يبدو عنوان هذا الفصل، للوهلة الأولى، بعيداً عما نعيشه في واقعنا العربي الراهن، خاصة في بلدان المشرق العربي. وربما هو كذلك في ظاهر الأمور. ويحق للقارئ الغارق في الراهن العربي أن يتساءل: وما علاقة غيڤارا وفكره بالواقع البائس الذي تعيشه شعوبنا؟ وهل نحن بحاجة إلى "غيڤارا عربي" بعد أن أضحت كارثتنا ومآسينا بائنة لكل ناظر؟

أسئلة لا شك لها ما يبررها، ولكنها تنم عن:

- الانشغال واللهاث وراء الحدث دون التوقف للتأمل في حاضرنا وما سيؤول إليه.

- تهميش دور الفكر الثوري والثقافة والتثقيف الشعبي بل تغيّيبهم، وغياب المثقف الثوري ودوره في صنع وعي الشعوب وصناعة قرارها ودورها في الإعداد للمستقبل. فلو تسنى لنا أن نطلّ على واقع شعوبنا من كوكبٍ آخر، لهالنا الظلم والفقر والمعاناة التي

تعيشها هذه الشعوب، ولهالنا في الآن ذاته هذا الدفق الذي لا يتوقف من المقالات والكتابات والتحليلات السياسية التي لا تسهم، في جلّها، في تثقيف الجماهير وبناء وعي شعبي نقدي، بل إن الكثير منها، وبدون مغالاة، يعمل على تدمير وعيها وتزييفه.

ففي بلادنا تكثر القيادات السياسية والحزبية، ويكثر المحللون السياسيون ومَنْ أغدقوا على أنفسهم ألقاب "المفكر" و"الخبير" و"الباحث" وغيرها من الألقاب، فيما يقل المفكرون والمفكرون السياسيون والمثقفون العضويون على نحوٍ مريع. وفي هذا الخلل يكمن أحد الأسباب الجذرية لضياع البوصلة وضعف الوعي الشعبي وموات الشارع العربي. فيما ينشغل السياسي بالحدث وبالآني ولا يكل من متابعته ومحاولة اللحاق به والتعامل معه من خلال ردود الفعل، نجد أن الهاجس عند المفكر، بل مركز فعله، هو الرؤية بعيدة المدى وبناء الفهم العميق والغوص إلى الجذور والأسباب.

- التقليل من أهمية ودور التعلم والإفادة من عِبر التاريخ الحديث وتجارب الشعوب، بل وتجاربنا وخصوصاً انتفاضات ما سُمي بـ"الربيع العربي"، والتي تعبّر، فيما تعبر، عن إرهاصات للقادم في الغد الجديد بالرغم من امتطاء الثورة المضادة لإنجازاتها وبطولاتها.

تتوقف الإجابة على هذه الأسئلة، في رأيي، على رؤيتنا لمستقبلنا: مستقبل شعوبنا ووطننا. وما أقصده هنا، بصريح العبارة، هو أننا قد لا نلمس في دراسة الفكر الثوري لتشي غيفارا

وغيره، نتائج مباشرة وفي المدى القريب، (مع أن الكلمة الأخيرة في هذا المضمار تبقى برسم التاريخ)، إلاّ أنه في مقدورنا أن نجزم أن الشعوب لن تتمكن من أن تشكّل الحاملة الاجتماعية لمشروعها التحرري، مشروع تغيير واقعها البائس، ولن تنعم بالحرية والوفرة والتنمية، ولن ترى إشراقه غدٍ جميل وعالمٍ أفضل، دون أن تتحلى بالوعي الثوري والنقدي كونه الوحيد القادر أن يشكّل الحاملة لمشروع الثورة والتغيير.

***

ملاحظات في الخطاب السائد

(1)

"نهاية السرديات" أم "سردية النهايات"؟

عالجت في فصل "نهاية السرديات الكبرى" في مطلع هذا الكتاب سمات عصرنا بغية تجليس فكر غيڤارا في سياق الواقع القائم واستشراف راهنيته في عالم اليوم. ولهذه الغاية نفسها، سوف نتناول في هذا الفصل سمات الراهن العربي على ما في ذلك من بعض التكرار.

دعونا بدايةً نفتش في خبايا ما نقرأه ونسمعه من حولنا.

منذ عقود، وبالأخص تلك التي تلت انهيار المعسكر الاشتراكي وبسط الهيمنة الإمبريالية الأميركية، ساد في أوطاننا، وفي بقاع عديدة من العالم، خطاب "النهايات": نهاية التاريخ، نهاية الستينيات، نهاية السرديات الكبرى مثل القومية والاشتراكية وغيرها. والغاية هذا الخطاب، هي بث اليأس والقنوط في الجماهير كي تستدخل الهزيمة وتقنع بالفشل وتقبل بالاستسلام والخنوع لإرادة السيد الإمبريالي الرأسمالي. خطاب يأتينا من كل حدب وصوب يكاد يعلن انتحارنا الجماعي ونهاية تاريخنا وكأنه يقول لنا: لقد انتهيتم ولم يتبق لكم خيار آخر.

يقول منظرو نهايتنا وهزيمتنا:

- إن القومية العربية ووحدة شعوبنا كائن ميت إلا في عقول القلة الحالمة والتي أصابها العمى فلم تعد قادرة على رؤية الواقع، وما زالت تعيش أحلام الماضي التليد.

- ويدّعون أن الاشتراكية كانت حلماً جميلاً، وهي الأخرى ذهبت إلى غير رجعة وأتى التاريخ على نهايتها.

- ثم يملؤون فضاءنا بادعاء الدفاع عن الحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق الطفل وتمكين المرأة.... وغيرها من الشعارات والقيّم والمفاهيم الجميلة التي يصيغها الغرب الرأسمالي وفق ما تمليه مصالحه ومصالح زعيمته، الولايات المتحدة.

لا خلاف لنا مع أصحاب نظرية "النهايات" هذه في أن معطيات زمننا قد تغيّرت، وليس هذا في حقيقة الأمر ليس في هذا "اكتشافاً" جديداً في التاريخ البشري. فلا خلاف على أن لكل مرحلة تناقضاتها وظروفها وخصوصياتها التي تحدد طبيعة الصراع ومكوناته، وبالتالي تنتج أهدافه وآليات تحقيقها. غير أن خلافنا يكمن في السؤال التالي: وماذا عن سرديتهم، سردية السوق ورأس المال؟ هل هي سرمدية؟ ولماذا يَفترض أنها لا تنتهي هي الأخرى؟ ولماذا لا يرون أن الرأسمالية وعولمتها هي الأخرى جريحة تتخبط في دمها؟ أما الجواب فيكون في أن الغاية القصوى المرجوة من التبشير بالنهايات هو تتويج انتصار الرأسمالية ونظامها وقيمه ومنظوماته الفكرية.

إذا كان صحيحاً أن العالم – وأوضاعه - قد تغير، فلماذا لا يكون صحيحاً بالمثل أن عالم الرأسمالية والإمبريالية قد تغيّر أيضاً؟ ألا تكفي خمسة قرون من نهب ثروات الشعوب؟ أم أن نظرية سرمدية الرأسمالية تقول: إن تغيّر هذه الأخيرة يكون في وسائلها وأدواتها فقط ولا يمس سياساتها وأهدافها ومصالحها التي تبقى ثابتة على الدوام؟

ليس هناك أبعد عن الحقيقة من حجة نهاية السرديات بذريعة تغيّرالأوضاع. فعَلامَ إذَن كل هذا الصراخ بأن العودة إلى السرديات ضرب من الصنمية والتخشب؟

لننظر حولنا ونسأل أنفسنا: منذ ستينيات القرن الماضي، ماذا حققنا؟

الإجابة تجدونها في أحياء أوطاننا وأزقتها وفي أحوال فقرائه ومهمشيه.

لعله من الملفت حقاً في الحالة العربية، أننا لم ندرس تجاربنا السابقة، وخاصة حقبة ستينيات القرن الماضي، على المستويات الثقافية والسياسية والاجتماعية، لا على المستوى العربي ولا العالمي، ولم نعمل على الإفادة من دروسها، ناهيك عن دراسة السرديات الاجتماعية والفكرية والثورية الكبرى التي قلبت القرن العشرين رأساً على عقب. فنحن ما زلنا نلهث وراء الأحداث والتطورات التي تتسارع أمامنا دون أن نستطيع الإمساك بها، كالقطار الذي انطلق وما زلنا نلهث للحاق بعربته الأخيرة. بيد أن الأخطر أننا لم ننتج مفكرين ولا فكراً ينبع من واقعنا وخصوصياتنا ويلبي مصالح شعوبنا ولا خطاباً بديلاً يتناغم مع مسيرتنا وينير لنا درب المستقبل.

(2)

أعادت التطورات الساخنة والمتسارعة في الوطن العربي منذ انتفاضة شعب تونس (بو عزيزي في ديسمبر 2010 وما تلاها من تطورات وحراكات شعبية عربية)، أعادت العديد من القضايا والأسئلة الصعبة إلى حلبة الجدل وهزّت الكثير من المُسلمات والمَقولات التي، سواء أدركنا ذلك أم لا، كنا قد انشغلنا عنها لسنوات طويلة.

نقف اليوم أمام إشكاليات مذهلة تجسد المشترك بين أوضاع شعوبنا العربية مما يفسر مصطلح "الحالة العربية" على ما فيه من تعميم، وتكمن أهم عناصر هذه الإشكاليات فيما يلي:

أ) تشير وقائع السنوات الأخيرة في الوطن العربي، بغض النظر عن النهج في فهمها وتحليلها، إلى حقيقة ناصعة وهي: احتدام التناقضات وتفاقم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ووصولها حدّ الانفجار ونضوج الظرف الموضوعي للثورة والتغيير.

ب) انفجار دينامية كانت معطلة على مدى السنوات التي سبقت الحراك الشعبي العربي: انفجار الجماهير ونهوضها ورفضها للعودة إلى الوراء وتحطيمها لحاجز الخوف والاندفاع الشعبي البطولي متجسداً في بطولات الحركات الاحتجاجية. غير أن الشارع العربي ما لبث أن عاد إلى السكينة والسلبية في وجه تحديات وحروب وأوضاع بالغة الخطورة في العديد من البلدان العربية مثل سورية واليمن وليبيا والعراق وفلسطين وغيرها.

ج) غير أن صمت الشارع العربي لا ينفي أهمية ما حصل من إرهاصات خلال السنوات الفائتة والتي تلت عام 2010، ولا يلغي حقيقة تفجر التناقضات الاجتماعية والاقتصادية، التي طالما ظلت محتدمة فسوف تستمر مسيرة الشعوب من أجل التغيير والثورة على الواقع الظالم والمرفوض.

د) لقد تمكنت قوى الثورة المضادة (المحلية والإقليمية والدولية) والقوى الانتهازية من امتطاء الحراكات الشعبية العربية وإعاقة تقدمها وحرفها عن مسيرتها واستثمارها في خدمة مصالحها.

غيفارا وكفاح شعوب العالم الثالث

لقد عرفنا تشي غيفارا مفكراً أميركياً لاتينياً عالمثالثياً أممياً، عاش هموم تلك الشعوب وقضى من أجل حريتها وتنميتها ووحدتها رافضاً الحدود الجغرافية والسياسية. وهو حقاً ما تميز به تشي غيفارا بين ماركسيي القرن العشرين، أي أنه يقف خارج السياق الأوروبي (والفلسفة الأوروبية)، ما لا ينفي إفادته منها واطلاعه عليها. غير أن أكثر ما اتسم به غيفارا هو إدراكه وفهمه لأوضاع شعوب أميركا اللاتينية والعالم الثالث، من خلال تجربته الحسّية عبر رحلاته ومشاهدته للفقر والاستغلال ودور الإمبريالية الأمريكية في خلق وحماية الأنظمة القمعية الحاكمة في تلك البلدان. لذا لم يتوقف منذ تلك اللحظة عن محاربته للإمبريالية. هذا، علاوة على أن غيفارا تميز بممارسة الكفاح المسلح وساهم في صياغة نظريات حرب العصابات وانخرط في قيادة العملية الثورية في كوبا وغيرها وفي صياغة برامجها وسياساتها.

انطلق تشي غيفارا في رؤيته الثورية في منتصف القرن العشرين من واقع أميركا اللاتينية، وتحقق من خلال تجربته أن سمات الواقع والثورة في بلدان العالم الثالث مشتركة بالرغم من

الخصوصيات التي قد تتميز بها كل حالة. وعلى أساس هذا الفهم أطلق صيحته في ثورةٍ عالمثالثية *Tri-Continental* وأممية.

ومن الجدير بالذكر أننا لو أجرينا مقاربة سياقية لأوضاع شعوب العالم الثالث مع أحوال شعوبنا، مع الإقرار ببعض التحفظات والخصوصيات، لوجدنا أن غيڤارا كان قريباً من السياق والواقع العربيين ومن كفاح شعوبنا والتحديات التي تواجهها.[202]

بالطبع، ليس المقصود هنا إسقاط فكر غيڤارا وأساليب نضاله على الواقع العربي. ولا حاجة بنا إلى التأكيد على أن مستقبل العرب في أيديهم وهو مسؤوليتهم الرئيسة. فعلى عاتقنا تقع مهمة صياغة خطابنا والتعبير عن همومنا وإشكالياتنا ونحت مفرداتنا ومفاهيمنا، وبالقدر نفسه صياغة البرامج النضالية لتحقيق أهدافنا. فكثيراً ما باءت بالفشل محاولات محاكاة التجارب الأخرى، وكذلك لم تودِ مواقف الدونية والتذيّل والإذعان إلا إلى المزيد من التخلف والعودة إلى الوراء. بعبارة أخرى، لقد آن الأوان لأن نرسم مستقبلنا وأن نخطه بأيدينا.

[202] كانت القاهرة محطة غيڤارا في جولته عبر القارة الإفريقية، وهناك التقى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وسعى إلى كسب دعمه للثورة الكوبية في مخططاتها لنشر الثورة في أفزيفيا. غير أن موقف عبد الناصر كان متردداً ومحدوداً في دعمه. وتقول المصادر إن عبد الناصر حاول أقناع غيڤارا بالتأني والحذر من مخاطر فشل هذه المحاولات في أفزيفيا ودعاه إلى العدول عن الانخراط مع الثوار الإفريقيين مؤكداً له أنه (أي غيڤارا) لا يعرف حقيقة هؤلاء الثوار وقياداتهم.

الوطن العربي وأميركا اللاتينية: ما المشترك؟

أقدم فيما يلي بعض الملامح العامة للمقاربة بين الحالة العربية وحالة العديد من بلدان أميركا اللاتينية:

1) في السمات الرئيسية للصراع وأطرافه أكتفي بسرد العناوين التالية، فكل منها تحتاج إلى مناقشة مستفيضة لا يتسع لها هنا المجال.

- مرحلته وطبيعة تناقضاته (الطبقية والاجتماعية والسياسية... والرئيسية والثانوية) وأطرافه (معسكر الأصدقاء والأعداء)؛

- التشكيلة الاجتماعية ونمط العلاقات الاقتصادية . الاجتماعية السائدة؛

- تاريخ وحاضر الاستعمار والنهب الإمبريالي والتدخل الأجنبي المستديم وآثاره؛

- طبيعة العلاقات الطبقية المهيمنة في بلادنا؛

- التخلف الاقتصادي؛

- التأسيس لتبعية ودونية "العقل المستعمَر" لدى النخبة الثقافية والسياسية في البلدان المستعمَرة؛

- تجزئة البلدان المستعمَرة وتفكيك كياناتها وتدمير بناها التحتية؛

- التبعية الاقتصادية للمركز الرأسمالي؛

- خلق الأنظمة العميلة والمرتبطة بالمركز الرأسمالي والإمبريالي؛

- الأنظمة (الطبقات) المستبدة وكافة أشكال الاستبداد والظلم والقمع والفقر واستغلال الطبقات الشعبية.

2) إشكاليات مرحلة التحرير الوطني والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والسيادة الوطنية ووقف النهب الإمبريالي لثرواتنا والتخلص من التبعية الاقتصادية.

3) طبيعة الأنظمة الحاكمة ونشأتها المشوهة وارتباطها (مصلحياً وطبقياً) واعتمادها التام، في بقائها وديمومتها وحمايتها من ثورة شعوبها، على الدعم الإمبريالي.

4) الحرب الداخلية التي تشنها الأنظمة (الطبقات) الحاكمة ضد شعوبها وطبقاتها الشعبية والتي تتمثل في القمع المتواصل لأي حراك جماهيري نحو الانتفاضة والتغيير والثورة بغية الإبقاء على حالة التخلف والفقر والجوع بين الطبقات والفئات العريضة من مجتمعاتنا التي تشمل الأغلبية العظمى من السكّان.

5) حق الشعوب في المقاومة وممارسة خياراتها وأساليب نضالها (السياسية والمسلحة والشعبية والثقافية وغيرها) بما يتوافق مع رؤيتها لطبيعة الصراع والأعداء وظروفها الموضوعية والذاتية.

6) تجزئة الوطن العربي وتوطيد مشروع تفتيته إلى كيانات قطرية هزيلة والعمل المتواصل على تفتيت وحدة نسيجه السياسي والاجتماعي والثقافي وصولاً إلى محو هويته وتذريره إلى دويلات وطوائف وأقليات إثنية صغيرة متبعثرة. وكذلك هو الحال، مع اختلاف درجة الاستهداف ومستواه وأساليبه، في تدمير كافة أشكال الوحدة والتنسيق لبلدان أميركا اللاتينية والتي رآها غيڤارا وقادة الثورة الكوبية منذ أواسط القرن المنصرم ومن قبلهم روّاد الحركات الثورية في أميركا اللاتينية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. ومن هنا كانت دعوة غيڤارا إلى وحدة شعوب أميركا اللاتينية بناءً على مصالحها المشتركة.

7) لم تكن دعوة غيڤارا لوحدة شعوب أميركا اللاتينية وكفاح شعوبها المشترك تعبيراً عن المشترك القومي والتاريخي والثقافي والجغرافي فحسب، ولم تكن هذه الدعوة من أجل تحقيق مصالح هذه الشعوب الاقتصادية والاجتماعية وطبقاتها المستغَلة وحسب، بل كانت فوق هذا كله تستند إلى فهم غيڤارا لقواعد الصراع مع الاستعمار والإمبريالية والتي تمثلت في:

- أن المستعمِر والإمبريالي تعامل دائماً، وعبر تاريخه الاستعماري، مع الشعوب المستعمَرة خاصة في القارة اللاتينية والوطن العربي كوحدة متكاملة ومتجانسة واستهدف شعوبها وكفاحها أيضاً كوحدة واحدة وفق ما تتطلبه مصالحه.

- وفي الوقت ذاته، وضمن قواع الصراع ذاتها، عمل الإمبريالي على تمزيق وشرذمة هذه الشعوب والحيلولة دون الحفاظ

على وحدة أراضيها ومجتمعاتها وكياناتها، والحيلولة دون توحيد نضالها ضد العدو المشترك. وليس هناك من مثال على ما نقول، أفضل من تجزئة الوطن العربي.

8) فشل مشاريع التنمية المرتبطة بالمركز الرأسمالي وضرورة البحث عن بديل يقوم أساساً على محاربة الرأسمالية وفك الارتباط والتبعية للمركز الرأسمالي وبناء الاشتراكية بوضوح وبلا مواربة، أي بديل يعتمد أساساً على دور الجماهير المسحوقة والطبقات الشعبية في الثورة والتغيير والبناء، ويقوم على مشاركتها في صنع وتنفيذ الخطط والسياسات الاقتصادية وحماية مشروع التنمية بالحماية الشعبية.[203]

9) غياب الديمقراطية ومشاركة الجماهير وفئات وطبقات المجتمع ودورها في المشاركة (من الأسفل) في إدارة المجتمع والاقتصاد وصنع القرارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

10) ضرورة البحث عن ماركسية دينامية واشتراكية أصيلة تعبر عن مصالح هذه الشعوب وتنطلق من رحمها وبيئتها وخصوصياتها وتحافظ على أصالتها وسماتها في سبيل الوصول إلى الهدف النهائي: محو الرأسمالية وكافة أشكال الاستغلال وبناء الاشتراكية وصولاً إلى الانعتاق الكامل للإنسان. ولابدّ من التنوية في هذا الصدد أن الحركات السياسية والثورية في كلتا الحالتين، العربية واللاتينية،

---

[203] راجع "ثبت المصطلحات".

عانت من أخطاء وإخفاقات الماضي وتجارب الجمود العقائدي والصنمية التي تمثلت بتبعية وخنوع الأحزاب الشيوعية العربية وكذلك الأميركية اللاتينية للخط السوفييتي ووهم الإصلاح والنضال البرلماني ورفض النهج الثوري الراديكالي في إنجاز التغيير الاجتماعي والسياسي.

11) تراجع ووهن، وفي أغلب الأحيان الغياب التام، للتنظيم السياسي الثوري والقيادة الثورية في تنظيم وقيادة العمل الجماهيري، مع ملاحظة أن الحالة اللاتينية قد قطعت أشواطاً متقدمة في حالات عديدة مثل كوبا وفنزويلا والبرازيل وتشيلى وبوليفيا وغيرها.

12) تجارب المقاومة في كلتا الحالتين، العربية واللاتينية، (كما في فلسطين ولبنان والعراق وكوبا وفنزويلا وبوليفيا على سبيل المثال)، التي تثبت أن المقاومة ليست مجرد حق وخيار للشعوب بل هي فعلاً ممكنة وليست مستعصية كما يقول مروجو استدخال الهزيمة وأصحاب نظرية "ليس بإمكاننا أن نفعل شيئاً ضمن الأوضاع الراهنة". مقاومة الشعوب ممكنة وقابلة للتحقيق وإحراز النصر واستنهاض إرادة ووعي الجماهير وتفجير قدراتها الهائلة والكامنة في مقاومة الاستعمار والاحتلال والاستغلال ورفع الظلم بكل أشكاله.

ما العمل؟

"ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد"

جمال عبد الناصر

مربط الفرس في قراءة غيڤارا هو المقاربة مع حالة الشعوب العربية والتردي التي انحدرت إليه أوضاعهم وسؤال: ما العمل؟ وفي تقديري أن الإجابة تنطلق من البدهيات التي كانت السبب الرئيس وراء النصر التي أحرزته الشعوب عبر التاريخ، وهي:

- أنه لا مناص من أن يقوم الشعب وقواه الفاعلة (المواطنون والأحزاب والمنظمات والنخب السياسية والفكرية)، بتحمل المسؤولية الكاملة عن تغيير أوضاعه والثورة على الواقع المرير، والذي ما فتئوا يرفضونه لفظياً وبالكلام فقط دون أي فعلٍ مادي لتغييره.

- رفض الاتكال على قوى خارجية، مهما كانت، لتحقيق أهدافنا.

- وهذا يعني عملياً وبالملموس تنظيم الجهود والنضال بالممارسة العملية من أجل تحقيق التغيير المنشود وإنجاز مصالح الشعب في الحرية والازدهار والتنمية.

- التناغم بين الثقافي والفكري والنظري من جهة، والنضال العملي من جهة أخرى أي ترجمة الأقوال إلى أفعالٍ وجهدٍ منظم.

وهذا يتطلب إزالة الفصل بين النشاط الفكري والثقافي للنخب الثقافية وللمثقفين من جهة، والحياة العامة ونشاط الأفراد والمنظمات من جهة أخرى، وهو انفصام ما فتئ يملأ حياتنا منذ عقود جاء ثمرة خيانة المثقف لدوره الطليعي في توعية الجماهير وقيادة فعلها وإرشاد حراكها، ولم ينتج سوى ثقافة الكسل والخمول والتواطؤ والصمت لدى الجماهير العربية والشارع العربي.

- لا سبيل إلى النهوض من هذا المستنقع دون جهد منظم ومقاومة شاملة وتناغم تام بين القول الفعل وبين النظرية والممارسة، وهو في الجوهر مغزى فكر وإرث غيفارا.

على ضوء هذه القراءة لواقع الشعوب العربية والتحديات التي تواجهها، يكون السؤال: كيف يفيدنا فكر غيفارا (والذي يشكل في تكامله مشروعاً ثورياً لتغيير الواقع) في الإجابة عليها؟

مجمل القول، إن الحالة العربية التي تلت الحراك الشعبي في تونس ومصر (2010 – 2011)، والتي ما زلنا نعيش تداعياتها، جلبت تحدّيات جسيمة يمكننا أن نكثفها في أربعة محاور:

1) غياب آية إنجازات لتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وعدم الإيفاء بالاحتياجات الأساسية للطبقات الشعبية.

2) التيه والتخبط في تحديد طبيعة الصراع وأطرافه والعدو الرئيسي (معسكر الأعداء).

3) عدم العناية والالتفات إلى الوعي الشعبي والعمل على تطويره.

4) غياب البديل، نظريةً ورؤيةً وبرنامجاً.

سنطرق هذه المسائل من خلال المحاور الأربعة التالية:

أولاً: توفير احتياجات الشعب

ثانياً: طبيعة الصراع وتحديد العدو

ثالثاً: خلق الوعي الجديد

رابعاً: غياب البديل

أولاً: توفير احتياجات الشعب

وصلت أوضاع شعوبنا وطبقاتها الشعبية إلى الحضيض في مستويات الفقر والجوع والبطالة. وفي حين تعوم بلادنا على بحر من النفط ويختزن باطنها بخيراتٍ وثرواتٍ هائلة، نرى أزقتها مليئة بالجياع والفقراء. العالم بأسره ينعم بخيراتنا ما عدانا، ما عدا مَن يملكها وأصحابها الحقيقيين: شعوبنا.

لا حاجة لسرد المعطيات الإحصائية من مختلف الهيئات الحكومية والدولية والتي تشير إلى حجم الكارثة الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية التي تعيشها المجتمعات العربية والتي خلّفت الملايين من الجياع والفقراء والمهمشين والأميين من الأطفال والبالغين وتردي مجمل الأوضاع الصحية والمعيشية للمواطنين. صحيح أن الحروب التدميرية قد فاقمت من هذه الأوضاع وتسببت بالكثير من الدمار، خصوصاً في العراق وفلسطين وسورية واليمن

وغيرها، غير أننا شهدنا هذه الحالة الكارثية والمأسوية على مدى العقود السابقة.

إلا أنه بالرغم من نضوج هذا الظرف الموضوعي، فإننا لم نحرز أية إنجازات نحو الإيفاء باحتياجات الجماهير العربية، ولم نقدم برنامجاً نضالياً أو آليات ملموسة لتحقيق هذه الأهداف. وهناك العديد من الأمثلة على ما نقول.

ثانياً: طبيعة الصراع وتحديد العدو

يعاني الوطن العربي من العديد من المشاكل والتحديات: الداخلية والخارجية، الذاتية والموضوعية، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولا ننسى المذهبية والدينية. إلا أن السمة الرئيسية للتاريخ العربي المعاصر عبر القرنين الماضيين تكمن في استهداف الوطن العربي والأمة العربية والذي تمثل في المحاولات المتكررة بأشكال مختلفة لاستعماره والهيمنة على مقدرات شعوبه ومستقبلها، ولا نبالغ إن قلنا إنه (الوطن العربي) ظلّ، على مدى القرنين الأخيرين، أهم مناطق الاستهداف الإمبريالي والرأسمالي وأكثرها سخونة، إن لم يكن المستهدف الرئيسي. وبالمثل، فإننا لا نغالي إذا قلنا على نحوٍ مكثف بأن تاريخنا المعاصر هو صراع مستمر ومحتدم مع مشروع الهيمنة الرأسمالية - الإمبريالية - الغربية عبر مراحلة الرئيسية بدءًا من الكولونيالية الكلاسيكية

(خاصة البريطانية والفرنسية) وصولاً إلى العولمة الرأسمالية وزعيمتها الولايات المتحدة الأميركية.

هذه الأطروحة ليست أسيرة لنظرية المؤامرة كما يرى كثيرون، بل هي حقيقة موضوعية تؤكدها وقائع التاريخ، ومع ذلك، ما زال يتجاهلها كثيرون، وآخرون لا يريدون أن يروها أو يسمعوا بها، ومن هنا نفهم التيه الذي نعيشه.

العرب والخوف من الغرب

ما أدركه غيڤارا ومناضلو الثورة الكوبية (على الرغم من قرب جزيرتهم من شواطئ الإمبريالية الأميركية وما يمثله هذا من تهديد مستمر)، وما لم نتعلمه نحن بعد هو أن الغرب الرأسمالي، على الرغم من تسلحه بتكنولوجيا الحروب وصناعة الأسلحة وآلات القتل والبطش، هو غرب جبان يلجمه الخوف، الخوف من كل شيء: من الموت، من التضحية، من "تدني مستوى المعيشة"، ومن خسارة لذّاته وسلعه ومتعه وترفه. وفي هذا الخوف، "خوف الغرب"، أمسك غيڤارا بمكمن قوتنا، قوة الشعوب، لأنه أدرك أن الغرب جبان وأن قوته في سلاحه لا في حقه وإرادته ووعيه، ولا في "إنسانيته"، لذلك انتصر الفيتناميون وهُزمت الولايات المتحدة، ولذلك انتصرت الثورة الكوبية وهُزم ديكتاتورها باتيستا ومَن وراءه، ولذلك صمدت كوبا أكثر من خمسة عقود في وجه الحصار الوحشي الإمبريالي الأميركي.

وعلى الرغم من انتصار الشعوب التي فهمت هذه العبرة ومن تكرار هذه المعادلة عبر التاريخ، إلا أننا لم نستفق إليها بعد.

ثالثاً: خلق الوعي الجديد

سوف نتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الفصل اللاحق لدى مناقشة الوعي العربي الجديد، كما أننا كنا قد أفردنا فصل "مفهوم الوعي الجديد عند غيفارا" في معالجتنا لرؤية غيفارا في الوعي الجديد.

رابعاً: غياب البديل

أي غياب المكونات الأساسية لمشروع الثورة والتغيير: الرؤية والبرنامج والحاملة الشعبية. ولعل الحضيض الذي انخفضنا إليه خير دليل على ما نقول. أُنظر ما حصل في مصر، على سبيل المثال، حيث أسقط حراك الملايين بتضحيات جسيمة وبطولة أسطورية، رئيسين (حسني مبارك ومحمد مرسي)، ولكنه لم يتصد لسؤال: وماذا بعد؟ ولم يقدم عملية ثورية متكاملة في الرؤية والبرنامج والأهداف التي تلبي الحاجات الأساسية للطبقات الشعبية المصرية وترفع عنها الجوع والظلم والفقر. فما معنى وما الغاية من إسقاط مبارك ومن بعده مرسي والصمت أو القبول بنظام يراوح في

مكانه دون أن يقدم ولا حتى تصوراً (كي لا نقول حلولاً) للمعضلات الأساسية التي تنهش لحم الشعب؟

الخاتمة

لو كان لنا أن نكثف تاريخنا خلال القرنين الماضيين، وما تضمنه من دروس وعبر، وما مرّ به من أحداث وتطورات سياسية واقتصادية، بعبارة واحدة، لقلنا، كما أسلفنا أعلاه، إن استهداف الوطن العربي، بشعوبه وثرواته ومستقبله، شكّل الهدف الرئيس للمشروع الرأسمالي - الإمبريالي الغربي، ولقلنا أيضاً وبما لا يقل أهمية، إن المقاومة، بكل أشكالها وآلياتها وإمكانياتها، كانت ولا تزال الرد الوحيد على هذا المشروع والركيزة الأساسية لصمودنا والحفاظ على ذاتنا وعلى الوطن والهوية والأرض العربية، بالرغم من فظاعة ما حلّ بنا من خسائر وهزائم.

وفي هذا تكمن فحوى رسالة غيفارا لشعوبنا وشعوب العالم الثالث.

ونأمل أن يكون قد اتضح الآن، وبعد سباتٍ طويل، وبعد هذين القرنين من الحروب الطاحنة وصراعات المحاور والمعسكرات الإقليمية والدولية، بما فيها حربين إمبرياليتين (1914 و1939)، أن الوطن العربي، وخاصة جزءه المترامي على الشواطئ الشرقية للمتوسط وعمقها إلى بلاد ما بين النهرين، هو العمق الإستراتيجي والسياسي للمقاومة العربية وهو ساحة الصراعات الدولية

ومنفذها إلى الأبعد الروسي - الصيني وما يلتف حوله من البريكس وغيرها من محاور وأقطاب الصراع في العالم. مما يعني أن المقاومة العربية، كما كانت عليه عبر التاريخ الاستعماري، رافد أساسي في مواجهة الغرب الرأسمالي ومحاولاته التي لا تكل للهيمنة على العالم وتطويق صعود الصين ويقظة روسيا ودور هذين البلدين في رسم خارطة عالم الغد ومعالمه: عالم متعدد القطبية ينقذ الإنسانية من جبروت وهيمنة رأس المال الأميركي ووحشيته.

الفصل الرا بع والأربعون

أزمة الوعي العربي

«..هل نسي البعض أن الفكر ليس في ذاته قوة مادية، بل في صيرورته وعي الجماهير؟ أما الشيوعيون فهم الذين يعلمون أن للنظرية العلمية جسداً هو جسدهم، وأعصاباً هي أعصابهم، وعاطفة هي عاطفتهم، وأنّ لها حياة هي حياة نضالهم، وحباً في عيونهم حتى الشهادة. فليبحث (المتفكرون) عنها في هذه العيون التي ترى، وفي الأيدي التي تحاول التاريخ يومياً، تدكه وتحاوله، تشق فيه درب التحرر...»

مهدي عامل

في "النظرية في الممارسة السياسية"

ملاحظات في الوعي الشعبي العربي

1) تدمير الوعي الشعبي العربي: مَنْ المسؤول؟

واجه المشروع النهضوي العربي عبر عقود القرنين التاسع عشر والعشرين العديد من التحديات والمؤامرات الداخلية والخارجية، الذاتية والموضوعية، وظلّ متعثراً خاصة بعد هزيمة عام 1967، واهتزت ركائزه الأساسية من محاولات نهضوية وتنويرية

إلى النضال من أجل الحرية والتنمية والوحدة القومية والاشتراكية، وظلّ يتأرجح بين مَنْ يزعم بان هذه الشعارات لا (أو لم تعد) تلاءم الواقع بل كثيراً ما تناقضه، ومَنْ قرر بأنه "مش وقتها" أو أنها "مرجأة" لمرحلة قادمة (مستقبلية ومؤجلة حتى إشعار آخر)، وبين آخرين زعموا أنها طوباوية وسوف تظل حلماً ويوتوبيا. وليس من العسير العثور على العديد من التعبيرات والتجليات لهذه الأطروحات، والتي على اختلاف منابعها وألوانها، تلتقي في موقفها الرافض لوحدة الشعوب العربية وبناء الاشتراكية.

لن ندخل هنا في مناقشة الأسباب الخارجية لتراجع المشروع النهضوي العربي، فقد قيل فيها الكثير. ولكننا لو تأملنا ملياً في أوضاعنا لوجدنا العديد من الأسباب كامنة فينا، في أصحاب المشروع النهضوي العربي الذين حملوا رايته وناضلوا من أجله:

■ فشل القوى التقدمية والقومية والاشتراكية والشيوعية العربية في فهمم لدور القومية العربية والوحدة العربية لا كفكرة رومانسية شاعرية بل كضرورة موضوعية وتاريخية لتحقيق مصالح الطبقات الشعبية العربية وجماهيرها العريضة وإنجاز مشروع نهوضها وتنميتها. ومن هنا فإن هذه القومية تشكّل ظاهرة تقدمية وتغييرية وثورية عكس ما يُلصق بها من نعوت العنصرية والشوفينية وغيرها.

■ القصور في فهم القومية العربية كناتج عضوي للظروف والمرحلة التي تعيشها الشعوب العربية.

■ ونتيجة العداء للقومية العربية ووصمها بأنها شوفينية من جهة، وتشدق بعض القوى اليسارية والشيوعية بأنها مناقضة للماركسية من جهة أخرى، وبغض النظر عن منبع وغاية معاداة هذه القومية، فقد صبت كل هذه الأطروحات في طاحونة جبهة الأعداء: الغرب الرأسمالي - الإمبريالي والأنظمة العربية التابعة له بتلوناتها، وحركات الدين السياسي. ولا ننسى المنهارين والمرتدين الذين ما زالوا يصرّون على أنهم ممثلو القومية العربية أو في المقلب الآخر ممثلو الماركسية والشيوعية والاشتراكية في بلادنا.

■ محاكاة التحريفية السوفيتية والانصياع لها وهي التي هيمنت على موقف وقرار معظم الشيوعيين العرب إن لم نقل كلهم لعقود عديدة من القرن العشرين.

من هنا كانت القومية العربية، فكرةً ومشروعاً، الضحية الأولى والكبرى لتشويه الوعي الشعبي والجمعي العربي ومحاولات تدميره. لقد ساهمت القوى التقدمية والعلمانية والاشتراكية والشيوعية للأسباب المذكورة أعلاه، في تدمير الوعي وتأخير ولادة وعيٍ جديد. وهي بهذا تكون قد قدمت أجل خدمة لجبهة الثورة المضادة.

2) تهميش دور الوعي

على الرغم من كل ما مرّت به شعوبنا، وما زالت تجترحه من عذابات، فإن القضية المركزية لا تزال غائبة ومغيبة ولم تندرج

على قائمة أولويات مهامنا الثقافية والسياسية والاجتماعية. وهذه القضية هي الإنسان ووعيه وفعله كونه محور وغاية النضال ضد الفقر والاستغلال. بكلمات أخرى، لم يلتفت الخطاب السائد بين أحزابنا وتنظيماتنا الاجتماعية والسياسية ومجمل البنى الثقافية والسياسية إلى هذه المسألة ولم يمنحها العناية التي تليق بها. فقد غادرنا منذ زمن - أحزاباً ومنظمات ومثقفين ومؤسسات تربوية ووسائل إعلام - غادرنا مهمة تثقيف وتعبئة الجماهير وعامة الشعب، وتركنا الساحة خالية للأعداء الداخليين والخارجيين. وإلاّ فكيف نفسر تنامي قوى الدين السياسي وحركاته عبر العقود الخمسة الأخيرة وترسخ الفكر الوهّابي والسلفي والتكفيري في مجتمعاتنا؟ بالطبع هذا لا ينفي تسلل هذا الفكر وآلاف الإرهابيين من الخارج واختراقها للمجتمع بكافة الوسائل، ودور أنظمة السعودية والخليج وما تملكه من أموال النفط ووسائل إعلام وفضائيات ومثقفين مأجورين وغيرها من وسائل التعبئة وضخ الفكر الوهابي الظلامي، ولكن هذا لا يعفينا من التساؤل عن البيئة والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الداخلية (المحلية) ومسؤوليتنا كأفراد وأحزاب وقوى سياسية واجتماعية. أما الأنظمة ومؤسساتها السلطوية، فلا حاجة بنا للإطالة في الحديث عن دورها، فهي عدوة شعوبها وأداة قمعها!

يشكّل الوعي الحلقة المركزية في عملية التغيير والثورة، وفي غيابه (الوعي) يستعصي الفصل بين الأكاذيب والأوهام والغيبيات من جهة، وفهم الواقع والوقائع المادية والموضوعية والعلمية من جهة أخرى. وفي غياب الوعي، لا يقوى العقل على قراءة الواقع

أصلاً. فهل من غرابة إذن أننا وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم! وهل من قاعٍ أدنى من هذا السقوط! فلو قَرَنّا غياب الوعي وفشل الحزبية وخيانة السياسي وغياب المثقف الثوري الملتزم وخيانته لدوره ووظيفته في المجتمع، فإنه يصبح بمقدورنا أن نفهم أسباب وجذور الأوضاع التي انتهينا إليها.[204]

3) متى نبدأ بالنبش في "داخلنا"؟

ليس صحيحاً أن ما وصلنا إليه هو نتيجة الأسباب والعوامل والمؤامرة الخارجية فحسب، بل هناك الكثير من الأسباب والعوامل التي تسكن داخلنا وفي بيئتنا وعقولنا وتراثنا وتاريخنا وثقافتنا وفي مجمل أوضاعنا الذاتية. لقد حان الوقت لكي نَعْبر إلى داخلنا ونمعن النظر في تلك العوامل والأسباب لما آلت إليه أوضاعنا التعيسة، إذ ليس هناك من سبيل آخر كي ترى الشعوب النور ودرب المستقبل والبديل المُتوخى. لا يسعنا، مهما حدا بنا التفاؤل، أن نغض الطرف أو أن نقلل من الأخطار المحدقة بوعي جماهيرنا وأجيالنا الشابة وما لذلك من تداعيات كبيرة على حراك

---

[204] كان الجنرال الفيتنامي الراحل فان نغويين جياب، ثاقب البصر والبصيرة عندما حكم بفشل "الثورة الفلسطينية" بقيادة البرجوازية، إذ أكد: "الثورة الفلسطينية لن تنتصر أبداً، لأنها ولدت في مهد من الثروة". وقد جاء التاريخ ليسجل كيف تحولت الثورة الفلسطينية إلى ثروة حقيرة مصدرها أعداء القضية ومهمتها خصي الوعي الوطني والقومي والثوري للشعب الفلسطيني من خلال نهج التسوية وصفقة أوسلو وما ترتب عليها إلى يومنا هذا.

ومستقبل المجتمع والإنسانية. فمعركة الوعي والأفكار هي الأساس في نضال الشعوب نحو حياة أفضل ومجتمع عادل وإنسانية تخلو من الظلم والاستغلال.

لسنا هنا في معرض التنكر للعدون الإمبريالي واستهدافه لبلادنا لمدى طويل، غير أن لوم الآخر والهروب إلى الخارج لا يعيننا على تفسير العودة إلى الوراء (خذ ما حدث في مصر وسورية في السنوات الأخيرة على سبيل المثال) وعدم إدراك أو الإقرار بسهوتنا وغيبوبتنا عن الأوضاع الداخلية وتردي الوعي الشعبي، إذ كيف يمكننا أن ننظر إلى كل هذه التطورات دون أن نتساءل: أين كنا؟

أعتقد أن المهمة المركزية في خلق الوعي الشعبي، وهي ليست المهمة الوحيدة بالطبع، تكمن في تأصيل فكر المقاومة وثقافتها وقيمها بين الناس وعلى مستوى الشارع العربي وطبقاته الشعبية صاحبة المصلحة في النضال والتي تدفع ثمنه من دماء أبنائها. بعبارة أخرى، ترسيخ وتجذير القناعة:

- بأن أوطاننا في خطر ماحق يهدد وجودها وبقاءها: حاضراً ومستقبلاً. ففي وطن مستهدف لعقودٍ طويلة كوطننا، محتل في أجزاءٍ غاليةٍ منه، وأخرى تم تفكيكها وتدمير كياناتها ومؤسساتها وبناها التحتية من أجل الهيمنة والنهب الإمبرياليين، تضحى المقاومة مرادفة للبقاء والحفاظ على الوجود. ببساطة يصبح السؤال: أن نكون أو لا نكون.

- وحين يكون الوطن في خطر، فإن المسؤولية الرئيسية في الذود عنه تقع على عاتقنا بالدرجة الأولى، وهو ما يردنا إلى ظاهرة ملحوظة وإشكالية هامة تستحق الوقوف عندها، وهي أن المواطن العربي، على وجه العموم طبعاً، لا يدافع عن المصلحة الجمعية أي الملحة العامة وهو ما يرجع بنا إلى أزمة الوعي وتخلف البنية الفكرية، وهو أيضاً ما يفسر هزيمة الشارع العربي وصمته حيال الأحداث والتغيرات الجسمية التي تمر بها أمتنا.

- وأن الدفاع عن الوطن ومقاومة كافة الأعداء، على اختلافهم، حق للشعوب.

- وأنها (المقاومة) ممكنة وليست مستحيلة مهما عظمت التحديات والصعوبات ومهما تمادى الأعداء في جبروتهم وطغيانهم.

- بل إن المقاومة ممكنة مهما كانت الإمكانيات متواضعة لأن الشعوب خلّاقة في ابتكار أساليب نضالها وأشكال مقاومتها بما يتوافق مع معطيات وظروف المرحلة.

هذا هو مربط الفرس، وهو ما يحتاج، أكثر ما يحتاج، إلى خلق وعيٍ نقديٍ ثوري.

وللتوضيح لابد من التأكيد على أن خطاب المقاومة في الوطن العربي ليس جديداً ولا مستحدثاً، بل هو ماثل في تراثنا وتاريخنا، ورافق الحملة الاستعمارية على بلادنا منذ بدايتها واتخذ أشكالاً متعددة وأساليب متنوعة. إلا أن مراقبة حراك الشارع العربي الراهن تشدّنا إلى مفارقة لافتة ومؤلمة: ففي حين يحفل

الخطاب بالتأكيد اللفظي على المقاومة والنضال من أجلها، نرى أن فعل الشارع العربي لم يرقَ إلى أشكال المقاومة الشاملة والفعّالة في مواجهة الحملة الإمبريالية والأنظمة العميلة والمرتبطة بها. هذا القول لا ينفي وجود بؤر للمقاومة متطورة ومتقدمة، وحراك بطولي وأسطوري كما شهدنا في مصر وسورية ولبنان والعراق وفلسطين المحتلة وتونس وغيرها، ولكنه يريد أن يشير إلى أن الشارع العربي في طول بلادنا وعرضها ما زال سلبياً وساكناً أمام التحديات الكبيرة ولا نجافي الحقيقة إن قلنا أنه كثيراً ما يتأرجح حيناً، ويقع في فخ قوى الثورة المضادة ويصبح مطية للقوى الانتهازية حيناً آخر.

4) جدلية الوعي والعملية التربوية في بلادنا

تلمس باولو فرير[205] *Paulo Freire* المخاطر الكبيرة التي تحيق بأنظمة التعليم المدرسي في بلدان العالم الثالث ورأى أن المعرفة التي يستقيها طلابنا في المدارس، من منظور الشعوب المضطَهدة، قد فشلت في أن تُتَرجم إلى ممارسة عملية في حياتهم. بل أدت إلى حالة من الانسداد المعرفي.[206] ونستطيع أن نضيف أن التجربة التربوية في وطننا العربي، حتى قبل أن تتسلط العولمة على مناهج التدريس فيه، قد أكدت هذا الفشل ربما أكثر من أجزاء

---

[205] راجع "ثبت المصطلحات".

[206] Peter McLaren, Che Guevara, Paulo Freire and the Pedagogy of Revolution, Rowan & Littlefield Publishers, USA, 2000. See "A Pedagogy for the Revolution of Our Time", pp.183-207, and p. xx.

أخرى من العالم. لم يستطع التعليم في بلادنا، مهما كدّس في ذهن الطالب من كمٍ معرفي، أن يحدث تحولاً في حياته إذ لم يتسن تحويل هذه المعرفة إلى ممارسة وأفعال والتي وحدها هي القادرة على تطوير الحياة. وفي هذا الديالكتيك تتحدد معاني الممارسة العملية كالعلاقة الجدلية بين تحويل الأفعال إلى معرفة من جهة، وإلى تحويل المعرفة إلى أفعال وممارسة من جهة أخرى.

وللتدليل على ما نقول نسوق الملاحظات التالية:

■ الفجوة الكبيرة التي تفصل بين برامج التكوين الديني في المدارس العربية من جهة، وبرامج التكوين العلمي (خاصة العلوم الرياضية والطبيعية) من جهة أخرى. فما زالت العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية متخلفة في المناهج والمضمون التربوي في غالبية البلاد العربية. فالبرامج العلمية تفتح الأذهان على العلوم والمعرفة المعاصرة، وعلى مناهج التفكير العلمي وقواعده. أما برامج التكوين الديني فلا توفر حتى إمكانية تحصيل معرفة عميقة ورصينة بشؤون الدين أو بتعاليم الإسلام وتاريخه، لأنها تنتهج أسلوب الاجترار وتقديس النص الديني وأحاديث القدامى والنظر إليها كمعطيات أبدية وحقائق مطلقة لا تخضع لأحكام السياق أي المكان والزمان والتاريخ، ولا تدربهم على قيم التفكير والمساءلة والنقد، بل تعطل لديهم حاسة النقد تعطيلاً كاملاً، وهكذا تتكون في وعي المتلقي ازدواجية معرفية حادة: عقل يقظ في العلم، وعقل خامل ودوغمائي في الدين.

■ إن الثقافة الدينية في مدارسنا وجامعاتنا لا تلتزم بمناهج التعليم العصري، وهي "مكرسة للعلوم الدينية حصراً (علوم القرآن، التفسير، الحديث، أصول الفقه، علم الكلام، علوم اللغة والنحو والبلاغة..)، ونادراً ما تدخل فيها العلوم العقلية (المنطق، الفلسفة) أو العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية (السياسة، الاقتصاد، علم الاجتماع، علم النفس، التاريخ، اللسانيات..) ".[207]

■ أسلوب التعليم: تستند طريقة التربية والتعليم في بلادنا إلى التلقين والاجترار وإعادة إنتاج الموروث على أنه "العلم الأكمل" الذي يتضمن الحقيقة المطلقة.

■ المهم في هذا كله أن هذا النمط من التربية في المدارس والمعاهد والجامعات يؤدي إلى تشكيل "ذهنية يقينية مغلقة، متمسكة بالموروث، اجترارية واستظهارية، لا مكان فيها للسؤال أو النقد، وهذه الذهنية غالباً ما تكون جاهزة للتجاوب مع خطاب أصولي مغلق، معاد للعصر وقيمه، خاصة حينما تصطدم بأوضاع اجتماعية سيئة، مثل البطالة والتهميش والحرمان. إنها بيئة خصبة لدعوات الرفض، وكراهية القيم الحديثة، والتمسك بالموروث، والتشرنق على الذات.. وهكذا يوفر الخلل الداب إلى نظام التعليم، وتهافت هذا النظام في برامج التكوين الديني فيه، جيشاً عرمرماً من

---

[207] انظر مقالة "أزمة التعليم التي أنجبت صعود "الإسلام الحزبي" للدكتور عبد الإله بلقزيز المنشورة في صحيفة "الخليج" بتاريخ 2014/03/10، www.alkhaleej.ae

المتعلمين للدعوات السياسية لـ"الإسلام الحزبي"، تلتقطه بيسر شديد، وتسخره لخدمة مشروعها السياسي ".[208]

■ يُعد خريجو مثل هذه المدارس والجامعات بمئات الآلاف ويشكلون خزّاناً اجتماعياً كبيراً للتنظيمات والحركات الإسلامية.

لهذا الأسباب وغيرها، تمّ تهميش فكر المقاومة وثقافتها بعد أن كانت قد انغرست في تراث شعوبنا وتجسدت في كفاحها وتضحياتها ضد الاستعمار والاحتلال الأجنبي، وبعد أن سطرت شعوبنا (في فلسطين وعموم بلاد الشام والهلال الخصيب والجزائر واليمن وغيرها وعلى مدى عقود طويلة) ملاحم البطولة والكفاح. في ظلّ هذه الأوضاع تراجعت شعوبنا في كفاحها وانكفأت أفكار وقيم وثقافة المقاومة وتجارب الشعوب الأخرى والتي جسّدها الفكر الثوري المعاصر بما فيها فكر غيڤارا وإرثه.

5) سقوط المثقف وتخريب الوعي

لا نأتي بجديد إذا قلنا بأن العديد من مثقفينا ومفكرينا ساهموا في تخريب الوعي الشعبي وحرقه وتدميره. ولا جديد في القول، خاصة على ضوء ما تمخضت عنه السنوات الأخيرة، إن

---

[208] الدكتور عبد الإله بلقزيز، المرجع السابق.

الكثيرين منهم عملوا لصالح الثورة المضادة وخدموا أجنداتها وغاياتها ومصالحها.

ليس هنا مجال الدخول في أسباب هذه الظاهرة، وهي كثيرة ومتعددة ولا تتوقف عند ارتهان المثقفين وتدفق أموال النفط وشراء الذمم بينهم (هيمنة النفط السعودي والقَطَري والخليجي تحديداً على الإعلام العربي المسموع منه والمقروء والمشاهد)، أو ادعاء المثقف حاجته لدخل وسبل للعيش الكريم، كما أن أسباب هذه الظاهرة لا تنحصر في القمع الفكري والسياسي للأنظمة المستبدة. فكل هذه الأسباب صحيحة، ولكن لابد لنا أيضاً، إن توخينا الموضوعية والأمانة، أن نطرق العوامل الذاتية للمثقف العربي وقدراته الفكرية والكم المعرفي لديه أو نقيض ذلك الضحالة المعرفية لديه، وسطحية الفكر وخيانة الموقف وغياب الانتماء الوطني/ القومي ووهن الولاء للوطن وتشوهات الهوية والعجز عن إنتاج فكري أصيل ونابع من استقراء الواقع، وغيرها من العوامل والأسباب الأخرى.

إذن، نحن أمام ظاهرة معقدة ومتشابكة، تحمل الكثير من المخاطر وتتعدد في تجلياتها وملامحها كما في عناوينها وأسمائها: سقوط المثقف، خيانة الوعي والموقف، غياب المثقف الثوري أو بالحد الأدنى المثقف الوطني، الانسحاب من الهوية والتخلي عنها، استدخال الهزيمة والقبول بالدونية والخنوع، التواطؤ مع أعداء الوطن والمجتمع (على تعدد قوى معسكر الأعداء)، والتطبيع مع

المفاهيم الساقطة والمطبعة مع قوى الثورة المضادة (المحلية والخارجية) والمناقضة لمصلحة الوطن والمجتمع والإنسان.

غير أن هذه القائمة الطويلة لا تقدم تفسيراً شافياً لسقوط المثقف، لا تكفي لتفسير ارتباطاته (التي تمليها مصالحه أولاً وأخيراً) وتقلباته وتنقلاته بين الشواطئ المختلفة والمواقف المتناقضة.

يتطلب البحث في هذه الظاهرة والوقوف على مسبباتها قراءة ذاتية وبنيوية للمثقف وتكوينه في المجتمعات العربية، والبحث عن مكامن الخلل الذاتية من ضحالة معرفية وفكرية، وحب الوطن والولاء له، والالتزام بقضايا المجتمع والإنسانية، وفهمه لدور الثقافة والمثقف في المجتمع والوطن والإنسانية ومسؤولياته حيال خلق وتكوين الوعي الشعبي والثقافة الشعبية. ولابد لهذا البحث أن ينطلق من قراءة طبقية تحلل المثقف ودوره من خلال موقعه واصطفافه الطبقي وموقفه من الطبقات الاجتماعية والصراع فيما بينها. وسوف يتدرج بنا البحث إلى العديد من الإشكاليات الذاتية ليس أقلها تبعية المثقف للغرب سواء تلبية للمصالح المادية أو المالية أو الشخصية، أو بسبب دونية المثقف العربي وخنوعه لفوقية الأبيض الأوربي - الأميركي أو بسبب الالتحاق بخطابه الفكري والإعلامي والسياسي. هذا بالإضافة إلى الكسل الذهني لدى الكثيرين والارتكان إلى النقل والنسخ دون أن يكلف المثقف نفسه عناء البحث والدراسة وتقصي المعرفة والمعلومات ودون أن يُعمل العقل والتفكير النقدي والأمانة العلمية.

بالإضافة إلى دور المثقف ومسؤوليته التي ناقشناها أعلاه باختصار، هناك عوامل رئيسية أخرى، نذكر منها:

1) إهمال الأنظمة الحاكمة ومؤسساتها لمسؤولياتها التعلمية والتربوية حيال الشعب وخاصة الأجيال الناشئة، حيث أن مصالح الطبقات الحاكمة والحفاظ عليها تتناقض مع توعية الشعب وخلق جماهير واعية ومتعلمة وقادرة على محاربة الظلم والاستبداد.

2) السياسات التجهيلية التي اعتمدتها هذه الأنظمة، وللأسباب ذاتها المذكورة أعلاه.

3) تقصير الأحزاب والمنظمات والهيئات السياسية والاجتماعية والثقافية والمعرفية.

4) الطور الاجتماعي والاقتصادي (الإنتاجي) للتشكيلة الاجتماعية ونمط العلاقات الطبقية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في مجتمعاتنا، ومجمل المرحلة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يمر بها المجتمع.[209]

كل هذه العوامل عملت على نحو جدلي ومرتبط على تدمير الوعي الشعبي وتراجعه عقوداً إلى الوراء. فالوعي الإنساني، الفردي والجَمْعي، هو نتاج لفعل التربية والتعليم وتلقي المعرفة والعلوم والفكر الذي يشكّل الأرضية الأساسية لتنميته.

---

[209] أنظر "جدلية الوعي... والعمل... والإنتاج" في فصل "مفهوم الوعي الجديد عند غيڤارا".

6) المحنة: غياب النقد الأخلاقي

تتوصل المجتمعات إلى منظومات قيمها (المنظومات القيمية) المناسبة لها والنابعة من واقعها وتراثها، وبما لا يقل أهمية من تطورها التاريخي والاجتماعي وتجاربها والتي كثيراً ما تكون مؤلمة وحادة وذات كلفة إنسانية عالية. هذا ينطبق على شعوبنا والشعوب الأخرى (بما فيها الغربية) وهكذا تتوصل الشعوب إلى المنظومات والمعايير الأخلاقية التي تتناسب مع حياتهم وتطور، بغض النظر إذا ما كنا نتفق معها أم لا.

وفي هذا الصدد، فإننا نعاني من محنة أخلاقية وغياب المنظومة القيمية الأخلاقية التي من المفروض أن توحدنا وتدفع بنا إلى الأمام... نحو التقدم. لهذا نلحظ أن الفرد منا يعيش في غياب محددات أخلاقية لسلوكه، ويسمح الفرد لنفسه أن يتصرف وفق مصالحه الفردية ومزاجه ورغباته دون اعتبار للمصلحة العامة: الوطن، المجتمع، الإنسانية.

ويصاحب هذه الظاهرة غياب النقد الأخلاقي في الخطاب العربي بشكل عام وفي مجمل العلاقات الاجتماعية السائدة في مجتمعاتنا: فالحكّام مستبدون وليس لديهم رؤية أخلاقية أصلاً، فالأنظمة (الطبقات) الحاكمة تتصرف وفق مصالحها ومصالح طبقاتها، ولا تختلف المؤسسة الدينية في هذا الشأن فرجال الدين يعظون بما لا يفعلون، وصولاً إلى مدارسنا وسياساتنا التربوية المحكومة ببرامج وأساليب تعليمية فاسدة ومنافقة.

فكيف لنا، والحالة هذه، أن نتوقع تطوير برامج تربوية جديدة توصلنا (أو بالأقل الأجيال الناشئة) إلى منظمات قيمية جديدة!

7) المقاومة الداخلية في الحالة العربية

ناقشنا في الفصل السابق حقبة النهوض القومي والتحرري التي شهدها الوطن العربي والتي كانت جزءًا أساسياً من نهوض عمّ بلدان العالم الثالث في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية. كما ناقشنا كيف أخذنا، مع حلول العقود الأخيرة للقرن العشرين، ننهزم أمام هجمة العولمة الرأسمالية - الإمبريالية. وهكذا خسرت الإنسانية ومعها الوطن العربي والعالم الثالث العديد من المعارك الفكرية والسياسية، معارك القومية والاشتراكية والتنمية، وحتى السيادة الوطنية ووحدة الأوطان وسيادة الدولة القومية، وراحت بلادنا ضحية لكافة أشكال التجزئة والتفكيك والتبعية للأجنبي.

غير أنه، بالإضافة إلى هذه العوامل الخارجية (المتمثلة في سطوة رأس المال والهجمة الإمبريالية)، وبدون التقليل من نتائجها الكارثية، فإنه يتوجب علينا أن نقر بعوامل الضعف والهزيمة الداخلية في البيئات والمناخات المختلفة حيث اندحرت الاشتراكية والقومية ومحاولات التنمية المستعصية. ويجب ألاّ نغفل واحداً من هذه العوامل الرئيسية ألا وهو مقومات المقاومة الداخلية وعوامل الصمود، وكلاهما يعبران عن بوصلة النضال الداخلي.

الفصل الخامس والأربعون

غيڤارا: نحو تثقيف جماهيري جذري

نحو نهضة توعوية جديدة

ظلّ العديد من أفكار غيڤارا ومفاهيمه الإنسانية والفكرية والثورية المعاصرة، بل ومساهمات الكثيرين غيره، ظلّت مجهولة أو مطموسة لدى قطاعات واسعة من شعوبنا العربية وشعوب العالم الثالث، بالرغم من شعبية غيڤارا وحضوره في الذاكرة الشعبية، وبالرغم من أن التطورات التي ألمت بتلك المجتمعات تشير بوضوح إلى صحة ومصداقية أطروحاته. فباستثناء بعض الأوساط والحلقات السياسية والثقافية اليسارية،

فان إرث غيڤارا لم يدخل فضاء الوعي الشعبي ولا التثقيف الشعبي أو العملية التربوية الذي يتوجب على المثقفين الثوريين والتيارات والتنظيمات والأحزاب السياسية والاجتماعية التقدمية واليسارية أن تقوم به.

ولكن، لماذا نخص فكر تشي غيڤارا بالأهمية؟ وما هي دلالات هذا الفكر في المشروع النهضوي العربي؟

تتطلب الإجابة على هذا السؤال بحثاً منفصلاً ومشاركة جمعية من الكتّاب والباحثين، إذ لا يملك أي منا وحده القدرة على الإجابة، غير أنه يمكننا أن نبدأ بالتأكيد على أن راهنية فكر غيفارا في الأوضاع الراهنة لشعوبنا تتجلى في الخطوط العريضة التالية:

1) تواصل أفكار ومفاهيم غيفارا مع الواقع الراهن وتأكيد التطورات التاريخية والسياسية على صحة هذه المفاهيم وأسسها الأيديولوجية والسياسية على الرغم من أنها جاءت في سياقات تاريخية وسياسية مختلفة.

2) تناغم أفكار غيفارا بين القول والفعل وبين النظرية والممارسة.

3) الربط الوثيق وبشكل متواصل بين القول والفعل من جهة، والهدف الاجتماعي والسياسي الذي نسعى إليه من جهة أخرى، وهكذا يكون القول والفعل خطوة متناغمة على درب تحقيق الهدف النهائي دون انحراف. ويتطلب هذا، أول ما يتطلب، تطوير القول والفعل من خلال الممارسة إلى أداة تنفيذ (برنامج نضالي) للحركة الثورية وصولاً إلى الهدف النهائي: محو الاستغلال والانعتاق الكامل للإنسان.

لقد آمن غيفارا بأن التثقيف الجماهيري، وهذا هو بيت القصيد، يتم عبر الممارسة الثورية، وأكد أن الدرس الأول في عملية التثقيف هذه هو إدخال الجماهير إلى حظيرة المقاومة والثورة ومشاركتهم في صنعها كي يتعلموا النضال من أجل حقوقهم. وبعد

أن يشاركوا في الثورة والتغيير والحكم والسلطة وصنع القرار، فإن عملية التثقيف تصبح سهلة ولا تحتاج إلى عناء كبير.

4) يشكّل التثقيف الجماهيري الهادف إلى خلق وعيٍ نقديٍ جديدٍ الحاضنة الفكرية لنضال هذه الجماهير. غير أن هذه العملية لم تخطو في بلادنا خطواتها الأولى، وما زلنا بحاجة إلى الكثير من العمل والحوار والتخطيط على كافة المستويات التثقيفية والتوعوية والتربوية وبكافة وسائل التثقيف الشعبية والسياسية والحزبية.

هنا تكمن مهمة المثقف الثوري والحزبي والسياسي في ابتكار وسائل التثقيف الشعبي المتاحة وضمن الإمكانيات المتوفرة مهما كانت متواضعة من أجل خلق الوعي الثوري سواء كان فكر وإرث غيڤارا أم غيره، والحيلولة دون أن يتحول هذا الإرث إلى شعاراتٍ وأيقونة مفرغة من مضمونها السياسي والثوري والإنساني، كي تظل جذوة المقاومة مشتعلة طالما هناك جائع أو فقير أو معدم على وجه الأرض.

5) في فكره وإرثه، يجمع غيڤارا بين الفلسفة والأخلاقيات والسياسة في رؤية ثورية متكاملة على نحو يندر في التيارات الفكرية والسياسية المعاصرة، وهو ما نحن بأمس الحاجة إليه من أجل التأسيس لعملية تربوية تثقيفية ومنظومة أخلاقية جديدة.

في حالتنا العربية وأمام المشهد الماثل، قد يطول الزمن أو يقصر قبل أن نضوج الظروف للجدل في مثل هذه الأفكار، وقد تبدو الآن وكأنها قادمة من كوكب آخر، الاّ أن الوقت قادم لا

محالة. وفي النهاية ستنتصر الفكرة على السيف. أليست المشاريع الكبيرة والمبالغ الباهظة التي تصرفها الإمبريالية الأميركية في سبيل السيطرة على الأفكار والرأي العام ووعي الشعوب، أليست خير دليل على أهمية هذه الأمور تأثيرها البالغ؟

القسم السابع

ماذا تَبقى من تشي غيڤارا؟

الفصل السادس والأربعون

فكر غيفارا: تحديات ومعوقات

على الرغم من ديمومة فكر غيڤارا وإرثه الثوري، فإن هذين ما زالا يواجهان العديد من التحديات الهامة. ولا تقتصر هذه التحديات على فكر غيڤارا لوحده، بل يواجهها كل فكر ثوري في تناقض مع الواقع القائم ويسعى إلى تغييره. غير أنه جدير بالذكر أيضاً أن بعض هذه التحديات يكمن في طبيعة فكر غيڤارا ومشروعه ومسيرته النضالية.

لن نعود في هذا الفصل إلى سيل الانتقادات والتهم والأكاذيب التي ألصقت بغيڤارا، والتي أتينا عليها في مكان آخر من هذا الكتاب، بل سنتناول بعض التحديات الرئيسية التي تعمل، على نحو مباشر أو غير مباشر، إلى تشويه فكر غيڤارا وإعاقة فهمه لدى الأجيال الناشئة ووصوله إليها.

1) أوضاع محلية وعالمية مهزومة

شكّلت الأوضاع التي سادت في العالم منذ استشهاد تشي غيڤارا، تحدّياً كبيراً لفكره الثوري ولغيره من ثوّار العصر الذين جاء

فكرهم نتاجاً لزمنهم وأوضاع عصرهم، كما شكّلت هذه الأوضاع تحدياً للعملية الثورية برمتها ووضعت في طريقها عقبات ومعوقات عديدة: موضوعية وذاتية، داخلية وخارجية، محلية ودولية.

وقد تميزت هذه الأوضاع بهيمنة الرأسمالية التي خيّمت على العالم خلال العقود الأخيرة، وعولمة هذه الهيمنة على الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وكان من تمظهرات هذه الهيمنة، وربما أكثرها خطورة وعمقاً، هو الاستسلام لهذه الهيمنة وإملاءاتها واستدخال مشروعها. بيد أن بوادر كثيرة تشير إلى أن التغيير قادم، وأن معالمه تلوح في أفق اللوحة السياسية الراهنة، وأن حقبة الهيمنة الرأسمالية آخذة إلى مزيد من الوهن والتعقيد بفضل ما تواجهه من تحديات: الأزمة البنيوية للنظام الرأسمالي، تفاقم مأزق الإمبريالية الأميركية على مختلف المستويات، انكماش القدرة الأميركية على السيطرة، أزمات الاتحاد الأوروبي (أزمات اقتصادية واجتماعية خانقة ومستعصية الحلول، ومخاطر تشرذمه)، وظهور قوى وقطبيات ومحاور إقليمية ودولية أخذت تتحدى وتناطح وحدانية القطبية الإمبريالية الأميركية التي تحكّمت بكوكبنا منذ انهيار القطب السوفييتي متوهمة بان "الزمن" الأميركي قد أتى ولن تغرب عنه الشمس.

2) الجهل بفكر غيڤارا

يبدو أنه من سمات الزمن الذي نعيش فيه أن القراءة المتأنية والمتريثة قد أصبحت تقليعة قديمة لا يزاولها إلا نفر من

الجيل الماضي، على الرغم من قفزات كبيرة في الثورة المعلوماتية والتكنولوجية وسهولة الوصول إلى المعرفة.

من الطبيعي والحالة هذه، أن يتبع ذلك تسطيح للقضايا الكبيرة والملحة، فتختفي الحدود بين الخبر والحدث من جهة، وبين الصورة الأكبر التي تقف خلفه والسياق الذي يأتي فيه.

لعل المشكلة الأساسية التي يعاني منها فكر غيڤارا وإرثه في الوطن العربي وأجزاء أخرى من العالم، هو الفهم السطحي لطروحاته والاكتفاء بترديد بعض شعاراته الثورية وربط فشله في حرب العصابات في كلٍ من الكونغو وبوليفيا بسقوط فكره وهزيمته. بالطبع ليس هذا الأمر حصراً على فكر غيڤارا بل هو مصير الكثيرين من روّاد التحولات الكبيرة في التاريخ والمجتمع. وبالرغم من وفرة الدراسات التي ترصد فكر غيڤارا والتي لم تتوقف منذ استشهاده في التاسع من اكتوبر 1967، والمتوفرة في العديد من اللغات خاصة الإسبانية والإنكليزية والفرنسية، بالرغم من هذا، فإن المكتبة العربية لا زالت تشح بمثل هذه الدراسات. وباستثناء بعض الأوساط السياسية والثقافية والحلقات اليسارية، فإن إرث غيڤارا لم يدخل العملية التربوية وعملية التثقيف الهادفة إلى خلق وعيٍ جديدٍ سواء على مستوى الجماهير والمجتمع أو الحزب السياسي والتنظيم الاجتماعي. وكان من نتيجة ذلك أن إلمام الأجيال الصاعدة من الشباب العربي بفكر غيڤارا ومفاهيمه ظلّ سطحياً، مع أنه ما زال حيّاً في عقولهم وقلوبهم، كيف لا وقد جعلوا منه قدوة وأيقونة للثورة والنضال!

إنه من الملهم حقاً أن ترى الأجيال القادمة تشي غيڤارا كثائر أممي، ففي قدوة الرجل ما يلهم هذه الأجيال ويحفزها على متابعة مسيرة الثورة لما تمثله من صدق في المبدأ والحياة والنضال. فهو الذي لم يرتد يوماً عن قناعاته ولم يخنها في أي ظرف، بل دفع الثمن غالياً دون أن يشكو، دفع حياته. ولكن هذا لا يعني ولا يضمن ديمومة فعله وتأثيره، فلابد لهذه الأجيال أن تدرس أفكاره الثورية وتقتنع بها والإفادة من تجربته في الثورة وتغيير الواقع، وهو ما يتطلب التعرف بعمق على فكره مطروحاته الثورية وتجربته واستخلاص العبر منها.

3) الأيقنة

لعله من المفارقات اللافتة أن يبرز غيڤارا بين ثوّار وشخصيات القرن العشرين، كواحد من أكبر أعلامه وأكثرها شهرة، مع أن الرجل لم يكن معنياً بالشهرة كما تتبعنا في مسيرته ووفق ما نجده في مواقفه وكتاباته وما يشهد به المقربون من أفراد عائلته ورفاق دربه.

لقد أفردنا لموضوع الأيقونة والأيقنة فصلاً خاصاً، غير أن ما نحن بصدده هنا هو لفت النظر إلى أن الفارق شاسع بين الأيقونة والفكر أو بين صورة غيڤارا وما تضمنته مسيرته الثورية. فكثيراً ما تظلل الأيقونة الفكر وتبهته وتحرم العقل من السؤال والبحث عما هو خلف الصورة.

ومن هنا نرى أن أيقنة غيفارا تشكّل تحدياً ومعيقاً إضافياً لفكره. وليس من محض الصدفة أن تفترق الأيقونة عن الفكر، فقد شهدنا عبر التاريخ أمثلة كثيرة من الثوّار والمفكرين والفلاسفة الذين تمت أيقنتهم بغية تسطيح فكرهم والحد من دورهم وتأثيرهم. وهو ما نلحظه في أيقنة غيفارا التي تجعل من فكره ونضاله وقدوته سلعة رأسمالية مربحة ووسيلة فعّالة في تسطيح فكره الثوري وإذابة إرثه وتأثيراته على الأجيال الصاعدة. ومن هنا تكون أهمية العودة إلى الركائز الأساسية للفكر الذي يقف خلف أيقونة غيفارا.

4) الأكاذيب والاتهامات من أجل التشويه والتدمير

كما في حياة الشعوب، كذلك هو الأمر في حياة الأفراد: التاريخ يكتبه المنتصرون. هذا ما توحي به الكثير من الكتابات حول غيفارا، وهكذا كتب قاتلوه تاريخَه على هواهم ووفق منظورهم ومصالحهم، فسجلوا محطات حياته ونضاله كما شاءوا وشاء لهم أسيادهم وفق منهج يضمن لهم، على ما يظنون، تسويق رؤيتهم وأجندتهم. ومن هنا جاء هذا الكم الهائل من الأكاذيب والتلفيقات والفبركات التي عملت الآليات الإعلامية والأيديولوجية الإمبريالية على إنتاجها وتكرارها على مدى العقود السابقة.

وقد أشرنا في فصل "غيفارا بين التشهير والتشويه" إلى سيل لا يتوقف من هذه الاتهامات، نذكر منها العينة التالية:

□فقد اتهم الرجل بأنه طاغٍ ومستبد وسفاح دموي وديكتاتور تحكمه شهوة السلطة . ولم يتورع بعضهم عن اتهامه بشهوة القتل ناسبين له مسلسلاً من" الجرائم " في قتل العملاء وتصفية الخونة بعد انتصار الثورة الكوبية، وهنا فإنهم يشيرون إلى الذين ذهبوا ضحية عنف الدولة وهيمنتها في المحاكم الثورية بعد الثورة الكوبية والتي سعت إلى تطهير البلاد من هؤلاء العملاء والخونة. وهكذا أصبح غيڤارا" آلة للقتل "ولا يعدو كونه صنماً *cult*.

□ وبأنه استخدام العنف وهيمنة الدولة في الاستيلاء على ثروات الشعب، والسطو على البنوك وترخيص سرقة ممتلكات الآخرين، وانتزاع الأراضي من أصحابها الفقراء (يقصدون الإصلاح الزراعي).

□ ثم يذهبون إلى وصفه ب"المغامر" و"الفاشل" في الكفاح المسلح وحرب الغوّار.

□ أما رفضه لمقولة التعايش السلمي ونقده لموقف الاتحاد السوڤييتي أزمة الصواريخ السوڤييتية في كوبا، فقد أهله ليصبح "انتحارياً".

5) اتخاذ الأخطاء كذريعة لمحاكمة الرؤية والنظرية

كما في السرديات الكبرى التي تطرح رؤية شاملة لمستقبل الإنسان، هكذا كان الأمر مع تشي غيڤارا، حيث تمّ توظيف الأخطاء

وظروف الفشل أو الهزيمة "كدليل" قاطع وتاريخي على فشل النظرية والرؤية والمفاهيم.

فعلى سبيل المثال، استخدم "فشل غيفارا " في حملتيه للتأسيس للكفاح المسلح في الكونغو وبوليفيا كذريعة ودليل على فشل غيفارا ومجمل أطروحاته في الكفاح المسلح ونظريته في حرب العصابات "البؤر الثورية".

لن ندخل هنا في تقييم هاتين التجربتين، فغيفارا ذاته لم ينكر فشله، بل تصدى بأمانة ثورية وتاريخية ونقد ذاتي منقطع النظير مشيراً إلى الصعوبات التي واجهها في الكونغو وبوليفيا ووصف في مذكراته، التي خطّها في أحلك الظروف، الأخطاء التي وقع به وغيره من رفاقه المقاتلين معه، متحملاً المسؤولية الكاملة عن نتائج هاتين التجربتين. ولعله من المفيد هنا أن نعيد ما ذكرناه في فصل الكفاح المسلح وما جاء في مذكرات غيفارا عن حملة الكونغو: "لقد تعلمتُ في الكونغو أن هناك أخطاء لن أكررها أبداً، وأخرى قد تتكرر، وأخطاء جديد سوف تُرتكب. أغادر [الكونغو] وأنا أكثر إيماناً من أي وقتٍ مضى بحرب الغوّار. ولكننا فشلنا. إن مسؤوليتي لعظيمة: لن أنسى الهزيمة ولا عبرها القيّمة".

والحقيقة أن مثل هذه الأحكام على تجربة غيفارا، تتجاهل، في سعيها المحموم للتبشير بفشل النظرية، عن خبث وعمد الركائز التي استند إليها غيفارا في رسم أفكاره وتطوير مشروعه وأهمها:

أ) إن مشروع غيفارا جاء في الأساس لتلبية الاحتياجات المادية والروحية، الاجتماعية والإنسانية لجماهير الفقراء الذين التزم بقضاياهم وبالدفاع عن مصالحهم. وعليه، فإن راهنية هذه الأفكار تظل مرهونة ومرتبطة دوماً بهذه الاحتياجات والإيفاء بها. وعليه، فإن المهمة الثورية الملحة هي نشر فكرة الثورة والتأكيد على أن الثورة ضرورة وأنها ممكنة، وليس الأمر في النجاح أو الفشل لأن الثورة ضرورة تاريخية وليست حدثاً يومياً عابراً: المعركة هي مسألة نضال يومي ومقاومة مستمرة بكافة أشكالها، بينما الثورة هي تغيير تاريخي يأخذ مدى ولا ينجزه شخص واحد وقد لا ينجزه مجتمع بأسره ولا حتى في حقبة تاريخية كاملة. (لنتأمل التاريخ العربي في القرنين الماضيين وما آل إليه اليوم، لنرى بأم عينينا ما أنجزناه وما عجزنا عن الوصول إليه).

ب) إن فكر غيفارا ومشروعه ونضاله جاء في سياق زماني ومكاني معين، واتسم بخصوصيات مرحلة تاريخية وظروف اجتماعية واقتصادية معينة. لذلك فإن محاكمة هذا الفكر يجب أن تستنير بتلك المرحلة وذلك السياق.

ج) ضرورة المرونة في تطبيق ما يتناسب من أفكاره مع واقعنا اليوم ومراعاة الخصوصيات التي تتميز بها ساحات النضال ومراحله، ما يعني عدم التمسك الصنمي بأن النظرية والمفاهيم تسقط بسبب تغيّر المرحلة ولا تعود صالحة للتطبيق بسبب الأخطاء في الممارسة. وواضح أن الهدف من هذا هو نسف أفكار غيفارا وتدمير مشروعه برمته.

د) قد يكون من المفيد أن نشير، في هذا السياق، إلى حالة مماثلة: الانهيار السوفييتي كنمط اقتصادي وسبيل في بناء الاشتراكية[210]، واستخدام هذا الانهيار وإسقاطه آلياً على حتمية سقوط الاشتراكية وهزيمتها كفكر اجتماعي واقتصادي وسياسي يلبي للشعوب احتياجاتها الاجتماعية والإنسانية، ويشكل بديلاً للرأسمالية ونظامها الاستغلالي الظالم.

هـ) "فشل" الكفاح المسلح وحرب الغوّار

كثيراً ما يستخدم أعداء غيڤارا فشل محاولتيه في نشر الثورة المسلحة في الكونغو وبوليفيا كدليل على فشل نظرية وإستراتيجية حرب العصابات والكفاح المسلح بشكل عام وإسقاطها بالكامل كوسيلة لنضال الشعوب بغض النظر عن ظروفها وسياقها وخصوصياتها.

وفي كل هذا يتعامى منظرو الإمبريالية والرأسمالية عن مسألتين هامتين:

---

[210] لا ننوي هنا الدخول في مناقشة انهيار الاتحاد السوڤييتي وأسبابه، فقد جادل في هذا الموضوع كثيرون. وما زالت أسئلة عديدة تنتظر الإجابة: هل كان انهيار نمط الإنتاج أم نمط الاقتصاد؟ وهل كان السبب في عملية الإنتاج أم في العامل الذاتي القيادي والحزبي، بمعنى أن الخلل في البنية الفوقية أثرت على الاقتصاد من حيث البقرطة والفساد؟ هل كانت الأسباب في استنزاف الاقتصاد والموارد السوفيتية والحرب في سباق التسلح وكلفتها الباهظة، ودور الإمبريالية وعملائها من دول النفط في ذلك؟ لا شك أن الإجابة في هذا كله وأكثر.

الأولى: موقف غيڤارا الواضح بأن حرب العصابات كان أسلوباً ناجحاً في سياق المرحلة التي عاشها وناضل فيها. وقد جاء التاريخ، وإن بعد عقود من رحيل غيڤارا، ليثبت نجاعة الكفاح المسلح وإمكانيته دحر العدو كما حصل في نموذج المقاومة اللبنانية في حربها مع الكيان الصهيوني في تحرير الجنوب اللبناني المحتل عام 2000 وفي صمودها وانتصاراتها اللاحقة عام 2006.

فالمشكلة ليست في مبدأ الكفاح المسلح وحق الشعوب في استخدام العنف الثوري من أجل تحرير بلادها أو الإطاحة بالنظام القائم من أجل تغيير الواقع الظالم وتحقيق مصالح طبقاتها الشعبية العريضة وخلق المجتمع الجديد، مما لا ينفي التغيرات التي تطرأ على الأوضاع الموضوعية والذاتية، وظروف البيئة وميدان القتال، وطبيعة القوى المتصارعة وميزان القوى الدولي وغيرها من العوامل.

والثانية: على الرغم من أهمية ومركزية حرب العصابات والبؤر المسلحة في فكر غيڤارا الثوري والسياسي، إلاّ أنها لم تشكّل لديه أسلوب الكفاح الوحيد. فالمقاومة في فكر غيڤارا تستدعي نضالاً طويل الأمد وتأخذ أشكالاً متعددة وأساليب مختلفة ترتقى إلى ثورة شعبية شاملة وتغييرٍ جذري في المجتمع والإنسان وصولاً إلى مجتمع وإنسان جديدين. لم يكن غيڤارا متشدداً، ولم يطالب بالكفاح المسلح كأسلوب وحيد لنضال الشعوب بل اعتبره وسيلة رئيسية وترك الأمر للشعوب في تقرير وسائل كفاحها وأولوياتها.

غير أن غاية منظري الإمبريالية والرأسمالية تذهب إلى ما هو أبعد من غيفارا أو فشل تجربتيه في الكونغو وبوليفيا. إن غاية هؤلاء في المحصلة النهائية هي ضرب فكر المقاومة وثقافتها وتيئيس الشعوب من محاولات الكفاح والمقاومة بكل أشكالها وخاصة الكفاح المسلح. بكلامٍ آخر، إن المقصود هو إيصال الشعوب إلى اليأس من الكفاح والكف عنه، والاستسلام الكامل لسلطة رأس المال وهيمنة الإمبريالية ومخططاتها في نهب ثروات الشعوب.

الفصل السابع والأربعون

أين إرث تشي غيڤارا؟

نحو وعيٍ نقدي

تناولت في فصل "مدخل: الركائز الأساسية للفكر السياسي لتشي غيڤارا" العناصر الأساسية لفكره، ولا أنوي هنا تكرار ما ورد في ذلك الفصل، بقدر ما أود أن أختم الكتاب بالتذكير ببعض السمات العامة لفكره وإرثه والتي تفسر ديمومته وقدرته على البقاء حياً نابضاً في حياة الشعوب وذاكرتها على الرغم من محاولات الغرب الرأسمالي التي لم تتوقف منذ مقتل غيڤارا عام 1967 من خلال مؤسساته الإعلامية والأكاديمية وما لحق بها من بعض اليساريين.

لقد عمدت آلية البروباغندا الرأسمالية إلى "تأبين" غيڤارا ومفاهيمه وكل فكرٍ ثوري تمهيداً للتبشير بانسداد الطريق أمام مقاومة الشعوب وحرب الشعب ونظرية البؤرة الثورية وكأن هذه الأخيرة هي كل ما أتى به غيڤارا أو كأنها الوسيلة الوحيدة لمقاومة الشعوب.

1) <u>تشي الأيقونة أم الفعل الثوري؟</u> يريد الغرب الرأسمالي أن يبقى تشي صورةً وأيقونة و"تقليعة" للجيل الناهض كي تظل هذه

الأسطورة مصدراً للربح ولتبقى جوفاء ومفرغةً من مضامين الفكر والفعل الثوري.

وعليه فإننا نقف أمام السؤال التالي: ما الذي نريده نحن من تشي غيفارا؟ وماذا الذي نريد أن نقدمه للأجيال الناشئة في الوطن العربي والعالم الثالث من تجربته ومفاهيمه كي تحفره هذه الأجيال عميقاً في ذاكرتها؟

2) القدوة الثورية: يبقى تشي، رغم نقد الأصدقاء وذم الخصوم، مثال الانسجام التام بين النظرية والممارسة وبين القول والفعل، لذا تشبثت به الجماهير، خلال حياته وبعد مصرعه بعقود طويلة، قدوةً للثائر الذي ألهب قلوبها وعقولها في مشروع المقاومة والثورة. كيف لا، وقد أصرّ على الالتصاق بالواقع المادي للجماهير والتعرف على معاناتها عن كثب قبل أن يضيع مفاهيمه في الثورة والتغيير. وهنا تكمن الدلالة البليغة لرحلاته المتعددة عبر القارة اللاتينية.

3) وحدة التحرير ومناهضة الرأسمالية: تكمن حجة غيفارا الأساسية في أن مناهضة الرأسمالية والكفاح من أجل التحرير الوطني يمثلان مركباً جامعاً متزامناً للإنسانية والثورة في نضال العالم الثالث من أجل التحرير والسيادة الوطنية وبناء المجتمع الاشتراكي، كما تظل السبيل إلى خلق الوعي الجديد وستشكل هذه الثقافة الجديدة الأرضية الضرورية لتأسيس قيم جديدة تخلق بدورها تغييرات فعلية ملموسة في مسلكية الفرد والجماهير.

4) خيار المقاومة: يبقى خيار المقاومة الركيزة الأساسية في فكر وممارسة غيڤارا، كما يبقى حق الشعوب في ممارسة هذا الخيار حقاً طبيعياً ومخلداً بكافة أشكاله وأساليبه (المسلحة والسياسية والجماهيرية والبرلمانية.. وغيرها) وبما ينسجم مع ظروفها الموضوعية والذاتية وسماتها وخصوصياتها وإملاءات المرحلة التاريخية التي تعيشها.

5) الكفاح المسلح: لقد آمن غيڤارا بأن الكفاح المسلح ضرورة في نضال شعوب العالم الثالث وأكد على أنه الأسلوب الرئيس والأساسي في نضالها في مرحلة التحرير الوطني وفي مواجهة الاحتلال الأجنبي. وقد جرى الكثير من التسخيف لهذه الفكرة التي وجد فيها غيڤارا ثمرة طبيعية لتراكم خبرات الشعوب في إطار الظروف الموضوعية والذاتية لكل مجتمع ولكل حركة ثورية.

6) محاربة الدوغما: لم يرى غيڤارا في أيٍ من مفاهيمه وممارساته الدوغما ولم يسع لفرضها على الشعوب وحركاتها الثورية، بل ناضل ضد الجمود العقائدي والصنمية بكافة أشكالها، ومواقفه في هذا الصدد غنية عن التعريف.[211] لقد خاض غيڤارا معارك عديدة ضد التعميمات المستوردة والتي كثيراً ما كانت تفوح بالرجعية والمهادنة وخيانة الجماهير ومصالحها والتي بشّرت فيها القيادات السوفيتية وقيادات الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي والعالم الثالث التي

[211] لعلنا لا نغالي إذا قلنا أن مقتل غيڤارا والأسباب التي وقفت خلفه كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بموقف الحزب الشيوعي البوليفي من غيڤارا وحملته في الأدغال البوليفية حيث كانت قيادة هذا الحزب موالية لموسكو ومرتبطة بقرار القيادة السوفيتية من تشي غيڤارا ومجمل المواقف العلنية والتصريحات الموجعة التي أطلقها غيڤارا في نقد السياسات السوفيتية ونمط التنمية والبناء الاشتراكي السوفييتي.

ارتبط بالخط السوفييتي وأصبحت عملياً بوقاً له. لذا، فإن غيفارا لم يغفل الخصوصيات والسمات المميزة (الموضوعية والذاتية) لمجتمعات أميركا اللاتينية والعالم الثالث بل وجد أنّ مسؤولية تحديد الخيارات الثورية ووسائل النضال العسكرية والسياسية تقع في صلب مهام الحركة الثورية وطليعتها في تلك البلدان.

7) القضاء على الفساد: حارب تشي غيفارا الفساد والبيروقراطية ودفع بهذه المسألة إلى أولويات النضال الثوري والاجتماعي ووضعها على رأس جدول أعمال الثورة والحزب وخاض ضدها معارك مستمرة بلا هوادة.

المصادر والمراجع

Books in English:

- Alvarez De Toledo, Lucia, The Story of Che Guevera, Quercus, London, 2010.
- Anderson, Jon Lee, Che Guevara: A Revolutionary Life , Grove press, New York, USA, 1997.
- Azicri, Max, Cuba Today and Tomorrow: Reinventing Socialism, university Press of Florida, USA 2000.
- Besancenot, Olivier and Lowy, Michael, Che Guevara: His Revolutionary Legacy, Monthly Review Press, USA, 2009.
- Bonachea, Rolando and Valdes, Nelson, Guevara, Che, Selected Works of Ernesto Guevara, The MIT Press, Cambridge, USA, 1969.
- Castañeda, Jorge G., Compañero: The Life and Death of Che Guevara, Translated from Spanish by Marina Castañeda, Alfred A. Knopf, New York, 1997.
- Cheng, Yinghong, Creating the "New Man": From Enlightenment Ideals to Socialist Realities, University of Hawaii Press, Honolulu, USA, 2009.

- Cranston, Maurice (editor), The New Left: Six Critical Essays, The Liberty Press, New York, USA 1971.
- Farber, Samuel, The Politics of Che Guevara: Theory and Practice, Haymarket Books, Chicago, USA, 2016.
- Gerassi, John (edited), Venceremos! The Speeches and Writings of Ernesto Che Guevara. The MacMillan Company, New York, 1968.
- Guevara, Che Guevara Speak, Pathfinder, New York, 2000.
- Guevara, Che, Che Guevara Reader: Writings on Politics & Revolution, Ocean Press, Melbourne, Australia, 2003.
- Guevara, Che, The African Dream: The Diaries of the Revolutionary War in the Congo, Grove Press, New York, USA, 1999.
- Guevera, Che, Back on the Road: A Journey to Central America, The Harvill Press, London, UK, 2000.
- Guevera, Che, Global Justice, Liberation and Socialism, Ocean Press, Australia, 2002.

- Llosa, Alvaro Vargas, The Che Guevara Myth and the Future of Liberty, The Independent Institute, Oakland, USA, 2006.
- Luis, Julio Garcia, edit., Cuban Revolution Reader, A Documentary History of 40 Key Moments of the Cuban revolution, Ocean Press, Australia, 2001.
- Manifesto: Three Classic Essays on How to Change the World, Che Guevara, Karl Marx & Friedrich Engels, Rosa Luxemburg, Ocean Press, Melbourne, Australia, 2005.
- March, Aleida, Remembering Che: My Life with Che Guevara, Ocean press, Australia, 2012.
- Material Incentives: Readings From before and After the Death of Mao Tsetung, Liberations Books, Los Angeles, (no publishing date).
- McLaren, Peter, Che Guevara, Paolo Freire and the Pedagogy of Revolution, Rowmond & Little Publishers, New York, USA, 2000.
- Ratner, Michael, Che Guervara and the FBI: The U.S. Political Police Dossier on the Latin American Revolutionary, Ocean Press, 1997.
- Ryan, Henry Butterfield, The Fall of Che Guevara, Oxford University Press, New York, 1998.

- **Sauvage, Leo, Che Guevara: The Failure of a Revolutionary. Translated from French by Raoul Fremont, Prentice Gall, Inc., Englewood Cliffs, New Jersey, USA, 1973.**
- **Sotolongo, Pedro Luis, Ernesto Che Guevara, Ethics and Aesthetics of an Existence, Editorial Jose Marti, Havana, Cuba, 2002.**
- **Tablada, Carlos, Che Guevara: Economics and Politics in the Transition to Socialism, Pathfinder Press, New York, 1989.**
- **Truitt, Willis H., Marxist Ethics, International Publishers, New York, 2005.**
- **Waters, Mary-Alice, Che Guevara and the Imperialist Reality, Pathfinders, New York, USA, 1998.**
- **Yaffe, Helen, Che Guevara: The Economics of Revolution, Palgrave Macmillan, London, UK, 2009.**

<u>Books in Spanish:</u>

- **Garcia, Maria del Carmen Ariet, El Pensamiento Politico de Ernesto Che Guevara, Ocean Press, Havana, Cuba, 2003.**
- **Guevara, Che, Politica y Desarrollo, Editorial de Ciencias Sociales, Havana,Cuba, 1993.**

- Hart, Armando, edit., Pensar Al Che, Centro de Estudios Sobre America, Editorial Jose Marti, Havana, Cuba, 1989.
- O'Donnell, Pacho, Che, Random House Mondadori, Barcelona, Spain, 2005.
- Rojam Ricardo, Mi Amigo el Che, Editorial Sudaamericano, Buenos Aires, Argentina, 1998.

<u>Articles and Essays:</u>

- Cheng, Yinghong , Sino-Cuban Relations during the Early Years of the Castro Regime, 1959–1966, Journal of Cold War Studies, Vol. 9, No. 3, Summer 2007, pp. 78–114, 2007, by the President and Fellows of Harvard College and the Massachusetts Institute of Technology.
- Childs, Matt D., An Historical Critique of the Emergence and Evolution of Ernest Che Guevara's Foco Theory, Journal of Latin American Studies, Vol. 27, No. 3, October 1995, pp. 5839-624.
- DuRand, Cliff, The New Human Being in The Third World: Social Values in Che and Mao, A paper presented o the Third International Conference on the Life and Work of Ernesto "Che" Guevara,

University of Matanzas, Matanzasm Cuba, June 18, 1997.

- Guevara, Che , Cuba and the U.S. Interview with Che Guevara, by Leo Huberman, June 1961, Vol. 13, Issue 5, September 1961.
- Guevara, Che, Speech at the Special meeting of the Inter-American Economic and Social Council of the organization of American States in Punto del Este, Uruguay, August 8, 1961 found in “Venceremos! The Speeches and Writings of Ernesto Che Guevara”, pp. 153-181.
- Harris, Richard, Reflections on Che Guevara’s legacy, Journal of Latin American Perspectives, Issue 101, Vol. 25, No. 4, July 1998, pp. 19-32.
- Löwy, Michael, Che Guevara: In Search of a New Socialism, From an annual lecture presented to the Fondazione Ernesto Che Guevara, Italy, June 15-17, 2001.
- Löwy, Michael, Che’s revolutionary Humanism, Monthly Review, Vol. 49, Number 5, October 1997, pp. 1-7.

- McArthur, Harvey, Cuba Debated at Latin America Scholars Conclave. *The Militant* – Vol. 62/No. 37, 19 October 1998.
- Petras, James Latin America: Thirty years after Che: Assessment of the Influence of Ernesto 'Che' Guevara, Monthly review, October 1997, pp. 8-21.
- Petras, James, Latin America: The Resurgence of the Left. *New Left Review*, No. 223, 1997, pp. 17-47.
- Vilas, Carlos, Regis Debray on Che Guevara, NACLA Report, November/December, 1997. USA.
- Wolf, Lenny, Guevara, Debray, and Armed Revisionism, in "*Revolution"* Magazine, Winter/Spring 1985.

Online/Websites:

- Cihan Aksan & Jon Bailes, On Che Guevara: An Interview with Jon Lee Anderson, April 21, 2010
  URL: http://www.stateofnature.org/?p=5814

- Corujo Vallejo, Yolanda, El Marxismo y la Formacion del Hombre Nuevo, A paper presented to the Second International Conference on Marxism and the

challenges of the 21st Century, Havana, Cuba, May 2004.

- URL: https://www.nodo50.org/cubasigloXXI/congreso04/corujo_300304.pdf

- Fidel "betrayed" Che, "abandoned" him in Bolivia, Cuban journalist says, Buenos Aires, 28 April 2015.

  URL: http://www.efe.com/efe/english/life/fidel-betrayed-che-abandoned-him-in-bolivia-cuban-journalist-says/50000263-2598470

- Harnecker, Marta, Che: Conscuencia de un pensamiento, Enrevista a Marta Harnecker, septiembre de 1987.

  URL: http://www.rebelion.org/docs/3425.pdf

- Humberto Fontova , Che Guevara's hagiographer Jon Lee Anderson and his ever-helpful Cuban "anti-Castro" collaborators. April 28, 2014.

  URL: http://babalublog.com/2014/04/28/che-guevaras-hagiographer-jon-lee-anderson-and-his-ever-helpful-cuban-anti-castro-collaborators/

- Löwy, Michael, "Neither imitation nor copy", Che Guevara: In Search of a New Socialism. *International*

Viewpoint, February 2003, From the annual lecture presented to the Fondazione Ernesto Che Guevara, Italy, June 15-17, 2001. URL: http://www.internationalviewpoint.org/spip.php?article270

- Löwy, Michael, Ni Calco Ni Copia: Che Guevara en busqueda de un Nuevo Socilaisom,
URL:
https://www.nodo50.org/cubasigloXXI/congreso/lowy_10abr03.pdf

- Peter Kornbluh, The Death of Che Guevara: Declassified, National Security Archive Electronic Briefing Book No. 5.
URL: http://nsarchive.gwu.edu/NSAEBB/NSAEBB5/

- Plekhanov, G.V., On the Role of the Individual in History (1898). The text was located 1 October 2013 on the following URL: http://www.marxists.org/archive/plekhanov/1898/xx/individual.html

- Vincent Navarro, The Worldwide Class Struggle, *Monthly Review*, Volume 58, Number 4, September 2006.
URL: http://www.monthlyreview.org/0906navarro.htm

- **West, Robin, 'Che' Guevara: A Sociological Analysis**
- **of a Life.**
- **Part One.**

  URL: **https://guevaristas.org/1967/10/09/che-sociological-1/**

- **Part Two**

  URL: **https://guevaristas.org/1967/10/09/che-sociological-2/**

- **Woods, Alan, Forty years since the death of Che Guevara – Part One, 9 October 2007.**

  URL: **http://www.marxist.com/forty-years-death-che-guevara091007.htm**

- **Woods, Alan, Forty years since the death of Che Guevara – Part Two, 10 October 2007.**

  URL: **http://www.marxist.com/forty-years-death-che-guevara-part-two101007.htm**

- **Young, Robert, Che and the Return to the Tricontinental, Paper presented to Conference on Karl marx and Challenges of the 21 Century.**

  URL:

  https://www.nodo50.org/cubasigloXXI/congreso/young_15abr03.pdf

محتويات الكتاب